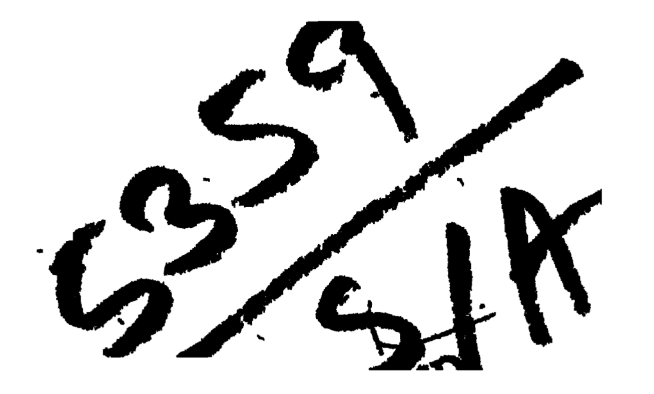


هـــــــــــــذا

(المجلد الثالث وهو الاخير) من كتاب اتحاف ملوك الزمان* بتاريخ الامبراطور شرلكان* مسبوقا بمقدمته المسماة اتحاف ملوك الالبا*

بتقديم الجمعيات فى اوروبا* ترجمه من الفرنساوية الى العربية الفقير الى الله تعالى خليفه محمود عفا الله عنه والمسلمين

امين

فهرست الجزء الثالث من كتاب اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الصحيفة

الجزء الثالث وهو الاخير من كتاب اتحاف ملوك
الزمان بتاريخ الايمبراطور شرلكان
ترجمه من الفرنساوية الى العربيه
الفقير الى الله تعالى خليفه
محمود عفى عنه
آمين

الجزء الثالث من
اتحاف ملوك الزمان

(بسم الله الرحمن الرحيم)

سنة ١٥٤٧

(المقالة التاسعة)

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان

مطلب غيرة الملك فرنسيس من نصر الايمبراطور ونجاحه وازدياد شوكته

من المعلوم ان رعب الايمبراطور شرلكان من تأهب البابا وملك فرانسا واستعدادهما للحرب كان في محله ولم يكن ناشئا عن ظنون وهمية ولا اوهام تخيلية لا حقيقة لها وذلك ان البابا كان قد ظهر منه ما يدل على غيرته من الايمبراطور وبغضه له وكان ثم من الاسباب ما يبعث الايمبراطور على ظنه ان ظفره بالمعتزلة الملتسمين ببعضهم قد احيى في قلب فرنسيس العداوة القديمة التي اوقعت بينهما التفاقم والشقاق مدة مستطيلة وقد حصل اذ ذاك ما حقق ظنه وذلك ان الملك فرنسيس لحقه من نجاح عساكر الايمبراطور غم شديد ولم يمكنه منع هذا النجاح لما اسلفناه لك من الاسباب ولكنه استشعر بعد ذلك انه ان لم يبذل وسعه في هذا الامر قويت

شوكة

سنة ١٥٤٧

شوكة خصمه وعظمت صولته حتى يكون له اقتدار على الزام سائر بلاد الافرنج بما شاء من الاحكام والقوانين فلما عن له هذا الخاطر ولم يكن سببه مجرد الغيرة الناشئة عن المعاصرة بل كان على وفق آراء اهل السياسة والحذق فى ذلك العصر سلك عدة طرق مختلفة يمنع بها تقدم الايمبراطور ونصراته وسعى بالتدريج فى تحزيب عصبة ذات اقتدار على قمعه وتعطيل مقاصده

مطلب مداولته مع عصبة المعتزلة

فامر رسله الذين كانوا ببلاد آلمانيا ان يبذلوا غاية جهدهم فى تقوية قلوب عصبة المعتزلة ومنعهم عن الامتثال لاوامر الايمبراطور والدخول تحت طاعته وأمدهم بامدادات عظيمة ولم يقطع المكاتبة والمراسلة بينه وبين منتخب سكس وحاكم هيسه وكانا رئيسى العصبة المذكورة واعظم اربابها قوة وشوكة فأبدى لهما جميع الاسباب التى تحذرهما من الايمبراطور وتحملهما على عدم التأمى بغيرهما من اهل تلك العصبة الذين ازعنوا له وفوضوا امرهم اليه يفعل بهم كيف شاء من حيث ديانتهم وحريتهم

مطلب مداولته مع السلطان سليمان

وفى اثناء سعيه هذا فى ابقاء الحرب المدنى الذى اوقع الشقاق ببلاد آلمانيا كان مشتغلا ايضا بتحريض اعداء اجانب على الايمبراطور حيث حث السلطان سليمان على الهجوم على بلاد المجار وافهمه ان مقتضيات الاحوال تعينه على ذلك كل الاعانة فان الايمبراطور أخرج منها جميع العساكر الذين يمكنهم الذب عنها القتال ارباب عصبة سمالكالد وحرض البابا ايضا على ان يبذل جهده فى انتهاز تلك الفرصة حتى يجبر ما وقع منه من الخلل فى اعانته للايمبراطور حيث ارتقى بذلك الى اعظم درجة فى الشوكة والصولة

مطلب مداولته مع البابا واهل البنادقة

وكان البابا يعرف من نفسه انه قد أخطأ خطأ أعظيما فى اعانته وكان يخشى عاقبة ذلك ففرح حين اخذ ملك فرانسا يتفاوض معه فى شأن الايمبراطور وكان رضاء البابا معينا للملك فرنسيس على استمالة قلوب اهل البنادقة اليه فحاول ان يفهمهم ويوقع فى اذهانهم انه لا سبيل الى انقاذ ايطاليا بل وسائر بلاد اوروبا من ظلم الايمبراطور واجحافه واستعباده لاهلها الا اجتماعهم معه ومع

سنة ١٥٤٧

البابا حتى يصيروا جميعا عصبة واحدة يكون الغرض منها قمع الايمبراطور واضعاف شوكته لانه لطمعه وشدة حرصه يخشى منه على الجميع

مطلب مداولته مع ملك دانيمرقة وملك انكلترة

وبعد ان اخذ فى المفاوضات مع دول جنوب اوروبا سعى فى استمالة ملوك شمالها وكان هنالك اسباب خصوصية توجب تظلم ملك دانيمرقة من الايمبراطور فأيقن فرنسيس ان هذا الملك يبادر الى الدخول فى العصبة الا انه كان هنالك اسباب سياسية تمنعه عن الانضمام اليها فلذا عرض عليه فرنسيس ان يزوج ابنه بملكة ايقوسيا حتى لا يلتفت الى تلك الاسباب واما انكلترة فكان يحكمها حينئذ الوزراء بطريق النيابة عن ملكها ايدوارد السادس لانه كان اذذاك قاصرا وكان هؤلاء الوزراء بعد موت ملكهم هنرى قد تظاهروا بالميل الى الدين الجديد وأعلنوا بانهم من احزابه لانهم كانوا يودون ذلك قبل وفاة ملكهم المذكور ولكنهم لم يتجاسروا على اظهار هذا الامر فى حياته لانه كان شديد الحمية على دين الكنيسة بحيث لا يستطيع ان يرى احدا من رعيته يعدل عنه الى دين اخر فكان فرنسيس لما يعهده فيهم من الحمية والميل الى دين المعتزلة يرى ان نفوسهم تأبى ان يتغافلوا عن الايمبراطور ويتركوه يدمر المعتزلة ويمحو أثر دينهم ومع انه كان يعلم ان كل مملكة لم يبلغ ملكها رشده لا تخلو عادة عن الفتن ويرى بظواهر قرائن الاحوال انه لا بد من حرب قريب الوقوع بين ايقوسيا و انكلترة طمع فى استمالة قلوب وزراء دولة الانكليز وادخالهم فى عصبته

ثم ان فرنسيس فى اثناء سلوكه هذه المسالك وبذله الهمة العجيبة فى تحريض ملوك اوروبا على الايمبراطور كان لا يهمل شيأ من الوسائل التى تخصه فجند الجنود من سائر اقاليم مملكته وجهز المهمات الحربية وتحالف مع بلاد السويسة لتمده بطائفة كبيرة من العساكر ورتب خزائن مملكته على وجه عجيب وارسل الى منتخب سكس وحاكم هيسة مبالغ جسيمة وبالجملة فقد استعد بجميع ما يلزم من الوسائط حتى يكون فى وسعه ان يبدأ خصمه بالحرب مع العزم التام حين تبدو له فرصة ذلك

وكان

سنة ١٥٤٧

وكان من المستحيل ان تخفى على الايمبراطور هذه الامور الجسيمة مع ماتستدعيه من التجهيزات العظيمة فعما قليل بلغه ماوقع من فرنسيس من الدسائس والفتن التى اضرم نارها فى دول اوروبا واخبر ايضا بتجهيزاته الداخلية وتحققه ان حربه مع ملة اجنبية يمنعه من تنجيز أغراضه فى بلاد المانيا كان كلما فكر فى تدبير فرنسيس وتحزبه مع الدول الاجنبية عليه ارتعدت فرائصه واشتد رعبه وفزعه ولكن كان يظهر له انه لامحيص عن وقوع هذه الاخطار

مطلب فزع الايمبراطور

لانه كان يعرف مافى نفس السلطان سليمان من مزيد الحرص والطمع و يعلم ماهو عليه من الحزم والتبصر وكان يعهد فى هذا السلطان الماهر انه لايضيع مثل هذه الفرصة بل ينتهزها ويشرع فى الحرب مع الحزم والعزم وكان هنالك ايضا من الاسباب مايدعو الايمبراطور الى ظن ان البابا لايقصر فى ابداء اسباب وعلل يحتج بها فى قتاله وانه لايخشى بأس حربه * وفى الواقع كان البابا قد ظهر منه مايدل على ذلك فانه لما بلغه ان منتخب سكس انتصر على الامير ألبرت دوبراندبورغ اظهر من الفرح والسرور مالايليق بشأن امام دين النصرانية ورئيس كنيسة الملة المسيحية وكذلك لما تحقق ان ملك فرانسا صار من انصاره واعوانه اظهر كل العداوة والبغضاء للايمبراطور * وكان شرلكان ايضا يعلم ان اهل البنادقة منذ مدة مستطيلة فى غيرة شديدة وحيرة تامة من نجاحه وظفره فهم بلا شك يجيبون فرنسيس الى مادعاهم اليه من المعاهدة معه نعم وان كان من عادتهم البطء والتردد فى المشروعات الا ان الايمبراطور كان يخشى ان يؤول امرهم الى التصميم على الدخول فى هذا الحزب العظيم ولايخفى انه كان هنالك اسباب خصوصية توجب غيظ الدانيمرقية والانكليز من الايمبراطور ودواع قوية تدعوهم الى التعصب عليه وكان خوفه من فرنسيس اشد من غيره لانه كان يعتبره روح العصبة و يعتقد أنه هو الذى عليه مدارها لاسيما وكان فرنسيس قد ادخل ويرينا (الذى سبق ذكره فى فتنة جنويزة) تحت كنفه واظله بظل حمايته وكان هذا الامير قد فر

سنة ١٥٤٧

الى مدينة مرسيليا حين ظهر حال عصبة الامير فييسك فلذا كان شرلكان دائما يتوقع الحرب فى ايطاليا ويظن ان فتنة جنويزة ليست الا مبدأ لهذا الحرب

مطلب امل شرلكان لمابلاء بمرض فرنسيس

ولكن بينما كان الايمبراطور فى حيرة وقلق عظيم من هذا الامر اذ ظهرت حادثة لعل بها النجاة من هذه الاخطار التى كانت نصب عينيه وذلك ان ملك فرانسا اعتراه مرض تغيرت به صحته وانحرف به مزاجه لان انهماكه على اللعب واللهو كان قد أورثه على حين غفلة داء تناقصت به صحته شيأ فشيأ حتى ضعفت بنيته فعند ذلك اخذت تجهيزات الحرب والمفاوضات مع الدول الاجنبية تضمحل وتضعف بضعف عقل مدبرها ومركز دائرتها وفى اثناء ذلك تغلب الجنويزية على قلعة مونتوبيو وقبضوا على الامير جيروم دوفييسك وقتلوه هو ورؤساء عصبته وبذلك خمد ما كان باقيا من آثار نيران الفتنة وحصل ايضا أن عدة من المدن الايمبراطورية فى ألمانيا يئست من أن يأتى لها عند الحاجة مدد من مملكة فرانسا فانقادت الى الايمبراطور ودخلت تحت طاعته بل ظهر من الامير حاكم هيسة انه يميل الى التخلى عن حرب منتخب سكس ويرغب فى الصلح مع الايمبراطور على اى وجه كان وكان الايمبراطور ينتظر مع القلق ماذا تكون عاقبة فرنسيس هل يبرأ من مرضه ويتم امر هذه العصبة الكبيرة التى يريد ان يدخل فيها اغلب ملوك اوروبا فيلزم شرلكان ان يتفرغ لها ويقطع النظر عن غيرها من اغراضه ومقاصده او أن هذا المرض يريحه من هذا الملك وتزول بزواله الموانع والعوائق فيستمر على ما كان عليه ويتمم ما كان شارعا فيه من الاستيلاء على دوقية سكس

مطلب موت الملك فرنسيس وذكر مناقبه وطباعه ومخاصمته مع الايمبراطور

وكانت كواكب سعد الايمبراطور شرلكان وعائلته لم تزل فى سماء المعالى طالعة ونجوم عزهم فى افق السعود نيرة ساطعة حتى ان بعض المؤرخين سمى ما امتاز به هو وعائلته من السعد الدائم الاوفر والعز الشامل الاكبر بكوكب بيت الاستروسيا فلم يخب امله فى هذه الفرصة واجابه السعد لمطلوبه وزالت عنه الغصة حيث مات الملك فرنسيس الاول بمدينة رامبوليت فى آخر

سنة ١٥٤٧

يوم من شهر ادار عن ثلاث وخمسين سنة حكم منها ثلاثا وثلاثين ومكث من تلك المدة ثمانيا وعشرين سنة وهو فى عداوة كبيرة وشقاق عظيم مع الايمبراطور ولم يكن هذا الشقاق مقصورا على دولهما بل عم معظم دول اوروبا واوقعها فى حروب مستمرة كانت اعظم واهول من الحروب التى حصلت فى الازمنة السابقة لان مقتضيات الاحوال اذذاك كانت تزيد هذه الحروب شدة وقسوة فان مخاصمة الايمبراطور والملك فرنسيس كانت مؤسسة على تعارض مصالح خصوصية ومبنية على غيرة نفسانية وقواها ما حصل بينهما من الاساءة والمنقصة فى حق بعضهما ولم يكن لاحدهما مزية يفضل بها الآخر الا وكان للثانى ما يعادلها فان دول الايمبراطور وان كانت اوسع من دول فرنسيس الا ان دول فرنسيس لم تكن مشتتة عن بعضها كدول الايمبراطور وكان فرنسيس مطلق التصرف فى حكومته واما الايمبراطور فكانت شوكته مقيدة ولكن كانت مهارته وسياسته تعوض عليه ما فاته من اطلاق التصرف وكانت عساكر فرنسيس اشد جسارة من عساكر الايمبراطور غير ان عساكر الايمبراطور كانت اكثر منها تجلدا وصبرا واعظم منها ضبطا وربطا وكانا ايضا على هذا القياس فى الفضل والمعارف وكان لذلك دخل عظيم فى اطالة حروبهما فكان فرنسيس سريع التصميم ومتى اخذ فى مشروع دقق فيه اولا وسلك فى تجهيزه مسلك الجسارة والمهارة لكن لم يكن من دأبه المواظبة اللازمة للظهور على العوائق والموانع بل كان فى الغالب يترك مشروعاته او تفتر همته فى تجهيزها اما لقلة صبره او لعدم رزانته بخلاف الايمبراطور فكان من دأبه التؤدة فى المذاكرات والتأنى فى العزم والتصميم ومتى اجمع رأيه على شئ وهم به لم يعدل عنه الى سواه ولم تمنعه عن تتميمه وتجهيزه اخطار جمة ولا عوائق تكل بها الهمة ولاختلاف طبعهما كان بينهما معادلة فى الظفر والنجاح فكان فرنسيس فى الغالب بسرعة اعماله يفسد على الايمبراطور مقاصده التى احكم تدبيرها وكان الايمبراطور بتتبع ما دبره مع الرزانة والتؤدة والمواظبة يغلب خصمه ويفسد عليه مشروعاته الجسيمة وكان فرنسيس

سنة ١٥٤٧

فى مبدأ الحروب ينقض على عدوه كسيل العرم الذى يدفع كل ماصادفه فى طريقه وكان الايمبراطور لايعجل بالحرب والقتال بل يتربص حتى تفترهمة خصمه فيهم دفعة واحدة ويأخذ ماسلبه منه بل و يزيد عليه غالبا امورا جديدة وطالماهم فرنسيس بفتح بلاد من ولايات خصمه وكان له رونق عظيم فى مبدأ غزواته ولكن قل ان نجح فى عواقبها واما الايمبراطور فكثيرا ماهم بمشروعات خطرة كان لايخطر بالبال امكان تتميمها الا انه نجح فيها اتم النجاح وكان فرنسيس يغتر برونق المشروعات والايمبراطور لايلتفت الا الى مايترتب على كل مشروع من المصالح ومع ذلك لم تكن درجتهما فى الفضل والشهرة على حسب مايستحقه كل منهما بمقتضى استقصاء معارفهما وفضلهما فى ادارة الحكومة وسياسة المملكة و بتفقد مقاصدهما ونجاحهما والحكم مع عدم الغرض على كل بما يستحقه بالنسبة للآخر فاما فرنسيس فكان من الملوك الذين فاقت شهرتهم فضلهم وافعالهم وهذه الشهرة مبنية على عدة اسباب اذ لايخفى ان نصرة الايمبراطور فى واقعة باوية قد فاق بها على خصمه الى آخر حكمه واكتسب بها شوكة عظيمة وصولة كبيرة صار له بها بأس شديد عند فرنسيس وغيره من ملوك الافرنج حتى ان اغلب الدول صارت تستعظم من فرنسيس سعيه فى اضعاف شوكة الايمبراطور التى كانت دائما آخذة فى النمو والازدياد وعظم وقعه فى نفوسهم لكونه تصدى لمقاومة من هو اعظم منه قوة وصولة كما هو العادة بين الناس اذا حكموا بين خصمين متفاوتين فى القوة مع تساويهما فى الاقدام لاسيما وكان الايمبراطور عدوا لسائر الدول الافرنجية وكانت كلها تخشى بأسه فلم تنصف فى حكمها عليه وعلى خصمه ولايخفى ايضا ان شهرة الملوك لاسيما عند اهل عصرهم كما يراعى فيها فضلهم فى ادارة مصالح دولهم يراعى فيها ايضا صفاتهم الذاتية واخلاقهم النفسية فالملك فرنسيس وان اخطأ اكثر من مرة خطأ فاحشا فى اموره السياسية وادارته الداخلية الا انه كان اهل مروءة وكرم وحلم يحب فعل الخير وكان له هيبة بدون تكبر ولين جانب بدون دناءة وكان حسن المعاملة مع الناس بدون غش ولا مخادعة فكان

سنة ١٥٤٧

مألوفا محترما عند من تقرب اليه وكان يحب اهل الفضل ويكرمهم ويقربهم منه
فصفاته الجيدة من حيث كونه انسانا غرت رعاياه فعموا عن عيوبه ونقائصه من
حيث كونه ملكا فكانوا يألفونه ويحبون منه لانه كان اعظم امراء مملكته رقة
وظرفا فلذلك كانوا لا يتضجرون مما يرتكبه احيانا من القسوة والتشديد فى ادارته
واحكامه ولو كان ذلك من ملك آخر دونه فى اللطف ولين العريكة لما اغضوا
عنه واحتملوا قساوته مع ذلك فالذى اراه ان تعجب الناس منه ومدحهم فيه
كان حقه ان يكون وقتيا يزول بزوال احزابه وندمائه وان اغترار الناس بفضائله
الذاتية كان حقه ايضا ان يزول بزوال السلف من معاصريه وان الخلف يحكم
عليه حكما صحيحا صادقا منظورا فيه الى سلوكه فى مصالح الدولة ولكن كان هنالك
ما يعادل ذلك فانتقل اسم الملك فرنسيس الى الاجيال التى اعقبته محفوفا
بالفخر والرونق بل وزاده مرور الدهر رونقا وبهجة وذلك ان العلوم والفنون قبله
كانت غير متقدمة فى مملكة فرانسا ولم يخرج منها عن حدود ايطاليا الا
القليل حيث كانت قريبة العهد بها وكانت لا توجد فى غيرها من ممالك اوروبا
فتظاهر الملك فرنسيس بمساعدة العلوم والفنون وتوسيع دائرتها وحذى
حذو البابا ليون العاشر فى بذل الهمة والسعى فى نشر الآداب وتوسيع دائرة
العلوم حيث دعا العلماء الى ديوان فرانسا واكرمهم واحسن مثواهم
وادخلهم فى خدمة دولته واولاهم المناصب العلية والمراتب السنية وشرفهم
بتعويله عليهم ووثوقه بهم ولا يخفى ان اهل المعارف تنشرح صدورهم اذا
عوملوا بما يرون انه حقهم من الاحترام والاكرام كما يسخطون اذا حرموا مما هم
اهل له فرأوا انه لا يمكنهم الوفاء بشكر هذا الملك الكريم على نعمه الجزيلة التى
عمهم بها فجعلوا يتسابقون الى مدح فضائله ومعارفه وبنى مؤلفوا الخلف تأليفهم
فى هذا المعنى على ما أسسه السلف حتى فاقوهم فى مدح فرنسيس وكان
يكنى بأبى الآداب فصار بهذه الكنية له موقع جليل عند المؤرخين حتى كأنهم
رأوا ان الاقرار بعيوبه ومثالبه من كفران النعم فلذا كان فرنسيس اشهر
من الايمبراطور وان كان دونه فى المعارف والنجاح فالفضائل الذاتية التى

سنة ١٥٤٧

اجتمعت فيه قد اكسبته من المدح والثناء مالم يحط به الايمپراطور مع اتساع قريحته ونجاح سياسته لانه كان دون فرنسيس في الصفات التي تستدعي المحبة وتستميل القلوب

مطلب ماترتب على موته

وقد ترتب على موت فرنسيس تغيير عظيم في حالة اوروپا وذلك ان ابنه تولى الحكومة بعده وكان شابا صغيرا وكان ايضا هنري الثامن ملك انكلترة قدمات قبله بمدة وتولى الحكومة بعده ابنه وكان ايضا حديث السن ومثل هذين الشابين ليس كفؤ المقاومة الايمپراطور حيث كان قد شب في الحكم وشاب وتقادم عهده في الادارة والسياسة وكان قد مضى عليه زمن طويل وهو يقاتل عظماء الملوك كهنري الثامن والملك فرنسيس وينتصر عليهم غالبا * وبموت فرنسيس استراح الايمپراطور وانشرح صدره حيث صار يمكنه ان يشرع مع النجاح فيما كان عزم عليه واضطر الى تأخيره خوفا من ملك فرانسا من قتال منتخب سكس فانه كان يعلم ان هنري الثاني الذي جلس على كرسي فرانسا لايبلغ في المعارف شأو والده فرنسيس لاسيما وقد هجس في نفسه ان هذا الملك الجديد لبغضه لوزرآء ابيه ستمضي عليه مدة يشتغل فيها بعزلهم وتولية غيرهم من ندمائه وخاصته فهو اذن لايخاف بطش هذا الملك القليل الخبرة ولا بأس عصبة يحزبها عليه

مطلب توجه الايمپراطور الى قتال الامير منتخب سكس

ولما كان يصعب على الايمپراطور أن يعرف قدر مدة هذا الهدء والامن بادر الى انتهاز هذه الفرصة فبمجرد مابلغه موت فرنسيس توجه من ايغرو الى حدود مملكة بوهيم المعروفة بمملكة چه غيران جيشه كان قد ضعف جدا بسفر جنود البابا ورجعة الفلمنك حتى لم يمكنه ان يجمع منه سوى ستة عشر الف مقاتل ومع قلة عساكره شرع في تلك الغزوة الآتية التي ترتب عليها

١٣ من شهر نيسان

نفوذ كلمته وقوة شوكته فيما بعد ببلاد ألمانيا ولكن مع صغر جيشه بهذه المثابة كانت عساكره كلها من العساكر القديمة الاسبانيولية والايطالية فلم يكن شروعه في مثل هذه الغزوة من باب المخاطرة بل كان معولا فيها على شهامتهم وشجاعتهم وكان يؤمل ان سعيه لايضيع سدى بل تكون عاقبته الفوز بالظفر والنجاح

سنة ١٥٤٧

نعم وان كان منتخب سكس قد جهز جيشا اكثر عددا من جيش الايمبراطور الا ان عساكره كانت لاتبلغ درجة العساكر الايمبراطورية فى التجاريب والضبط والربط وكذلك ضباطه كانوا الايضا هون ضباط الايمبراطور فى الخبرة والمعارف لاسيما وكان الامير منتخب سكس قد اخطأ خطأ كبيرا اضاع عليه ثمرة كثرة جنوده وزيادة عددهم على عدد جنود الايمبراطور بل ربما كان يترتب عليه دماره وخراب دياره بالكلية وذلك انه عوضا عن ان يبقى جنوده منضمة الى بعضها اشتت شملها بارساله منها فرقة كبيرة الى حدود مملكة چه حتى يسهل عليه الانضمام الى العصاة من اهالى تلك المملكة وبعث منها ايضا طائفة كبيرة لتقيم بالمدائن السكسية التى كان يعلم ان الايمبراطور يبدأ بالاغارة عليها ولقلة حزمه ظن ان هذه الطائفة تكفى فى مقاومة هذا العدو والمدافعة عن هذه المدن والحال انها كانت غير حصينة لاتجدى مثل هذه الطائفة فيها نفعا

مطلب ظفره ونجاحه

ثم ان الايمبراطور دخل بلاد السكس من جهة حدها الجنوبى وهجم على مدينة التورف الواقعة على نهر ايلستير فظهر حينئذ ان مادبره الامير منتخب سكس لم يصادف محلا بل كان خطأ محضا لان العساكر الذين كانوا محافظين بهذه المدينة سلموا بدون مقاومة وكذلك العساكر الذين كانوا ارسلوا الى المدائن الاخرى الواقعة بين التورف ونهر البه فان منهم من تأسى بهؤلاء العساكر فى التسليم وعدم المقاومة ومنهم من هرب بمجرد قدوم العساكر الايمبراطورية ولم يمهل الايمبراطور اهل سكس حتى يفيقوا مما الجأهم من الدهشة والفزع بل تقدم اليهم بدون تراخ ولا مهلة واما منتخب سكس الذى كان قد جعل معسكره فى ميسينة فانه كان مضطربا متحيرا فى امره كما هى عادته وصار كلما اشتد الخطب يزداد حيرة وترددا فكان تارة يظهر عليه انه مصمم على المدافعة عن شواطئ البه وعلى المخاطرة بنفسه فى القتال متى وصل اليه العساكر الذين ارسل يحضرهم لاعانته وتارة يرى ان هذا المشروع خطر عليه فيستصوب المحاولة وعدم المبادرة بالحرب ويصمم على ان يلتجئ بحصون مدينة ويتانبرغ فلا يهجم عليه فيها عساكر الايمبراطور الا ويضرون بانفسهم كل الضرر

سنة ١٥٤٧

و يكون هو آمنا فيها حتى يصل اليه المدد من ميكلانبورغ و بوميرانيا ومدن المعتزلة الواقعة على بحر بلطق ولكنه لم يصمم على امر من هذين الامرين بل كسر قنطرة ميسينة وسار على الشاطئ الشرقى من نهر ألبه حتى وصل الى موهلبرغ واخذ يتذاكر ثانيا فيما يصنع وبعد أن مكث مدة مستطيلة وهو يتردد فيما يكون من امره عدل الى امر آخر لا يستحسنه الا الضعاف الخاملون الذين لا اقتدار لهم على التجلد والثبات والتصميم على المشروعات فترك من عساكره سرية فى موهلبرغ ليصدوا عساكر الايمبراطور عن عبور النهر من تلك الجهة وسار هو بجيشه حتى بعد عن هذه المدينة بعض اميال ونزل بالعسكر هنالك لينتظر ماذا تكون عاقبة هذا الامر ليدبر بموجبها فيما بعد اموره وحركاته

مطلب عبوره نهر البه

واما الايمبراطور فلم يزل يحث السير بجيشه حتى وصل فى مساء الثالث والعشرين من شهر نيسان الى شواطئ نهر ألبه تجاه مدينة موهلبرغ وكان عرض هذا النهر من تلك الجهة ثلثمائة خطوة وعمقه يزيد على اربعة اقدام وكان شديد التيار وكان الشاطئ الذى عليه عساكر السكس اكثر ارتفاعا من الشاطئ الذى عليه عساكر الايمبراطور ولكن لم تفتر همة الايمبراطور بهذه العوائق بل جمع كبار ضباطه لا ليتفاوض معهم او يستشيرهم كما هى عادته بل ليعلمهم انه قد صمم على عبور النهر فى الصباح وانه ليشن الغارة على العدو حيث كان فتعجبوا جميعا من صعوبة هذا المشروع حتى ان كلا من الدوق دالبة الذى كان جسورا بالطبع لا يبالى باقتحام الاخطار والامير موريس دوسكس الذى كان عدوا مبينا للامير منتخب سكس ويود دماره وهلاكه عرض على الايمبراطور ان هذا المشروع شديد الخطر ولكن كان شرلكان يثق بنفسه و يعتمد على رأيه او على بخته وسعده فلم يصغ لقولهما بل عجل باعطاء الاوامر اللازمة لتنجيز هذا الغرض

فعند طلوع الفجر تقدمت طائفة من المشاة الاسبانيولية والايطالية الى النهر وجعلت تضرب نيرانا شديدة على العدو وكانت العادة اذ ذاك جارية باستعمال قربانات طويلة ثقيلة فكثر ما قتل رجال على الشاطئ الذى عليه عساكر

سنة ١٥٤٧

الاعداء بل اشتدت الحمية الحربية بجماعة من عساكر الايمبراطور وأرادوا الدنو من العدو زيادة على ذلك فنزلوا فى النهر الى صدورهم وتمكنوا من الاعداء حتى كانت مراميهم لا تخطى وكان الايمبراطور فى اثناء ذلك مشتغلا بانشاء قنطرة من القوارب لتعدية المشاة واما الخيالة فكانت كيفية عبورهم النهر أن رجلا من الفلاحين حضر الى معسكر الايمبراطور واخبر أنه يعديهم من مخاضة فى النهر يعرفها فأجابوه الى ذلك وساروا معه هذا وقد بذل عساكر السكس الذين كانوا فى موهلبرغ جهدهم فى منع العساكر الايمبراطورية عن تميم الاعمال التى كان القصد منها تعدية النهر فرتبوا طابية من المدافع وصاروا يرمون بها على عساكر الايمبراطور ولكن لما كانت الاراضى المنخفضة من شواطئ ألبه مستورة بضباب كثيف لم يمكنهم ان يحكموا مراميهم فلم يضروا بعساكر الايمبراطور ضررا كبيرا بل ادركهم التعب من شدة نيران العساكر الاسپانيولية والايطالية فأحرقوا بعض قوارب كانت قد اجتمعت قريبا من موهلبرغ وتأهبوا للفرار فلما ادرك منهم ذلك عساكر الايمبراطور بادر عشرة من الاسپانيول الى خلع ثيابهم وجعلوا السيوف بين اسنانهم وعدوا النهر عائمين وهزموا بعض عساكر السكس الذين ارادوا منعهم وأنقذوا من النار ما كان يلزم لهم من القوارب فى تميم القنطرة التى كانوا اشرعوا فى عملها فتقوت قلوب اصحابهم بهذه الفعلة العظيمة الناشئة عن جسارتهم وقوة جنانهم وتمكن الرعب من قلوب اعدائهم

ثم ان كل فارس من الخيالة اردف خلفه واحدا من المشاة وأخذوا جميعا فى عبور النهر وكانت الخيالة الخفيفة امامهم و بعدها الخيالة الثقيلة خلف الايمبراطور وكان راكبا على فرس من جياد الخيل وعليه حلة فاخرة و بيده رمح فاضطرب النهر بهؤلاء الفرسان الكثيرين حيث صاروا ينعطفون فيه على حسب ارشاد دليلهم فكانوا تارة يسيرون على ارض صلبة وتارة يعومون حتى رأى منهم اصحابهم الذين كانوا باقين على الشاطئ منظرا بهجا ومرأى ظريفا ولم يزالوا كذلك حتى ظهروا على جميع الموانع ببسالتهم وشجاعتهم

سنة ١٠٤٧

ولم يظهر على احد منهم ادنى فزع او اقل خشية وخوف لاسيما وكان الايمپراطور معهم يقاسمهم الكروب والاهوال و يزاحم ادناهم فى اقتحام الاخطار و بمجرد وصوله الى الشاطئ وثب على السكس كالاسد يقدم عساكره الذين عبروا معه النهر ولم ينتظر بقية المشاة وكانت الفرقة التى معه قد ازدادت بها الحمية وتقوى قلبها بسبب نجاحها فى اجتياز النهر ونظرت الى العدو بعين الاحتقار حيث لم يتجاسر بالهجوم عليها وقت الفرصة حين كانت مشغولة بالسباحة وخوض النهر ولم تكترث بكثرة عددهم بل توجهت لقتالهم مع الثبات وعدم المبالاة كأنها جازمة بالنجاح والنصرة

مطلب قبح سلوك الامير منتخب سكس

وقد استغرقت تلك الامور زمنا طويلا فى اثنائه كان الامير منتخب سكس مقيما بعسكره ولم يفعل ادنى شئ يمنع به عدوه بل كان لا يصدق ان الايمپراطور عبر النهر بجيشه وصار قريبا منه وذلك عمى بصيرة يستغرب على مثله حتى ان المحققين من المورخين نسبوا ذلك الى خيانة جنرالاته واكابر ضباطه حيث ذكروا انهم كانوا يغشونه و يشيرون عليه بغير الصواب فلما اتاه غير واحد واخبره بانه عاين الايمپراطور قد عبر النهر بجيشه علم انه قد اخطأ واضر بنفسه فأمر فورا بالرجعة الى و يتامبرغ ولكن كان جيشه فى ارتباك وورطة كبيرة لكثرة مهماته ومدافعه كما هى عادة الجيوش الالمانية فلم يمكنه ان يسرع بالسير حتى يفر من العدو بل بمجرد شروعه فى المسير ظهرت عساكر الايمپراطور

واقعة مولهوزان

الخفيفة فعلم الامير منتخب سكس انه لا محيص عن القتال وكان له فى القتال همة عجيبة وشجاعة غريبة كما كان له فى المفاوضات حيرة وتردد كبير فرتب عساكره للقتال ترتيبا جيدا لا ينشأ الا عن قريحة صحيحة وفطنة رجيحة وحجب جناحى جيشه بأجمة عظيمة كانت هنالك بحيث صار لا يخشى أن تحيط به خيالة العدو وكانت اكثر عددا من خيالته وكان الايمپراطور أيضا قد صف عساكره بمجرد قدومهم وصار يطوف على الصفوف وهو على جواده ويحرض العساكر على القتال ويعظهم بما قل ودل من كلمات الحماسة التى تورثهم الحمية وقوة الجنان حتى يقوم كل واحد منهم بما عليه من الواجبات وكان لكل من

الفريقين

سنة ١٥٤٧م

الفريقين اسباب خصوصية تبعثه على التجلد والثبات و بعد ان كانت السماء مظلمة بالغمام ومحجوبة بالضباب الكثيف انقشع سحابها وانجاب ضبابها على حين غفلة فأثرت هذه الحادثة فى قلوب الطائفتين على حسب حالهما وما كان قائما بانفسهما أما السكس فادركتهم الدهشة وفترت هممهم لما رأوا العدو قد دهمهم وصاروا عرضة لطعنه وضربه وأما عساكر الايمبراطور فاستبشروا برجوع الشمس وايقنوا أن ذلك دليل النصرة والظفر وتحققوا أن عساكر المعتزلة صاروا فى قبضتهم ومابقى لهم خلاص من بطشهم ولما رأى منتخب سكس دنو العدو منه وأنه لامحيص عن القتال ابدى من الشجاعة والهمة ماقوى به قلوب عساكره وأحيى عزمهم ولولا ذلك لثبتت النصرة لعساكر الايمبراطور من اول وهلة ولم تطل مدة الحرب بين الفريقين فطرد السكسونيون اولا الخيالة الخفيفة المجارية وكانت اول من حمل عليهم من العساكر الايمبراطورية وثبتوا مع العزم وقوة الجنان امام الخيالة الثقيلة التى حملت عليهم بعد الفرقة المجارية المذكورة ولكن لما كان هؤلاء الخيالة الثقيلة هم الذين عليهم مدار الجيش الايمبراطورى وكانوا يقاتلون بقوة وعزم شديد لوجود الايمبراطور بين أظهرهم اضطر السكسونيون الى التقهقر فانضمت العساكر الخفيفة الايمبراطورية الى بعضها بعد طردها وشتاتها وانقضت دفعة واحدة على جناحى عساكر العدو فاختل نظام صفوفهم وحقت عليهم الهزيمة الا ان شرذمة قليلة من العساكر المنتخبة كانت مع الامير منتخب سكس فلم تزل تقاوم وتدافع عن نفسها وتبذل جهدها فى انقاذ اميرها وارادت ان تحول به داخل الأجمة ولكن احاط بها عساكر الايمبراطور من سائر الجهات فجرح اميرها فى وجهه وكلت قواه ورأى انه لافائدة حينئذ فى المقاومة فسلم واخذه الاعدا أسيرا وتوجهوا به حالا الى الايمبراطور وكان حينئذ قد رجع من اقتفاء اثر الهاربين بعد ان طردهم وبدد شملهم وصار ينظر الى ميدان الحرب فرحا بنصرته ونجاحه وصار يأتى اليه ضباط جيشه ليهنوه بهذه النصرة التى انتصرها بحزمه وحسن تدبيره وكان الامير منتخب سكس مع ما آل اليه امره من

مطلب انهزام الامير منتخب سكس واسره

سنة ١٥٤٧

سوء الحال لم يزل باقيا على العزة وشرف النفس فوقف بين يدى غالبه من غير أن يظهر كبرا ولا انفة لان ذلك لا يليق بالاسير لكنه لم يبد ما يزرى بمقامه بين امراء ألمانيا من التذلل والخضوع بل اخذ يخاطب الايمبراطور بقوله ان الحرب سجال حيث جعلتنى اسيرا عندك ايها الايمبراطور الفاخر وآمل أن اعامل * فما أتم هذه الكلمة الا وقطع عليه الايمبراطور كلامه مع الغلظة والجلافه قائلا أتعترف لى الآن بالايمبراطورية وقد كنت قبل ذلك تلقبنى كرلوس دى غانده سأجازيك بما انت اهله ثم صرف وجهه عنه واهمله مع الانفة والكبر هذا وحصل من ملك الرومانيين ايضا انه آلمه حينئذ بالكلام ووبخه باكثر مما وبخه به الايمبراطور فما كان من منتخب سكس الا ان التزم السكوت ولم يتفوه بشئ ولم يظهر عليه ادنى فزع ولا خوف بل بقى على اصل حاله من التؤدة والهدء وسار خلف العساكر الاسبانيولية التى انيطت بخفره وحراسته

مطلب تقدمات شرلكان بعد نصرته

ولم يقتل من عساكر الايمبراطور فى هذه الوقعة الكبيرة الا خمسون رجلا واما عساكر السكس فهلك منهم فى القتال والهزيمة الف ومائتان واسر منهم اكثر من ذلك ونجت منهم طائفة تبلغ اربعمائة رجل تقريبا ووصلت الى ويتامبرغ مع الامير ابن منتخب سكس وكان قد جرح ايضا فى المعركة

ثم ان الايمبراطور اقام يومين فى محل الوقعة ليريح جيشه وهرع اليه حينئذ رسل المدائن القريبة منه لقصد مبايعته والدخول فى حمايته وطاعته وبعد ذلك توجه الى ويتامبرغ قاصدا التغلب عليها لينهى امر الحرب واخذ معه الامير منتخب سكس كأنه يتباهى ويفتخر باراءته فى حال الاسر لرعاياه السكسونيين وقد حزن عليه كل من رآه فى هذه الحالة من احبابه الذين كانوا يحترمونه ولكن كل ذلك لم يذهب بأنفة هذا الامير وشممه بل بقى على ما كان عليه من الرزانة والتؤدة وكانت مدينة ويتامبرغ حينئذ دار اقامة الفرع

مطلب محاصرته لمدينة ويتامبرغ

المنتخب من عشيرة السكس وكانت من اقوى مدن ألمانيا واحصنها ولو كان فيها ما يدافع عنها حق المدافعة لكان التغلب عليها من اصعب ما يكون وكان الايمبراطور قد بادر بالتوجه اليها مؤملا ان ما ترتب من الفزع والدهشة

سنة ١٥٤٧ م

على نصرته وقد شاع خبرها فى سائر البقاع يحمل اهلها على التسليم بدون مقاومة كما فعل ابناء وطنهم ولكن الاميرة سيبيلة دوكليوس زوجة الامير منتخب سكس كانت بمكان من الفضل والمعارف فعوضا عن ان تشتغل بالبكاء والنحيب على ما أصاب زوجها اظهرت عزم الابطال حتى يتأسى بها اهل المدينة وصارت تحرضهم على القتال وتقوى قلوبهم على مكابدة مشاق الحرب فلما دعاهم الايمبراطور الى التسليم اجابوه بجواب لا يصدر الا عن اولى العنفوان والشمم وافادوه بانه يلزم ان يعامل اميرهم بما يليق بمقامه من الاحترام والاعتبار والا عاملوا الامير ألبيرت دوبراندبورغ وكان اسيرا عندهم بما يعامل به اميرهم هذا وكانت مدينتهم منيعة جدا فظهر للايمبراطور انه لا محيص عن حصارها محاصرة تامة مستكملة اللوازم والشروط اذ بعد هذه النصرة الفاخرة التى انتصرها لا يليق بمقامه ترك حصارها ولكن كان وقتئذ لا يتيسر عنده ما يلزم لهذا الغرض فسهل عليه الامير موريس مااستصعبه من هذا الامر حيث التزم له ان يقوم بجميع ما يحتاج اليه من الزاد والاسلحة والمدافع والمهمات والقزمجية وغير ذلك من لوازم الحرب فاعتمد شرلكان على ذلك وامر بفتح الخنادق ووضع متاريس التحفظ امام المدينة وكان الحامل لموريس على هذا التعهد هو اغتراره بما كان يؤمله من هدم هذه المدينة اذ هى تخت عدة ولايات كان موعودا بان تعطى له جزاء على تخليه عن حزب المعتزلة وحربه مع قريبه منتخب سكس فعما قليل ظهر انه التزم بما ليس فى وسعه نعم وان كان لم يبعد عا تقافى نقل عدة مدافع من تريستة الى ويتامبرغ بواسطة نهر ألبه الا انه لم يكن عنده من العساكر ما يكفى لخفر ما يحضر من دوله الى معسكر الايمبراطور حتى ان القوتنة دومانسفلد مع سرية من عساكر السكس نهب جميع الزاد والمهمات الحربية التى كانت آتية الى الايمبراطور وشتت من كان معها من القزمجية فكان ذلك سببا فى تعطيل تقدم الحصار وعلم الايمبراطور أن اعتماده على قول موريس كان فى غير محله وانه يلزمه التشبث بامور اخرى اقوى من ذلك بحيث تسعفه

سنة ١٥٤٧

في الاستيلاء على المدينة سريعا

مطلب معاملة الايمبراطور للامير منتخب سكس بما لا يلايم المروءة والانسانيه

وكان منتخب سكس لم يزل اسيرا عند الايمبراطور ففعل معه ما ينابذ المروءة والانسانية ليفجع عليه زوجته واولاده و يحملهم على تسليم المدينة فطلب من زوجته سيبيلة ان تسلم له المدينة والاضرب عنق زوجها ولاجل ان يريها ان ذلك ليس مجرد تهديد وارهاب امر حالا باقامة دعوى منتخب سكس ولكن لم تكن اقامة هذه الدعوى على طبق الاصول الجارية فانه عوضا عن كونه يستشير مشورة وكلاء الايمبراطورية او يحيل اقامة الدعوى على محكمة تقضي فيها بما يوافق اصول الجمعية الجرمانية وتقف على حقيقة الذنب احال تحقيق قضية هذا الامير وكان اعظم امرآء الايمبراطورية على مشورة حربية مؤلفة من ضباط جيشه الاسبانيول والايطاليين وكان رئيس تلك المشورة هو دوق ألبة وكان هذا الدوق جبارا ذا قسوة وشدة حتى كان عند الايمبراطور بمنزلة آلة للظلم والاعتساف فجعلت هذه المحكمة الغريبة اساس الدعوى على الحكم الذي كان قد صدر في حق منتخب سكس بطرده من الايمبراطورية مع ان هذا الحكم لم يصدر الا عن محض ارادة الايمبراطور واختياره فهو لغو لا يعتد به حيث لم تتوفر فيه شروط الصحة المستدعية لتنفيذه والعمل بمقتضاه فحكمت تلك المشورة على الامير المذكور بالقتل مستندة في ذلك الى ان هذا الامير قد ثبت عليه الغدر والعصيان بمخالفته للفرمان الصادر بنفيه وقد اخبر منتخب سكس بهذا الحكم وهو يلعب الشطرنج مع الامير ارنست دو برنسويك وكان مسجونا معه فسكت لحظة من غير ان تظهر عليه آثار فزع او رعب و بعد أن فكر في عدوان الايمبراطور و بغيه وفي بطلان المشورة التي حكمت عليه بالقتل قال ان غرضه ظاهر لا يخفى فهو يريد قتلي لان ويرتامبرغ لا ترضى ان تسلم له ولكن تهون علي روحي ان كان يترتب على فقدها حفظ مقام عائلتي و بقاء ذريتي آمنة تتمتع بدولي وترثها من بعدي وارجو من الله ان يرزق زوجتي واولادي الصبر على مصابهم بي وان لا يفجعوا من ذلك اكثر من فزعي منه وانهم لا يتركون مناصبهم ودولهم

مطلب علو نفس الامير منتخب سكس

الوراثية

سنة ١٥٤٧

الوراثية لاجل نفس قد طالت حياتها فهى وان اقامت الآن ترتحل غدا انتهى ثم التفت الى الامير برونسويك وطلب منه ان يتم الدور ولعب معه كعادته مع التأمل والاعتناء حتى غلبه واظهر من الفرح والمسرة حين غلبه مثل ما كان يحصل منه لو غلب فى وقت آخر وبعد ذلك ذهب الى محله ليصرف اللحظات القليلة الباقية من عمره فى التوبة والاستغفار

مطلب فزع عائلة الامير منتخب سكس

ولكن بمجرد ما وصل هذا الخبر الى مدينة ويتامبرغ حصل فيها هرج واضطراب فان زوجته سيبلة وان كانت قد تجلدت كل التجلد حين سمعت بأسر زوجها لعلمها ان اسره لا يترتب عليه الا ضعف شوكته وتضييق دائرة التزاماته ارتعدت فرائصها وفترت همتها لما بلغها ان الامبراطور قد عزم على قتله وصممت على التساهل فى كل شئ يكون به انقاذه من هذه المصيبة وتسكين غضب الامبراطور وكان كل من الدوق دوكليوس والامير منتخب راندبورغ والامير موريس يتضرع الى الامبراطور فى العفو عن منتخب سكس ويسأله الصفح عنه لاسيما وكان شرلكان لم يطلعهم على الاسباب التى حملته على قتله وكان لكل منهم فى ذلك مارب اما الاول فكان توسطه فى نجاة هذا الامير انما هو لمحض الرأفة باخته سيبيله والشفقة على زوجها لكونه صهره واما الآخران فكانا يخشيان الملامة من عموم الناس والقدح فى اعراضهما لانهما كانا قد اشاعا انهما لم ينضما الى حزب الامبراطور الا بعد التزامه لهما انه لا يتعرض لاحد بادنى ضرر فيما يخص الدين فرأيا انه اذا كانت اول ثمرة تترتب على انضمامهما الى حزب الامبراطور هى قتل الامير منتخب سكس وهو اعظم محام ومنتصر لدين المعتزلة افضى بهما ذلك الى المعرة والفضيحة لاسيما وكان الامير موريس يرى ان السكسونيين اذا توهموا ان له مدخلية فى قتل منتخب سكس ليستولى على بلاده وهو اقرب الناس اليه يصير عندهم فى اشد العداوة والبغضاء ولا يطمع ابدا فى الحكم عليهم مع الامن والطمانينة

مطلب مداولة عائلة منتخب سكس مع الامبراطور وتخليها له عن منصب المنتخب

وبينما كان هؤلاء الامراء الثلاثة يتضرعون الى الامبراطور ويلحون عليه

سنة ١٥٤٧

فى العفو عن منتخب سكس لهذه الاغراض التى ذكرناها كتبت اليه سبيلة واولادها و بعثوا اليه رسلا من طرفهم انه لايفجعها فى زوجها بل يعفو عنه و يطلب مهما شاء ففرح الايمبراطور بنجاح ما اقترحه واخذ يتساهل و يظهر لين الجانب ووعد بالعفو عن هذا الامير اذا قبل منه ما يلزمه به حتى يصير جديرا بالعفو ومع ان هذا الامير حين بلغه تصميم الايمبراطور على قتله لم يعتره خوف ولا فزع رق قلبه حينئذ لنواح زوجته واجاب عائلته فيما الحت به عليه فقبل شروطا كان لا يقبلها ابدا فى وقت آخر وعقد مع الايمبراطور مشارطة مشتملة على انه يتخلى هو وذريته للايمبراطور عن منصب المنتخب بحيث يتصرف فيه كيف شاء وان كلا من مدينة ويتامبرغ ومدينة غوثا تسلم حالا للعساكر الايمبراطورية وان الامير البيرت دو براندبورغ يطلق من الاسر بدون فدآء وان الامير منتخب سكس من الآن فصاعدا ينقاد لاوامر الديوان الايمبراطورى و يقر جميع ما يصدر عن الايمبراطور من النسخ والتغيير فى اصول هذا الديوان وقوانينه ولا يدخل فى عصبة يكون القصد منها اضرار الايمبراطور او ملك الرومانيين ولا يعقد معاهدة لا يكون هذان الملكان من اربابها وفى نظير ذلك وعد الايمبراطور ان يعفو عنه من القتل بل و يترك له ولذريته مدينة غوثا واراضيها و يرتب له فى كل سنة من ايراد بلاد السكس خمسين الف فلورين (نوع من النقود) ويدفع له مبلغا يوفى منه ديونه ولكنه زيادة على هذه الشروط الصعبة ألزمه بشرط يوقع النفس فى الياس والقنوط وهو ان يبقى مدة حياته اسير الايمبراطور وكان شرلكان يريد ايضا ان يلزمه بالانقياد لاوامر البابا والمشورة القسيسية فى شأن المسائل الدينية الخلافية ولكن مع رضاء هذا الامير فى سوء حظه بالتخلى عما هو اعز الاشياء عند اغلب الناس لم يقبل هذا الشرط الاخير ولم يمكن لا بالترهيب ولا بالترغيب حمله على العدول عما كان يعتقد حقيته و يرى صحته

١٩ من شهر ايار

ثم ان بمجرد خروج محافظى السكس من مدينة ويتامبرغ وفى الايمبراطور بما كان وعد به الامير موريس حيث اعطاه هذه المدينة

مطلب تقليد الامير موريس بمنصب المنتخب

وسائر

سنة ١٥٤٧

وسائر مدن ولاية السكس مكافأة له على كونه تخلى عن حزب المعتزلة وأعان كثيرا على انحلال عصبة سمالكالد وايقاع التفاقم والشقاق بين اربابها ثم انه شق على الامبراطور اعطاء هذه المدائن للامير موريس لانه بعد انتصاره كان قد داخله الغرور وطمع فى امور أخرى كما هو دأب من ساعدتهم المقادير وكان نجاحهم فوق العادة وصارت نفسه تحدثه بمشروعات جديدة يترتب عليها ازدياد شوكته وقوة صولته فكان بقاء بلاد السكس بيده ينفعه كل النفع فى تنجيز هذه المشروعات الا انه كان لم يدبر أمر هذه المشروعات كما ينبغى حتى يمكنه الشروع فى تنجيزها وتتميمها فخشى ان يظهر ما كان قائما بنفسه من ذلك وبالجملة فرأى من عدم الحزم وقلة التبصر اغضاب موريس فى مثل ذلك الوقت بعدم وفاء المواعيد التى حسنت له التخلى عن حلفائه والانضمام الى حزبه الامبراطورى ولذلك اعطاه المدائن المتقدم ذكرها

مطلب المداولة مع حاكم هيسة

هذا وكان حاكم هيسة الذى هو ابو زوجة الامير موريس لم يزل على غاية من الاحترام مسلحا العساكره وكان لم يبق غيره وقتئذ ممن يدافع عن دين المعتزلة لكنه لم يكن ضعيف الشوكة حتى يطمع فيه اعداؤه ولا يخشوا باسه بل كانت التزاماته متسعة جدا ورعاياه متولعين غاية التولع بالدين الجديد فلو قاوم الامبراطور حينا وأرهب حزبه لكان من المأمول ان يتقوى حزب المعتزلة بالثانى وينضم الى بعضه حيث لم تكن قواه قد تشتتت بل كان ملتئما لم يقع بين اربابه شقاق ولا اختلاف وكان رؤساؤه معتمدين على اعانات كبيرة من طرف ملك فرانسا ولكن كان حاكم هيسة لا يتجاسر على المشروعات الجسيمة الخطرة فداخله من الفزع والرعب ما داخل غيره من حزب المعتزلة وصار لا يلتفت الا الى كونه يدخل تحت طاعة الامبراطور على شروط تلايمه ورأى أن مقتضيات الاحوال تلزمه بذلك وكان الامير موريس يقوى رغبته فى هذا الامر حيث كان يبالغ له فى شوكة الامبراطور ويفهمه ان له لديه حظوة ونفوذ كلمة فاذا توسط فى الصلح بينهما لم يعقده الا على شروط نافعة وملايمة له لما انه حبيبه وختنه فسلامته اعز شئ عنده فمن ثم كان حاكم هيسة يتردد ما بين

سنة ١٥٤٧

الصلح وعدمه فكان يظهر عليه احيانا انه واثق كل الوثوق بمواعيد موريس ويتراءى منه انه لا يريد الا عقد مشارطة بتية مع الايمبراطور وكان احيانا اخرى ينظر فى احوال الايمبراطور ويفكر فى شدة طمعه وحرصه وعدم التفاته الى شعار الادب والمروءة ودعائم العدالة والانصاف ويذكر الاساءة الفاحشة التى اساءها بها الامير منتخب سكس فتشمئز منه نفسه وينفر كل النفور ويقطع على حين غفلة المداولات التى كان شرع فيها لقصد الصلح ويرى ان اعتماده على قواه وعساكره اولى من اعتماده على حلم الايمبراطور وكرمه ويصمم على قتاله غير انه لا يدوم على هذا التصميم وكان جزوعا ولم يخطر مثل ذلك بباله الا لقنوطه ويأسه فاذا سكنت نفسه وفكر فى ضعف قواه وعظم شوكة عدوه داخله الفزع والرعب وجعل يقدم رجلا ويؤخر اخرى فتزهق نفسه من المداولات ويود الصلح ويزمع عليه

مطلب الشروط التى الزم بها حاكم هيسة من طرف الايمبراطور

ثم توسط فى الصلح بينهما كل من موريس والامير منتخب براندبورغ ومع ما كان يفتخر به موريس من قبوله ونفوذ كلمته عند الايمبراطور كما تقدم قد حصل ان الايمبراطور ألزم حاكم هيسة بشروط صعبة جدا يشق على النفس تحملها حيث ألزمه ان يتخلى عن عصبة سمالكالد وينقاد اليه ويمتثل لاوامر الديوان الايمبراطورى وزيادة على هذه الشروط التى ألزم بها منتخب سكس من قبل ألزمه ايضا ان يسلم اليه فى نفسه ودولته وان يطلب منه العفو وهو جاث بين يديه على ركبتيه وان يدفع له مائة وخمسين الف كورون فى نظير ما صرفه الايمبراطور فى الحرب وان يهدم ما فى مدائن دولته من القلاع والحصون ولا يبقى منها الا قلعة واحدة وان يأمر من يجعله فيها من المحافظين ان يبايعوا الايمبراطور على ان يكونوا معه دائما على الصدق والامانة وان يأذن من الآن فصاعدا للعساكر الايمبراطورية فى المرور من دولته عند الطلب وان يسلم له جميع ذخائره ومهماته الحربية من مدافع وغيرها وان يخلى بدون فدية سبيل الامير هنرى دوبرونسويك وغيره ممن اسرهم فى الحرب والزمه ايضا ان لا يشهر عليه سلاحا ابدا وان لا يأذن لاحد من رعاياه ان يتعصب عليه او على حلفائه

سنة ١٥٤٧

وأقر حاكم هيسة هذه الشروط مع غاية الاشمئزاز والنفور لانه لم يجد فيها شرطا يخص الكيفية التي سيعامله بها الايمبراطور بل رأى ان امره في ذلك مفوض لحلمه وارادته فكان قبوله هذه الشروط كرها لان الايمبراطور بعد استيلائه على بلاد السكس صار يسلك مسلك الجبر والانفة كما هي عادة الفاتحين مع اعدائهم المغلوبين فابى الا ان يسلم اليه حاكم هيسة في نفسه بدون شروط حتى يكون امره مفوضا الى محض عفوه ولم يرض ان يضاف على الشروط المتقدمة شيء يكون مقيدا القوته الفعالة فيما يخص حاكم هيسة او مبينا للكيفية التي سيعامل بها وهو تحت قبضته وتصرفه اذ رأى ان اشتراط شيء في هذا المعنى فيه تقييد لقدرته ويشعر بأنه كانت مداولته مع حاكم هيسة كالامثال وذلك لا يلائم الحالة التي كان عليها وقتئذ فلم يدرج في المشارطة التي املاها بنفسه شرطا صريحا به يطمئن هذا الامير على نفسه ويأمن على حريته بمعنى انه يكون آمنا من القبض عليه اذا حضر لمقابلة الايمبراطور ومع ذلك حصل ان منتخب براندبورغ والامير موريس نالا من شرلكان او من وزرائه بطريق النيابة عنه ان حاكم هيسة يكون آمنا على نفسه من هذه الحيثية ولا يخشى في ذلك بأسا ولا ضررا ووعد هذان الاميران حاكم هيسة بذلك ووعداه ان الايمبراطور سيعامله بما عومل به الامير دوق ويرتامبرغ وانه بعد مبايعته للايمبراطور يرجع الى دوله آمنا مطمئنا ولئن كان حاكم هيسة يستخون الايمبراطور ولا يأمن غدره فلم يعتمد في مثل هذا الغرض المهم على القول الشفاهي وطلب ما يستمسك به لدى الاقتضاء فكتبا اليه وثيقة عليها امضاء كل منهما يذكران فيها انه ان حصل له ادنى ضرر عند مقابلته للايمبراطور سلما انفسهما الى اولاده يفعلون بهما كما يفعل الايمبراطور بأبيهما

مطلب رضاء حاكم هيسة بالشروط المذكورة

ولما التزما له بذلك وكان قد رضي بالشروط المتقدمة لم يجد بدا من مقابلة الايمبراطور وزال ما كان عنده من الخوف والفزع فذهب الى المعسكر الايمبراطوري بمدينة هالة في بلاد السكس غير انه حصلت هناك حادثة لم تكن تخطر بباله اوقعت في نفسه الريبة والوسواس وادركه منها الخوف

مطلب ذهابه الى الايمبراطور

سنة ١٥٤٧

والرعب ثانيا وذلك انه عند دخوله فى ديوان الايمبراطور لاجل البيعة وطلب الصفح عرضت عليه نسخة من الشروط التى اقرها وطلب منه ان يضع امضاءه عليها فلما قرأ هـذه النسخة لاحظ ان وزراء الايمبراطور زادوا عليها شرطين لم يكونا فى الاصل احدهما انه ان حصل لبس واشتباه فى معنى البنود الاولى من المشارطة فللايمبراطور ان يؤول ذلك بما يستحسنه والثانى انه يجب على حاكم هيسة ان يمتثل لكل امر صدر من المشورة القسيسية التى ستنعقد بمدينة ترنته بدون بحث ولا مناقشة فادرك ان الغرض من عرض ذلك عليه فى هذا الوقت هو التقوى عليه بمقتضيات الاحوال ظنا بانه حينئذ لا يفكر الا فى ذله ومثوله بين يدى الايمبراطور فلا يسعه الا قبول ما لا يقبله فى وقت آخر تكون فيه حواسه مجتمعة وذهنه غير مشوش فغضب من ذلك غضبا شديدا لاسيما وكان بالطبع ذا حمية وحدة فلم يطق كتمان ما قام بقلبه من الحنق والغيظ بل افصح عنه بكل ما سولته له نفسه فى تهورها وأبى ما ارادوا ادخاله عليه من الحيلة والمكر وعضده على ذلك كل من الامير منتخب براندبورغ والامير موريس وبذلا معه غاية جهدهما حتى نالا من وزراء الايمبراطور الغاء الشرط الاول بالكلية لكونه محض ظلم واجحاف وتلطيف الشرط الثانى على وجه بحيث لو أقره حاكم هيسة وقبله لا يعد به بين الناس انه قد عدل عن دين المعتزلة وكان قبل ذلك بقليل يعتقده ويذب عنه فيله عنه جهرا يعد نفاقا ونكرا ويكسبه من العار ما لا مزيد عليه

مطلب كيفية تلقى الايمبراطور له

وبعد ازالة هذا المانع صار حاكم هيسة فى قلق لاجل مقابلة الايمبراطور لانها وان كانت تشق عليه لما كان يراه فيها من المذلة والاهانة الا انها كانت لازمة له فى نيل العفو والصفح وكان الايمبراطور وقتئذ جالسا على كرسى فاخر لابسا جميع نشانات المنصب الايمبراطورى وحوله جم غفير من امراء دولته وكان من جملتهم الامير هنرى دو برونسويك الذى كان قبل ذلك بايام يسيرة اسيرا عند الامير حاكم هيسة فانظر الى تقلب الدهر وصروف الايام حيث كان هنرى المذكور ممن عاين مذلة هذا الامير لدى مثوله بين يدى الايمبراطور

اذ

سنة ١٥٤٧ م

اذ كان ادخاله بالديوان الايمبراطوري مع غاية الرسوم حتى دنا من الكرسي وجثى على ركبتيه وكان خلفه حامل ختامه فامره عند ذلك بقراآة الصحيفة التي كان يعترف فيها بما ارتكبه من الاساءة في حق الايمبراطور وبانه يستحق عليها اشد العقاب وانه قد سلم نفسه ودولته الى الايمبراطور يتصرف فيها كيف يشاء وانه يطلب العفو من فيض حلمه ومحض كرمه وكان ختامها ان التزم للايمبراطور بانه من الآن فصاعدا يعمل بمقتضى ما يجب على الرعية للراعي من الامانة والانقياد ولا يجحد ابدا انعم الايمبراطور عليه ولا ينساها بل يرعاها و يقابلها بالشكر على الدوام وفي اثناء ما كان حامل ختامه يقرأ هذه الصحيفة المشتملة على ما يؤذن بخضوعه ومذلته كانت اعين الحاضرين شاخصة لهذا الامير السيء البخت وهو جاث على ركبتيه بين يدي الايمبراطور ولا شك ان الانسان اذا رأى اميرا ذا انفة قوي الشوكة مثل حاكم هيسة يتذلل لطلب العفو لابد وأن يتأثر من ذلك لا محالة و يرثي لحالة المتضرع ويفكر في غرور الدنيا وتلونها وتقلب الايام و يدرك ان لا بقاء لما تمنحه للنوع الانساني من المناصب العالية والرتب السامية واما الايمبراطور فلم يتأثر من ذلك ولم تأخذه الرافة عليه بل بقي على ما كان عليه من الشمم والكبر ولازم الصمت الكلي ولم يتفوه بكلمة واحدة وانما بعد قراءة الصحيفه اشار الى احد كتابه ان يقرأ الجواب وكان مضمونه انه وان كان له الحق في ان يعاقب حاكم هيسة عقابا شديدا لما فرط منه في حقه الا انه لكرمه وحلمه وتضرع عدة من الامراء اليه في شأن هذا الجاني واستشفاعهم له وتوبة المذنب نفسه وندمه على ما فرط منه لا يعامله بما تقتضيه صعوبة القوانين ولا يعاقبه بشيء غير مسطور في بنود المشارطة و بمجرد ما فرغ الكاتب من قراءة الجواب نهض الايمبراطور وذهب عن هذا المسكين من غير أن يظهر له ادنى شيء يدل على رأفته به وصفحه عنه بل تركه جاثيا على ركبتيه ولم يشر اليه بالقيام فقام حاكم هيسة من تلقاء نفسه ودنا من الايمبراطور ليقبل يده ظنا منه انه قد عفا عنه فيسوغ له ذلك ولكن خشي الامير منتخب براندبورغ ان يغضب الايمبراطور من هذا الامر الذي

سنة ١٥٤٧

لا يفعله الا المتقربون اليه فمنع حاكم هيسة ودعاه الى ان يذهب معه صحبة الامير موريس الى القلعة فى مسكن الامير دوق دالبة

مطلب سنجنه

فلما دخل معهما فى القصر عند الدوق المذكور تلقاه مع التعظيم والتبجيل اللائق بمقامه ثم حضر الطعام فاكلوا واشتغل بعد ذلك حاكم هيسة بلعب الشطرنج فاخذ الدوق المذكور كلا من منتخب براندبورغ والامير موريس واطلعهما على الاوامر الصادرة له من الايمپراطور بابقاء حاكم هيسة مسجونا فى هذا المحل وان يجعل عليه فرقة من العساكر الاسبانيولية لاجل خفره وكان هذان الاميران يعتقدان الى ذلك الوقت صدق الايمپراطور فى وعده لهما فلما رأيا هذا الامر الصادر منه اشتدت بهما الحيرة والغضب حيث خادعهما وغدر بهما وجعلهما وسيلة فى فضيحة صاحبهما وخراب دياره فسلكا سبيل التضرع والتظلم والبرهنة ليسلما من العار الذى يلحقهما باضرار حاكم هيسة وبذلا غاية جهدهما فى انقاذه من هذه المكيدة التى لم يوقعه فيها الا وثوقه بهما واعتقاده عليهما ولكن لم يزل دوق دالبة يدقق فى عدم اجابتهما ويتعلل بانه يجب عليه العمل بمقتضى اوامر الايمپراطور وكان حاكم هيسة لا علم له بذلك ولا يخطر بباله انه قد وقع فى اشراك المكيدة فلما دخل الليل تأهب للخروج فعرض عليه الامر المشؤم فبهت واطرق مليا لا يستطيع التكلم لما ادركه من الدهشة والحيرة فلما افاق اظهر حنقه وغيظه بألفاظ خشنة اجراها على لسانه نفوره من مثل هذا الظلم والخداع الفاحش وصار يتظلم ويتضرع ويغضب وهو يقدح تارة فى الايمپراطور بأن مثل هذه الحيل والمكايد لا تليق بملك ذى كرم واقتدار وتارة يلوم صاحبيه الامير موريس ومنتخب براندبورغ ويوبخهما على عدم تبصرهما حتى دخلت عليهما حيل الايمپراطور وأمنا غدره وخداعه واخرى يصفهما بالجبن والخداع ويتهمهما بانهما تواطئا مع الايمپراطور على تلك الخيانة الفاحشة ثم ذكرهما بالعهود المعقودة بينهما وبين اولاده وطلب منهما ان يعملا فورا بمقتضاها ولما سكن غضبه جعل الاميران المذكوران يحلفان له على انهما بريآن من هذه

سنة ١٥٤٧

التهمة وانه لاذنب لهما فى هذا الغدر والتزماله انهما بمجرد مقابلتهما للايمبراطور براجعانه فى ذلك الامر لانه كما هو محض ظلم وجور فى حق حاكم هيسة يدنس عرضهما ويورثهما الخزى والعار بين الناس وبقى معه الامير موريس تلك الليلة فى المحل الذى كان مسجونا به ليسليه على ما اصابه

مطلب عدم نجاح الامير موريس ومنتخب براندبورغ فى تخليصه

وفى الصباح دخل منتخب براندبورغ والامير موريس معا عند الايمبراطور واخبراه بانه يلحقهما العار والخزى و يتمزق عرضهما فى سائر بلاد ألمانيا اذا هو سجن حاكم هيسة وافاداه انهما لو كانا يعلمان ان سجنه هو ثمرة امتثاله وانقياده لما اشارا عليه بالحضور اليه والمثول بين يديه واخبراه ايضا بانه يجب عليهما السعى فى عدم سجنه لانهما قد تعاهدا مع اولاده ان يسلما اليهم انفسهما رهنا حتى يحضر اليهم ابوهم فلم يؤثر ذلك كله عند الايمبراطور شيأ ولم يقبل منهما صرفا ولا عدلا وذلك انه لم يكن حينئذ محتاجا اليهما فى شئ فتأسفا لما عرفا منه انه نسى ودهما الاول حيث هو لا يراعى خاطرهما ولا يقبل منهما شفاعة وما كان جوابه لهما الا ان قال انى لا اعرف العهود والمشارطات الخصوصية المنعقدة بينكما وبين حاكم هيسة ولا يجب على ان اعمل بما التزم به غيرى ولا اعرف الا ما التزمت به من ان حاكم هيسة لا يسجن عندى مدة حياته وهذا لا يمنع من سجنه مدة وبعد أن تكلم بهذا الكلام على وجه لا يقبل نقضا ولا ابراما خرجا من عنده وهما جازمان بانه لا سبيل الى استمالته حيث ظهر لهما منه انه مصمم كل التصميم على ما شرع فيه واضطرا الى اخبار حاكم هيسة بعدم نجاحهما فى التوسط والسعى فى تخلية سبيله فلما سمع ذلك ازداد به الغضب والغيظ واعترته حدة اشد من الاولى حتى خشيا انه ليأسه وقنوطه ربما فعل ما يؤدى الى تلفه فلاجل منعه عن ذلك وعداه بانهما لا يتركان الايمبراطور الا اذا حلا مبالحاحهما وابرامهما على اطلاقه وتخلية سبيله * فصبرا حتى مضت ايام قلائل وخاطبا الايمبراطور فى هذا الشأن فوجداه مشددا اكثر من الاول بل بلغهما انه لا تطيق نفسه ان يسمع قولا ما فى هذا الشأن فاذا استمرا على هذا الالحاح امر فورا بنقل صاحبهما الى بلاد اسبانيا ليسجن بها فخشيا حينئذ

سنة ١٥٤٧

ان يعود سعيهما بالضرر على حاكم هيسة ورجعا عن خطاب الايمبراطور فى هذا المعنى بل صمما على ترك ديوانه والخروج من خدمته ولم يخبرا حاكم هيسة بذلك شفاها خوفا من اضراره بهما لفرط غيظه اذا سمع منهما مثل هذا الامر بل حررا اليه كتابا يذكران فيه سبب سفرهما و ينصحانه على ابراء ما وعد به الايمبراطور و يفهمانه ان ذلك هو اعظم وسيلة فى نيل حريته وخلوصه من ربقة الاسر فى اقرب وقت

وقد زاد يأس حاكم هيسة وقنوطه بتخلى هذين الاميرين عنه ولكنه لقلقه على اطلاقه ونيل حريته رأى انه يجب عليه العمل بمقتضى نصحهما فدفع المبلغ الذى ضرب عليه وامر بهدم القلاع و الحصون التى فى بلاده ونقض ما كان بينه و بين غيره من المعاهدات التى توقع الشك والارتياب فى نفس الايمبراطور ولكن لم يترتب على هذا الامتثال ادنى تأثر عند الايمبراطور بل استمر على سجنه مع التشديد والتدقيق فكان هو والامير منتخب سكس يقادان الى اى جهة توجه اليها الايمبراطور وكانت معزته ومذلتهما تتجدد كل يوم على رؤس الاشهاد وكان منتخب سكس على غاية من التجلد لتحمل هذه المصائب والنكبات بخلاف حاكم هيسة فكان عنده من القلق والحنق ما الامزيد عليه لانه لحدة طبعه كان لا يطيق ذل الاسر بل كان كلما فكر فى الحيل والمخادعات الذميمة التى اوقعته فى اشراك المكيدة وأفضت به الى وضعه فى السلاسل والاغلال ظلما وعدوانا اشتد به الحنق والغيظ حتى تخال أن به جنة

مطلب ظلم الايمبراطور فى بلاد ألمانيا

وكان الايمبراطور كلما مر بهذين الاسيرين على مدينة وراهما اهلها على هذه الحالة السيئة سخطوا عليه وذموه بكل لسان ورأوا أن معاملته لهذين الاميرين الشهيرين على هذا الوجه اساءة ادب فى حق الجمعية الجرمانية بتمامها وتظلموا جهرة من المعاملة القاسية التى كان يعاملهما بها وكانا من اعظم امراء الايمبراطورية الالمانية غير أنه حصلت لهم امور اخرى تخصهم فاشتغلوا بها عن غيرها وذلك أن الايمبراطور طغى و بغى وسلك من الظلم والاجحاف مسلك الفاتحين اذا استولوا على مملكة من الممالك فامر عساكره

بضبط

سنة ١٥٤٧م

بضبط ما كان لارباب عصبة سمالكالد من المدافع والمهمات الحربية فجمع بذلك ما ينيف على خمسمائة مدفع وكان هذا القدر جسيما بالنسبة لذلك العصر فبعث ببعضها الى مملكة البلاد الواطية وبعضها الى ايطاليا وبعضها الى اسبانيا رغبة فى نشر نصرته فى سائر البقاع وجعل تلك الآثار دليلا على ظفره بملة كانت الى ذلك الوقت معدودة من الملل المهابة القوية التى لا يمكن الظهور عليها وبعد ذلك ضرب من تلقاء نفسه مغارم جسيمة على من نصح فى خدمته ووفى فى الحرب بوظيفته وعلى من خرج عن طاعته ونشر اعلام العصيان عليه فاما الاول فضرب عليه تلك المغارم على سبيل الاعانة له ومساعدته على مصاريف الحرب حيث ان الغرض منها مصلحة اعضاء الامبراطورية كافة فينبغى اذن ان تكون مصاريفها على الجميع واما الآخرون فكان ضربها عليهم فى نظير جرمهم وعصيانهم فبلغ ما جمعه من هذه المغارم ما يزيد على مليون وستمائة الف كورون وهو مبلغ جسيم بالنظر لذلك القرن اعنى القرن السادس عشر من الميلاد وكان اهل المانيا فى فزع عظيم من ظفر الامبراطور ونجاح عساكره حتى تلقوا جميعا امره بالقبول من غير توقف ولكن لا يخفى ان مثل هذا الظلم يغضب الامة الالمانية لا محالة لانها كانت تغار على حقوقها ومزاياها وكانت منذ عدة قرون قد تعودت على اعتبار الشوكة الامبراطورية كشوكة مقيدة لا يخشى بأسها فظهرت علامات الغيظ والحقد على وجوههم جميعا وان بذل كل منهم وسعه فى اخفاء غضبه وكظم غيظه وسيأتى ان هذا الغيظ الذى كظموه الآن قهرا عنهم لعجزهم وعدم اقتدارهم قد اظهروه بعد ذلك بقليل واضطرمت به نيران الفتن ببلاد ألمانيا

مطلب شروع فرديننمد فى اضرار حرية رعاياه بمملكة چه

وبينما كان الامبراطور يلزم اهل المانيا بما شاء ويامرها بما احب بعد تمكنه بها وانتصاره عليها كان اخوه فرديننمد فى مملكة چه يعامل رعاياه باكثر منه شدة وقسوة وذلك ان اهالى هذه المملكة كانوا يتمتعون بمزايا وخصائص عظيمة لا تضاهيها مزايا اى دولة كانت من الدول التى دخلت فيها

سنة ١٥٤٧

اصول الحكومة الالتزامية وبهذا السبب كانت مزايا ملوكها ضيقة قليلة جدا
بل كان التاج الملوكى فيها انتخابيا بمعنى انه لا يتولى عليها ملك الا بانتخاب اهلها له
ولما دعى فرديننـد الى الولاية عليها اقر حقوق اهلها حسبما كانت تقتضيه
الرسوم التى كانوا يشددون فيها محافظة على اصول حكومتهم لانهم كانوا
متولعين بها كل التولع ولكنه عما قليل سئمت نفسه من ضيق شوكته وتقييد
تصرفه واحتقر التاج الملوكى حيث لم يكن فى وسعه ان يجعله وراثيا ينتقل الى
ذريته من بعده فصمم على نقض ما اخذ عليه من العهود والمواثيق وشرع
فى نسخ ما كان عليه العمل بهذه المملكة من الاصول القديمة حتى يصير التاج
الملوكى وراثيا ولكن لم تكن اهل مملكة بوهيميا ممن يتساهلون فى مثل هذا الغرض
ويرضون ان تسلب منهم مزاياهم العظيمة التى طالما تمتعوا بها هذا وكان كثير منهم
متمسكا اذ ذاك بالدين الجديد وكان كل من حناهوس وجيروم دو براغه قد
ادخلاه ببلادهم فى اوائل القرن الخامس عشر فانضمت حميتهم الدينية الى
حميتهم على المدافعة عن الحرية وتقوت احداهما بالاخرى حتى صمم اهل بوهيميا
على مشروعات كبيرة جدا وابوا ان يعينوا ملكهم على عصبة سمالكالد
وعقدوا معاهدة اكيدة مع منتخب سكس واتفقوا فى محفل عام على ان يدافعوا
حق المدافعة عن اصولهم القديمة بل وصمموا على ان لا يزالوا مصرين على هذا
الغرض حتى ينالوا مزايا جديدة بها تكون اصول حكومتهم القديمة احكم وامتن
مما كانت عليه اذ ذاك وانتخبوا من بينهم الامير غاسبارفلوغ وجعلوه
سر عسكرهم وكان من ذوى الفضل والمعارف كما كان من اهل الحسب والنسب
وجمعوا جيشا بلغت عدته ثلاثين الف محارب ليعتمدوا عليه فى تنجيز مطلوبهم
ولكن كانت عملياتهم الحربية دون ما كان قائما بهم من الغيرة والحمية حين صمموا
على تلك المشروعات ولا يعلم هل كان ذلك ناشئا عن ضعف رئيسهم او عن عدم
اتفاق عساكرهم فى الكلمة لكونهم مع كثرتهم قد جمعوا مع العجلة فلم يكن بينهم
ما يلزم من الاتحاد والالتئام وربما كان ناشئا عن اسباب اخرى غير معلومة وغاية
ما يقال انهم اضاعوا زمنا طويلا فى المفاوضات والمذاكرات مع حزب اعدائهم

سنة ١٥٤٧م

حتى انهم قبل دخولهم فى بلاد سكس كانت واقعة موهلبرغ قد انقضت وانهزم فيها منتخب سكس وجرّد عن دولته ومناصبه واسر حاكم هيسة والمحلات عصبة سمالكالد بالكلية وتبدد شمل اهلها عن آخرهم ولهذه الاسباب لحق اهل مملكة چه الرعب والخوف من الامبراطور كما لحق سائر اهل المانيا فبمجرد ماراوا ملكهم فرديننذ قادما اليهم بطائفة من العساكر الامبراطورية تشتتوا كل الشتات ظانين ان مبادرتهم بالانقياد والرجوع الى الطاعة تمحو عنهم ذنب الخطأ الذى ارتكبوه فى حق ملكهم وتبعثه على الصفح والعفو عنهم ولكن كان فرديننذ قد قدم اليهم وهو على غاية من الحنق والغيظ كما هى عادة الملوك اذا احتقرهم رعاياهم وعصوا عليهم فلم تؤثر فيه توبتهم ولم يقبل تندمهم على مافرط منهم فى حقه لاسيما ولم يكن اقلاعهم عن العصيان الا بعد أن ضاقت بهم الفرص واشتدت بهم الكرب فلم يرث لحال اهل پراغه حين اتوا اليه طائعين باكين وخروا على اقدامهم يتضرعون له فى طلب العفو بل شدد فى الحكم عليهم حيث ابطل جملة من مزاياهم وضيق عليهم مابقى منها وبدل صورة حكومتهم بصورة اخرى جديدة وقتل منهم جماعة كانت مدخليتهم فى العصبة عليه اقوى من غيرهم وحكم ايضا على جم غفير منهم بضبط امواله واملاكه الى جانب الميرى وعلى آخرين بنفيهم من المملكة نفيا مؤبدا وألزم جميع رعاياه على اختلاف درجاتهم ان يسلموا اسلحتهم لتستودع فى القلاع التى كان محافظوها من عساكره وبعد أن جردهم عن اسلحتهم ضرب عليهم مغارم جسيمة لم يسبق لهم مثلها فانظر كيف كانت عاقبة مشروع اهل چه وقد كان غرضهم منه توسيع دائرة مزاياهم وتكثير خصائصهم فلعدم حزمهم وسوء تدبيرهم لم ينشأ عن سعيهم الا توسيع دائرة المزايا الملوكية وكانوا يريدون تقليلها وحصرها فى حدود ضيقة بل واضاعوا الحرية وكان قصدهم تمكينها وتوسيع دائرتها اكثر مما كانت عليه

مطلب عقد مشورة الدينية فى مدينة اوكسبورغ

ثم ان الامبراطور بعد ان اذل اهل المانيا وظن انه قد ازال من طبعهم الميل الى الاستقلال عقد مشورة الدينية بمدينة اوكسبورغ ليبت امر

سنة ١٥٤٧

الخلاف الذي كان حاصلا اذ ذاك فى الدين واوجب منذ زمن طويل تعكير بلاد المانيا ولكن لم يتجاسر على تفويض هذا الغرض المهم الى الالمانيين حتى يحكموا فيه بما يرونه وان كانوا حينئذ يخشون بأسه ولا يستطيعون مخالفته فيما يامرهم به بل دخل المدينة المذكورة ومعه عساكره الاسبانيولية وعين لهم بها مساكن واسكن بقية عساكره فى القرى التى بجوارها حتى ان ارباب مشورة المدينة كانوا الذى المذاكرة يرون انفسهم محاطين بالجيش الذى قهر ابناء وطنهم والحاصل انه بمجرد دخوله المدينة المذكورة فى محفل عام حصل منه مادل على مقاصده السيئة التى كان مصمما عليها فى حقهم فتغلب قهرا على الكنيسة الكبرى وعلى كنيسة اخرى من الكنائس العظيمة الموجودة بتلك المدينة وبعد أن طهرهما القسوس الكاثوليقية بطرق مختلفة واذهبوا عنهما الرجس الذى تركه بهما على زعمهم الحبر المرسل اليهما من طرف المعتزلة واعادوا اليهما فى محفل عام مناسك كنيسة رومة ورسوم عبادتها

مطلب تحريض الايمپراطور للالمانيين على الرضاء بعقد مشورة قسيسية عامة

وكان ارباب هذه المشورة كثيرين جدا لانه اجتمع فيها سائر امراء الايمپراطورية واعيانها ووكلاء المدائن التى لها الحق فى ابداء الرأى فى تلك المشورة وكان اجتماعهم فيها السببين * احدهما اهمية المواد التى ستكون المذاكرة فى شأنها * والثانى خوفهم غضب الايمپراطور عليهم اذاهم تخلفوا عنها فانه ربما حمله تخلفهم على اساءة الظن بهم وقد افتتح الايمپراطور المجلس بخطبة دعا فيها ارباب مشورة المدينة الى الالتفات للغرض الذى يعرضه عليهم وبعد أن بين لهم ماترتب على المجادلات الدينية ببلاد المانيا من العواقب المشؤومة وذكر لهم مابذله من الجهد والسعى فى عقد مشورة قسيسية عامة اذ لا دواء لهذا الداء غيرها اخذ يحرضهم على الرضاء بعقد تلك المشورة القسيسية وتنفيذ ما تحكم به لانهم نفسهم كانوا قد طلبوا عقدها اولا وأبدوا اذ ذاك انه لا يصلح الحكم فى مسائل الخلاف الدينية سواها وان اربابها هم الذين لهم الحق فى ذلك دون غيرهم

ولكن هذه المشورة القسيسية التى كان الايمپراطور يريد أن يفوض لها

سنة ١٥٤٧

امر الحكم في مسائل الخلاف الدينية كانت قد تغيرت تغيرا عظيما وذلك ان البابا بولس لخوفه وغيرته من ظفر الايمپراطور وظهوره على عصبة سمالكالد كان يبذل غاية جهده فيما يكون به منع تقدم العساكر الايمپراطورية فدعا اليه عساكره الذين كانوا في خدمة الايمپراطور وصار عنده الايمپراطور عدوا مبينا لا قدرة له على دفعه ولا محيص له من اجحافه وظلمه وادرك ان عاقبة الشوكة المطلقة التي اكتسبها الايمپراطور ببلاد المانيا هي ان يصير مطلق التصرف في احكام المشورة القسيسية ما لم تنعقد بمدينة اخرى غير مدينة ترنته ورأى ان بقاء الايمپراطور مع شدة طمعه على اطلاق التصرف في تلك المشورة القسيسية من اكبر الاخطار لانه ربما يستعين بذلك على تضييق دائرة شوكة البابات او محقها بالكلية فرأى حينئذ ان اعظم وسيلة يحترس بها من وقوع هذا الخطر هي ان ينقل المشورة القسيسية الى مدينة اخرى تكون تحت حكمه بحيث لا يخشى فيها من عساكر الايمپراطور ولا من فتنه ودسائسه ولوفور حظ البابا حصلت اذ ذاك حادثة تحتم بها نقل المشورة القسيسية الى مدينة اخرى غير مدينة ترنته وذلك ان واحدا او اثنين من ارباب المشورة ماتا فجأة وكذلك مات بعض افراد من خدمهم ولم يعلم لموتهم سبب فقال الاطباء ان سبب موتهم مرض وبائي معد ولا يدري هل حكم الاطباء بذلك لوجود علامات في الموتى ظهرت لهم فأوقعتهم في الخطا او كان حكمهم هذا لاخذهم رشوة من وكلاء البابا وعلى كل فقد وقع الخوف في قلوب جماعة من اهل المشورة القسيسية فبادروا الى الفرار من مدينة ترنته خشية ان يصابوا كاصحابهم ومن بقي منهم كان في جزع وقلق عظيم لا يود الا الخروج من المدينة فوقعت المفاوضة في هذا الشأن مدة قليلة واستقر الرأي على نقل المشورة القسيسية الى مدينة بولونيا وكانت تحت حكم البابا

مطلب نقل المشورة القسيسية من ترنته الى بولونيا في ١١ من شهر مارس

وجميع الاساقفة الذين كانوا من حزب الايمپراطور قد عارضوا في نقل المشورة القسيسية من مدينة ترنته قائلين انه لا داعي الى ذلك وانما هو مبني على علل باطلة واسباب غير صحيحة وبقي في تلك المدينة جميع قسوس الاسپانيول

سنة ١٥٤٧

واغلب قسوس نابلى حيث ورد لهم بذلك امر صريح من الايمبراطور واما غيرهم من ارباب المشورة فصبوا وكلاء البابا وانتقلوا معهم الى مدينة بولونيا وكانوا اربعة وثلاثين رجلا فحصل بذلك التفاقم والشقاق بين ارباب هذه المشورة مع ان الغرض من انعقادها لم يكن الا ازالة ما كان واقعا فى شأن دين النصرانية من الشقاق والاختلاف وذلك ان القسوس الذين توجهوا الى بولونيا شنعوا على الذين مكثوا بمدينة ترنته قائلين انهم قد عصوا اوامر البابا وهو خليفة المسيح وامام الملل النصرانية كما ان الباقين بمدينة ترنته عابوا على الذين ذهبوا الى بولونيا بانهم خافوا من امر وهمى وخطر خيالى حتى انتقلوا الى مدينة تضيع فيها ثمرة مذاكرات المشورة القسيسية مع ان القصد منها اعادة الراحة والامن ببلاد المانيا ونشر اعلام الصلح بين اهلها وقد بذل الايمبراطور غاية جهده فى اعادة المشورة القسيسية الى مدينة ترنته ولكن كان البابا فى فرح شديد من نجاح سعيه فى نقلها الى احدى مدائنه حتى لا يكون للايمبراطور عليها سلاطة فلم يلتفت الى طلب الايمبراطور ولم يعبأ بسعيه فى ذلك حيث كان قصده من اعادتها الى ترنته ظاهرا لا يخفى على احد وقد مضى فصل الصيف فى مفاوضات بينهما لا طائل تحتها لانه كان كلما اشتد الحاح احدهما فى هذا الشأن ازداد عناد الآخر وبعد ذلك كله قد حصلت حادثة ترتب عليها اضرام نار العداوة بينهما وصمم البابا على كونه لا يصغى لاى قضية تعرض عليه من طرف الايمبراطور وذلك ان الايمبراطور كما تقدم كان قد اغضب الامير بطرس لويز فرنيز ابن البابا حيث امتنع من تقليده بحكومة اقليمى پارمة و پلزنسة فكان هذا الامير يبحث دائما عما ينتقم به لنفسه من الايمبراطور فى نظير امتناعه فمن ذلك انه بذل وسعه فى ايقاع الحرب بين ابيه والايمبراطور وطالما الح على ملك فرانسا فى ان يشن الغارة على بلاد ايطاليا ومن شدة بغضه للايمبراطور كان يبغض ايضا من يلوذ به ويرى له الحظوة عنده فطالما اجحف بالامير غونزاغ حاكم ميلان وحرض فيسك على ما كان عزم عليه من اضرار الامير

مطلب دلائل النفرة التى ظهرت بين الايمبراطور والبابا

سنة ١٥٤٧ م

اندره دوريه وسبب ذلك هو أن الايمبراطور كان يثق بكل من الامير غونزاغ والامير دوريه المذكورين ويحبهما ويحترمهما كل الاحترام وكانت هذه العداوة لا تخفى على الايمبراطور كما كان لا يخفى عليه دسائسه التى كان يوقعها فى حقه سرا وانما كان ينتظر فرصة يستعين بها على الانتقام من فرنيز المذكور وكان الامير غونزاغ والامير دوريه يودان ان يكونا المتكفلين بعقابه وكان فرنيز المذكور سيئ الاخلاق قبيح السلوك منهمكا على اللعب واللهو ماترك فاحشة الا ارتكبها ولا كبيرة الا اقترفها ولهذه الخصال الذميمة التى توازى مايرتكبه الملوك الطاغون من المظالم وهتك حرمة الجنس البشرى كان فرنيز مكروها عند جميع الناس حتى كان يظهر أنه مستحق لكل ما يفعل به من انواع الاساءة والقسوة فعما قليل ظهر من بين رعاياه رجال يعينون على قتله بل ويعدون اهلاكه مما يكسبهم الشرف والفخار ويثابون عليه فى دار القرار وذلك ان الغيرة كانت متمكنة من قلب هذا الامير على ماهو العادة من ان صغار الملوك لا يسلمون من تلك الآفة وضعيف الشوكة منهم يستعين على تنجيز مقاصده بالقسوة والخيانة فسلك فرنيز هذا المسلك فى اضعاف شوكة الاشراف الذين كانوا فى حكمه وسعى فى محقهم فاتفق خمسة من اعيان اشراف پليزنسة على الانتقام منه لانفسهم ولعصابة الاشراف فى تطير اساءته لهم خاصة ولهذه العصابة عامة وتواطئ الخمسة على ذلك مع الامير غونزاغ ولايدرى هل هو الذى حرضهم اولا اوهم الذين عرضوه عليه فاجابهم واستصوب رأيهم ثم انهم دبروا امرهم مع غاية الحزم والتبصر واحكموا كتمان دسائسهم وابدوا فى تنجيز غرضهم مالامزيد عليه من قوة العزم وثبات الجنان حتى عدت جسارتهم من اغرب شئ ذكر فى التاريخ من هذا القبيل وذلك ان طائفة من المتعصبين نزلوا على حين غفلة وقت الظهيرة وهجموا على ابواب قلعة پليزنسة وكان فرنيز مقيما بها فاشتتوا خفره وطردوا رجاله وقتلوه وفى اثناء ذلك كانت منهم طائفة اخرى تتغلب على المدينة وتحرض اهلها على حمل السلاح لاحياء حريتهم القديمة التى حرمهم منها حكامهم الظلمة الفجرة فعند

مطلب قتل ابن البابا

١٠ من شهر ايلول

سنة ١٥٤٧

فطلت لتقض اهل المدينة على القلعة وكان قد اطلق منها ثلاثة مدافع وكان ذلك هو العلامة المتفق عليها مع غونزاغ وقبل ان يعرف اهل المدينة سبب الهرج ومن هو الذى اثار الفتنة رأوا جسم فرنيز معلقا من رجليه فى احد شبابيك القلعة وكان مكروها عند جميع الاهالى فلم يتأسف عليه احد منهم حين ابصروه على هذه الحالة السيئة بل فرحوا جميعا وهللوا استحسانا لما حصل ومدحوا من كان سببا فيه لكونه أنقذ وطنهم من جور هذا الظالم ثم طرحوا جسمه فى الخنادق التى حول القلعة وصارت جثته غرضا للاساءة والمسبة من الرعاع ثم رجع كل منهم الى شغله كالعادة حتى كانه لم يحصل بينهم شئ مهم

مطلب استيلاء عساكر الايمبراطور على بليزنسة

وكانت طائفة من العساكر الايمبراطورية معسكرة على ضواحى ميلان لانتظار عاقبة تلك الحادثة فبمجرد ما بلغها خبر ذلك سارت من يومها وتغلبت على مدينة بليزنسة باسم الايمبراطور واعادت الى اهلها جميع مزاياهم وخصايصهم القديمة ثم اراد هؤلاء العساكر ان يتغلبوا ايضا على مدينة پارمة بغتة ولكنها تخلصت منهم بسبب تيقظ ضباط محافظيها ونجدهم واماتتهم وكان هؤلاء الضباط قد ولاهم فرنيز محافظتها وكان البابا پولس يحب ابنه فرنيز حبا جما مع ما كان عليه من عدم الاستقامة وقبح السلوك وانهماكه على المآثم والفواحش فلما بلغه خبر قتله لحقه من الغم والاسف ما لا مزيد عليه وازدادت حسرته باستيلاء عساكر الايمبراطور على مدينة بليزنسة فجمع مشورة الكردينالات واتهم الامير غونزاغ بانه هو القاتل لابنه ليحكم محله وطلب من الايمبراطور فورا ان ينتقم له من غونزاغ بالقتل وان يرد مدينة بليزنسة الى حفيده اوكتاوة (الذى هو صهر الايمبراطور) لانه المستحق لوراثتها شرعا ولكن كان شرلكان يهون عليه ان يتهم بالمدخلية فى قتل فرنيز وان يكون عرضة لقدح الناس فيه فى نظير حرمان صهره من حق ثابت له بالارث ويشق على نفسه ترك مثل هذه المدينة العظيمة والنزول عنها فحاول البابا فيما طلبه منه وصمم على حفظ بليزنسة واراضيها

مطلب سعى البابا فى المعاهدة مع ملك فرانسا ومع اهل البنادقة

وكان تصميمه هذا مبنيا على طمعه اذ كان لشدته يمنعه عن مراعاة شعار

المروءة

سنة ١٥٤٧ م

المروءة والعدالة فغضب البابا منه كل الغضب حتى خرج عما هو عادته من الخمول والاحتراس وتهيأ للقتال ليأخذ بثار ابنه ممن قتله ويسترجع ميراثه الذي كان الامبراطور يريد حرمان عائلته منه لكنه لعلمه بانه لاقدرة له على مقاومة الامبراطور سعى اولا في المعاهدة مع ملك فرانسا وجمهورية البنادقة ليهجم معهما عليه غير أن ملك فرانسا اذذاك كان مشتغلا بامور اخرى وهي ان حلفاءه الاقدمين اعني اهل ايقوسيا كان قد هزمهم الانكليز في حرب كبيرة معدودة من اعظم الحروب التي حصلت بين هاتين الملتين مدة معاداتهما البعض فعزم هنرى على ارسال كتيبة كبيرة من رجاله الذين شبوا وشابوا في العسكرية وكان عزمه على ذلك لامرين احدهما منع الانكليز عن التغلب على بلاد ايقوسيا والثاني توسيع الدولة الفرنساوية بتزويج ابنه الدوفين لملكة ايقوسيا حتى تلحق تلك المملكة باراضي فرانسا ولاشك ان مثل هذا المشروع يترجح عنده على معاهدة البابا لاشتماله على فوائد جسيمة يظهر عليها علامات النجاح بخلاف ثمرة المعاهدة مع البابا فكان يراها بعيدة الحصول لعدة اسباب منها ان البابا كان قد طعن في السن وبلغ حد الثمانين وكانت صحته دائما في الضعف والتناقص لاسيما ولم يكن غرضه من هذه المعاهدة الا الانتقام لنفسه من الامبراطور فعوضا عن أن يعدل هنرى عن سلوك طريق الحزم والتبصر بادخال نفسه في تلك المعاهدة اخذ يخادع البابا ويشاغله بمواعيد مبهمة لم يكن غرضه منها الا مجرد منعه عن الصلح مع الامبراطور وحاول ان لا يعقد معه مشارطة بتية خشية ان يجره ذلك الى قتال الامبراطور ومع انه لم يكن مستعدا للمحاربة * واما اهل البنادقة فانهم مع ما ادركهم من الخوف والفزع باستيلاء عساكر الامبراطور على پليزنسة تأسوا بملك فرانسا وسلكوا في هذه المادة ما يسلكونه عادة من المحاولة في امر المداولات والمفاوضات ولما لم يكن للبابا بأي وجه كان ان يضرم نيران الحرب حالا كظم غيظه حتى تظهر له فرصة تعينه على الاخذ بالثار ولم ينس ما حصل في حقه من الاساءة والمنقصة فكان قلبه مملوأ بالحقد والحنق ولم يزده عجزه عن اجراء هذا المشروع الا شدة

مطلب
استدعاء مشورة الديانة المنعقدة في اكسبورغ باعادة المشورة القسيسية الى ترنتة

سنة ١٥٤٧

وتصميما وفى اثناء ما كان على غاية من الغيظ والحنق وكان متلهفا على الانتقام لنفسه عقدت مشورة الديتة بمدينة اوكسبورغ بمقتضى اوامر الايمبراطور وعرضت على البابا باسم الجمعية الجرمانية تطلب منه ان يأمر القسوس الذين ذهبوا الى مدينة بولونيا بالرجوع الى ترنتة وان يشرعوا فيما كانوا عليه من المفاوضات والمذاكرات وكان قد حصل للايمبراطور مشقة كبيرة فى حمل مشورة الديتة على موافقته فى طلب ذلك من البابا وكان ايضا قد ظهر له اختلاف كثير بين آراء المعتزلة فيما ألزمهم به من الانقياد لما تحكم به المشورة القسيسية فكان بعضهم لا يرضى بذلك مطلقا وكان بعضهم يميل الى قبول احكامها بشرط ان تخفف الامور الصعبة التى كان الايمبراطور يريد الزامهم بها فبذل جهده فى استمالة بعضهم وايقاع التفاقم والشقاق بين البعض الآخر وهدد المنتخب البالاطينى وكان ضعيف الشوكة يخشى ان يعاقبه الايمبراطور فى نظير الامداد الذى امد به قبل ذلك عصبة سمالكالد واما الامير موريس فلم يصدر عنه ادنى توقف ولا معارضة فيما كان يقصده الايمبراطور لانه كان يؤمل منه ان يخلى سبيل حاكم هيسة وان يوليه عوضا عن الامير منتخب سكس واما الامير منتخب براندبورغ فانه كان اقل اهل عصره ميلا الى المصالح لدينية فاقتدى بالاميرين المذكورين واجاب الايمبراطور فى كل ما طلبه بدون توقف ثم ان الايمبراطور بعد أن استمال هؤلاء الامراء بقى عليه ان يستميل رسل العمالات والمدن وكانوا اشد منهم تدقيقا ومحافظة على الاصول والرسوم الجارية عندهم قديما ومع ما بذله من الجهد فى ترهيب بعضهم وترغيب البعض الآخر بالمواعيد المزخرفة لم يرضوا ان يلتزموا باقرار ما تحكم به المشورة القسيسية الا اذا التزم هو بانه يأذن لعلماء اللاهوت سواء كانوا من حزب الكنيسة او حزب المعتزلة ان يدخلوا فى مشورة الديتة ويبدوا فى المذاكرة ما شاؤا من الآراء وان لا يحكم فى المسائل الخلافية الا بمقتضى نص الكتاب المقدس والرسوم والعوائد التى كانت جارية فى الكنيسة بحسب الاصل ولما عرضوا على الايمبراطور التقرير المحتوى على

سنة ٧ ٤ ٥ ١

هذه الامور سالك في التحيل والمكر في هذا المعنى مسلكا غريبا وذلك انه لم يقرأ التقرير ولم يطلع على مافيه من الشروط التي اشترطتها المدائن الايمبراطورية بل اظهر أنه معتقد أن تلك المدائن قد رضيت بما طلبه منها وشكر رسلها على قبولها وامتثالها الاوامر المشورة القسيسية فتعجب هؤلاء الرسل مما سمعوه من الايمبراطور ولم يرضوا ان يغضبوه بل رأى كلا الفريقين ان ترك هذا الامر على الابهام اولى من التوضيح الذي يؤدي الى المجادلة بل ربما ادى الى الحرب ولما فاز الايمبراطور من مشورة الدينة بهذا الامتثال الظاهري لاوامر المشورة القسيسية اتخذ ذلك علة جديدة يستند اليها في طلب اعادة تلك المشورة الى مدينة ترنتة ولكن لما كان البابا يودّ غيظ الايمبراطور ونكايته وكانت نفسه تأبى انتقال تلك المشورة الى ترنتة صمم على عدم الاجابة ولكن كان لا يريد أن يلاحظ عليه الناس ويفهموا ان عدم اجابته الى ذلك مبني على كراهته للايمبراطور فحاول حتى حمل القسوس الذين كانوا بمدينة بولونيا على عدم الرضاء بالانتقال الى ترنتة والمعارضة في عقد المشورة القسيسية بها وذلك انه احال عليهم النظر والبحث في الاستدعاء الذي ورد اليه من مشورة الدينة وكانوا مجمعين على تحيزما أوصاهم به في هذا الغرض نواب البابا فابدوا ان رجوع المشورة القسيسية الى مدينة ترنتة بعد خروجها منها يزري بمقام اربابها ويحط بشأنهم مالم يذهب القسوس الذين تخلفوا بمدينة ترنتة الى مدينة بولونيا ليجتمعوا فيها باخوانهم وينضموا اليهم وأبدوا ايضا انه ولو صار هذا الاجتماع لا يرجى حصول فائدة في شأن الديانة من مذاكرات المشورة القسيسية مادام اهل المانيا لا ينقادون الى اوامر تلك المشورة واحكامها فلابدّ ان تكون هنالك ادلة قاطعة تدل على تصميمهم على الطاعة والامتثال لما سيصدر عنها من الاوامر والاحكام

مطلب
محاولة البابا في اجابة هذا الاستدعاء

٢٠ من شهر كانون الاول

وقد ارسل البابا هذا الجواب الى الايمبراطور وحرّضه على ان يرضى بهذه الامور المطلوبة حيث انها معقولة لا تقبل تعللا ولكن كان الايمبراطور

مطلب
مناقضة الايمبراطور في عقد المشورة القسيسية بمدينة بولونيا

سنة ١٥٤٨

يعلم ان من طبع البابا الغش والخداع فلم ينخدع بهذه الحيلة الخالية عن حسن السبك وايقن ان القسوس الذين في بولونيا لايتجاسرون على اتباع غير ما يأمرهم به البابا وليسوا الا كآلات في ايدى غيرهم فحوابهم ليس الا عن لسان البابا وعلى طبق مرامه ولعلمه ان المشورة القسيسية مادامت بمدينة بولونيا لايسوغ له ان يطمع في ان تكون له فيها كلمة نافذة حتى يمكنه ان يحمل اربابها على اعانته في تنجيز اغراضه رأى انه لابد له من الاحتراس بما يمنع به البابا عن التمكن من هذه المشورة المهمة والا فبواسطتها يمكنه ان يضر به كل الضرر فارسل الى مدينة بولونيا اثنين من امناء الدين برهنا بحضرة نواب البابا على أن نقل المشورة القسيسية من مدينة ترنتة لم يكن له موجب صحيح ولا ضرورة تدعو اليه وانما كان مبنيا على علل باطلة وحجج عاطلة وقالا ان تلك المشورة مادامت منعقدة بمدينة بولونيا لاتكون الا عبارة عن جمعية خرجت عن اصول دين النصرانية فتكون احكامها لاغية واوامرها باطلة وان البابا ومن تبعه من القسوس قد تركوا مصلحة الدين واهملوها وحيث ان الايمبراطور هو حامي الدين وظهيره فلا بد له ان يستعين بما منحه الله تعالى من الشوكة والصولة ليقي الكنيسة مما هي عرضة له من المصائب وبعد ذلك بايام طلب سفير الايمبراطور الذى كان بمدينة رومة ان يقابل البابا فاذن له في ذلك واجتمع عند البابا الكردينالات وسائر رسل الدول الاجنبية فاخذ سفير الايمبراطور بحضورهم يقدح في سلوك القسوس الذين بمدينة بولونيا ويشنع عليهم بما لا يليق بمقامهم

١٦ من شهر كانون الثاني

٢٣ من شهر كانون

ثم ان الايمبراطور بعد قليل اخذ في اجراء ما كان يفزع به البابا وارباب مشورة بولونيا القسيسية من التهديد والتخويف وذلك انه افاد ارباب مشورة الدينة بانه قد بذل جهده في تحصيل جواب مناسب لسؤالهم الذى عرضوه على قسوس مدينة بولونيا ولم ينجح في سعيه وذكر لهم ايضا ان البابا لم يحصل منه ادنى التفات الى ما طلبوه منه ولا الى ما بذله هو من الاجتهاد في مصلحة الكنيسة وأبى ان يأذن لارباب المشورة القسيسية بالاجتماع في مدينة ترنتة

مطلب
انشاء الايمبراطور لمذهب ديني لاجل العمل به في بلاد المانيا

وانه

سنة ١٥٤٨م

ولنه وان كان لا ينبغى اليأس من عقد تلك المشورة القسيسية فى محل تكون به حرة مطلقة فى مفاوضاتها ومذاكراتها حتى تحكم بما شاءت الا ان مثل ذلك يبعد حصوله مع توقف البابا بهذه المثابة وان بلاد المانيا قد تمزقت بسبب الشقاق الحاصل فى الدين وان صفوة الدين قد تكدرت وعقول الناس قد اضطربت بالمذاهب الجديدة وتشعب عقائدها وكثرة الخلاف فيها مما لم يكن له وجود قبل ذلك عند النصارى وافهمهم انه بالنظر لكونه رئيس الايمبراطورية وحامى حمى الكنيسة الرومانية قد انتخب عدة من علماء اللاهوت المشهورين بالفضل والمعارف وامرهم بجمع مذهب جديد ليتمسك به الناس ولو بطريق الجبر والالزام الى ان تنعقد مشورة قسيسية على وفق المرام * ثم ان الذين جمعوا هذا المذهب هم يغلوغ و هلدنغ و اغريقولا اما الاولان فكانا من اكبر رجال الكنيسة الرومانية وكان لهما مزيد اعتبار ووقار لحسن اخلاقهما وميلهما بالطبع الى الصلح والاصلاح بين الناس واما الاخير فكان من علماء اللاهوت المعتزلة وقد اتهم تهمة صحيحة لقيام بعض قرائن عليها وهى انه لبعض هدايا اهديت اليه واطماعه فى امور اخرى جنح الى أن يغدر فى هذه الفرصة بحزب المعتزلة او يسعى فى اضلاله وكان المذهب الجديد على منوال البنود التى قدمت الى مشورة الديتة سنة ١٥٤١ من الميلاد لقصد الاصلاح بين حزبى الكنيسة والمعتزلة ولكن حيث ان الايمبراطور من ذلك الوقت كان قد تغير حاله وساعدته الايام حتى صار لا حاجة له بمداهنة حزب المعتزلة ومراعاتهم عدل عما كان عليه اولا من ترغيبهم بالاقطاعات الواسعة الكبيرة فكان الكتاب الجديد المؤلف فى الدين محتويا على مذهب جديد أغلبه مطابق لمذهب الكنيسة الرومانية الاان معظمه كان اسلس عبارة واعذب تركيبا وكانت احكامه ما بين عبارات مقتبسة من الانجيل واخرى مبنية على حسن السبك وان كانت مشتبهة مشكلة المعنى وقد اقر هذا الكتاب جميع اصول القاثوليقية وعقائدهم واثبتوا فيه سائر الاصول والاحكام التى كان يعدها المعتزلة من البدع الدخيلة فى الدين وانما تساهلوا فى امرين خففوا فى العمل بهما احدهما انه ابيح

سنة ١٥٤٨

القسوس الذين كانوا متزوجين ولم يرضوا بفراق نسائهم ان يبقوا على وصف القسيسية ولا يمنعوا عن اجرآء شئ من وظائفها وثانيهما أن الاقاليم القسيسية التى كانت متعودة على استعمال الخبز والنبيذ فى ترسيم القربان المقدس المسمى اوخاريستى ابيح لها المحافظة على مزية الترسيم بهذين الصنفين غير انهم نصوا فى هذا الكتاب على ان الترخيص فى هذين الامرين ليس الا لاجل مسمى وماذلك الا لقصد ايقاع الصلح ومنع التفاقم والشقاق ومراعاة لضعف عقول الناس وكثرة اوهامهم الباطلة العاطلة

قوله اوخاريستى هو من الرسوم الجارية عند النصارى ومدلوله انهم يتناولون الخبز على سبيل كونه جسم المسيح والنبيذ على سبيل كونه دمه

ثم ان المذهب المذكور قد اشتهر فيما بعد باسم النائب الوقتى لانه كان مشتملا على قوانين وقتية بمعنى انه يجرى العمل عليها حتى تنعقد مشورة قسيسية عامة مطلقة التصرف وقد عرضه الايمپراطور على مشورة الدينة وافهمها ان مقصده من ذلك مقصد حسن وهو ازالة الخلل والتعكير الحاصل فى الكنيسة وتجديد الراحة والامن بها وانه يؤمل ان يحل هذا المذهب عندها محل القبول وان يعين اتم الاعانة على نيل المرام وبعد ان تمت قرآءة تقرير الايمپراطور وثب مطران ما ينسة ورئيس ديوان المتخبين قائما على قدميه وشكر الايمپراطور على ما بذله من الجهد فى الطاعة والتقوى من تأييد الدين وجلب الراحة والامن الى الكنيسة وأبدى عن لسان مشورة الدينة انهم قد استحسنوا المذهب الجديد وأقروه وانهم قد صمموا على اتباعه والعمل به حرفا بحرف فتعجب من فعله ارباب المجلس لمخالفة ذلك للرسوم والقوانين الجارية عندهم وعجبوا ايضا من جسارته حيث حكم بشئ عن لسانهم قبل ان تحصل فيه المذاكرة بينهم ولكن لم يتجاسر احد منهم على معارضة هذا المطران فيما ابداه بل بعضهم منعه الخوف وبعضهم منعه الحياء واما الايمپراطور فاعتبر قول المطران اقرارا صحيحا لمذهبه الجديد واخذ يبذل جهده فى اجرآئه والعمل بمقتضاه حتى كأنه امر صادر من الايمپراطورية

مطلب
عرض هذا المذهب المسمى بالنائب الوقتى على مشورة الدينة

١٥ من شهر ايار

مطلب
اقرار الدينة لهذا المذهب كرها

وفى مدة انعقاد المشورة المذكورة كانت زوجة حاكم هيسة واولاده

يبدلون

سنة ١٥٤٨

مطلب
خيبة السعي في تخليص حاكم هيسة

يبذلون جهدهم فى استعطاف ارباب تلك المشورة واستمالتهم الى ترجى الايمبراطور فى التفريج عن هذا الامير حيث كان حاله قد ساء من اسره وكان الامير موريس منتخب سكس يساعدهم على ذلك بجميع جهده غير ان الايمبراطور كان لا يريد اطلاقه فرأى ان صبره على ذلك حتى يأتى اليه طلب ارباب مشورة الديتة ليس من الصواب لان عدم اجابة هؤلاء الناس المحترمين وردهم خائبين مخالف لاصول الحزم والكياسة فعجل بافهامهم تفصيلا ما حصل بينه وبين حاكم هيسة وبين لهم الاسباب التى حملته على اسره وذكر ان تلك الاسباب لا تسوغ له ان يمن عليه باطلاقه وتخلية سبيله ولا شك انه لم يكن ثم اسباب مقبولة يصح ان يستند اليها فيما صمم عليه من ابقاء هذا الامير على الاسر وانما ذلك من محض الظلم الذى تنفر منه النفوس ولكن كان يعلم انه يكفيه فى ذلك ان يتعلل ولو بعلل واهية حيث ان المشورة المذكورة كانت تراعيه كل المراعاة ولا تخشى شيأ بقدر ما كانت تخشى من اظهار كونها تعرف حقيقة افعاله وكانت ترى ان التغافل فى هذا الخصوص اسلم عاقبة لها فلذا قبلت ما تعلل به فى ذلك وعدته من العلل الصحيحة التى يكفى الاحتجاج بها ويصح الاستناد اليها فبعد أن سألوه ان يفرج عن حاكم هيسة ويشمله بعفوه وكرمه ضربوا عن ذلك صفحا وتركوا التوسط لدى ذلك الظالم لهذا المظلوم ولكن اراد الايمبراطور أن يضعف ما قام بقلوب الناس من التألم منه بسبب صعوبته وعدم لين عريكته وان يريهم انه كما يعاقب على المعصية بالانتقام يكافىء على الطاعة بمزيد الانعام فقلد الامير موريس بالمنصب الانتخابى واجرى فى تقليده العوائد والرسوم المقررة وصنع له موكبا عظيما وكان ذلك بمحل قريب جدا من المحل الذى كان المنتخب المعزول مسجونا فيه بحيث كان يتمكن من رؤيته اذا نظر من الشبابيك ولكن لم تنقص هذه الاساءة ما كان عليه من السكون والثبات بل نظر الى الاحتفال ورأى خصمه وهو يتوج بالتاج المنتزع منه من غير ان يتفوه بشىء يزرى بشممه او يخل بشرف نفسه الذى كان لم يزل محافظا عليه مع ما حصل له من المصائب والنكبات

مطلب
عدم قبول المذهب الجديد عند حزب الكنيسة وحزب المعتزلة

و بمجرد انفضاض مشورة الدينة اذاع الايمبراطور مذهبه الجديد باللغة الالمانية واللغة اللاطينية وحصل فى هذا المذهب من المناقضة والمعارضة ما يحصل عادة لمثله من المذاهب التى عرضها على الناس كانوا فى منازعة وشقاق مع بعضهم فقام كل من حزبى الكنيسة والمعتزلة على الايمبراطور وناقضه فى هذا المذهب * اما المعتزلة فقالوا ببطلانه معللين ذلك بانه مشتمل على الضلالات والبدع الفاحشة الموجودة فى مذهب الكنيسة وانما افرغت فى قالب آخر لايخفى الاعلى كل غبى جاهل او مخادع متغافل واما حزب الكنيسة فنبذوه وراء هم ظهريا قائلين انه قد اهملت فيه احكام الكنيسة او أوتى بها ملتبسة مبهمة بحيث تضل العقول السخيفة فضلا عن كونها ترشد الجهال وتقمع اعداء الدين من اهل الزيغ والضلال فكان علماء دين لوتير يقدحون فى هذا المذهب من جهة وكبير طائفة الدومينيقان يشنع عليه كل التشنيع من جهة اخرى ولما عرف مضمون هذا المذهب فى مدينة رومة اشتد غضب احزاب الكنيسة والقسوس وتظلموا من الايمبراطور وجسارته حيث تعدى على وظيفة ائمة دين النصرانية و بلغ به الادعاء والزعم الى ان تصدى مع استعانته باللاييك او العوام الى تفسير احكام الملة المسيحية وتحرير اصولها وقالوا ان مثله فى ذلك كمثل عزيا حين انتهك حرمات الله او كمثل من تجاسر من الايمبراطرة الذين ساءت سيرتهم بما تصدوا اليه من نسخ دين الكنيسة النصرانية بل قالوا انه فى هذا المعنى كهنرى الثامن وخافوا ان يتأتى بهذا الملك ويتغلب على لقب رئيس الكنيسة النصرانية ويغتصب منه حق الافتاء والقضاء واجمعوا على ان الايمبراطور شرلكان قد صار عدوا لدين النصرانية وانه يخشى منه على هذا الدين فيلزم اتخاذ واسطة قوية لحماية الدين المذكور والذب عنه قبل ان يتسع الخرق عليهم فيخيب سعيهم ويذهب اجتهادهم هباء منثورا

قوله عزيا و يقال ايضا عزياهو بضم العين المهملة وتشديد الزاى المكسورة بعدها مثناة تحتية مفتوحة فألف فهاء مضمومة فواو وهو أحد ملوك سبطى لهوذا و بنيامين وكان من امره انه لما قتل ابوه امصيا او أمصياهو تولى بعده على هذين السبطين وكان عمره يومئذ ست عشرة سنة وملك اثنين وخمسين سنة و بلغت عساكره ثلثمائة الف مقاتل ثم لما خالف سنة اكنوارة فى استعمال البخور المحترم على سبط لاوى دعا عليه بعض الاحبار فأصابه البرص وتنغصت عليه ايامه وضعف امره وتغلب عليه ولده يوثم وكانت وفاته سنة ٩٩٩ من وفاة موسى عليه السلام

مطلب
رأى البابا فى هذا الشان

وكان البابا قد وقف بالتجاريب والممارسة على امور البشر واحوالها اكثر من غيره من القسوس فكان رأيه فى هذا الشأن اصوب واحكم ووجد لنفسه الراحة فيما افزع ارباب مشورته واهل ديوانه واوجب لهم الحيرة والقلق وذلك انه

سنة ١٥٤٨

تعجب من الامبراطور حيث مع فراسته وحزمه داخله الغرور لمجرد نصرة واحدة انتصرها حتى توهم انه يمكنه بها ان يكون مشرعا للناس وان يجرى عليهم قوانينه واحكامه ويكلفهم بأشياء من مواد الدين مع انهم كانوا لا يطيقون اذ ذاك امر احد فى هذا الخصوص وادرك ان الامبراطور لو انضم الى احد الفريقين المتشاحنين ببلاد المانيا لكان خيرا له فى قمع الفريق الآخر وان ما سولته له نفسه بناء على غروره بالنصرة المذكورة من تعلق آماله بقمع الفريقين جميعا هو مما لا يمكن حصوله بل ان مذهبه لا تطول مدته حيث ان جميع الاحزاب قائمة على رفضه وعدم قبوله وليس فيهم من يتصدى لتأييده والمدافعة عنه فلا حاجة الى سعيه بنفسه فى ابطال مذهب لابد وان ينهدم من اساسه بمجرد فتور همة مجدده ويصير نسيا منسيا

مطلب
سعى الامبراطور فى اجراء مذهبه

ولما كان الامبراطور متولعا بنشر مذهبه بذل غاية جهده فى اجرائه وتنفيذه حسبما كان مصمما عليه وكان المنتخب البالاطينى ومنتخب براندبورغ والامير موريس لاجل تنفيذ مآربهم وتحصيل اغراضهم يظهرون الميل الى طاعة الامبراطور والامتثال الى ما يأمر به بخلاف غيرهم فلم ينحوا نحوهم فى ذلك بل اظهروا الاباء والنفور فان الامير حنا ملتزم براندبورغ انسباخ مع كونه بذل جهده مع الامبراطور فى حربه مع عصبة سمالكالد ابى العدول عن الاصول الدينية القديمة وذكر الامبراطور بالمواعيد التى صدرت عنه الى حلفائه من المعتزلة بانه يتركهم على حرية الديانة بحيث لا يتعرض لهم فى شئ مما يخص امر دينهم فبناء على ذلك لا ينبغى قبول هذا المذهب ولا يجب عليه اتباعه ووقع مثل ذلك ايضا من بعض امراء آخرين وابوا ان يقروا هذا المذهب فاغتنم الامير منتخب سكس المسجون هذه الفرصة واظهر من العزم والثبات ما استوجب به المدح والثناء الجميل وذلك ان الامبراطور لعلمه بأن هذا الامير اذا اتبع مذهبه الجديد اقتدى به فى ذلك حزب المعتزلة بذل جهده فى حمله على اقرار المذهب المذكور وسلك معه لذلك سبيل المداهنة والترغيب كما سلك مسلك التهديد والترهيب فكان احيانا يعده بتخلية سبيله واطلاقه من قيد

سنة ١٥٤٨

الاسر واخرى يهدده بان يعامله باشد مما هو فيه ومع ذلك كله لم يتذعر ولم يفزع بل صمم على عدم العدول عن عقيدته وبعد أن ابدى تصميمه على بقائه على دين المعتزلة قال لا ترضى نفسى وانا شيخ هرم ان اعدل عن مذهب قضيت شبابى فى تأييده والمدافعة عنه ولا اغتر بكون عدولى عنه يترتب عليه خلاصى وفك اسرى ولم يبق من عمرى الا القليل فانا لا اتحول ولا اعدل عن مذهب كابدت من اجله المشاق ولان اقاسى من اجله أكثر مما قاسيت احب الى من ذلك وانى لاوثر أن ابقى فى السجن محترما مبجلا عند اهل الفضل مطمئن السريرة آمن الذمة من القلق وتطرق الوساوس على أن اظهر على وجه الارض ثانيا والناس تسلقنى بألسنتهم على نفاقى بعدولى عن دين المعتزلة الذى هو الحق عندى فتنغص على بذلك بقية ايامى انتهى وبهذا التصميم دل هذا الامير ابناء وطنه على الطريق التى يسلكونها فى هذا المعنى فنسجوا على منواله وكان الايمپراطور يؤمل منه خلاف ذلك فلما رأى منه هذه المعاندة غضب كل الغضب وزاد عليه فى التضييق والتشديد ونقص عدد خدمه وطرد من كان عنده الى ذلك الوقت من قسوس المعتزلة بل وأخذ منه الكتب الدينية التى كان يتسلى بها فى سجنه واما الامير حاكم هيسة الذى كان مسجونا ايضا عند الايمپراطور فلم يبد فى هذا المعنى ما ابداه منتخب سكس من العزم والثبات بل لطول مدة اسره عيل صبره وقل عزمه وداخله القلق والجزع حتى صمم على ان يفتدى نفسه باى فداء كان فكتب الى الايمپراطور انه قد اقر المذهب الجديد وانه يمتثل الاوامر الايمپراطورية فى كل ما اراده الايمپراطور ولكن كان شرلكان يعلم ان هذا الامير ولو فعل ما فعل لا يقتدى به فى التمسك بمذهبه اولاده ولا رعاياه ولا يمكنه حملهم على ذلك فلم يقبل منه صرفا ولا عدلا بل ابقاه مسجونا على حاله من غير أن يخفف عنه ادنى شىء من اثقال الاسر فباء حاكم هيسة منه بالخزى والخذلان لكونه سلك ضد ما سلكه الامير منتخب سكس من غير أن تحصل له ادنى مراعاة من طرف الايمپراطور بل جلب لنفسه بهذا المسلك الذميم ازدراء الناس له وسقوطه من اعينهم

وقد

سنة ١٥٤٧

مطلب
امتناع المدائن الحرة عن قبول مذهب الامبراطور

وقد كانت مناقضة المدائن الامبراطورية لمذهب شرلكان اكثر من غيرها وذلك ان هذه المدائن كانت اشبه بجمهوريات صغيرة وكان اهلها متولعين بالحرية والاستقلال وكانوا اول من بادر الى قبول دين المعتزلة بمجرد ظهوره وانتشاره ببلاد المانيا لان الميل الى الامور الجديدة والابداعات من خصوصيات اهل الحرية وكانت احزاب المعتزلة تكثر وتزداد فى تلك المدن وكان مشاهير علماء اللاهوت قد استوطنوا بها بوظيفة وعاظ ومعلمين واستولوا على ادارة المدارس والتعليم حتى تخرج عليهم تلامذة ماهرون متمكنون من عقائد دين المعتزلة ومتولعون بتأييدها والذب عنها ولم يكن هؤلاء التلامذة على قليل من العلم والمعارف حتى يقتدوا بغيرهم بل كانوا متمكنين من معرفة الاصول والقواعد وكانوا قد تعودوا على المجادلة والمناظرة فى المسائل الخلافية حتى كانوا يرون ان لهم الحق فى مباشرة الامور بأنفسهم وانهم اهل لذلك فبمجرد أن انتشر مضمون مذهب الامبراطور بين الناس اجتمعوا مع بعضهم وصاروا عصبة واحدة واتفقوا على انكاره وعدم اقراره فرفعت الشكاوى الى الامبراطور من مدينة استراسبورغ ومدينة قونسطنسه ومدينة بريمة ومدينة ماغدبورغ وعدة مدائن اخرى اصغر منها وكان مضمون تلك الشكاوى تظلم هذه المدن من كون المذهب الجديد لم يحصل فيه مذاكرة بمشورة الديتة على حسب الاصول الجارية وانها تتضرع الى الامبراطور فى كونه لا يكدر سرائر الناس وذمتهم بحمله لهم على قبول مذهب يظهر لهم انه مخالف للقواعد الصحيحة والاصول المرضية التى جاء بها النص فى الشريعة المنزلة على عيسى عليه السلام ولكن لما كان الامبراطور قد ألزم عدة من امراء الامبراطورية بقبول مذهبه واقراره لم يعتن بشكوى المدائن المذكورة ولم يعبأ بما عرضته عليه من التظلم والترجى مع انها لو تعاهدت مع بعضها وصارت عصبة واحدة لأمكن ان يخشى بأسها ويخاف سطوتها لكنها كانت متباعدة عن بعضها فكان يسهل عليه قهرها واحدة بعد واحدة قبل أن تجتمع وتنضم الى بعضها

سنة ١٥٤٨

مطلب الزامها بقبول المذهب المذكور

ثم ان الايمبراطور رأى انه يلزمه لاجل تنجيز غرضه ان يستعمل وسائط قوية و يبادر باجرائها قبل ان يتسع الوقت مع اعدائه و يدبروا امرهم مع بعضهم فيصعب عليه قمعهم وادخالهم تحت الطاعة وكان قد اتخذ المبادرة والسرعة قاعدة لايعدل عنها فى سلوكه ومشروعاته فبدأ بمدينة اوكسبورغ ولا يخفى أن حضور عساكره بهاربما كان كافيا فى افزاع اهلها ومع ذلك كان الايمبراطور ميقنا انهم مصممون على عدم قبول مذهبه كغيرهم من اهالى الايمبراطورية فأمر فرقة من عساكره ان تتغلب على ابوابها وزع الباقى على ازقتها وحاراتها ثم جمع سكانها وامرهم صريحا بابطال صورة حكومتهم التى كانوا عليها وقتئذ ونقض ما كان بينهم من المعاهدة والمؤاخاة وعين منهم جماعة قليلة ليقوموا من الآن فصاعدا بادارة المصالح وتدبيرها واخذ على كل واحد من هؤلاء الجماعة العهد والميثاق ان لايعمل الا بموجب المذهب الجديد ولايعدل عنه الى غيره فى شئ ما ولاشك ان هذا الامر من باب الظلم الفاحش حيث فيه حرمان اهل المدينة من اشراك ولاتهم فى حكومة بلدتهم ومنعهم من رؤية المصالح وجعلهم تحت حكم اناس لافضل لهم الا الضعف والجبن حيث امتثلوا أمره بدون توقف واذا نفروا جميعا منه غيرأنهم لعجزهم عن مقاومة الايمبراطور وقتئذ وكان اقوى منهم بطشا واشد بأسا لم يسعهم الا السكوت والانقياد ثم ان الايمبراطور ترك فى المدينة المذكورة فرقة من جنوده لاجل محافظتها وقصد مدينة اولم فقمع اهلها وبدل حكومتها وقبض على من لم يرض من علمائها بمذهبه وسجنهم واخذهم معه حين ارتحاله عن هذه المدينة مكبلين فى السلاسل والاغلال ولم تكن ثمرة هذه القسوة مقصورة على كون هاتين المدينتين اللتين هما اقوى المدائن واكبرها صولة وشوكة قبلتا مذهبه والتزمتا بالعمل به بل ترتب عليها ايضا ان وقع الرعب والفزع فى سائر المدائن حتى خشيت انها ان بقيت على عصيانها لحقها الضرر والاذى فعلى طبق مرام الايمبراطور حصل ان عدة من المدن المذكورة بادرت بطاعته والتزام كل ما يلزمها به لتسلم من بطشه و باسه غيرأن هذه الطاعة لم تكن ناشئة

الا

سنة ١٥٤٨م

الا عن الخوف منه لا عن طيب نفس وخلوص قلب فلم ينشأ عنها نقض ولا ابرام في عقائد اهل المانيا وانما عملوا بظاهر مذهبه على قدر ما يكون به دفع الضرر عنهم حتى ان وعاظ المعتزلة كانوا اذا بينوا للناس رسوم المناسك وشعائر العبادة المفروضة في مذهب الامبراطور يوضحون لهم ما يترتب عليها على وجه بحيث لا يعدلون به عن عقائدهم الاولى وكان الناس منذ ظهر دين المعتزلة قد تغيرت احوالهم بالكلية حتى صاروا كأنهم جيل جديد وخلق آخر وكان هذا الدين قد تمكن من قلوبهم حتى صاروا يبغضون شعائر دين الكنيسة الرومانية بل حصل في عدة بلاد أن القسوس القاثوليقية الذين اعيدوا الى كنائسهم التي كانوا فيها قبل ذلك لم يمكنهم ان يقوا انفسهم من اساءة الرعاع وايذائهم وحصل لهم غاية المشقة والتكدير في اجراء وظائفهم الدينية ومن ذلك يعلم ان انقياد كثير من المدن لم يكن الا بحسب الظاهر فقط وان اهلها المتعودين على حب الاستقلال والحرية لم يخضعوا الى مذهب الامبراطور الا مع اشد الكراهة والتنغص لان عقائدهم كانت منابذة لاصول هذا المذهب ورسوم العبادات المقررة فيه ولكنهم الجأتهم الضرورة الى كتمان ما كان قائما بأنفسهم من الغيظ والحنق وقد جرت العادة بان البشر لا يدومون على التزام ما التزموا به كرها فبعد مدة اظهر هؤلاء الناس ما كان كامنا في نفوسهم ولم تزدهم ضرورة الكتمان السابقة الا حمية وقسوة

مطلب
امر البابا بفسخ المشورة القسيسية المنعقدة في مدينة بولونيا

ولما انشرح صدر الامبراطور باذلال اهل المانيا وادخالهم تحت طاعته سافر الى مملكة البلاد الواطية مصمما على الزام المدائن التي كانت لم تزل الى ذلك الوقت عاصية عليه بقبول مذهبه واخذ معه اسيريه وهما الامير منتخب سكس والامير حاكم هيسة اما للخوف من ابقائهم ببلاد المانيا او لانه اراد أن يفتخر بين ابناء وطنه الفلمنكيين بكونه قهر اعداءه وظفر بهم لشدة بطشه وصولته وقد بلغه قبل وصوله الى مدينة بروكسلة

١٧ من شهر ايلول

ان وكلاء البابا بمدينة بولونيا قد فسخوا المشورة القسيسية واخروا انعقادها الى وقت غير معين وان الاحبار الذين كانوا مجتمعين في هذه المدينة قد انصرفوا الى

سنة ١٥٤٨

أوطانهم * وكانت الضرورة قد الجأت البابا الى سلوك هذا المسلك لانه بعد انفصال من عارض في نقل المشورة القسيسية الى مدينة بولونيا وبعد سفر جماعة آخرين كانوا قد سئموا من طول المكث بهذه المدينة من غير ان يصدر لهم اذن بالمذاكرة في المصالح التي كان لاجلها انعقاد تلك المشورة لم يبق من اربابها الا افراد قلائل اغلبهم ليس من الاحبار المعتبرين فلم يكن من اللائق حينئذ ان تسمى هذه الجمعية باسم المشورة القسيسية العامة وبناء على ذلك رأى البابا ان الصواب فسخ تلك المشورة حيث انها سقطت الى حضيض الازدراء ودرك الاحتقار وظهر بها لسائر الملل النصرانية عجز كنيسة رومة نعم ان أمر البابا بفسخ تلك المشورة كان لابد منه لمقتضيات الاحوال اذ ذاك غير انه اشعر بشيء لا يليق وذلك انه بهذه الفعلة كان كمن منع عن مريض دواءه وقت العمل يعني وقت ان احس المريض موافقة هذا الدواء لمزاجه وصلاحيته لمداواة دائه هذا ما كان يفهمه الايمپراطور من سلوك البابا فقابل بين ما وقع من البابا في هذا الغرض من الاهمال والتساهل وبين ما بذله هو من الجهد في محق دين المعتزلة ليجعل البابا مكروها عند القاثوليقية وأمر القسوس الذين كانوا من حزبه ان يبقوا في مدينة ترنته ليتبين للناس ان المشورة القسيسية لم تزل موجودة وليكونوا على اهبة واستعداد حتى تلوح لهم الفرصة فيشرعوا ثانيا في المذاكرة لمصلحة الكنيسة الرومانية

مطلب ملاقاة الايمپراطور لابنه فيليش بمملكة البلاد الواطيه

وكان شرلكان يحب التنقل في ممالكه من مملكة الى اخرى ولكن ذلك بمفرده لم يكن السبب في رحلته الى بلاد الفلمنك بل كان يريد ملاقاة ابنه فيليش ولم يكن له سواه من الذكور وكان في السنة الحادية والعشرين من عمره ودعاه من اسپانيا الى بلاد الفلمنك ليثبت له بموجب اقرار مشورة وكلاء مملكة البلاد الواطية حق الوراثة لملكها من بعده وكان له من احضاره مأرب آخر وهو تسهيل امر جسيم مهم سأوضحه عن قريب حق التوضيح وابين الغرض منه كما ابين ما ترتب عليه وذلك الامر هو تتويج ابنه فيليش عوضا عنه بتاج الايمپراطورية

سنة ١٥٤٨

وكان فيليبش المذكور قد سلم حكومة اسبانيا للامير مكسميليان بكرى عمه الملك فردينند وكان الامبراطور قد زوجه بنته مارية وبعد أن سلمه تلك الحكومة سافر الى ايطاليا ومعه جم غفير من امرآء اسبانيا واشرافها وكان قبطان الدونانما القائمة بخفره هو الامير اندره دورية وكان حينئذ قد طعن فى السن ومع ذلك طلب ان يتشرف بخدمة الامير فيليبش كما تشرف بخدمة ابيه ورسى

٢٥ شهر تشرين الثانى

فيليبش سالما على مدينة جنوية وسافر منها الى ميلان ثم مر ببلاد المانيا ونزل بالديوان الملوكى بمدينة بروكسيلة وعما قريب بادرت مشورة وكلاء برابنطه ومشاورسائر الاقاليم الاخرى كل اقليم بحسب رتبته الى

سنة ١٥٤٩ غرة شهر نيسان

اقراره على حسب الرسوم الجارية بحق الوراثة بعد أبيه وهو كذلك صدر منه على حسب العادة ميثاق بان يحافظ على مزاياهم ولا يتعدى على شئ منها وتلقوه فى مملكة البلاد الواطية مع الاحتفالات والتشريفات العجيبة بجميع المدآئن التى مر بها ولم يترك السكان شيأ مما يدل على احترامهم له ولا مما يكون سببا فى انشراح صدره فكنت ترى فى كل محل اعيادا ومواسم والعابا كالعاب التورنواس وغيرها من الالعاب والافراح العامة التى تتباهى باشهارها الملل الكسيبة اذا حصلت حادثة تحملها على العدول عن مذهب الاقتصاد والتوفير المتعودة عليه ولكن فى اثناء تلك الافراح والمواسم ظهر على فيليبش ما يدل على فظاظته وخشونة طبعه لاسيما وهو مع صغر سنه كان لا يوجد فى ذاته شئ يؤلف فهو وان كان له مصلحة جسيمة فى استمالة قلوب الناس حينئذ ليفوز بمرامه من اقرارهم اياه على حق الوراثة لابيه فى الحكم غلب عليه طبعه فلم يمكنه ان يظهر لهم البشاشة حتى تنشرح منه صدورهم ويحببوه فى مطلوبه كيف وكان فى جميع اوقاته ملازما للتوءدة والشمم مترديا بردآء الهيبة والوقار يظهر المحبة والميل الى الاسبانيوليين الذين كانوا بصحبته ويرجح على رؤس الاشهاد عوائد اسبانيا عن غيرها فأغضب ذلك الفلمنكيين وكان سبب العداوة بين هاتين الملتين ومنشأ الفتنة الكبيرة التى حصلت بعد ذلك فى بلاد الفلمنك واضرت بمملكة اسبانيا كل الضرر

سنة ١٥٤٢ واضطر شرلكان الى الاقامة بمملكة البلاد الواطية مدة مستطيلة بسبب تحرك داء النقرس عليه وكان هذا الداء يشتد به غالبا حتى اضعف صحته كل الضعف ومع ذلك لم يكن منه فتور ولا تراخ فى تنفيذ مذهبه الجديد المتقدم ذكره * وبعد أن مكث اهالى مدينة استراسبورغ مدة وهم يناقضون فى هذا المذهب حتى عليهم الصمت ورأوا انه يجب عليهم الطاعة والامتثال وكذلك اهالى قونسطنسة بعد ان هموا بالسلاح وركنوا الى العصيان والقيام قهروا والزموا بقبول المذهب المذكور بل وتنازلوا عن مزاياهم الثابتة لهم بوصف كونهم سكان مدينة حرة والزموا ايضا بالامتثال الى الامير فرديننـد بوصف كونه ارشدوق الاستريا وان يقبلوا بوصف كونهم رعايا هذا الامير محافظين من عساكر الاستريا وكل المدائن الحرة الكبيرة قد امتثلت لأوامر الايمپراطور ودخلت تحت طاعته ما عدا مدينة مكدبورغ ومدينة بريمه ومدينة همبورغ

(انتهت المقالة التاسعة)

(المقالة العاشرة)

من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمپراطور شرلكان

مطلب ما احترس به البابا من الايمپراطور

وكان الايمپراطور لا تفتر له همة ولا يكل له جهد فى فعل ما يقمع به نفوس المعتزلة ولكن كان سعيه فى هذه المرة يعادله سعى البابا فى تفسيد تدبيره وتخييب آماله لان بغض البابا له كان كل يوم فى نمو وازدياد وذلك ان الايمپراطور من جهة كان يظهر عليه امارات التصميم على عدم تسليم پليزنسة ومن جهة اخرى كان يتعدى على احكام القسس وخصوصياتهم كما هو مفهوم من احداث المذهب الجديد المتقدم وتصميمه على جمع مشورة قسيسية عامة فى مدينة ترنتة فاستوجب بذلك غضب البابا عليه لا سيما وكان البابا حينئذ لكبره فى السن ذا ولع بعائلته وصولته كما هى عادة كل هرم تحقق اقتراب ساعته فلم يطق ذلك من الايمپراطور واخذ ثانيا يبذل جهده فى عقد عصبة جديدة مع ملك فرانسا

على

سنة ١٥٤٩م

على الامبراطور الان ملك فرانسا مع ماورثه عن ابيه فرنسيس من البغضاء والعداوة للامبراطور ومع خوفه من شوكته حيث كانت كل يوم فى نمو وازدياد ظهر عليه كالمرة الاولى انه لا يريد الدخول فى عصبة على الامبراطور فاضطر البابا الى العدول عما كان عازما عليه حيث لم يكن له اقتدار على الانتقام لنفسه من الامبراطور فى نظير ما حصل منه من التعدى والاقتيات غير أنه اخذ يحترس من حصول اقتيات جديد ولهذا الصدد صمم على استرجاع برمة و بليزنسة بعد أن اقطعهما الامير اوكتاوة فأشهر انضمامهما بالثانى الى اراضى الكنيسة واعطاه عوضا عنهما رزقا آخر من ارزاقها وكان البابا بولس يأمل بهذه الواسطة ان يفوز بأمرين مهمين احدهما ان يأمن على برمة اذ كان يسهل على الامبراطور ان يتغلب على تلك المدينة ما دامت تنسب لعائلة فرنيز بخلاف ما اذا كانت من جملة اراضى الكنيسة فانه لا يتجاسر على ذلك والامر الثانى هو أنه كان يؤمل اخذ بليزنسة من الامبراطور لانها اذا كانت من جملة املاك الكنيسة يسوغ له ان يطلبها بقلب ثابت قوى و يكون قوله اقبل واوجه اذا كان الطلب باسم الكنيسة لا باسم عائلته و بينما كان البابا مسرورا بهذه الفكر و يعدها من ملح السياسه وأبكار أفكار أولى الحزم والكياسة حصل من الامير اوكتاوة ما يفسد عليه آماله و يمنعه تنجيز أغراضه وذلك ان اوكتاوة كان شابا طماعا جسورا وكان ابو زوجته قد سلب منه نصف املاكه بمحض الاقتيات والتعدى فلم تطق نفسه ان يصبر على حرمانه من النصف الآخر بتحيل جده اعنى البابا المذكور فسافر سرا من رومة وهجم بغتة على برمة لكنه لم يمكنه التغلب عليها لامانة متسلمها الذى كان البابا امسكه زمامها فلما خاب امل اوكتاوة من هذه الاغارة اخذ يتداول مع الامبراطور وعرض عليه ان يتخلى عن حزب البابا و ينضم الى حزبه و يعتمد على همته من الآن فصاعدا بحيث يجعل اغراضه وآماله منحصرة فيه وكان البابا بولس بالطبع سوداويا شرس الاخلاق زاده الكبر شراسة كما هى العادة فى من طعن فى السن فامتزج بالغيظ واشتد غضبه لما اخبر بتخلى

سنة ١٥٥٠

حفيده اوكتاوة عنه وانضمامه الى حزب الايمبراطور وهو له عدو مبين وظهر عليه انه لابد وان يعاقب اوكتاوة بما يسوّله له ضغنه وغضبه لا محالة وانه لا يرى عقابا يعظم على من عصى والديه وكفر نعمهم ولكن من حظ المغضوب عليه اختطفت المنية البابا بولس فاراحته من حقده وبطشه وكانت وفاته فى السنة السادسة عشرة من حكمه وفى الثانية والثمانين من عمره

مطلب
موت البابا بولس الثالث فى عشرة من شهر تشرين الثانى

وكان موت هذا الرجل متوقعا من قبل بمدة مستطيلة فاجتمع الكردينالات بمدينة رومة وتسابقوا فى نيل منصب البابا سبقا لم يسبقوا به وذلك انه لفسحة الوقت مع الطالبين لهذا المنصب امكنهم ان يدبروا امورهم ويستحضروا مالهم وما عليهم ليعضدوا مقاصدهم حق التعضيد فطالت مدة المذاكرة بديوان الكردينالات فى شأن انتخاب من يولى منصب البابا وكان حزب الايمبراطور يودّ انتخاب رجل من اشراقاته لهذا المنصب كما كانت مملكة فرانسا تسعى فى اعطائه لاحد رجالها وكان النصر يظهر طورا لاحدهما وطورا للآخر الا ان البابا بولس على طول حكمه كان قد ولى مقدارا جسيما من الكردينالات اغلبهم ممن امتازوا بالمعارف والفضل وكانوا يميلون الى مصلحة عائلته فانضم منهم حزب عظيم الى الكردينال فرنيز قريب البابا بولس وكان ارباب هذا الحزب على قلب رجل واحد متفقين فى الكلمة فامكنهم بانضمامهم الى الكردينال فرنيز واتحادهم مع بعض ان يرفعوا الى كرسى البابا رجلا من الكردينالات يسمى ديلونته وكان بولس قد جعله وكيله الاكبر فى المشورة القسيسية المنعقدة بمدينة ترنتة وكان قد أطلعه على اسراره الخفية الدقيقة ولما حصل الاتفاق على تولية ديلونته المذكور سمى باسم جاليوس الثالث وكان مبدأ حكمه ان ردّ الى الامير اوكتاوة فرنيز مدينة برمة اظهارا لشكره نعم البابا ولما قيل له انه قد ارتكب اساءة فى حق الكنيسة بنزع هذه الارض الكبيرة منها واعطائها لهذا الرجل اجاب بانه يرجح ان يبقى بابا فقيرا مع شهرته بالمكارم وشرف النفس على بقائه بابا غنيا مع ما يحصل له من العار اذا نسى الخيرات التى اغدق عليه بها البابا بولس

مطلب
انتخاب جاليوس الثالث فى ٧ شهر شباط

فى حياته

سنة ٥٥٠ لم

في حياته ولم ينجز في شأن عائلته ما اوصاه به البابا قبل موته ووعد بتعميره الآن ما اكتسبه من الشرف بين الناس لهذا الجواب الدال على علو الهمة وكرم النفس قد محاه فعل اخر قبيح حصل منه فاغضب الناس واوجب سخطهم عليه وذلك انه بموجب عادة قديمة جارية كان الكردينال الذي يولى منصب البابا له ان ينصب من شاء في منصب الكردينالية الذي يبقى خاليا بعد جلوسه على كرسي الكنيسة فحصل ما اوجب تعجب الناس وهو ان جاليوس اعطى منصبه القديم مع ما يتبعه من الايرادات الواسعة والاعتبار والمزايا حتى لبس نشانات هذا المنصب والتسمي باسمه وغير ذلك الى شاب له من العمر ست عشرة سنة كان يسمى انوسان وكان مجهول الاصل ساقط النسب وكان يدعى بالقرد لانه كان مكلفا بتربية قرد في منزل ديلوتة ومثل هذا التفريط في اعظم مناصب الكنيسة لابد وان تنفر منه النفوس ولو في اعصر الجهالات التي ترى الاقسة بها محترمين معتبرين والناس يصدقون اقوالهم ويثقون بهم في جميع الامور فلا يبالون من فعل ما يلام على المرء به فما بالك بهذا الفعل وقد حصل في عصر كانت العقول به قد استنارت في الجملة بمصابيح المعارف والفلسفة وعرفت دعائم الادب وعكسه مما يخل بالمرء وفرقت بين المستحسن والمستهجن وقل احترام الناس للاقسة والبابات ونقص اعتبارهم في جميع البلدان حتى كان نصف النصارى عاصيا على كنيسة رومة وبالجملة فهذا الفعل قد اوجب سخط الناس على البابا جاليوس وفي لمحة بصر امتلأت مدينة رومة بالبطاقات والاوراق المشحونة بالهجو والقدح في عرضه لميل نفسه الى فعل دنئ مثل ذلك وطالما شنع المعتزلة عليه قائلين ان اسرار الله عز وجل لا يمكن ان تودع بقلب جاحد كقلب جاليوس غير طهور وعضدهم ذلك فيما كانوا يقولون به من فساد دين الكنيسة الرومانية وازدادوا تصميما وعزما حيث ان رئيس تلك الكنيسة الذي هو امام النصارى قد صار ينجس به لفظ النصراني .

مطلب
بيان طبع
جاليوس
وسلوكه

وكان سلوك البابا مدة حكمه من قبيل هذا الفعل الذي بدأ به ادارته فبمجرد

سنة ١٥٥٠

رقيه أوج العلا اخذ يعوّض على نفسه ما قاساه من المشاق وقت ان كان في الحضيض تابعا الغيره اذ كان حينئذ لمكره وخداعه يحرم نفسه من الحظوظ والمسار تظاهرا بالتقوى كما انه بعد ارتقائه اظهر الرغبة عن جميع مصالح الجد وصار لا يلتفت الى شيء منها ادنى التفات الا عند الضرورة والاضطرار وانما كان منهمكا على انواع الحظوظ التي تسوّلها النفس لمن سلمها زمامه ورجح ان يقتدي في الانهماك بالبابا ليون العاشر لا ان يقتدي بعفة ادريان وتقشفه مع ان هذا التقشف كان لازما له ولا بدّ حتى يمكنه مقاومة مذهب المعتزلة لاسيما ولم يكن هذا المذهب مؤيدا معضدا وقتئذ الا بسبب تقشف اصحابه وصون انفسهم عما يحط قدر المرء بارتكابه

مطلب ما آربه واغراضه فيما يخص المشورة القسيسية العامة

ومع ميل هذا البابا الى الوفاء بميثاقه في حق عائلة فرنيز لم يكلف نفسه مشقة الوفاء بميثاق كان كل كردينال اخذه على نفسه عند دخوله في مشورة الكردينالات وهو انهم تعاهدوا على ان كل من يقع عليه الانتخاب منهم ويقلد منصب البابا يأمر حالا بانعقاد المشورة القسيسية ويدعو اربابها الى فتح المذاكرة بالثاني لاكراه المعتزلة على الانقياد والامتثال الى الكنيسة الرومانية ولكن سبب امتناعه عن ذلك ظاهر وهو انه كان يعلم بالتجاريب تعذر امكان تغيير عقائد المعتزلة والزامهم عدم الخروج عن مضيق دائرة العقائد التي كانت تحتمها الكنيسة الرومانية على الناس كافة وكان يعلم ايضا ان بعض المعتزلة ذو غيرة شديدة وحمية زائدة وان البعض الآخر له جسارة كبيرة وان امراءهم لا تغفل عن حثهم وتقوية قلوبهم ومثل هذه الامور ربما ادّت المشورة وهي لا ضبط ولا ربط فيها ولا رئيس لها الى مباحثات غويصة تضر المناقشة فيها بالكنيسة الرومانية كل الضرر وبناء على ذلك حاول البابا المذكور فك نفسه من ميثاقه واجاب الامبراطور فيما خاطبه به في هذا الشأن بجواب مبهم لم يقطع فيه بشيء غير أن الامبراطور لما كان من دأبه عدم العدول عما عزم عليه او كان لكبر نفسه وعتوه يستحسن التصدّي الى فعل ما يرى من المستحيل لم يزل مصمما على عزمه من اكراه المعتزلة على الانقياد والامتثال للكنيسة الرومانية لاسيما

وكان

سنة ١٥٥٠م

وكان جازما بان احكام المشورة القسيسية ترغم انوف المعتزلة فاخذ يلح على البابا كل الالحاح فى نشر فرمان جديد من عنده بعقد تلك المشورة حتى رأى البابا انه لا يمكنه المحاولة فى ذلك وانه لابد من عقد المشورة فبادر بنشر اوامره ليثبت له فضل انعقادها حيث كان شيأ مرغوبا عند كافة الناس وعقد جمعية من الكردينالات واحال عليهم ان يبحثوا عما تكون به راحة الكنيسة وصلحها واوصى بان تنعقد المشورة القسيسية فى اقرب وقت حيث هى اعظم واسطة تعين على هذا الغرض ولكن لما رأت جمعية الكردينالات ان معظم المنازعات والمناقضات فى الدين انما هو حاصل ببلاد المانيا عرضت ان تكون مدينة ترنتة محل انعقاد المشورة القسيسية حيث بذلك يسهل على اربابها معاينة الداء عن قرب فيعالجونه بالدواء الاليق به فقبل البابا ذلك منهم وبعث وكلاءه الى كل من الديوان الايمپراطورى وديوان فرانسا ليبلغوهما ماعزم عليه

مطلب مشورة الدييتة المنعقدة بمدينة اوكسبورغ لاقرار مذهب الايمپراطور

وكان الايمپراطور قد جمع مشورة الدييتة فى مدينة اوكسبورغ لقصد تعيين مذهبه الجديد وصدور حجة من اربابها باقرار احكام المشورة القسيسية مع وعدهم بان يعملوا بمقتضى الاوامر التى تصدر من هذه المشورة وذهب الايمپراطور بنفسه الى مشورة الدييتة المذكورة صحبة ابنه امير اسپانيا ولم يذهب اليها من الامراء المنتخبين الا القليل غير ان من لم يذهب منهم بعث رسلا من طرفه للنيابة عنه * هذا وكان الايمپراطور منذ سنتين اذا تفوه بشئ قاله على صيغة الامر لا تخلو الفاظه عما يفهم العنفوان والعتو وكان يأمر

٢٥ من شهر حيزران

فى الايمپراطورية بما شاء وحيث كان يعلم ان حب الحرية لم ينزع بالكلية من قلوب اهل المانيا اخذ معه طائفة كبيرة من العساكر الاسپانيولية لتكون له هيبة فى قلوب ارباب مشورة الدييتة واول امر حصلت المذاكرة فيه هو انعقاد المشورة القسيسية فاجمع القاثوليقيون الرومانيون على ان يكون انعقاد هذه المشورة بمدينة ترنتة ووعدوا ان يمتثلوا بدون مناقشة الى ما يحكم به اربابها وكان المعتزلة فى رعب اذ ذاك ولم يكونوا عصبة واحدة

سنة ١٥٥٠

الاول فلولا الامير موريس منتخب السكس لكانوا يوافقون على هذا الرأى حزب القاثوليقيين وسائر ارباب الديانة غير أن الامير المذكور اخذ يبدى مآرب اخرى ويسلك سلوكا مباينا بالكلية لما سلكه الى تلك الوقت فكفاهم شر اعدائهم وقد تقدم ان هذا الامير بتحيله واخفاء حقيقة مآربه واظهاره السعى فى اعانة الايمپراطور على تتميم مقاصده ومخادعته اياه فى سائر الاوقات والاحيان قد رقى الى منصب المنتخب واضاف الى بلاده واراضيه الالتزامية اراضى الفرع البكرى من عائلة السكس حتى صار أعظم امراء المانيا شوكة وصولة ولكن باتحاده مع الايمپراطور تلك المدة المستطيلة عرف طباعه وأدرك ما يختشى عاقبته من مقاصده فرأى انه باعانته للايمپراطور كأنه يسعى فى صنع السلاسل والاغلال المعدة لكبل وطنه وبلاده وكان كلما نظر الى نمو شوكة الايمپراطور وازديادها يرى انه لم يبق عليه الا اليسير ليصير مطلق التصرف فى الايمپراطورية الالمانية كما هو فى بلاد اسپانيا وكلما نظر الى علو المنصب الذى رقى اوجه اشتدت غيرته على حفظ مزاياه وحقوقه وزاد خوفه ان يسقط من اوج العلا والاستقلال الى حضيض التبعية ويصير تابعا للايمپراطور يتصرف فيه كيف شاء لاسيما وكان يرى ان الايمپراطور لم يطلق زمام الناس فى شأن الدين كما وعد به حين اراد ان يستميل عدة من امراء المعتزلة ليعينوه على عصبة سمالكالد بل انه يريد الزام الناس باتباع دين الكنيسة الرومانية وعدم العدول عن سنتها ونهجها وبالجملة فمع ما كلف به موريس نفسه اما المصلحة خاصة به اولوثوقه بالايمپراطور كان لم يزل مولعا بدين لوتير وبعده الحق فلم يطق ان يبقى خلى الاغراض حين رأى الايمپراطور يسعى فى محوه ومحقه

مطلب
مقاصد الامير موريس من اضرار الايمپراطور

وهذه العزيمة وان دعاه اليها ولعه بالحرية اوغيرته على الدين كان له فيها مآرب اخرى سياسية ومصالح خصوصية وذلك ان الامير المذكور لما رأى نفسه اذذاك فى حظ اوفر ورأى الدهر مساعدا له داخله الغرور وتعلقت اماله بمآرب جديدة لاسيما وكان لرفع قدره وشوكته معدا الان يكون رئيس طائفة المعتزلة

مطلب
الاسباب السياسية التى كانت تحسن له هذا السلوك

فى بلاد

سنة ١٥٥٠م

فى بلاد المانيا حيث ان من كان قبله فى منصب منتخب السكس وان كان اقل منه فضلا ودولا كانت له كلمة نافذة بين حزب المعتزلة وكان موريس ذا بصيرة حتى يمكنه ادراك ثمرة المعالى التى اوليها وذا طمع يحمله على التولع بنيلها ولكن بالنظر لمقتضيات الاحوال اذ ذاك كانت صعوبة هذا المشروع مساوية لعظم القصد منه فمن جهة كان اتحاده مع الايمبراطور قويا بحيث لا يمكنه ان يسعى فى فسخه ونقض علاقته من غير ان يثير غيرته وهو شديد البطش و يعرّض نفسه الى غضبه وهو بقوة بأسه قد ارغم انوف ارباب عصبة سمالكالد مع انها اعظم عصبة حصلت ببلاد المانيا الى ذلك الوقت ومن جهة اخرى كانت المصائب الكبيرة التى جرّها الى المعتزلة لم تزل نصب اعين الناس بحيث لا ترضى نفوسهم ان يعتمدوا عليه او يثقوا به فكان لا يمكنه ان يجدّد بينهم علائق الارتباط او يؤلف بين قلوبهم بعد ان كان السبب فى فشلهم وشتات شملهم فانظر الى جسارته وجرآته حيث لم تفتر همته لهذه العوائق الكبيرة فكأن اخطار هذا المشروع وخطوبه العظيمة كانت تحسنه اليه فلم يتردد فى التصميم عليه وهو يجل عن ان يخطر ببال من هو ليس ذا قريحة ودهى وعقل ونهى ولا شك انه بمجرد التفكر فى اخطاره ترتعد فرآئص من ليس ذا عزم متين وقلب ثابت مكين

وكما كان للامير موريس مصالح فى ذلك المشروع كانت له اسباب نفسية تحسنه له وتقوى عزمه عليه وذلك انه كان لم يزل متأثرا كل التأثير مما حصل من الايمبراطور فى حقه من الاساءة لكونه الح على الامير حاكم هيسة واحضره الى الايمبراطور كما تقدم معتمدا على قول وزرآئه من ان حاكم هيسة اذا حضر لا يحجز ولا يقبض عليه فلما قبض عليه وسجن وعومل بطريقة غير مرضية صار يشكى من الامير موريس كما كان يتظلم من الايمبراطور فغضب الامير موريس لذلك كل الغضب وكان ثم اسباب اخرى سياسية فبانضمامها الى الاسباب النفسية ازداد موريس تصميما وعزما على معارضة الايمبراطور فى مشروعاته لاسيما وكان امرآء عائلة هيسة يلحون

سنة ١٥٥٠

كل الالحاح على موريس بانجاز المواعيد التى التزم بها لابيهم حاكم هيسة حيث انه لم يسع بنفسه الى الايمبراطور حتى قبض عليه وسجنه الا لوثوقه بقول موريس واعتقاده عليه وكان اهل المانيا يتهمون موريس بانه قد غدر بحاكم هيسة مع انه حليفه وحبيبه فكان حقه ان يدافع عنه لا ان يسلمه الى عدوه وقد اثر الحاح امرأة عائلة هيسة ولوم اهل المانيا فى موريس كل التاثير مع ما انضم الى ذلك من ميله القلبى الى صهره حاكم هيسة المذكور حتى بذل كما تقدم غاية جهده ليفكه من الاسر ولم يترك سبيلا لذلك الا وسلكه فطالما تضرع للايمبراطور وندمائه بل وسلك طريق التهديد والتخويف وكل ذلك لم يجد شيأ ولم يزل الحاكم مسجونا مكبولا فلحق موريس الخزى من غدر الايمبراطور به وعدم اعتباره له مع انه كثير ما صدق فى خدمته وكان سببا لنجاحه فى عدة مشروعات فأخذ من وقتئذ ينتظر ظهور فرصة يستعين بها على الانتقام منه

وكان يلزم للامير موريس ان يكون على غاية من الحزم والاحتراس فى تجهيز هذا المقصد الجسيم وذلك انه من جهة كان يخشى عليه من ان يظهر منه ما يغضب الايمبراطور قبل ان يأخذ أهبته ومن جهة اخرى كان يجب عليه ان يتظاهر بفعل جليل ليستميل بالتانى قلوب المعتزلة فيعتمدوا عليه ويدخلوه فى زمرة قاصديهم فبذل ما فى وسعه من المخادعة والروغان لاجل ان يوفق بين هاتين المصلحتين وحيث كان يعلم ان الايمبراطور لا ترضى نفسه العدول عما عزم عليه من اجرآء مذهبه الجديد والزام الناس باتباعه بادر بدون توقف الى نشره واجرآئه فى دوله ولكن كان يعلم ايضا ان هذه البدعة تنفر منها نفوس رعاياه فعوضا عن ان يكرههم على اتباعها كما حصل فى كثير غير دوله من بلاد المانيا بذل جهده فى ان تكون طاعتهم وامتثالهم لذلك بمحض ارادتهم لا الزام ولا اكراه ولهذا الغرض جمع فى مدينة ليبسيك طائفة القسوس الموجودين بدوله وعرض عليهم نسخة من المذهب المذكور وافهمهم ما يدل

مطلب نشر موريس فى بلاد السكس المذهب الجديد الذى رتبه الايمبراطور

سنة ١٥٥٠ م

على انه من الضرورى اللازم اتباعه والعمل بمقتضاه واستحوذ على بعضهم بالمواعيد وزخرفة القول وعلى البعض الآخر بالتهديد والتخويف لاسيما وكانوا اجمعين فى رعب عظيم من الغلظة والقسوة الحاصلة بالاقاليم المجاورة لهم لالزام اهاليها باتباع هذا المذهب ثم ان ميلنختون وان كان بفضائله ومعارفه اهلا لان يكون اول فرد بين علماء اللاهوت من المعتزلة كان دأبه الوجل والخوف يحب الصلح ويكره النزاع والجدال كما كان يلزم الامتثال الى ذوى المناصب العالية وطاعة اولى الامر منه وكان لوتير لثبات جنانه لايبالى بخطب ما فكان يقوّى قلب ميلنختون ويثبته على اقتحام الاهوال والاخطار فلما مات لوتير اصبح ميلنختون المذكور خوّوفا كما كان ولذا تساهل فى امور غير مرضية لايمكنه ان يقى نفسه اللوم بتسليمه فيها وذلك انه بنفوذ كلمته بين اقسة المعتزلة وبما ابداه لهم من البراهين مع تحيل الامير موريس عليهم حملهم على ان يتعهدوا بالطاعة والامتثال لصاحب الامر فى الاشياء المباحة اى التى ليست من اركان العقائد الدينية نعم ان تعهدهم هذا بالنظر لصيغته لايسوّغ عظيم شئ غير أن كل صيغة مثلها قابلة لان يتوسع فى توجيهها لاسيما فيما يخص الدين فانتهى الحال بان درجت جمعية القسوس فى ضمن الاشياء المباحة عدة من الاصول والقواعد التى كان لوتير يفسدها قبل موته ويقيم ادلة قاطعة على انها من ضلالات الكنيسة الرومانية وبدعها وادخلت فى ضمنها كذلك اغلب المناسك والرسوم الدينية التى كانت تميز بين دين الكنيسة الرومانية ودين المعتزلة وعلى هذا اخذ القسوس يحرضون الاهالى ويحثونهم على الطاعة والامتثال لاوامر الايمبراطور

مطلب ما اظهره موريس من الغيرة على دين المعتزلة والميل اليه

وقد نجح موريس بهذه الخديعة فى نشر مذهب الايمبراطور ببلاد السكس من غير ان يترتب عليه شئ من الفتن المهولة كما حصل فى غيرها من بلاد المانيا ولكن مع طاعة اهل السكس وامتثالهم كان فيهم من هو ذو حمية شديدة على دين لوتير فتظلم من ميلنختون ومن حكموا معه بهذا الحكم ورأى انهم من الضالين ولابدّ لهم من رشوة لعدولهم عن الحق اوأنهم من المنافقين

سنة ١٥٥٢

المذبذبين لمحاولتهم وتقسيمهم اصول الدين الى مهم وغير مهم او انهم اهل جبن حتى تساهلوا فيه على هذا القدر مراعاة لخاطر امير مثل موريس لا يبعد عليه ان ينقض كل حرمة لقصد مصلحة تعود على نفسه وكان موريس يعلم ان ماصدر منه يقوّى وجه تهمته عند الناس ويخشى ان يضيع اعتباره من قلوب المعتزلة قاطبة ولذا اشاع منشورا يظهر فيه غيرته على دين المعتزلة وميله اليه ويعد بانه سيبذل غاية جهده فى المدافعة عنه من تعدّى ديوان رومة وفى صيانته من بدع الكنيسة الرومانية وضلالاتها

مطلب مداهنته للايمبراطور

وبعد ان نجح موريس فى تسكين قلوب المعتزلة وازالة ماداخلهم من الخوف والحيرة رأى من الضرورى ان يزيل ماقام بنفس الايمبراطور منه لاظهاره الغيرة على دين المعتزلة ووعده بانه سيبذل غاية جهده فى المدافعة عن هذا الدين ولهذا الغرض اخذ يظهر له مايدل على تأكيد المعاهدة المنعقدة بينهما حتى ان مدينة مكدبورغ حيث كانت لم تزل تدقق فى عدم قبول مذهب الايمبراطور شرع موريس فى الزامها بالامتثال والطاعة وجمع العساكر والجنود اللازمة لهذا المشروع حتى تحير رعاياه فى امرهم حيث ان هذا الفعل مخالف لما وعدهم به اخيرا وتعجب المعتزلة والتبس عليهم الامر ولم يقفوا لمآربه على حقيقة ومازج الوسواس صدورهم منه حين نظروا الى سلوكه حتى ان علماء المعتزلة الذين كانوا بمدينة مكدبورغ نشروا ببلاد المانيا اوراقا وصفوه فيها بانه عدو مبين لدين المعتزلة وانه خائن لايظهر الميل الى هذا الدين الا ليسهل عليه مااضمره ونواه وهو محقه ومحوه حتى اسمه ورسمه

مطلب مناقضة الامير موريس فى صورة الحكم فى المشورة القسيسية

ولما حصل ذلك من موريس قوى ظن المعتزلة فيه بانه يقصدهم بالضرر واجمعوا على انه من اهل الخداع والمكر وايقنوا انه لايمكن الوثوق به فى شئ حتى انه لقصد تبرئة نفسه عندهم اضطر الى فعل امر جسيم صعب يخشى عليه من عاقبته وهو أن ارباب مشورة الدينة لما تكلموا فى شأن انعقاد مشورة قسيسية عامة اخبروكلاؤه ان سيدهم لايقرّ ماتحكم به تلك المشورة القسيسية الا بالشروط الآتية وهى اولا ان جميع المسائل الخلافية التى

ابحى

سنة ١٥٥٠م

انهى حكمها تعرض للمذاكرة بالثانى وما حكم به فيها اول مرة يلغى ولا يعمل به ثانيا ان علماء المعتزلة يرخص لهم فى المشورة القسيسية ان يقولوا ما شاؤا و يبدوا آراءهم بدون تقييد عليهم فى شئ وان يكون لهم فيها رأى نافذ ثالثا ان البابا يبطل دعواه فيما يطلبه من كونه رئيس المشورة القسيسية وان يلتزم بالامتثال الى احكام تلك المشورة وان يكفر عن الاساقفة اليمين الذى صدر منهم بالطاعة الى دين الكنيسة حتى يكونوا مطلقى القيد لا حرج عليهم فى ابداء آرائهم ولا شك ان هذه شروط صعبة كان لا يتجاسر المعتزلة على طلبها ولو فى يوم ان كانت حمية حزبهم شديدة وكانت الاحوال تساعدهم حتى المساعدة فعاد ذلك ما عزم عليه موريس فى شأن مدينة مكدبورغ واوقعت المعتزلة بالثانى فى الريب منه والشك فى حقيقة ما دبره هذا وقد بلغ الحذق والحزم منه الى ان حسن افعاله فى عينى الايمبراطور حتى لم يظهر عليه تغير منه ولم يعتر المحبة الاكيدة التى كانت بينهما ادنى تعكير ولم يذكر لنا المؤرخون الذين كانوا معاصرين لتلك الحوادث شيأ مما تعلل به موريس وحسن به عند الايمبراطور تجاسره على خطاب المشورة القسيسية بما تقدم ذكره وتكليف اربابها العمل بمقتضاه ولكن لا بد من كونه ابدى من البراهين والادلة ما استحوذ به على الايمبراطور حيث انه لم يزل بعد ذلك مستمرا على بذل جهده فى نشر مذهبه وفى عقد المشورة القسيسية ولم يزل يثق بالامير موريس و يعتمد عليه فى هذين الامرين

مطلب
تصميم مشورة الدييتة على قتال مدينة مكدبورغ

وحيث ان تصميم البابا على عقد مشورة قسيسية لم يكن معروفا بمدينة اوكسبورغ كان اهم غرض لمشورة الدييتة ان تدقق فى نشر مذهب الايمبراطور ببلاد المانيا وكانت مشورة اهالى مكدبورغ لم تفتر لها همة بما فعل معها من التهديد والتخويف وكانت باقية على عدم رضائها بقبول هذا المذهب بل وكانت اخذت تزيد فى تحصينات المدينة وتجمع جنودا للمدافعة عنها وقد التمس شرلكان من مشورة الدييتة ان تعينه على قمع هذه المدينة حيث ادت بها جسارتها الى القيام والعصيان وعدم الامتثال

سنة ١٥٥٠

للاوامر الامبراطورية ولو كان لارباب مشورة الدينة اقتدار على العمل بما يقتضيه رأيهم لما اجابوا الامبراطور فى التماسه لان من كانوا يميلون قليلا اوكثيرا الى دين المعتزلة من اهل المانيا وجميع من كانت الغيرة قائمة بانفسهم من ازدياد شوكة الامبراطور كانوا يرون ان قيام سكان مدينة مكدبورغ امر يمدحون عليه حيث مرادهم به ابقاء حرية وطنهم بل وظهر ان من لم يكن عنده جسارة على القيام مثل سكان هذه المدينة كانوا يستحسنون القيام والعصيان منهم ويودون نجاحهم فيه غير ان الناس خافت ان تغضب الامبراطور وكانت عساكره الاسبانيولية راقبة لهم وحصل الرعب لمن كانوا فى مشورة الدينة فلم يتجاسروا على ابداء آرائهم واقروا ماطلبه الامبراطور وحكموا باجراء ما امر به فى حق مدينة مكدبورغ وانحط الرأى بالمشورة على جمع عساكر لحصار هذه المدينة وتعين اناس لتخصيص مايجب على كل دولة ان تقدمه فى هذا الحصار من الرجال والاموال وطلب ارباب مشورة الدينة ايضا ان يكون موريس قائدا لهذا الجيش ورضى الامبراطور بذلك وانشرح له صدره ومدحهم على حزمهم واصابة رأيهم حيث وقع نظرهم على هذا الامير وكان موريس يسلك فى جميع اموره مسلك الدستر و يدبر اموره سرا حتى لايعلم ان كان سعى اولم يسع فى نيل قيادة هذا الجيش فانتخاب ابناء وطنه له اما ان يكون بمجرد الاتفاق والصدفة او يكون مبنيا على اعتقادهم فيه بكثرة المعارف والحزم وليس من الجائز أن تكون العواقب التى ترتبت على تقليده بهذا المنصب مما كان يخطر ببال ارباب مشورة الدينة ولم تكن تخطر ايضا ببال الامبراطور والا لفزع منها وعلى كل فقبل الامير موريس المنصب المذكور بمجرد عرضه عليه لفرحه بالفوائد الجليلة التى لاحت له منه

مطلب
انعقاد المشورة القسيسية بالثانى فى مدينة ترنتة

وفى اثناء ذلك حرر البابا جاليوس فرمان الذهب بانعقاد المشورة القسيسية ولم ينس شيأ من الرسوم الدقيقة والتعللات التى يتقن ديوان رومة استعمالها اذا اراد تعطيل شئ مغاير لمقاصده واغراضه ثم نشر هذا الفرمان ودعا ارباب

شهر كانون اول

المشورة

سنة ١٥٥٠ المشورة القسيسية الى الاجتماع بمدينة ترنتة في اول يوم من شهر ايار سنة ١٥٥١ وكان البابا يعلم ان بعض الالمانيين لا يسلم ان يكون للكنيسة الرومانية سلاطة على المشورات القسيسية فذكر با لفاظ غليظة في صدر الفرمان ان له الحق في عقد المشورة القسيسية وفي الرياسة عليها بل وله ان يدبر امورها و يسوسها كيف شاء وقد ادرك الايمبراطور ان هذا البند يغضب الناس و ينفر نفوسهم فالح على البابا ان يغيره او يحسن الفاظه لكنه لم يرض ابدا وقد حصل كما اخبر الايمبراطور حيث ان عدة من ارباب مشورة الدييتة قد توقفوا في هذا البند كل التوقف واظهروا النفرة التامة منه ولكن كان الايمبراطور قد استحوذ على ارباب تلك المشورة فحملهم على ابراز فرمان به يعترفون ان المشورة القسيسية لا دواء سواها يصلح لمداواة داء الكنيسة الرومانية وقد طلب من كل دولة من دول الايمبراطورية ومن جميع امرائها سواء كانوا ممن اتبعوا دين المعتزلة او ممن كانوا متمسكين بدين الكنيسة ان يبعثوا رسلهم الى المشورة القسيسية ووعد ان يعطي ورقة الامان لكل من طلب وان يكون كل من حضر المشورة القسيسية حرا يقول ما بدا له وتعهد بان يقيم بمدينة من الايمبراطورية تكون قريبة من مدينة ترنتة لكي يحمي بنفسه ارباب المشورة القسيسية و يعتني بان تكون المذاكرة في هذه المشورة على حسب الكتاب المقدس ونهج الحواريين حتى يحصل النجاح ويتم المرام وفي هذه المرة حصل التدقيق في اتباع مذهب الايمبراطور اكثر من كل مرة حتى انه اوعد بالانتقام ممن كانوا الى ذلك الوقت يمتنعون عن اتباعه او يهملون في العمل به ان لم يرجعوا عن عصيانهم و يبادروا باتباعه والتمسك به

مطلب السعي بلا طائل في فك حاكم هيسة من الاسر

ومدة انعقاد مشورة الدييتة قد حصل السعي في فك الامير حاكم هيسة من اسره وذلك ان طول مدة الاسر عوضا عن ان يعود هذا الامير على تحمل السجن لم يزده الا جزعا وقلقا فكان الامير موريس والامير منتخب براندبورغ لا تظهر فرصة الا ويلحا على الايمبراطور في تخلية سبيل الحاكم

سنة ١٥١٥

المذكور غير أنه لما رأى الحاحهما على الايمبراطور لا يجدى نفعا امر اولاده ان يطلبوا من هذين الاميرين بحسب الاصول والقوانين ان يوفيا بما تعهدا به فى حجة صحيحة من كونهما يسلمان انفسهما الى اولاد حاكم هيسة ليفعلوا بهما كما يفعل الايمبراطور بو الدهسم ولما طلب اولاده منهما ذلك تعللا بطلبهم وألحا زيادة على الايمبراطور فى تخلية سبيل والدهم ولكن كان الايمبراطور مصمما على عدم اجابتهما فى هذا الطلب وكان يود ان يسلم من الحاحهما عليه فأخذ يبذل جهده فى حمل حاكم هيسة على التساهل فيما كان وعده به كل من الامير موريس والامير منتخب براندبورغ ولكن ابى حاكم هيسة ان يتساهل فى هذا الامر وكان يرى انه لازم له ولا بد له منه لانه بدونه لا يأمن على نفسه فعند ذلك قطع الايمبراطور هذه العقدة حيث كان لا يمكنه حلها وصدر امره بفك الامير موريس والامير منتخب براندبورغ من ميثاقهما المذكور فى المشارطة الموضوع عليها امضاؤهما ومن كل ميثاق آخر كان منعقدا بينهما وبين حاكم هيسة والى ذلك الوقت لم يكن احد تجاسر على هتك النواميس والمشارطات المبنى عليها امن العباد واطمئنان البلاد وحفظ العرض من التدنيس وعدم ضياع الحقوق بين الناس الاباپات رومة فانهم لادعائهم العصمة عن الخطأ والزلل بوصف كونهم خلفاء عيسى عليه السلام كانوا ينسبون لانفسهم مزية كونهم لهم الحق فى معافاة من شاؤا مما شاؤا من أيمان وعهود وغير ذلك فتعجب اهل المانيا كل التعجب من تجاسر الايمبراطور على فعل ما كان من خصوصيات الباپات ورأوا ان الايمبراطورية ستنحط الى حضيض الذلة والمسكنة وتقع فى الرق والاستعباد ان كان يرخص للايمبراطور حتى يتمكن من فسخ العهود المتفق عليها على رؤس الاشهاد مع ان هذه العهود هى الاعتماد فى وثوق الناس ببعضهم ولولاها ما تيسر اتحاد بين العباد بل كان ينفسد نظام العالم ويلحقه التعكير والاختلال ويؤول أمره الى اشنع حال

فلما يئس حاكم هيسة من فك امره برضاء الايمبراطور أخذ يبذل جهده

سنة ١٥٥١م

في خلاص نفسه بطريق التحيل والمداهنة ودبر أمر اليفتر به من ايدى من كانوا يخفرونه الان حيلته قد علمت وعوقب بالقتل كل من ثبت عليه من الخفراء انه اراد اعانته على الهروب ونقل هو نفسه بعد ذلك الى قلعة مالينس وسجن بها مع التشديد عليه اكثر من الاول

مطلب
عزم شرلكان على نقل التاج الايمبراطوري الى ابنه فيليش

وقد اشتغلت مشورة الدينة المذكورة بامر آخر يخص الايمبراطور وقد ترتب عليه فزع امرآء الايمبراطورية ورعبهم وذلك ان الايمبراطور شرلكان وان كان جامعا للمعارف التي بها يمكن اقتراح كل مأرب جسيم وتجهيز كل مقصد عظيم كان كما يعلم مما سبق لا يمكنه ان يغلب على نفسه اذا نالت رماحه وعظم نجاحه بل كان يشتد به الغرور حتى يتجاوز حدود الحشمة واللياقة ويحول عزمه الى اغراض جسيمة تجل عن اقتداره وتعد في الجملة من المستحيلات من ذلك ما حصل منه بعد ظفره بأرباب عصبة سمالكالد حيث انه لم يكتف بالفوائد الجليلة التي كسبها من هذه الواقعة بل رآها قليلة بالنظر لظهوره على اعدائه وتعلقت آماله بان يرتب في بلاد المانيا دينا واحدا وان يجعل الشوكة الايمبراطورية مطلقة التصرف ولاشك ان مثل هذا الغرض تغتر به النفوس الطماعة ولكن اذا تامل الانسان يرى تجهيزه كثير الخطوب والاخطار بل و يظهر له انه قل ان كان ينجح فيه او يتم له مرام ولكن حيث كان الايمبراطور الى ذلك الوقت قد نجح فيما شرع فيه لهذا الغرض داخله الغرور فعمى عن كل خطب وعائق او كانت تلك العوائق نصب عينيه فلم يعبأ بها احتقارا لها ومع اشتغاله بتتميم هذا الغرض الجسيم كان يشتغل ايضا بان يثبت لعائلته الممالك الواسعة التي كانت بيده فاراد ان ينقل الى ابنه في آن واحد ايمبراطورية المانيا وممالك اسبانيا ودوله الموجودة ببلاد ايطاليا ومملكة البلاد الواطية وقد مكث زمنا طويلا وهو يقدح فكرته في هذه النية من غير ان يعلم بها احدا بل ولم يعلم بها وزرآءه الذين كان يأتمنهم ويعتمد عليهم ثم احضر ابنه فيليش من بلاد اسبانيا مؤملا ان يسهل عليه بحضوره تجهيز هذا الغرض وتتميمه

سنة ١٥٥١

مطلب
العواتق الكبيرة التى لاقاها الايمبراطور فى تحييز غرضه

ولا يخفى ان مادون هذه الامانى من العواتق الكبيرة كان يكفى فى منع ماعدا الايمبراطور عن طمعه فى ذلك وتطلبه له الا انه على طمعه كان متعودا على القتك بكل خطب واستسهال كل صعب فلم يعبأ بما كان حائلا بينه و بين امانيه فمن جملة المواقع انه لعدم تبصره كان قدسعى بنفسه سنة ١٥٣٠ فى اثبات تاج ملوكية الرومانيين الى اخيه فرديننند ولم يكن من المظنون ان ملكا شابا مثل فرديننند له ابن صغير يهون عليه ان يترك حقه فى التاج الايمبراطورى لاجل ابن اخيه لاسيما وكان الايمبراطور قد وهن العظم منه واخذت صحته فى التنازل والسقوط فكان يتراءى ان ميراث التاج الايمبراطورى سيكون عن قريب ومع ذلك عرض الايمبراطور على فرديننند ان يترك حقه فى التاج الايمبراطورى وكان فرديننند يحترم اخاه كل الاحترام و يمتثل لقوله كل الامتثال لكنه فى هذا الامر ابى ان يمتثل ورد عليه قوله غيران شرلكان لم تفتر همته بذلك ولم يرجع عن المحاحه فى طلب هذا الغرض وجعل الواسطة بينه و بين اخيه اخته مارية ملكة المجر وكانت السبب فى نيل فرديننند تاج بلاد المجر و بلاد بچه وكانت لكثرة معارفها ووافر سياستها وحسن اطوارها قد استحوذت على عقل كل من اخويها الايمبراطور وفرديننند فلما طلب شرلكان منها التوسط فى هذا الامر فرحت و بادرت الى اجابته فيه حيث رأت انه يترتب عليه اعتناء عائلة الاستريسيا المعروفة بالاوستريا و ينتج منه ازدياد شوكتها وثروتها وكانت تلك الاميرة تظن ان فرديننند لذا وعد بان تعطى له مملكة اخرى يرضى بترك حقه فى التاج الايمبراطورى فاخذت تبث عنده ان يعطى فى نظير ما طلبه منه الايمبراطور دولا كبيرة من جملتها دولة الدوق دويرتانبرغ حيث يمكن نزعها منه بعدة وجوه ولكن كان فرديننند شديد الطمع والحرص فلم يغتر بقول اخته مارية ولم يؤثر فيه تضرعها اليه ولم تسمح نفسه ان يترك منصب الايمبراطورية وهو به معدود من اول رتبة بين الملوك ليأخذ منصبا اخر يكون به دائما وأبدا تابعا لغيره هذا وكان فرديننند يحب اولاده حبا جما بحيث لاتسمح نفسه ان يحرمهم من التاج الايمبراطورى فيخيب

عندهم

سنة ١٥٥١

عندهم كل أمل جليل يسوله لهم حسبهم ونسبهم وحسن تربيتهم
ومع ما ابداه فرديننـد من التوقف الكلي وعدم الرضاء بما عرض عليه
لم يتحول الايبراطور عن نيته وظن انه يمكنه النجاح في ذلك بواسطة اخرى وهي
ان وهم انه لا يتعذر عليه استمالة الامراء المنتخبين الى الرجوع في انتخابهم الاول
من جعلهم فرديننـد ملك الرومانيين او حملهم على انتخاب فيليبش ملكا
ثانيا على الرومانيين بحيث يخلف عمه فرديننـد مباشرة وهذا كان قصده
من اخذ فيليبش معه بمشورة الدينية اذ كان يود أن يعرفه اهل المانيا
ليحبوه فيما سيطلبه منهم لاجله وقد بذل ما في وسعه من تحيل وسياسة لاجل
استمالة قلوب المنتخبين وترغيبهم في اجابته غير انه حين اخذ يخبرهم بمرامه
ارتعدت فرائصهم فزعا من عواقب هذا الامر وما يترتب عليه من التعكيرات
والفتن وكانوا يعرفون حق المعرفة ان من المضر الواجب اجتنابه اعطاء
الايبراطورية لملك قوي الشوكة متسع الدول والممالك لاسيما ولعدولهم عن
هذا السنن وتوليتهم شرلكان على الايبراطورية لقوامنه ما اتعبهم فحصل
لهم الندم والتأسف وازدادوا اعتقادا في قواعد ملكهم الاولى ورأوا انهم ان
جعلوا التاج الايبراطوري وراثيا في عائلة شرلكان يلقوا من النسل
ما لقوه من الاصل اي يلحقهم من اولاد شرلكان من الظلم والاجحاف
ما لحقهم منه نفسه اذهم سيتممون ولا شك ما بدأ فيه ابوهم ويهدمون ما بقي من
القواعد والاصول المبنى عليها نظام الجمعية الجرمانية

مطلب
اجتهاد الايبراطور في ازالة تلك العوائق

هذا وكان طبع فيليبش قد اوجب نفور اهل المانيا منه وذلك انه وان
كان يود الدولة والحكم كان خاليا من كل ما يستعطف الناس ويستميل قلوبهم
وكان متكبرا قاسي القلب فعوضا عن تجديد أحباب يعينونه على ما أربه رفض
معاشرة احزاب عائلة الاوستريا الاقدمين واحبابها الصادقين حتى نفروا منه
كل النفور وكان لا يعتنى بتعلم لغة الامة الالمانية وان كان معدا للحكم عليها ومدة
اقامته ببلاد المانيا لم يكن لين العريكة فيما تقتضيه اخلاقها وعوائدها
فكان لا يطيق من الامراء المنتخبين ان يقعدوا بحضوره مستوري الرؤس وكان

مطلب
نفور اهل المانيا من طبع فيليبش

سنة ١٥٥١ دائما على هيئة من العتو والكبر لم يتجاسر أحد من الامبراطرة قبله على اتخاذها بل ولا والده شرلكان مع ما كان له من الدولة وعظيم الصولة

مطلب
اضطرار شرلكان الى العدول عن مقصده

واما فرديننـد فكان بخلاف ذلك حتى انه مدة اقامته ببلاد المانيا قد بذل جهده فى استمالة قلوب اهلها وتحبيبهم فيه بموافقتهم على اخلاقهم بدون تصنع ولا تكلف وكان ابنه مكسيمليان قد ولد ببلاد المانيا وكان جامعا للصفات الحميدة الحسنى حتى كان محبوبا مألوفا عند الاهالى كافة فكان احب الاشياء الى الالمانيين تولّيه على الامبراطورية وبانضمام حبهم هذا الامير الى الاسباب السياسية المتقدم ذكرها تقوى ميلهم الى الملك فرديننـد وابنه مكسيمليان ورجحوهما لحسن اخلاقهما ولين جانبهما على الامير فيليبش مع صعوبته وكبره وبناء على ذلك حصلت معارضة كلية للامبراطور فى تميم قصده وناقضه جميع الامراء المنتخبين من اقسة ولاييك حتى اضطر الى العدول عن قصده ورأى انه لا يمكنه تنجيزه مع انه كان لا يعدل ابدا عما صمم عليه واضمره ومابذله من الجهد فى تميم هذا الغرض لم ينشأ عنه الا فزع اهل المانيا وخوفهم من فرط طمعه وكان ايضا سببا فى ايقاع الفشل والشقاق بين اهله وعائلته وذلك ان اخاه فرديننـد قد اضطر لقصد حفظ نفسه الى البحث عن استمالة قلوب المنتخبين اليه لاسيما الامير موريس منتخب السكس وجدد معهم من العهود الاكيدة مالا يأذن للامبراطور أن يؤمل الظفر بمرامه فيما بعد ومع ذلك فلم يرسل ابنه فيليبش الى اسبانيا الا وهو مصمم على ان يدعوه منها بالثانى عند ظهور فرصة تعينه على تنفيذ مآربه

قوله لاييك يعنى بهذا اللفظ ماعدا الاقسة فيقال حاكم لاييك اى الذى ولاه الملك او ارباب الحل والعقد فى الحكومة الدنيوية واما الاقسة فيقال لهم اكليز ياستيك ولا دخل للملوك فى توليتهم وعلى هذا فمعنى لاييك يقرب من معنى لفظ العوام اذا اعتبر ان القسوس يعدون ماعداهم عاميا

مطلب
تصميم كل من البابا والامبراطور على الاستيلاء على برمة وبليزنسة

ولما خابت آمال الامبراطور فى هذا الامر وكان مشغولا به منذ زمن طويل حيث ان القصد منه ازدياد شوكة عائلته وثروتها تحول الى تطلب امر آخر كان يرغب فيه كثيرا وهو حمل اهالى الامبراطورية الالمانية على اتباع دين واحد والزام كل من المعتزلة والقاثوليقية بالرضاء والتسليم الى الاحكام التى ستصدر عن المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة ولكن كانت ممالكه منسعة جدا

سنة ١٥٥١

وكان عليه ادارة مصالح جسيمة فلا يمكنه ان يصرف همته الى امر واحد اشبه باستاذ دولاب متسع كبير كثير الآلات حتى ان ادنى اختلال او تصادم فى بعض آلاته يوجب غالبا تعطيل حركة سائر الآلات و يفسد فيه اهم اعماله وقد طرأت عوارض كثيرة فكانت عوائق كبيرة منعته عن تجهيز اغراضه فى شأن الدين منها ان البابا جاليوس الثالث عند توليته على منصب الباباوية اثبت الامير اوكتاوة فرنيز فى دوقية برمة لكنه عما قليل ندم على مافعل وادرك ماسيترتب على ذلك من الامور التى لم يتفطن لها لشدة فرحه لدى توليته او لفرط ولعه بمكافاة عائلة فرنيز وكان الايمپراطور لم يزل مستوليا على پليزنسة ولم يزل يطلب برمة ويدعى انها من التزامات الايمپراطورية واملاكها وكان غونزاغ حاكم ميلان من جملة من دبروا قتل الامير بطرس لويز فرنيز آخر دوق حكم فى پليزنسة فكان يعلم يقينا انه لابد من الانتقام منه مادامت عائلة فرنيز باقية فصمم على دمار تلك العائلة وقطعها عن آخرها وكان له كلمة نافذة عند الايمپراطور لكثرة معارفه وطول مكثه فى خدمته فاخذ يحسن له ان يتغلب على برمة بالقوة ومحض الغصب وكان الايمپراطور من تلقاء نفسه يود ان يضم برمة الى ميلان فجنح الى قول غونزاغ وبانت عليه علامات القبول وكان ادنى الاشارات يكفى فى تقوية قلب غونزاغ المذكور فاخذ فى جمع العساكر والجنود وتدبير ماهو لازم لتجهيز مآربه واغراضه

مطلب
طلب الامير اوكتاوة فرنيز الامداد والاعانة من مملكة فرانسا

فلما اخبر الامير اوكتاوة بالاخطار التى هو عرضة لها رأى من الضرورى اللازم ان يشتغل بما يأمن به على نفسه فزاد مقدار المحافظين فى تخته وجمع عساكر جديدة للمدافعة عن بقية بلاده ولكن حيث كانت ايراداته قليلة لاتكفى فى تجهيز ما يلزم له عرض حاله على البابا ورفع اليه اكف التضرع والابتهال ليصفه ببركات اعانته ويجعله فى حماه حيث انه من اتباع الكنيسة وله الحق فى الاستعانة بها ولكن كان رسول الايمپراطور قد وصل الى البابا وبالغ له فى الاخطار التى يكون عرضة لها اذا اغضب الايمپراطور باعانته للامير اوكتاوة

سنة ١٥٥١

المذكور فى هذا الامر اذ هو من محض الظلم والتعدى ويضر بالكنيسة الرومانية ولم يزل ملحا على البابا حتى اخرجه عن حزب عائلة فرنيز فاهمل فى سؤال الامير اوكتاوة ولم يجبه فيما طلب ويئس هذا الامير من نيل الامداد والاعانة من طرف البابا فاضطر الى تحويل سعيه لجهة اخرى ولم يكن اذ ذاك من هو قوى الشوكة حتى يمكنه اعانته الا هنرى الثانى ملك فرانسا ومن حظ فرنيز كانت مقتضيات الاحوال اذ ذاك تأذن لهنرى المذكور ان يقبل مثل تلك القضية وذلك انه كان قد تم على طبق مرامه المصالح التى كان يتداول فى شأنها منذ زمن طويل مع مملكتى اربطانيا الكبرى (ايقوسيا وانكلتره) وقد كانت هذه المصالح الى ذلك الوقت قد اشغلته عن الالتفات الى مصالح الارض القارة من بلاد اوروبا وكان ظفره بمرامه فى تلك المصالح ناشئا عن عزم عساكره وجنوده وعن حزمه فى انتهاز كل فرصة لاحت له من الفتن السياسية التى كانت تمزق هاتين المملكتين وتزيد فى حمية اهل ايقوسيا وتصميمهم وتضعف عزم اهل انكلترة وتوقعهم فى التردد وكان اهل ايقوسيا متعاهدين مع هنرى ملك فرانسا المذكور فسعى فى مصالحهم الى ان حمل اهل انكلتره على قبول شروط لطيفة لاهل ايقوسيا حتى استمال قلوبهم اليه ورضى اعيانها بتزويج ملكتهم بابنه ولى عهده بل وحسن لهم نقلها الى مملكة فرانسا لتتربى تحت نظره وغير ذلك فقد كان استولى بالثانى على بولونيا وما يتبعها من الاراضى وكان هنرى الثامن ملك انكلتره قد نزعها من مملكة فرانسا

مطلب
معاهدة اوكتاوة مع هنرى الثانى ملك فرانسا

وبعد ان تم الملك هنرى هذه الامور المفيدة لمملكته واراح نفسه مع الشرف والعزة من احمال الحرب الذى كان حاصلا بينه و بين انكلترة ومن الامداد الذى كان يمد به ايقوسيا رأى انه يمكنه ان يحذو حذو والده فرنسيس فى المخاصمة والعداوة التى كانت بينه و بين الايمبراطور و بناء على ذلك سر لما عرضه عليه الامير اوكتاوة فرنير من قصد التعصب معه على الايمبراطور ورأى ان هذه فرصة عظيمة يدخل بها فى بلاد ايطاليا فعقد بدون تراخ مشارطة فيها تعهد بان يعضد الامير اوكتاوة وان يمده بكل ما احتاج اليه ولا يخفى ان مثل هذه

سنة ١٥٥١ م

المعاهدة لا يمكن ان تمضى عليها مدة قبل ان يعلم بها البابا فبمجرد ان وقف على خبرها ورأى ما سيحل به من المصائب اذا انتصب الحرب بقرب دول الكنيسة بعث للامير اوكتاوة أوامر علية بالعدول عن المعاهدة المنعقدة بينه و بين ملك فرانسا فلما ابى الامتثال الى اوامره حكم عليه بعد مدة قليلة بحرمانه من التزاماته ودعاه الى الحرب بوصف كونه تابعا قد عصى على سيده ولكن كان لا يؤمل بمجرد دواء الظفر به وهو قد تعاضد بملك قوى الشوكة والصولة فطلب الاعانة من الامبراطور وكان يخشى تغلب الفرنساوية على برمة فأمر الرئيس غونزاغ بان يسوق جنوده لاعانة البابا فكان الفرنساوية حلفاء للامير اوكتاوة والامبراطور معينا للكنيسة و بينما كان الحرب واقعا بين الامبراطور وهنرى كان كل منهما يشيع بين الناس انه لا يود نقض مشارطة الصلح المنعقدة بينهما فى كريسبى هذا ولم يحصل فى حرب برمة حادثة كبيرة جديرة بالذكر وانما حصلت عدة وقائع صغيرة كان احد الفريقين يغلب فيها تارة والآخر اخرى وخرب الفرنساوية جزأ من بلاد الكنيسة واما العساكر الامبراطورية فقد خربوا البرموزان وبدؤا فى حصار برمة الا انهم اضطروا الى رفع هذا الحصار ولم يكسبوا منه سوى الخزى والعار

مطلب
تجدد الحرب بين الامبراطور وبين هنرى ملك فرانسا

وما نشأ عن هذا الحرب من الفزع فى ايطاليا قد منع اغلب القسيسين والاحبار الايطاليين عن الذهاب الى مدينة ترنتة فى اول يوم من شهر ايار حسبما انحط عليه الرأى من أن يكون انعقاد المشورة القسيسية فى هذا اليوم ومع ان وكيل البابا ورسله قد حضروا فى اليوم الموعود لزمهم ان يبقوا الى اول شهر ايلول مؤملين ان يجتمع هنالك حينئذ من الاحبار والعلماء ما يكفى فى انعقاد المشورة والمذاكرة بها على الوجه اللائق وفى هذا اليوم حضر الى المشورة ستون حبرا اغلبهم من دول الكنيسة ومن اسبانيا و بعض احبار من بلاد المانيا وافتتحت المشورة على حسب الرسوم المعتادة واستعدأربابها للمذاكرة والمفاوضة واذا بالحبر اميوت رئيس دير بيلوزان قد حضر وأبدى

مطلب
تأخير انعقاد المشورة القسيسية

سنة ١٥٥١

مكاتيب ووثائق بانه رسول محضر من طرف الملك هنرى وطلب الدخول فى المشورة للمكالمة مع اربابها فلما اذن له بالدخول ابدى عن لسان سيده الملك هنرى ان المشورة غير صحيحة حيث انها قد انعقدت فى اوقات غير مساعدة لانه مع وجود الحرب الذى اشعل البابا نيرانه بدون سبب لا يأمن رسل الكنيسة الغليكانية اى الفرنساوية على انفسهم حتى يذهبوا الى مدينة ترنتة وعلى فرض امكان ذهابهم الى تلك المدينة فلا يمكنهم ان يتذاكروا بالمشورة كيف شاؤا فى المسائل الخلافية المترتب عليها الفشل والشقاق بين العباد فى شأن الدين وابدى ان سيده لا يعتبر هذه المشورة الاجمعية خاصة عرفية لا يعتد باحكامها فعند ذلك اظهر نائب البابا عدم الاعتناء بقول هذا الرسول ولم يزل الاحبار ارباب المشورة مستمرين على المذاكرة فى شأن المسائل الخلافية المتعلقة بالاوخارستى وبالتوبة وبتقديس المرضى لدى الموت ولكن لا يخفى ان مثل هذا الفعل من ملك فرانسا لا بد وان يترتب عليه عدم نفوذ احكام المشورة القسيسية فكيف يرضى اهل المانيا ان يحترموها وقد حصلت المعارضة فى صحتها لدى افتتاحها من طرف ملك هو اعظم ملوك النصارى شوكة وصولة بعد الايمبراطور شرلكان وكيف تستطيع انفسهم ان يمتثلوا الى احكام بعض افراد قد جعلوا يعزون لانفسهم سائر الحقوق الثابتة لوكلاء الكنيسة والدين وصاروا يامرون وينهون كانهم وكلاء حقيقة عن الكنيسة مع انه لم يكن احد اقرهم على ذلك

مطلب مناقضة الملك هنرى فى صحة المشورة

ومع ذلك قد بذل الايمبراطور وسعه فى اثبات صحة المشورة القسيسية حتى يتمكن من تنفيذ الاحكام التى تصدر عنها وكان له موقع عظيم عند ثلاثة من منتخبى القسيسين كانوا بعد البابا اعظم رجال الكنيسة صولة واعلاهم منصبا ومقاما فحمل هؤلاء المنتخبين الثلاثة على الحضور فى المشورة بنفسهم والزم ايضا عدة من اصاغر الاساقفة الالمانيين بان يحضروا المشورة فى ترنتة او يرسلوا وكلاءهم لينوبوا عنهم بها واعطى بطاقة الامان للرسل الذين بعثوا الى تلك المشورة من طرف الامير منتخب براندبورغ والامير دوق ورتمبرغ

مطلب ما فعله الايمبراطور شرلكان من القسر والجبر فى حق المعتزلة

سنة ١٥٥١م

وغيرهما من امرآء المعتزلة وحض هؤلاء الامرآء على ان يرسلوا ايضا الى المشورة علماءهم من اهل التيولوجيا ليعرضوا مذهبهم على تلك المشورة ويدافعوا عنه ويفسروا ما كان محلا للتوقف فيه ويعضدوه مهما امكن ولقد ظهر تحمل الايمبراطور على المعتزلة قبل ان يصدر امر ما فى حقهم من المشورة القسيسية المتقدم ذكرها فعل معهم كما اذا كانت تلك المشورة حكمت بتفنيد مذهبهم وتفسيد آرآئهم واعتقاداتهم واخذ على رؤس الاشهاد فى اجرآء ما يؤدى الى محق كل رأى وقول خالف المعتزلة فيه دين الكنيسة الرومانية وذلك انه امر بجمع قسوس مدينة اوكسبورغ وسألهم عن عدة مسائل مما كانت موضوع التنازع والجدال اذ ذاك ما بين المعتزلة وكنيسة رومة ثم امرهم ان لا يدرسوا شيأ من الآرآء والاعتقادات المخالفة لاصول الكنيسة الرومانية فلما ابى هؤلاء القسوس ان يمتثلوا الامر حيث يحملهم على فعل شئ لا ترضاه ذمتهم امرهم ان يخرجوا من المدينة فى ثلاثة ايام من غير ان يفهموا احدا بسبب طردهم ونهاهم عن وعظ الناس فيما بعد بشئ من مذهبهم فى سائر المدائن والبلدان الموجودة فى حكمه واخذ عليهم ميثاقا بان لا يفعلوا خلاف ما أمرهم به وفعل مثل ذلك ايضا فى حق القسوس المعتزلة باغلب مدائن سوابة حيث عزل المشهورين منهم بالميل الى دين المعتزلة وحطهم عن مناصبهم بدون ان تقام دعواهم بموجب الاصول الجارية على شرقتهم اذ ذاك واعطى مناصبهم لمن شاء ممن كانوا اخصاما لهم حتى كاد مذهب المعتزلة ان يكون نسيا منسيا فى هذا الاقليم وهتكت حرمة مزايا المدائن الحرة وألزم الناس بالامتثال لاحكام الكنيسة وكانوا يبغضونها لظلمها واضطروا الى تلقى الديانة عن قسيسها وكانوا ينفرون منهم ويعدونهم من عباد الاوثان

مطلب
ما بذله الايمبراطور من الجهد فى تأييد المشورة القسيسية

وبعد ان اظهر الايمبراطور بهذه الامور التى لم يكن فعل مثلها الى ذلك الوقت ما كان مصمما عليه من حل نظام الجمعية الجرمانية ومحق دين المعتزلة انتقل الى مدينة انسبروك فى اقليم تيرول واقام بهذه المدينة وكانت قريبة من مدينة ترنتة وموضوعة على حدود ايطاليا ولذلك جعلها دار اقامته

سنة ١٥٥١

حينئذ حتى يمكنه ان يلاحظ امور المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وغوائل الحرب فى اقليم برمة مع التفاته الى ما يحصل ببلاد المانيا

وفى اثناء ذلك كان حصار مدينة مكدبورغ لم يزل مستمرا ولم يتم امره اما لاحد الحزبين او عليه وكان الايمبراطور شرلكان قد هدد ودم اهل هذه المدينة واخذ يعترض الايالات المجاورة لها على قتال اهلها لكونهم عصوا اوامر الايمبراطورية فهم اعداء لها وكان الامير جيورج دومكلنبورغ شقيق الامير الذى كان حاكما اذ ذاك طماعا جسورا فلاغتراره بقول الايمبراطور ومواعيده جمع مقدارا جسيما من العساكر الذين كانوا اتبعوا هنرى دو برونسويك فى غزاوته المنكرة وهجم وان كان من حزب دين المعتزلة على اراضى مكدبورغ مؤملا ان يعطيه الايمبراطور جزأ من هذه الاراضى فى نظير خدمته له ولم يكن اهل مكدبورغ متعودين على تحمل غوائل الحرب ولزوم الصبر عندها بخرجوا من المدينة واندفعوا دفعة واحدة على الاعداء لينقذوا ارضهم من السلب والنهب وهجموا على معسكر جيورج مع عزم تام لكن بدون احتياط فطردوا بعد ان هلك منهم اناس كثيرون غير ان عزمهم كان قويا حيث كان قصدهم المدافعة عن حريتهم وعن دينهم فضلا عن ان تفترهمتهم بهذه النكبة الاولى لم يزدادوا الا حمية وصمموا اكمل التصميم على المدافعة والمقاومة من داخل مدينتهم وجاءهم مقدار جسيم من العساكر الاقدمين الذين خدموا فى حروب الايمبراطور وحروب ملك فرانسا وعرضوا عليهم ان ينضموا اليهم ليعينوهم على المدافعة عن مدينتهم فقبلوهم وكان ضباطهم على شجاعتهم ممن هذبتهم صروف التجارب فى الحروب فصار سكان مكدبورغ يتقدمون شيأ فشيأ فى المعارف العسكرية حتى جمعوا بين النظام الجهادى وقوى العزم والشجاعة وصارت المدينة حصينة محفظة حفظا جيدا فلم يمكن للامير جيورج ان يهجم عليها وان كان ظفر بسكانها اولا فاقتصر على تخريب ما حولها من الاودية والاراضى وحيث كان ينضم الى عساكر جيورج المذكور اناس كثيرون طمعا فى الغنيمة حتى صاروا جيشا عظيما احب الامير

موريس

سنة ١٥٥١

بموريس منتخب سكس ان يأخذ قيادة هذا الجيش طمعا فيما يترتب عليه من الشهرة ونفوذ الكلمة ومنعا لمن سواه عن اثبات ذلك الفخر لنفسه فركب فى عساكره وتوجه بهم الى مدينة مكدبورغ بدون تراخ وضم جنده الى جند الامير جيورج وصار رئيسا على الجميع لما ان ذلك حق له لا يشركه فيه سواه بالنظر لمقامه ومعارفه ومنصبه الذى قلدته به مشورة الديتة وبعد ان ضم الجنود الى بعضهم احاط بالمدينة ووضع عليها حصارا محكما غير انه بينما كان يسعى بتصديه لهذه الواقعة فى استصحاب الايمپراطور له اذ يريه ميله الى تنجيز او امره كان المعتزلة يسخطون عليه ويلعنونه بكل لسان حيث هو يساعد الايمپراطور على مدينة مكدبورغ وان كان من حزبهم ويشركهم فى العقائد الدينية ومع ذلك فكانت عمليات موريس فى الحصار بطيئة لان محافظى القلعة كانوا يكثرون من الهجوم على معسكره ويفسدون عليه ما يدبره من العمليات والاشغال ويخطفون عساكر من المحطات القريبة من المدينة حتى انهم فى احدى هجوماتهم اسروا منه الامير جيورج وكان رؤساء المدينة يقوون عزم سكانها بالمواعظ والخطب كما كان محافظوها من العساكر يشتد عضدهم ما كانوا يرونه من شهامة ضباطهم فلم تفتر لهم همة ولم تسام انفسهم من مشاق المحاصرة واستقر كل منهم على المدافعة من غير ان ينحط ثباتهم عما كانوا عليه اولا بخلاف عسكر موريس فقد سئمت نفوسهم وفترت هممهم وضجروا كل الضجر حتى انهم قاموا المرار العديدة وطلبوا صرف ما كان متأخرا لهم من مدة استخدامهم حيث كان يشق على اهل المانيا دفع مصاريف الحرب المذكورة اذ كان على خلاف مرامهم هذا وكان للامير موريس اسباب اخرى خصوصية لم يكن يتجاسر على اظهارها فمنعته تلك الاسباب من التشمير عن ساعد الجد فى أخذ المدينة ورأى ان بقى مع جيشه ولو لم يكن يسلم من التهم لبطئه خيرا من استيلائه عاجلا على المدينة حيث انه وان كان يزيده شهرة وفخرا الا انه يحمله على تسريح عساكره اذ لا يبقى له وجه فى ابقائهم

سنة ١٥٥١

مطلب تسليم المدينة الى موريس فى ثلاثة من شهر تشرين الثانى

ولكن من جهة اخذ القحط ينشر غوآئله بين سكان المدينة ومن أخرى تحتم على موريس ان يفض امر الحصار عاجلا حتى لا يفطن به الايمبراطور وسوأ فيكون ذلك سببا فى ان تفسد عليه مآربه ومقاصده فتداول مع سكان المدينة ورؤسائها فى طريقة بها يتم النزاع وكانوا فى مبدأ ضنك من جهة المعيشة كما قدمناه آنفا فلانوا له وسلموا مدينتهم على الشروط الآتية وهى * اولا ان السكان يلتمسون مع التضرع والتواضع عفو الايمبراطور وصفحه عنهم * ثانيا أنهم من الآن فصاعدا لا يعصون على عائلة الاستريا ولا يقومون بتعضيد من عاداها * ثالثا انهم يمتثلون كل الامتثال لاوامر الديوان الايمبراطورى * رابعا أنهم يعملون بمقتضى ما يصدر من الاوامر عن مشورة الديانة المنعقدة بمدينة اوكسبورغ فى شأن الدين * خامسا أن تهدم الاستحكامات والتحصينات التى جددت فى مدينتهم * سادسا انهم يدفعون الى الايمبراطور مبلغ خمسين الف كورون على سبيل الجريمة * سابعا انهم يدفعون اليه اثنتى عشرة قطعة من المدافع * ثامن الشروط وهو الاخير ان يخلوا سبيل الامير جيورج من غير فدية وكذلك كافة الاسرى الذين وقعوا فى ايديهم مدة الحصار وعلى هذه الشروط خرج المحافظون ثانى يوم من المدينة وتملكها موريس فى ابهى احتفال

مطلب مآرب موريس التى اشرنا اليها آنفا

وقبل ان يتم اقرار هذه الشروط كانت حصلت المذاكرة عدة مرات فيما بين الامير موريس والامير البير قونت دومنسفلد وكان باشكمدار فى مدينة مكدبورغ وبين القونت هيديك احد الضباط الذين امتازوا فى عصبة سمالكالد وكان الايمبراطور هدر دمه لميله الى حزب المعتزلة ومدافعته عنه واما الامير موريس فكان قد ادخله سرا فى خدمته وكان يطلعه على اسراره ويتداول معه فى كل امر مهم ففى المذاكرة التى حصلت تلك المدة بين الامير موريس وبين هذين الاميرين افادهما بما كان مشغول البال به منذ مدة مستطيلة وهو فك اسر الاميرابى زوجته المسجون بطرف الايمبراطور واسترجاع مزايا الجمعية الجرمانية وتحديد الشوكة الايمبراطورية

حتى يمتنع اقتياتها وتعديها على الجعية وبعد أن استشارهما الامير موريس عما به يمكن تقيم هذه المآرب الجسيمة الخطرة وعدالقونت دو منسفلد سرا بعدم تخريب استحكامات مدينة مكدبورغ ووعده ايضا بان سكان هذه المدينة لايمسهم ادنى ضرر فيما يخص الدين وانهم لايحرمون من شئ من مزاياهم الاصلية هذا وقد اسلمت مشورة مكدبورغ الاهلية عنان رياستها الى الامير موريس وجعلته كبيرا عليها حتى تستميله بمصلحة تخص نفسه الى الوفاء بوعده وكان قد سبق اعطاء هذا المنصب قديما الى عائلة منتخبى السكس فصار لها به كلمة نافذة فى مدينة مكدبورغ وما يتبعها من الاراضى

مطلب
الفوائد التى جمعها موريس من مداولته مع سكان مدينة مكدبورغ

فانظر كيف كانت عاقبة من اخلصوا فى المدافعة عن حريتهم المدنية والدينية اذ لاقوا عدوهم بقلب سليم وبذلوا من الهمة والجهد ما هو جدير بالغرض الذى كانوا يدافعون عنه فبعد أن مكثوا سنة كاملة وهم لا يكلون مما نزل بهم عقد معهم السلم على شروط كانوا بها فى احسن حال بالنظر لما قد حل بابناء وطنهم الالمانيين الذين انقادوا للايمبراطور وامتثلوا احكامه لخوفهم ومضافة عقولهم * وبينما كان معظم اهل المانيا يثنون على اهل مدينة مكدبورغ وهم فى فرح عظيم لنجاتهم بعد ان هدر الايمبراطور دمهم كان الناس كافة يتعجبون مما ابداه موريس من الحذق والنباهة فى المداولة معهم حيث انتهز من كل حادثة فرصة رتب عليها فوائد جمة لنفسه وكيف لايتعجب من التفت مع الدقة الى تدبيره حيث اعيى سكان مدينة مكدبورغ عدة شهور واذاقهم العذاب من حربه ثم جعلوه من تلقاء انفسهم بدون اكراه ولا الزام رئيسا عليهم وملتزما على مدينتهم وبعد أن مكثوا مدة وهم يسخطون عليه ويلعنونه بكل لسان وينسبونه الى النفاق اذ كان يقاتلهم لكونهم اختاروا دين المعتزلة ورجعوا عن دين الكنيسة مع انه نفسه كان يتبع هذا الدين جنحوا اليه وصاروا يثقون به ويعتمدون عليه هذا وكانت الشروط التى صار بموجبها تسليم المدينة مطابقة بالكلية للشروط التى كان الايمبراطور قد الزم بها المدائن المعتزلة من قبل على ان

موريس قد زين بحزمه تسخيره لهذه المدينة وألبسه احسن صورة حيث امهلها لتدافع عن نفسها حتى المدافعة فلم يظن الايمبراطور به سوأ ولم يتوهم وجود اتفاق مضر به فى هذه المشارطة بل بادر الى اقرار ما احتوت عليه وعفى عن سكان مكدبورغ بعد ان هدر دمهم

مطلب ما دبره موريس حتى يسوغ له ان يبقى تحت طلبه جيشا مكملا

ولكن كان موريس لم يزل متحيرا فى وجود سبب يبقى عليه ابقاء الجنود الذين كانوا يدافعون عن مدينة مكدبورغ مجموعين تحت طلبه فانظر كيف فعل بعد ان فكر فى امره ودبره من المعلوم انه لم يكن جمع امره كما ينبغى فيما كان يقصده فى حق الايمبراطور فمن جهة كان لا يمكنه ان يظهر قصده او يأخذ فى تتميمه جهرا لاسيما وكان وقت الشتاء على قدوم وفى هذا الفصل تتعذر الحرب ومن جهة اخرى كان يخشى ابقاء العساكر على طرفه حتى يأتى الربيع الذى هو فصل الحروب والقتال لان ابقاء العساكر ربما استيقظ وتنبه به الايمبراطور وبناء على ذلك اذن بمجرد استيلائه على مدينة مكدبورغ لعساكره السكسونيين بالانصراف الى وطنهم لانهم من رعيته فيسهل عليه جمعهم متى شاء ثم صرف للعساكر المستأجرة التى كانت فى خدمته وللعساكر التى كانت قائمة بحفظ مدينة مكدبورغ بعض ما كان متأخرا لهم وسرحهم غير ان الامير جيورج بعد ان خلص من الاسر تكفل بان يأخذ هؤلاء العساكر فى خدمته وان يدفع لهم ما كان باقيا من ماهياتهم وكانوا متعودين على الانتقال من خدمة امير الى آخر لقصد الاكتساب فرضوا بما عرضه عليهم جيورج وبقوا مجموعين حتى يمكن موريس ان يطلبهم متى شاء ويوجههم حيث شاء فغفل الايمبراطور عن سر هذا التدبير وظن ان الامير جيورج لم يبق هذه الجنود الا لقصد أن يظهر على اخيه ويأخذ منه بعض اراضى كان يدعى اذ ذاك انها حقه وبعد أن دبر موريس هذه الامور ليتمكن بها من تنفيذ اغراضه اخذ يدبر فيما يمنع به الايمبراطور عن الوقوف على حقيقة مآربه ويزيل ما يمكن ان يداخله من الريب والشك حتى يبقى مطمئنا من جهته وكان موريس يعلم ان آمال الايمبراطور اذ ذاك كانت متعلقة بحمل الايالات والاقطار المعتزلة من المانيا على اقرار

مطلب ما دبره موريس حتى يشاغل الايمبراطور ويمنعه عن الوقوف على ما ربه هنا

المشورة

المشورة القسيسية المنعقدة في ترنته وابعاث رسل من طرفها وقسوس من كنايسها الى تلك المشورة فانتهز موريس هذه الفرصة واخذ يظهر الصداقة سنة ١٥٥١ للامبراطور ويريه انه يرغب في تنجيز اغراضه وعين من طرفه رسلا ليبعثهم الى المشورة القسيسية وامر الشهير ميلنختون وبعض اناس آخرين من اعظم علماء اللاهوت في بلاده بان يكتبوا آراءهم ويعرضوها على تلك المشورة واقتدى به الاميردوق ورتمبرغ ومدينة استرسبورغ وغيرها من البلاد المتمسكة بدين المعتزلة وربما كان موريس هو الذي حملها على ذلك وعينت رسلا وقسوسا من طرفها الى المشورة وكلهم عرضوا الى الامبراطور ان يعطيهم ورقة الحماية فدفعها اليهم وتوجه رسل الايالات الى المشورة الا ان القسوس المعتزلة لم يكتفوا بورقة الامان المعطاة لهم من طرف الامبراطور بل طلبوا تذكرة اخرى من ذات المشورة القسيسية وللقسوس الحق في ذلك حيث رأوا في القرن الذي سبقهم ان المشورة القسيسية التي كانت منعقدة في مدينة قونسطنسة قد القت في النار كلا من العارف حناهوس والشهير جيروم دوبراغة ولم ترع حرمة التذكرة الامبراطورية التي كانت معهما ولكن كان البابا لا يرضى ان يكون لعلماء المعتزلة حق في التكلم بالمشورة القسيسية وان كان الامبراطور يلح في اثبات هذا الحق لهم وكان وكيل البابا يبذل جهده في تنفيذ امر سيده ويسلك تارة سبل الترغيب واخرى سبل الترهيب حتى حمل ارباب المشورة القسيسية على ان يمتنعوا عن اعطاء علماء المعتزلة تذكرة خالية عن اللبس والايهام كالتذكرة التي دفعتها المشورة القسيسية التي كانت منعقدة في مدينة بالة الى احزاب حناهوس فلما شاهد المعتزلة ذلك ابوا الا ان تنسخ لهم صورة تذكرة بالة كلمة بكلمة واجتهد رسل الامبراطور في اعانتهم على ذلك حتى حررت لهم تذكرة حكم مرامهم وتوجهوا الى المشورة القسيسية وصارت المناظرة ما بين الفريقين وحصلت منازعات كثيرة ومناظرات كبيرة ووكيل البابا يحاول ويمارغ هو وجماعته مؤملين انهم بالمخادعة والمجادلة يظفرون بمرامهم والمعتزلة مصممون على قولهم ويردون بقاطع البراهين ما يورد عليهم وكان الامبراطور وهو

سنة ١٥٥١ م

فى انسبروك تأتيه الاخبار تفصيلا بما يحصل فى ترنتة وكان يريد أن يجتهد فى رفع الشقاق من بين الفريقين وفى الاصلاح بينهما فرأى انه وقع فى مشكل بعيد الغاية لا يجد له نهاية ولا يعلم سبب تصديه لذلك هل لغيرته على دين الكنيسة او لوثوقه بنفسه فى حل المشكلات والمعضلات ولا يخفى ان كل هذه الدسائس المدبرة كانت تعين موريس حق الاعانة على تنفيذ اغراضه اذ أنه بينما كانت تستغرق اوقات الامبراطور وتمنعه عما سواها كان موريس يدبر فى مقاصده ويجمع امره حتى يحسن الرمى اذا رمى ويصيب ولا يخيب

مطلب
مصالح بلاد المجار

ولكن قبل التعرض الى تفصيل هذه الامور ينبغى ان نذكر واقعة جديدة حصلت فى بلاد المجار وكان لها مدخل عظيم فى الحوادث العجيبة التى نشأت عن سعى موريس واجتهاده وهى ان السلطان سليمان سلك سنة ١٥٤١ مسلكا يليق باسافل الظلمة الباغين لا بعظيم شأن فاتح مثله قوى الشوكة والبطش وحرم ملك المجار وكان قاصرا من دوله وبلاده التى تركها له والده ولم يترك له من سائر البلاد التى ورثها عن ابيه سوى اقليم ترنسلوانيا المعروف بولاية اردل وانعم عليه بان يبقى على الملوكية فى هذا الاقليم اى بان لا ينزع منه التلقيب بالملك ولكن كان هذا مجرد لفظ لا وجود لمدلوله وحيث كان قاصرا اذ ذاك اناط السلطان سليمان بادارة امور هذا الاقليم القسيس مارتينوزى اسقف وارادين واشرك معه فى ذلك والدة الامير القاصر واناطهما ايضا بتربيته وكان والده قبل موته قد جعل هذا الاسقف وصيا عليه وعلى المملكة يقوم بامورها حتى يبلغ ابنه حد الرشد وكان ذلك من الضرورى يوم كانت بلاد المجار باقية على اصلها وحيث كانت الحكومة مشتركة ما بين الاسقف ووالدة الامير القاصر نشأ عن ذلك من الشقاق فى هذا الاقليم الصغير ما ينشأ عادة عن انقسام الكلمة والشوكة فى الممالك الكبيرة كيف لا ووالدة الامير القاصر مع اقتدارها على القيام بالحكومة وحدها كانت طماعة حريصة ولم يكن الاسقف دونها فى الطمع والشره فحصل بينهما النزاع وصار كل منهما يدعى ان الاعتماد عليه فى امور الادارة وكان لكل منهما احزاب من الاشراف

وكانت

سنة ١٠٥١

وكانت معارف الاسقف لاتتكر فى مثل هذا الموقع فاخذ يتقوى على الملكة ايزابيلة والدة الامير القاصر واذابها واوقعته فيما كان يدبره اهامن الحيل والدسايس واستصرخت قوى بطش الاسلام

مطلب تعضيد الاسقف للامير فرديننـد على دعواه

وكان الباشاوات الذين هم بالقرب منها يغارون من صولة الاسقف ومن معارفه فوعدوا الملكة ايزابيلة بالاعانة والامداد ولاشك انهم كانوا يحملون الاسقف على التخلى عن ادارة امور اردل لولم يحمله طمعه على اتخاذ طريقة اخرى تحميه بل وتقوى بها شوكته فى الاقليم المذكور وذلك انه اصلح الملكة بواسطة بعض من اعيان الاشراف الذين كانوا يخشون تخريب وطنهم لما يترتب على الشقاق والتفاقم الحاصل بين الاسقف والملكة من الحروب المدنية والفتن الداخلية غيرأنه بينما كان يشاغلها بذلك ويداهنها ارسل احد اصحاب سره الى الامير فرديننـد بمدينة ويانة ليعقد معه مشارطة كما ترى وكان هذا الاسقف سببا فى اخراج فرديننـد من بعض بلاده الموجودة فى بلاد المجار ففرح حين فاتحه الاسقف فى هذا الخصوص ملاحظا انه كما امكنه اخراجه اولا من بلاده لايتعسر عليه ان يردها اليه بالثانى لاسيما وكان الاسقف قد عرض على فرديننـد فوائد جمة ووعده بان يسلح لقصد مصلحته اقوى اشراف بلاد المجار واعظمهم شوكة فصمم فرديننـد على ان يدخل بعساكره فى اقليم ترنسلوانيا ووعد الاسقف بذلك وان كان قد عقد الهدنة مع السلطان سليمان واعد فرديننـد لهذا المشروع جيشا جمعه من جنود المانيا واسبانيا الذين شابوا فى العسكرية وصار لهم فيها دراية وتفنن وجعل على هذا الجيش الامير كستالدو ملترم بيادينة وقدرباه واحسن تربيته الشهير بسكير الذى اسلفنا ذكره فكان يشبهه بالكلية وكان ذا قريحة لايعبأ بالعضلات والخطوب جامعا الماجل من المعارف فيما يخص الفنون الحربية ودخل الجيش فى ترنسلوانيا وكان مهابا لا لكثرة جنوده حيث كانوا قليلين بل كان مهابا لجراءة عساكره ومهارة رئيسه وبدأ فى الحرب واعانه الاسقف واحزابه من اهل المجار كل الاعانة وكان السلطان وقتئذ مع جيشه على ضواحى بلاد العجم ولم يمكن

سنة ١٥٥١

للباشاوات ان يعينوا الملكة ازابيلة كما ينبغي بالنظر لما كانت تقتضيه الاحوال اذ ذاك فاشعرت بانها ستنزع عن قريب من النيابة بل ويئست من ابنها وايقنت بهلاكه بين هؤلاء الاقوام

مطلب نجاح مادبره الاسقف مارتينوزى

وكانت هذه الفرصة تعين الاسقف حتى الاعانة على التوصل الى غرضه فلم يهملها وذلك انه لما رأى الملكة ازابيلة فى اشد كرب عرض عليها امورا اوسعتها منه فى وقت آخر لانه فيما تقدم ما تكلم بل ما فاه بالنسبة لهذا الامر والآن فبدا يقرر لها ان المحال عليها ان تقاوم جيش فرديننند وانها وان كانت تؤمل الاعانة والامداد من طرف الدولة العثمانية فتلك الاعانة تضرها لا تنفعها حيث ان الدولة العثمانية وان كانت تعينها حتى تظفر بخصمها فهى تصير من جملة اتباعها ولا يمكنها التخلص من حكم الاتراك وافهمها ان تسلمها فى ترنسلوانيا للامير فرديننند والتنازل له عن حق ولدها فى الملوكية على بلاد المجار التى بشأنها وحفظ ولدها وابقاء بلاد النصرانية فى الامن والراحة من استعانتها بالدولة العثمانية حيث ان اعانتها الاتراك وهم اعداء الدين لها الابد وان تصيرهى وابنها فيما بعد غنيمة لهم ووعدها الاسقف ايضا ان سيحصل لها من الامير فرديننند ما هو كفؤ لها ولمقامها فى مقابلة ما تنزل عنه وكانت ازابيلة قد تخلى عنها بعض احزابها وتخشى ان يتخلى عنها الباقون ولا تجد ظهيرا ولا نصيرا اثناما ترى اكتناف الاعداء بها من كل جهة فقبلت ما عرضه عليها مارتينوزى ليأسها وقنوطها وسلمت القلاع وكانت لم تزل محصنة متينة وسلمت سائر النشانات الملوكية من جملتها تاج من الذهب كان اهل المجار يزعمون انه انزل به من السماء حتى ان من يحمله يكون له حق فى الملوكية غير قابل لان ينازع فيه وحيث لم تطق نفس ازابيلة ان تمكث كاحاد الناس فى بلاد كانت ملكة عليها ارتحلت من وقتها مع ولدها الى سيليزيا لتسكن باعنة كل من اقليم اوبلان واقليم راتيبور لان فرديننند كان وعد بان يقلد ابنها بحكومة هذين الاقليمين وان يزوجه باحدى بناته

وبعد أن انشبع امر تنازل ازابيلة وولدها عن المملكة تابع الاسقف الامير

فرديننند

سنة ١٥٥١

فرديننـد واقتدى به ايضا سائر امراء ترنسلوانيا وكذلك الامير فرديننـد لم يبق شيء من التعظيم والتبجيل الا واجراه في حق هذا الاسقف في نظير خدمته واعانتـه له فجعله حاكما على ترنسلوانيا واثبت له فيها صولة لاحد لها وامر الجنرال كستلدو ان يكون مطيعا لاوامره وان يكون في غاية الامتثال له وان لا يفعل شيأ بدون استشارته ورتب له ماهية غير الايراد الجسيم الذي كان له من قبل واعطاه مطرانية غران واخـذ له من البابا منصب الكردينال ومع ذلك فكان الامير فرديننـد يضمر في حق مارتينوزي خلاف ما يظهر ولم يكن في الباطن صادقا في شيء مما فعله في حقه بل انه كان يستخونه ويخشى من سياسته ومعارفه وذلك انه كان يريد ابطال ما كان للاشراف ببلاد المجار من المزايا الزائدة عن الحد فخطر بباله ان ما اكتسبه مارتينوزي من الشوكة والصولة سيصرفه في عكس ما يصير تدبيره في حق الاشراف لان مثل مارتينوزي يرجح اشتهاره بحب وطنه وتأييد حرية ابناء بلاده عن اشتهاره بكونه صادقا في حق ملك اولاه عزا ورفعة

مطلب
جعل الاسقف مارتينوزي حاكما على ترنسلوانيا

وبناء على ذلك صدر امر من الملك فرديننـد سرا الى كستلدو بان يتنبه الى امور مارتينوزي وان يلاحظه مع الدقة في سائر اطواره وحركاته وان يحترس من كل ما يفعله وان يفسد عليه كل ما يدبره ولكن حصل ان مارتينوزي لجهله ترقب كستلدو له او لعدم اكتراثه بدسائس فرديننـد ومكره قد بدأ بحرب الاتراك وتثبت في قتالهم حتى ظهر عليهم واسترجع منهم عدة مدائن كانوا تغلبوا عليها وافسد عليهم ما دبروه للتغلب على مدائن اخرى ومكن حكم فرديننـد في ترنسلوانيا بل وفي ايالة تمسوار وغيرها من البلاد المجاورة لها وكان رأيه في اغلب الامور مخالفا لرأي كستلدو وضباطه وكان يعامل الاتراك الذين اسرهم في الحرب مع غاية المروءة وكرم النفس حتى كان كستلدو في غاية التكدر لذلك وافاد الملك فرديننـد به وافهمه بان هذه الفعلة مجرد مكر من مارتينوزي يريد به استجلاب الاتراك فيه حتى يمكنه فيما بعد باعانتهم له ان يصير مستقلا بالحكم ويخرج عن طاعته وقد عرض مارتينوزي لقصد تبرئة نفسه من هذه

مطلب
ما نواه فرديننـد في حق مارتينوزي

سنة ١٥٥٤

الظنون ان فعل غير ذلك فى حق الاتراك لا يليق عند اهل السياسة لان الاتراك قوموا الشوكة والصولة محرصون على الانتقام مما يحصل فى حقهم فمعاملتهم بالجبر والقسر لا ينشأ عنها لفاعلها سوى الوبال ومع ذلك لم يكن لهذه الحجج موقع عند فرديننند وأبى ان يصدق سوى ما افاده به كستلدو لاسيما وكان يرى ان نزع حكمه من بلاد المجار ليس بعسير حيث كانت صولته فيها ضعيفة وكانت الكلمة والشوكة بها للناتبه مارتينوزى المذكور وكان كستلدو يقوى وسواس فرديننند وشبهته بما كان يبعثه من الاخبار الى اصحاب سره بمدينة ويانة فكان لا يغفل طرفة عين عن تقبيح ما كان يفعله مارتينوزى من الامور الجيدة التى لا تخفى لها عاقبة بالنظر لمصالح فرديننند فاباالك باموره التى كان يتراءى عليها بعض ما يوجب الوهم والشك وكان يفترى عليه بكل الافتراء وينسبه لما لم يكن يحصل منه بل ولا يخطر له ببال ولم يزل كستلدو مستمرا على الوشى فى حق مارتينوزى حتى حقق عند فرديننند انه لا يمكنه ان يبقى ملكا على بلاد المجار الا اذا اراح نفسه منه ومن طمعه وكان فرديننند يعلم ان طلبه لهذا الكاهن فى المحاكم لاقامة دعواه خطر عليه وبه لا يفوز بمرامه حيث ان مارتينوزى وان كان من رعاياه الا انه كان قوى الشوكة فربما غدر به وبناء على ذلك صمم على ان يغدر بهذا الكاهن ويستريح منه ورأى ان هذا اسلم له عاقبة من طلبه فى المحاكم اذ كان من الجائز أن القوانين لا تساعده على تنفيذ اغراضه فى حقه فانظر كيف فعل

مطلب
قتل مارتينوزى بامر فرديننند

صدر الامر من فرديننند الى كستلدو بقتل ماتينوزى وتكفل كستلدو باجراء هذا الامر المنكر وافهم به بعض امنائه من الضباط الايطاليين والاسبانيوليين وتذاكر معهم فى كيفية اعداده فدخلوا ذات يوم مع الفجر فى مسكن مارتينوزى متعللين بان يعرضوا عليه بعض مكاتبات مستعجلة لا بد من ارسالها حالا الى الملك بمدينة ويانة فبينما كان مارتينوزى يمعن النظر فى قرآءة كتاب كان بيده ضربه احد المتعصبين بخنجر فى زوره ولكن لم تكن هذه الضربة بالقاضية وهجم مارتينوزى بقوته على من ضربه وجعله

١٨ كانون اول

بحث

سنة ١٥٥١

تحت قدميه غير انه انقض عليه بقية المتعصبين وكان شيخا طاعنا فى السن ولا نصير له ولا ظهير ولا سلاح بيده فتكاثروا عليه فوقع بينهم بعد قليل وفى جسمه مائة ضربة بالخنجر وكان اهالى ترنسلوانيا تقمعهم الجنود الاجنبية فلم يمكنهم القيام لينتقموا له وكان قد مكث زمنا طويلا وهو يخدم بلادهم فاحبوه ومالوا اليه كل الميل وفزعوا لحتفه وسخطوا على فرديننـد حيث هو لم يلتفت الى ما فعله مارتينوزى اخيرا فى حقه من المعروف وهو ادخاله ببلاد ترانسلوانيا وتمكينه على كرسيها ولم يلتفت الى ما يجب لهذا الحبر من الاحترام والاعتبار بوصف كونه من عماد دين النصرانية وسفك دمه وما جنى شيأ يستوجب به ذلك ولم يكن فيه عيب سوى حبه لوطنه واما الاشراف فانزعجوا لذلك كل الانزعاج واشمأزت نفوسهم من الملك وديوانه حيث هو لمجرد تهم لا اصل لها واقوال مجردة عن الصحة امر بقتل رجل يجب احترامه لفضله وعلو قدره فلزموا اراضيهم وتخلوا عن الملك وخدمته والقليل الذى بقى منهم فى العسكرية كان يخدم مع الاشمئزاز والنفور واما الاتراك فتقوت قلوبهم لموت هذا الكاهن لانهم كانوا يخشون بأسه لمعارفه وصولته واخذوا يستعدون لتجديد الحرب فى اوائل الربيع الآتى فانظر كيف خاب قصد فرديننـد من قتل هذا الحبر حيث كان يقصد بقتله اراحة نفسه وتمكينه على كرسى ترنسلوانيا فلم يكن على وفق مرامه بل رأى نفسه عرضة لقوى بطش الاسلام لاسيما وكان رعاياه فى نفور منه فكان لا يؤمل منهم ان يعينوه على اعدائه اذا زحفوا عليه

مطلب
ما نشأ عن قتل
مارتينوزى

ولنرجع الى ذكر موريس فنقول انه لما جمع امره ودبر حيله ودسائسه وجهز سائر ما يلزم للحرب من مهمات وخلافها استعد لان يظهر ما كان يضمره وان يقاتل الايمپراطور غير انه لم يفعل كما فعل اهل عصبة سمالكالد حيث انهم لاوهامهم وجهلهم وضعف سياستهم تجنبوا ان يلتمسوا بالاجانب ويتحدوا معهم فحل بهم الوبال لعدم التجائهم الى الممالك القوية فبذل جهده فى طلب الاعانة من هنرى الثانى ملك فرنسا بقدر ما اظهر قبله اهل عصبة سمالكالد من التنافر والتباعد عن توسط الملك فرنسيس الاول فى امورهم

مطلب
استعانة موريس
بملك فرانسا

سنة ١٥٥١

ولحظ موريس كان الملك هنرى مستعد السماع قوله واجابته وكان يمكنه اذ ذاك ان يوجه لاعانته سائر جنود الدولة الفرنساوية وذلك انه كان يغار منذ زمن طويل من ظفر الايمپراطور ونجاح جيوشه وكان يتقلب على الجمر فى انتظار فرصة بها يختبر قواه مع قوى من كان لمملكة فرانسا عدوا مبينا ويحيى ما اشتهرت به حكومة والده فرنسيس وازداد به فخاره من مناضلة شرلكان ومخاصمته وقد حصل من هنرى ما يدل على انه يترقب كل فرصة تساعده على معاندة الايمپراطور وهو أن أدخل تحت حمايته الامير دوق پرمة وبرزت عساكره امام جنود الايمپراطور فى دوقية پرمة وفى اقليم پيمون وبعد انتهاء امره بمع انكلتره بمشارطة عظيمة الفائدة له ومشرفة لاهل ايقوسيا وكانوا حلفاءه ومعاهديه رأى عسكر دولة الفرنساوية فى قلق عظيم لانتظار واقعة تكون اعظم من واقعة پرمه واقليم پيمون حتى يظهروا فيها شهامتهم وعزمهم بعلوهم على هام عدوهم

وكان الملك هنرى قد ارسل حنادوفاين اسقف بايون الى بلاد المانيا مظهرا انه ارسله ليجمع منها جنودا بعدها البلاد ايطاليا فامر هذا الاسقف بان يعقد بالنيابة عنه مشارطة مستكملة مع الامير موريس واحزابه ولكن حيث كان لا يليق بمقام ملك فرانسا ان يتكفل بالمدافعة عن دين المعترلة لم يذكر فى المشارطة شىء مما يخص الديانة وان كان للدين مدخل عظيم فيها وفوض امر الدين الى قضاء الله وقدره ولم تذكر من اسباب التعصب مع موريس على الايمپراطور سوى فك قيد ابى زوجة موريس من الاسر ومنع اضمحلال ترتيب الجمعية الجرمانية التى هى عليه من قديم الزمان ومنع زوال قوانينها القديمة وحفظ شرائعها من الوقوع فى الترك والانزواء فى زوايا النسيان ولاجل تتميم هذين الامرين ذكر فى المشارطة ان جميع الاحزاب المتعهدين يشهرون الحرب مع الايمپراطور فى آن واحد ولا يكون صلح ولا عقد هدنة من غير رضاء المتعهدين فردا بعد فرد وان موريس يصير رئيس تلك العصبة حتى لا يحصل فشل بين اربابها او تمانع فى شأن الرياسة وان تكون

مطلب
المشارطة المنعقدة
ما بين موريس
وملك فرانسا

لموريس

لموريس التصرف المطلق فيما يخص امور الحرب وانه هو واحزابه يجهزون سبعة آلاف من الفرسان ومقدارا من المشاة يكون على التناسب مع مقدار الفرسان وان الملك هنري يعطي من اثمان الذخائر اللازمة لهذا الجيش مدة ثلاثة اشهر من ابتداء الحرب مائتين واربعين ألف كورون وبعد هذه المدة يدفع في كل شهر ستين الف كورون مادام الجيش في ميدان الحرب وان الملك هنري يهجم على بلاد الايمبراطور من جهة لورينة مع جيش جرار وانه اذا لزم الحال لانتخاب ايمبراطور آخر غير شرلكان فلا يقوم بدله سوى من يختاره ملك فرانسا وقد انعقدت تلك المشارطة في الخامس من شهر تشرين الاول قبل تسخير مدينة مكدبورغ بقليل وقد حصلت المداولة فيه اخفية حتى ان الامراء الذين دخلوا فيما بعد من ضمن المتعاهدين لم يفهم موريس الا اثنين منهم بحقيقة الحال وهما حنا البرطة دوق مكلنبورغ وحاكمها اذ ذاك والامير غليوم دوهيسة ابن حاكم هيسة الذي كان اسيرا عند الايمبراطور كما تقدم وبالجملة فقد كانت هذه العصبة مع غاية التدبير والاحتراس حتى خفي امرها على الايمبراطور ووزرائه ولم يقفوا لها على جلية خبر بل وكانوا لا يتوهمون حصولها اصالة ٠

سنة ١٥٥١

وكان الامير موريس لم يزل يسعى مع مزيد للهمة في البحث عن محالفة من يعينه على تقييم اغراضه فلم يكتف بمعاهدة ملك فرانسا بل ولى وجهه شطر انكلترة والتمس من ملكها ادوار السادس ان يمده بمائة الف كورون ليستعين بها على المصاريف متعللا بان العصبة التي انشاها مجعولة لقصد المدافعة عن دين المعتزلة وتأييده ولكن كان ديوان انكلترة اذ ذاك في اضطراب وفشل لما ان الملك حينئذ كان قاصرا وكان الانكليز مشغولين بامر دولتهم بحيث لا يمكن لوزرائها ان يلتفتوا الى المصالح الخارجية فلم يفز الامير موريس بشيء منهم وان كانوا وقتئذ متولعين بدين المعتزلة ولكن لوثوق موريس بحماية ملك قوي اعني هنري الثاني ملك فرانسا اخذ يتأهب لاجراء مقاصده بدون مبالاة غير انه كان لم يزل يسلك مسلك الاحتياط فرأى من اللازم اولا ان

مطلب
استعانة موريس بملك انكلترة المسمى ادوار السادس

سنة ١٥٥١

مطلب
التماس موريس تخلية سبيل حاكم هيسة

يطلب دفعة اخرى من الايمپراطور تخلية سبيل حاكم هيسة ولهذا القصد بعث رسالة الى مدينة انسپروك باسمه واسم منتخب براندبورغ وامر فيها ان تذكر للايمپراطور جميع الاسباب المبنى عليها ما هي مبعوثة لقصده ثم تذكر بقول واضح غير متخلل مواثيق موريس ومنتخب براندبورغ مع حاكم هيسة بمهلة اسيرهيئة الامير حيث التمساه من الايمپراطور اكثر من مرة ولم يجبهما فيه وبعث ايضا كل من المنتخب البلاطينى ودوق ويرتانبورغ ودوقات مكلانبورغ ودوق القنطرتين وملتزم براندبورغ باريت وملتزم بادة رسلا من طرفهم لتعضيد طلب الاميرين المتقدمين تخلية سبيل حاكم هيسة وكتب ايضا كل من ملك دانيمارقة ودوق باويير ودوقات لونبورغ الى الايمپراطور فى هذا الخصوص وكذلك ملك الرومانيين انضم الى هؤلاء طالبا لهذا الغرض وسبب انضمامه اليهم اما ان يكون شفقة على حاكم هيسة وترحما بحاله او يكون لغيرته من علو شوكة اخيه الايمپراطور منذ ما اراد تغيير سلسلة الوراثة فى حكم الايمپراطورية وعزم على نقل ممالكه الى ابنه فيليپش

ثم ان شرلكان لتصميمه على ما نواه فى حق حاكم هيسة حاول ان يجيب هؤلاء الامراء فى التماسهم وان كانوا اقوياء الشوكة ولم يجب الرسل المبعوثين له الا بما معناه انه ينتظر مجيء موريس بمدينة انسپروك وعند حضوره سيفهمه بما يريه فكان سعى الامراء لم يجد نفعا لحاكم هيسة غير انه كانت فائدته جليلة للامير موريس وذلك انه تعلل به فيما حصل منه بعد وايقن الناس ان له الحق فى سلوك طريق الحرب ليجبر الايمپراطور على تخلية سبيل حاكم هيسة حيث ان الايمپراطور لم يخل سبيله مع التضرع اليه وكان لهذا السعى فائدة اخرى وهى ان الايمپراطور لم يزل فى امن واطمئنان من جهة موريس لانه لما رأى ان هؤلاء الامراء والملوك يطرقون بابه عنايتهم بأكف الرجاء ظن انهم لا يؤملون فك حاكم هيسة الا من محض كرمه وحلمه وقد استعمل موريس حيلا اخرى لاخفاء دسائسه ومخادعة الايمپراطور

سنة ١٥٥٢

مطلب
استمرار موريس على مخادعة الايمپراطور

سنة ١٥٥٢

حتى يتسع معه الوقت ويحكم تدبير اموره كما ظهر انه يبذل غاية جهده في وجود طريقة بها يزيل كل مشكل في خصوص ورقة الامان التي كان علماء المعتزلة يطلبونها قبل توجههم الى المشورة القسيسية التي هم مرسلون اليها فكانت رسل موريس بمدينة ترنتة يتذاكرون كثيرا في هذا الخصوص مع رسل الايمبراطور ويخبرونهم بآرائهم بدون تكلف حتى كانهم رسل ملك واحد ثم اراد موريس ان يفهم ان المنازعات في هذا الخصوص قد هان امرها على ما يرى وكاد أن ينقضي حسمها ولاجل ان يحقق هذا والحيلة على من اراد من خواص عظمائهم امر منلختون ورفقاءه ان يسافروا الى مدينة ترنتة هذا وكانت مكاتباته مستمرة مع ديوان الايمبراطور في مدينة انسبروكة وكان في كل فرصة يظهر ميله وصداقته للايمبراطور ويخبر دائما ان مرامه الذهاب الى انسبروكة حتى انه اجر فيها بيتا لنفسه وامر بان يفرش وينتظم في اقرب وقت حتى يسكن فيه لدى حلوله بتلك المدينة

مطلب
ابتداء الايمبراطور
في ان يظن سوأ
بالامير موريس

وكان موريس يحقق حيله في مخادعة الايمبراطور حتى تراءى له ان الحجاب الذي اتخذه لستر مقاصده لا يمكن رؤية ما خلفه بوجه من الوجوه ومع ذلك ظهر عليه عدة امور اضعفت اطمئنان الايمبراطور من جهته وجعلته يظن ان موريس لابد وان يكون مصمما على امر جسيم ولكن كان ظن الايمبراطور مبنيا على احوال غير مهمة في حد ذاتها او قابلة لعدة احتمالات فسهل على موريس ان يزيله من ذهن الايمبراطور خصوصا وكان يخشى ان يكون ظنه السوء بالامير موريس في غير محله فيعاب عليه نقض كل علاقة معه على اوهى سبب بعد أن كان يعتمد عليه كل الاعتماد وكان اغدق عليه بالخيرات وجعله من اخصائه ولكن حصلت حادثة رأى الايمبراطور انها مهمة يقتضي السؤال عن سببها من موريس وهي ان العساكر الذين استأجرهم الامير جيورج دومكلنبورغ لنفسه بعد تسليم مدينة مكدبورغ كما تقدم كانوا مقيمين في تورنجة وكانوا يتعيشون من سلبهم ونهبهم في الاراضي القسيسية التي كانت بجوارهم فرفع المظلومون ومن كانوا يخشون ان يلحقهم الظلم شكواهم الى الايمبراطور واخبروه

سنة ١٥٥٢

ان هؤلاء العساكر لابد وان يكونوا معدّين لامر ما غير أن موريس لما سئل من طرف الايمپراطور عن ذلك صار تارة يفهم ان ما يحكى فى حق العساكر مجرد مبالغة وتارة يعرض انه لا يمكنه تسريح هؤلاء العساكر او ادخالهم تحت الضبط والربط الا اذا كانت تدفع لهم ماهياتهم الباقية بطرف الايمپراطور وبهذا الوجه ازال الشبهة وسوء الظن به ومن الجائز أن الايمپراطور كان لا يمكنه وقتئذ أن يدفع لهم ماهياتهم فسكت ولم يعد خطابا فى هذا الشان

مطلب
تاهب موريس لاجراء ما كان يدبره

هذا وكان وقت الفعل قد قرب لان موريس كان ارسل الامير البرطة دوبراندبورغ سرا الى مدينة پاريس ليتم امر معاهدته مع هنرى ملك فرانسا ويعجل بسير الجنود الفرنساوية اليه وكان قد اهب ما يلزم لجمع رعاياه وقت الحاجة وما يلزم لحماية بلاد السكس مدة غيابه عنها مع الجيش واما العساكر الذين كانوا فى تورنجة وكانوا معتمده فكانوا متحضرين للسير بمجرد صدور امره لهم بذلك وقد دبرت هذه الامور من غير ان يشعر بها دوان الايمپراطور وكان شرلكان مقيما فى انسپروكة على غاية من الاطمئنان لا يشتغل بسوى افساد دسائس وكيل البابا الموجود فى ترنتة وتنظيم الشروط التى بموجبها ستدخل علماء المعتزلة بالمشورة القسيسية ولم يكن يتوهم ان ثم امورا اخرى مهمة قرب وقت ان تفجأه فيحوّل نظره اليها

مطلب
امور اخرى ساعدت على مخادعة الايمپراطور ووزرائه

ولا يمكن توجيه اطمئنان شرلكان اذ ذاك وعدم ادراكه ما كان يدبر لاضراره وهو من عادته الدقة فى ملاحظة كل ما يحصل حوله حتى ان فرط دقته فى هذا المعنى كان يوصله غالبا الى اساءة الظن بكثير من الناس ولم يعرف احد سبب عماه فى هذه المرة عن تدبير موريس وانما قيل ان ذلك عماه بصيرة اعتراه فى هذه المرة وان لم يكن من عادته ولكن بقطع النظر عن المهارة الغريبة التى سلكها موريس فى اخفاء مقاصده وتدابيره ثم امران اعانا ولا بد على مخادعة الايمپراطور واغفاله اولهما ان الايمپراطور بعد دخوله فى مدينة انسپروكة بقليل اشتد عليه داء النقرس فهزل جسمه وفقد عقله وقوته وحدته الطبيعية فلم يكن يمكنه ان يشتغل بالمصالح على عادته مع التفطن ومزيد الدقة والامر الثانى هو أن

وزيره الاول المسمى كرانويل اسقف أراس كان من ارباب السياسة
والكياسة الماهرين بالنظر لعصره بل ولسائر الاعصار ومع ذلك كانت سياسة سنة ١٥٥٢
هذه المرة سببا فى اخطائه وعطله وذلك ان هذا الرجل كان يثق بنفسه كل الوثوق
ويحتقر اهل المانيا فى السياسة فلم يلتفت لنصيحة من اخبروه بمقاصد
موريس الخطرة ودسائسه المستمرة حتى ان الامير دوق دالب لما كان
عنده من الوسواس من جهة موريس اراد احضاره بالديوان
الامبراطورى للنظر فى امره وسؤاله عن كل امر يوجب سوء الظن به فلعدم
اعتناء كرانويل المذكور بذلك أجاب مع الانانية والعنفوان بان هذه التهم
لا اصل لها وان رأس نمساوى سكران لا يمكن ان تدبر امرا الا ويدركه مع غاية
السهولة ويفسده على مدبره ولا بدان وثوق كرانويل المذكور بنفسه يكفى
فى ان يصدر عنه مثل هذا المقال ذا بالك وكانت ثم اسباب تثبت فى اعتقاده برآءة
موريس وتلك الاسباب هى ان كرانويل ارشى اثنين من وزراء موريس
وكانا يكتبان له تفصيلا كل مايشاهدانه من سيدهما غيران هذه الطريقة
وان كان كرانويل قد اتخذها ليعرف بها مقاصد موريس قد اعانت
على اغفاله وايقاعه فى حبائل الحيلة وذلك ان موريس لوفور حظه قد
عرف المكاتبة الحاصلة بين وزيريه وبين كرانويل ولم يعاتبهما على خيانتهما
بل عرف لمهارته ان يسلك معهما بحيث تكون فائدة المكاتبة له ويكون ماقصده
كرانويل من الضرر راجعا لنفسه فصار يظهر موريس لوزيريه انه يثق بهما
كل الوثوق واخذ يتذاكر معهما فى اخص اموره ومصالحه حتى ظنا انه يخبرهما
باعظم اسراره مع انه كان لا يفهمهما بالايما والاشارة الا ما كان يرى من مصلحته
ان يفيدهما به وبناء على ذلك كانت مكاتبات الجاسوسين للوزير كرانويل
لا فائدة لها سوى تمكينه فى اعتقاده صداقة موريس هذا وكان نفس
الامبراطور فى غاية الاطمئنان من جهة موريس حتى انه لم يلتفت لتقرير
قدم اليه من طرف القسوس المنتخبين وفيه نصحه بان يكون على حذر من
موريس ولم يجب الامبراطور عن هذا التقرير الا بما افهم صراحة اعتقاد

على موريس واعتقدوا صدقه واخلاصه

وقد تمت تدابير موريس وتحقق انه وهو في سرور بكونه لم يشعر بها احد غيره وان كان قرب اوان مبارزته الحرب لم يتصوره احد ان يرفع الحجاب الذي كان مستترا وراءه الى ذلك الوقت بل اعتنى بطريقة لاغفال اعدائه تمويهه الالهاء [illegible] الحديثة [illegible] تباع من قبل اكثرهم [illegible] احد الوزيرين اللذين كان كرانويل [illegible] قطع عدة فراسخ اظهر انه تعب من السفر وارسل الى انسپروكة وزيره الخائن الذي كان برفقته واعرمان يستعذر له عند الايمپراطور في تأخره عن المجيء عن قريب ويفيد انه سيحضر في الديوان الايمپراطوري فبمجرد ما سافر الوزير ركب موريس فرسا وطار به نحو تورنجة ليلحق جيشه وكان [illegible] عشرين الف رجل من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان وعند وصوله اليه سار به للهجوم على بلاد الايمپراطور

مطلب مبارزة موريس الحرب مع الايمپراطور

وقد اذاع موريس حينئذ منشورا مشتملا على الاسباب التي دعته الى قتال الايمپراطور فتعلل بثلاثة اشياء اولها المدافعة عن دين المعتزلة من ايذاء الايمپراطور حيث صمم على محوه ثانيها حفظ قوانين الايمپراطورية الالمانية وابقاؤها على اصلها وصون بلادها من ان يستولى عليها ملك ظالم مطلق التصرف ثالثها خلاص حاكم هيسة من الاسر وقد طالت مدته وكان سجنه ظلما وعدوانا فبالامر الاول استمال موريس احزاب المعتزلة وكانوا كثيرين ذوي حمية شديدة على دينهم وكانوا لاجحاف الايمپراطور بهم مستعدين لان يفعلوا ما تسوله النفس المرء اذا يئس وبالامر الثاني استمال قلوب محبي الحرية من قثوليقيين ومعتزلة فكانوا مستعدين ايضا للانضمام اليه لقصد المدافعة عن حقوق ومزايا يشتركون فيها واما الامر الثالث فهو شيء يوجب ثناء الناس عليه حيث يدل على انه لشرف نفسه لا يريد الا الوفاء بما تعهد به في حق حاكم هيسة وغير ذلك كان فك اسر حاكم هيسة قد صار مرغوبا لكافة الامراء والملوك لا لمجرد شفقتهم عليه بل

مطلب المنشور الذي اذاعه موريس المتضمن تعلله في حق الايمپراطور

لانه

لان الامبراطور كان اغضب سائر الناس بمعاملته حكم هيئة المذكور بدون حق اسوأ معاملة واذاقه له العذاب بمحض الظلم والتعسف ومع منشور موريس قد ظهر منشور آخر باسم الامير البرطة ملتزم براندبورغ كولمباش وقد انضم الى موريس مع طائفة من العساكر جمعها من الاوباش وكان مضمون هذا المنشور عين مضمون الاول غير انه في غلظة الالفاظ وفرط التشنيع كان يشبه طبع من هو مكتوب باسمه

مطلب امداد ملك فرانسا للامير موريس

واذاع ملك فرانسا ايضا منشورا باسمه ذكر فيه تلاقي المحبة المجامعة من قديم بين الملة الفرنساوية وبين الجرمانيين وذكر ان الملتين نسل واحد وانه بموجب هذه المحبة الموجودة بين الملتين من قديم استغاث به بعض امراء المانيا فاجابهم بحكم مرامهم وجهز من طرفه الجنود والعساكر لقصد احياء ما اندرس من قوانين المانيا وجعل ترتيبها على النسق الاول وخلاص بعض الامراء من الاسر وتعضيد مزايا الجمعية الجرمانية وتأييد حريتها واستقلالها ولقب نفسه في هذا المنشور بقوله حامي حرية المانيا وامرائها المأسورين ورسم في اعلاه صورة قلنسوة وهي اشارة الحرية على العادة القديمة وجعل هذه القلنسوة بين خنجرين ليفهم اهالي المانيا ان الحرية لا تنال ولا تحفظ الا بالقوة والحرب

مطلب وقائع موريس

وكان الامير موريس كامل الهمة ودهائه حيث يسلك في كل وقت ما يليق له فكما كان يسلك سبل المداهنة والمخادعة قبل اظهار قيامه على الامبراطور وعدا وته له ابدى بعد جمع امره واظهار سره وسيره بجيشه ما اوجب تعجب الناس من الهمة والجسارة وانقض سريعا الى البلاد العالية من المانيا وقد فتحت له سائر ابواب المدائن التي كانت على طريقه واعاد فيها القضاة والحكام الذين كانوا رفعوا من مناصبهم بامر الامبراطور ورد الكنائس الى القسوس المعتزلة وكانوا قد طردوا منها وبعد ذلك زحف الى مدينة اوكسبورغ وكان محافظوها غير قادرين على ان يدافعوا عن انفسهم فولوا على عجل واستولى موريس على هذه المدينة الكبيرة وغير فيها وبدل كما فعل بغيرها من المدائن التي

اول شهر نيسان

مطلب تعجب الامبراطور وتحيره

مرتبها في سيره ومبايعته

وهاهنالك من الالفاظ ما يمكن ان تفصح به عما قام بالامبراطور من التعجب والرعب حين وصله الخبر بذلك وعلم ان عدة من امرآء المانيا قد تحزبوا عليه وان بقية امرآء الامبراطورية في منزلة العصيان عليه حيث كانوا الايودون الانصر المتعصبين وظفرهم به ورأى ان ملك فرانسا مع قوى شوكته قد انضم الى حزب هؤلاء الامرآء وصار حليفا لهم حتى انه لقصد اعانتهم قد سار بنفسه قائدا بجيش عظيم واذ أدرك الامبراطور ذلك ندم كل الندم على تغافله السابق وعدم اكتراثه بما اخبر به في حق موريس حتى صار عرضة لسخط الخاص والعام وصار في خطب عظيم حيث لا يمكنه ان يدخل رعاياه العاصين تحت الطاعة ولا ان يستعد بما به يدفع ملك فرانسا وكان قد هجم من جهة على دولته وممالكه كيف ولم يكن يوجد اذذاك عساكر عند الامبراطور لان عساكره الاسبانيولية كان ارسل بعضها الى بلاد المجر لقتال عساكر الدولة العثمانية والبعض الآخر ارسله الى ايطاليا حيث كان لازما للحروب التي كانت لم تزل منعقدة في دوقية برمة واما العساكر الالمانية القديمة فكان قد سرحها اذ لم يكن له اقتدار على صرف ماهياتها حتى ان بعضها دخل في خدمة موريس بعد محاصرة مكدبورغ وكان الامبراطور لم يزل مقيما بمدينة انسبروكة ولم يكن معه من العساكر الاخفر ذاته بل ولم يكن مقدار من كانوا معه من العساكر كافيا على قدر اللازم لهذا الغرض وكانت خزآئنه قد نفدت وانفضت وكان من مدة لم يصله شيء من الدنيا الجديدة حتى يستعين به على خطبه وكان قد ضاع اعتباره عند تجار جنويزة وتجار البنادقة بحيث كانوا لا يعتقدونه فلما عرض عليهم ان يقرضوه وقدم لهم ربحا جسيما لم يرضوا ان يقرضوه شيأ فانظر كيف وقع في مشكل لم يكن يجد له نهاية ولا يستطيع دفع خطوبه مع انه بالاجماع كان حينئذ اعظم ملوك النصارى واكبرهم قوة وشوكة والى ذلك الوقت لم يكن حصل له ما يترتب عليه اضاعة صولته ولا ما يحط بقدره ونفوذ كلمته

مطلب
محاولة الايمپراطور فسحة الوقت بطريق المداولة حتى يستعد لدفع اعدائه

فلم يبق للايمپراطور وسيلة فى دفع عدوه سوى اتخاذه مسلك المداولة والمحاولة كما هو دأب من احس بعجز نفسه وضعفه ولكن حيث خشى الايمپراطور ان يجر بمقامه الى الانحطاط اذا بدأ بالمداولة مع رعاياه العاصين وفاتحهم فى امر الصلح بنفسه عدل عن ذلك وجعل الواسطة بينه و بينهم اخاه الملك فرديننډ وكان موريس لوثوقه بنفسه موقنا ان هذه المداولة تعود عليه بالفائدة فامل انه اذا اظهر التساهل ولين الجانب وصغى الى مايعرض اليه فى شان الصلح يتمكن من مقصوده حيث انه وان كان من باب المشاغلة والمخادعة يغتر به الايمپراطور فلا يحتفل بتدبير ما به يدافع عن نفسه ولا يستعد بما كان اخذ فى اسبابه لقصد المقاومة فرضى موريس بدون توقف ان يتقابل مع الملك فرديننډ بمدينة لنزة فى الاوستريا وتوجه لوقته الى هذه المدينة بعد أن امر باستقرار جيشه على السير وسلم قيادته الى الامير دوق مكلنبورغ

مطلب
نجاح العساكر الفرنساوية

واما ملك فرانسا ففعل كما وعد حلفاءه سرفا بحرف وبادر للبراز مع جيش جرار تدفع ماهياته ومصاريفه على الوجه الجيد ودخل به فى اقليم لورينة وسلم اليه كل من مدينة طول ومدينة وردوم بدون توقف ولا مقاومة و بعده سارت عساكره الى مدينة مترة وكان الامير دوموغمورنسى الفرنساوى قد استأذن فى ان يدخل بها مع سرية صغيرة من العساكر لنفره و بهذه الحيلة المنكرة ادخل بها من العساكر المقدار اللازم لقمع من كانوا فيها من المحافظين فعند وصول عساكر الفرنساوية اليها تغلبوا عليها بدون قتال ولا سفك دماء ودخل هنرى ملك فرانسا فى سائر قلاعها وحصونها مع مزيد الابهة والاحتفال وحمل سكانها على ان يبايعوه حتى صارت من جملة بلاده ثم ترك بهذه المدينة لقصد حفظها مقدارا عظيما من العساكر وسار بجيشه الى الساسة مؤملا الظفر بفتح بلاد اخرى لاغتراره بظفره الاولا

مطلب
كانت المداولة بين الايمپراطور وموريس عديمة الجدوى

واما المداولة التى حصلت بين الملك فرديننډ والامير موريس بمدينة لنزة فلم يحصل منها فائدة قلت اوجلت فى شأن الصلح والاقرب للعقل هو أن موريس فى الواقع لم يرض بمقابلة الملك فرديننډ الا لقصد مشاغلة

سنة ١٥٥٢

الايمبراطور وايهامه لان هذا الامير عرض فى شأن مصلحة حلفائه وفى شأن ملك فرانسا امورا لا يخطر ببال احد أن يرضى الايمبراطور بها وكان جبارا عنيدا غيران موريس مادامت المذاكرة بينه وبين فرديننند لم يحل عما فيه مصلحة حلفائه ولم يغفل عما حمله على العصيان والقيام ومع ذلك اظهر أنه يود أن ينهى بالتى هى احسن امر المنازعة بينه وبين الايمبراطور فاغترارا من فرديننند بهذا القول عرض ان يتقابلا مرة اخرى بمدينة پاسو فى السادس والعشرين من شهر ادار وطلب ان تعقد هدنة ما بين الفريقين اولها اليوم المذكور وتستمر الى عشرة من شهر حزيران حتى يكون فى الوقت فسحة ليتيسر انهاء اسباب المنازعة

مطلب سير موريس الى مدينة أنسبروكة

وفى هذه الخلال لحق موريس جيشه فى التاسع من شهر ادار وكان وصل الى غوندلفحان وصبيحة ثانى يوم من وصوله اليه امر بالسير وكان قد بقى الى مدة الهدنة ستة عشر يوما فاراد موريس ان يقضى تلك الايام فى تميم امر مهم به يمكنه ان يحرم خصمه من كل فائدة يريدها من المذاكرة التى ستحصل فى مدينة پاسو وان يجعل فائدتها كلها لنفسه وينال ما يطلبه ورأى أن ما اظهره من ميله الى الصلح بانضمامه الى توقيع الهدنة عما قليل يوجب اغترار الايمبراطور ويوقعه فيما اضر به اولا من الامن والاطمئنان وبهذه الامانى توجه موريس الى انسبروكة واسرع فى السير بقدر ما يمكن بالنظر لثقل جيشه وكثرة عساكره فوصل الى محطة فيسان فى الثامن عشر من شهر أدار وهذه المحطة على مدخل طيرول وهى مهمة جسيمة وكان بها ثمانمائة من الجنود على غاية التحصن جعلهم الايمبراطور بهذا المحل لمنع المتعصبين وردهم فهجم عليهم موريس بقلب ثابت وعزم متين حتى طردهم عن محطتهم وانطووا وهم فى فزع ورعب الى معسكر آخر للايمبراطور بقرب روتان فاكسبوه لفزعهم رعبا وخوفا وفر عساكره معهم هاربين بعد مقاومة قليلة

ولفرح الامير موريس بهذا النصر حيث كان فوق آماله سار بعساكره

الى

مطلب
تغلب موريس على قلعة اهرنبرغ

الى قلعة اهرنبرغ وكانت موضوعة على صخرة شامخة عالية وهى مفتاح ابواب الجبال الموجودة بتلك الجهة اذلم يكن هنالك طريق تسلك غير التى كانت تلك القلعة موضوعة عليها وكان المعتزلة قد استولوا على تلك القلعة فى اوائل حرب عصبة سمالكالد حيث كان محافظوها قليلين فلم يمكنهم المدافعة عنها وكان الايمبراطور يعرف اهمية تلك القلعة فاعتنى بامرها وجعل فيها من العساكر ما يكفى لدفع كل عدو ولو كثرت جنوده وكبرت صولته الا انه من اغرب التصادف حصل بعد حلول موريس بجهات تلك الاودية ان احد الرعاة أبقت منه عنز فلدى البحث عنها وجد سبيلا مجهولا به يمكن الصعود الى قنة الصخرة فأتى الى معسكر موريس واخبره بذلك فانتخب مقدارا من عساكره وجعل رئيسهم الامير جيورج دومكلنبورغ وامرهم ان يجعلوا الراعى خريتا لهم ويتبعوه حيث ذهب وكان سيرهم فى المساء وتسلقوا طريقا شامخا وخاطروا بانفسهم وقاسوا ما قاسوا حتى وصلوا بعد معاناة الاين الى قنة الصخرة ولم يرهم احد من الأعلى فلما هجم موريس على القلعة من احدى جهاتها ظهرجماعته من فوق قنتها من جهة اخرى فى الوقت المعين على مقتضى امر موريس واخذوا يتسلقون حيطان القلعة وكانت غير حصينة من تلك الجهة لانه لم يكن يخطر ببال احد أنه يمكن الوصول اليها منها فاستولى الرعب على قلوب المحافظين حيث رأوا الهجوم عليهم من جهة كانوا يرون انفسهم منها فى غاية الامن لا يعتريهم خطر ولا وجل فالقوا السلاح وسلموا انفسهم لوقتهم وسخر موريس هذه القلعة بدون سفك دماء غير ما قل وبدون اضاعة وقت وكان الوقت اعظم شئ بالنظر له ولو لم تسعفه المقادير لكانت تلك القلعة سببا فى تأخيره زمنا طويلا واوجبت عليه صرف غايات الجلادة والمهارة ونهايات الشجاعة والشطارة

مطلب
حصلت فتنة فى جيشه فاعاقته عن السير

ولم يكن بين موريس ومدينة انسبروك التى كان الايمبراطور مقيما بها سوى مسافة يومين فلم يهمل لحظة واحدة بل امر بسير المشاة من عساكره الى تلك المدينة واما الخيالة فلعدم نفعهم بتلك الوديان اذ كانت كلها جبالا واوعارا

ابقاهم فى فيسان ليقوموا بخفر البوغاز وكانت نيته السير مع غاية السرعة حتى يصل الى مدينة انسپروكة قبل ان يصل اليها خبر تغلبه على اهرنبرغ ليفجأ الايمپراطور مع اتباعه ويقبض عليهم باجمعهم حيث ان مدينة انسپروكة المذكورة لم تكن حصينة حتى يمكنها المقاومة ولكن لم تساعده الاقدار فى تنفيذ هذه النية بل انه بمجرد شروعه فى السير مع جنوده قامت عليه جماعة من العساكر المستأجرة وابوا ان لايسيروا حتى يستوفوا حقهم على حسب العادة الجارية اذ ذاك وهى اعطاء كل منهم جعلا فى نظير تغلبهم عنوة على القلعة ولم يتمكن موريس من تسكين تلك الفتنة الامع المشاق والمقاساة بعد ان ضاع منه انفس اوقاته ولم يمكنه استعطافهم وحملهم على السير الا بعد ان افهمهم انهم قادمون الى مدينة ذات ثروة وسعة فما يأخذونه منها من السلب والغنيمة يكون اعظم مكافأة لهم على ما فعلوه

مطلب
هروب الايمپراطور على اسوء حال من مدينة انسپروكة

ولم يخلص الايمپراطور من الخطب الا لتأخير موريس بداعى تلك الفتنة ووصله الخبر ليلا فرأى ان لامناص له سوى الاسراع بالفرار وخروج حالا من مدينة انسپروكة وكان الليل معتما والامطار هاطلة متتابعة وكان بسبب داء النقرس المتقدم ذكره قد هزل جدا حتى كان لايستطيع سوى حركة التختروان او الهودج وسافر ليلا على نور الشعل واتخذ سبيله فى جبال الپة وسلك طرقا وعرة ليست مطروقة وكان يتبعه ارباب ديوانه وحفدته وهم فى غاية المشقة لان بعضهم كان راكبا خيلا اختطفها من حيث كانت والاكثر كان راجلا والكل فى اسوء حال فانظر دائرة شرلكان وحالته فى هذه الليلة الحالكة قابلها بالاحتفالات والابهة التى لم تنفك عنه منذ خمس سنوات تامة مضت قبل هذه الحادثة ووصل هو وجماعته فى غاية التعب والنصب الى ويلاخ فى قارنثية وربما كان لايأمن على نفسه فى هذا المحل وان كان مجهول الطرق لايتمكن احد من الوصول اليه

مطلب
دخول موريس فى مدينة انسپروكة

واما موريس فدخل بمدينة انسپروكة بعد خروج الايمپراطور منها بساعات قليلة فارتعدت فرائصه يأسا حيث علم فرار الايمپراطور كطير جار

سنة ١٥٥٢

فرت منه غنيمته بعد ان كاد ينهشها بمخمسته فتتبع الامبراطور مدة حتى قطع عدة اميال الى ان علم انه لا يمكن ان يلحقه وقد جعل له الخوف اجنحة يطير بها فرجع الى المدينة بالثانى وامر بنهب سائر امتعة الامبراطور ووزرائه لكنه امر ان لا يمس احد شيأ من امتعة ملك الرومانين ولم يعلم لذلك سبب انما يقال ان موريس كان قد تحبب مع هذا الملك اوكان قصده ان يوهم الناس بوجود محبة بينهما هذا وكان موريس قد حسب اوقاته وقسمها على ما كان فى نيته من المشروعات حتى انه لما وصل الى مدينة انسپروكة كان لم يبق سوى ثلاثة ايام الى مبدأ الهدنة المتفق عليها فسافر حالا ليقابل فرديننذ ملك الرماونيين بمدينة پاسو فى اليوم الموعود

مطلب تخلية سبيل الامير منتخب السكس

واما الامبراطور فقبل خروجه من مدينة انسپروكة خلى سبيل الامير منتخب السكس وكان جرده عن اراضيه واملاكه واسره عنده من مدة خمس سنوات وكان فى تلك المدة يجره حيث توجه ولا يعلم سبب تخليته سبيل هذا الامير هل كان يؤمل من ذلك ان يجعل للامير موريس خصما يمكن ان ينازعه فى دولته ومنصبه اوانه لم يستنسب ابقاء هذا الامير اسيرا عنده مع انه نفسه يخشى اضاعة حريته ووقوعه اسيرا فى ايدى اعدائه الا ان المنتخب المذكور لم يجد طريقا فى خلاصه سوى ان يتبع الامبراطور ويفر معه حيث كان يخشى الوقوع بين يدى موريس الذى هو اصل كل نكبة حلت به فلا يرثى لحاله فصحب الامبراطور فى فراره منتظرا ما يكون فى شأنه اذا افتتحت المذاكرة بين الفريقين

وقد ترتب على سعى موريس امور اخرى غير هذه وذلك انه بمجرد وصول الخبر الى مدينة ترنتة بانه قد اخذ فى حرب الامبراطور وقع الرعب والخوف فى قلوب القسوس الذين كانوا بالمشورة القسيسية المنعقدة فى هذه المدينة فرجع الاحبار الالمانيون الى اوطانهم حالا لقصد حفظ املاكهم وعقاراتهم وهرع بقية القسوس الى جهاتهم وكذلك نائب الپاپا فرح بهذه الفرصة حيث اوجبت انحلال المشورة وكانت على خلاف مرامه لا يتمكن من تنفيذ

سنة ١٥٥٢

اغراضه مع اربابها وكان الى ذالك الوقت يعارض رسل الايمپراطور فيما كانوا يرومونه من ادخال علماء التيولوجيا من المعتزلة فى تلك المشورة وانعقدت جمعية من قسوس رومة فى ٢٨ شهر نيسان وصدر عنها امر بتأخير المشورة القسيسية مدة سنتين فاذا انتشرت اعلام الصلح ببلاد اوروبا بعد هذه المدة امر بانعقادها وبعد ان فرغت تلك المدة تأخرت المشورة عشر سنوات ولكن حيث ان عمليات تلك المشورة حين انعقدت فى سنة ١٥٦١ لا مناسبة لها بالمدة التى نتكلم عليها فى تأخيرنا هذا فلا نتعرض لذكرها

مطلب
ثمرة اوامر المشورة القسيسية

وكانت جميع دول النصارى تودّ انعقاد المشورة القسيسية مؤملين انه بحكمة الاحبار الذين يكونون فيها نائبين عن الملة المسيحية وبتقويهم واجتهادهم ينشأ عن هذه المشورة ما يترتب عليه قطع المجادلات والمنازعات الحاصلة فى شأن الدين اذ ذاك وتنقذ الملل المسيحية من اخطارها ولكن الباپات الذين كانوا يأمرون بهذه المشورة كانت لهم مآرب اخرى فكانوا يبذلون ما فى وسعهم من السياسة والتدبير والصولة ليصلوا الى تلك المآرب ولكثرة معارف نواب الباپا ومهارتهم وجهل معظم القسوس وامتثال اساقفة ايطاليا لفقرهم واملاقهم كان لهؤلاء الباپات شوكة نافذة فى المشورة القسيسية حتى كانوا يأمرون بما شاؤا واذا حرروا اوامر فى شأن الدين كانوا يحاولون فيها تأييد شوكتهم وتمكين الاصول التى يظنونها اساسا لتلك الشوكة ولا يفكرون فيما به يكون اتحاد الامم المسيحية مع بعضهم ورفع الشقاق والفشل مما بينهم فتراهم يؤيدون اصولا ما انزل الله بها من سلطان وانما كانت الى ذالك الوقت واردة بطريق الرواية والتواتر وكانوا يتوسعون فى تأويلها ويعنون بها ما يشاؤن واثبتوا بأوامر صدرت عنهم مواسم ورسوما لم تكن الى ذالك الوقت معدودة الا من العوايد القديمة وجعلوها شطرا مهما من قواعد الديانة فضلا عن شفاء الداء اشفوه فاتسع الخرق على الراقع وازداد التفاقم بين الحزبين وصار بينهما سد منيع ولم يزل الشقاق بينهما الى الآن وان لم تحصل عناية الهية لاستمر بينهما على مدا الدهور والازمان وما نعلمه فى خصوص احوال تلك المشورة وما عمل

بها

سنة ١٥٥٢

مطلب القاب مؤرخي المشورة القسيسية

بما قد استفدناه من ثلاثة مؤلفين كل منهم مغاير للآخر * الاول هو القسيس بولص من البنادقة كتب تاريخ المشورة القسيسية المنعقدة فى ترنتة وحرر تاريخه وقت ان كانت حوادث تلك المشورة جديدة قريبة العهد وكان عدة ممن حضروها فى قيد الحياة فبين هذا المؤرخ الحيل والدسائس التى كانت ماسكة بزمام هذه المشورة واطنب فى ذلك حتى ان ماذكره يخل بشأن تلك المشورة ويفسخ شهرتها واعتبارها وبين هذا المؤرخ ايضا كيفية المذاكرة بها واوضح كل الايضاح الاوامر الصادرة عنها وايدها كل التأييد حتى ان كتابه قد عد من اجود تآليف التاريخ الموجودة وهو اهل لذلك وبعده بخمسين سنة تقريبا نشر بلاوسيني العيسوى تاريخا لتلك المشورة مضادا للتاريخ المتقدم وسلك من الدقة والتدقيق ما به يحاول اضعاف قول خصمه المؤرخ بولص المتقدم ذكره وتفنيد ما اورده من الادلة والبراهين فاجتهد ان يبرهن على ان المذاكرة بتلك المشورة كانت خلية عن الاغراض وان ما انحط عليه الحكم فيها كان مبنيا على الصدق وحسن النية وحاول براءة تلك المشورة وتنزيه اربابها من كل زلة اذا أخذ يوجه ويفسد معانى اوامرها مع الدقة الزائدة * والمؤلف الثالث هو ورغاس فقيه اسبانيولى تعين ليصحب رسل الامبراطور الى مدينة ترنتة ويحضر المشورة معهم وكان هذا الفقيه يكاتب الاسقف دراس بما يحصل فى هذه المشورة ويبين له حق البيان الحيل التى كان يتخذها نائب البابا ليلزم اربابها بان يفعلوا على طبق مرامه فاشتهرت بعض مكاتباته وفهم منها حطه على ديوان البابا بدون مبالاة وكان بحسب مأموريته اذ ذاك يتمكن من ملاحظة امور هذا الديوان وكان يجب عليه ان يبذل ما فى وسعه من الهمة والمعارف فى ابطال مآرب الديوان المذكور حيث كان مبعوثا لهذا الصدد من طرف الامبراطور وعلى كل فاتخذ من شئت دليلا من هؤلاء المؤرخين الثلاث ترى فى بعض ارباب تلك المشورة الطمع والمخادعة طبعا وترى الجهل وفساد الاخلاق متسلطنا على الاغلب فيهم واذا التفت اليهم ارتسمت لك فى مرآة طباعهم الشهوات البشرية حق الارتسام ولم تر فيهم شيأ من الصداقة وحسن الطوية

والاخلاق المهذبة والميل الى الحق وبالجملة تراهم عارين عما به يمكن للبشر ان يكونوا اهلا لان يدعوا الى معرفة الدين اللائق لذاته عز وجل والسنن الذى يرضيه فيندفع عنك الظن بانهم قد أودعوا شيأ من الاسرار الالهية حتى تحتوى عليه الاوامر الصادرة عن مشورتهم

مطلب قصد الفرنساوية اخذ مدينة استرسبورغ وتسخيرها بغتة

ولنرجع الى ما كان من امر موريس وحلفائه فنقول بينما كان موريس مشغولا تارة بالمداولة مع ملك الرومانيين فى مدينة لنزة واخرى بالحرب مع جنود الايمبراطور فى طيرول كان ملك فرانسا تقدم فى اقليم الزاكة حتى وصل الى استرسبورغ واستأذن من مشورة السنت فى المرور بهذه المدينة مؤملا انه يستولى عليها بالحيلة والخداع كما فعل بمدينة مترة ثم يجول بداخل بلاد المانيا ولكن اعتبارا بما فعله هذا الملك فى حق اهل مدينة مترة لم يرض اهل استرسبورغ ان يأذنوا له فيما طلب وغلقوا دونه ابواب المدينة وجمعوا الخمسة آلاف رجل ليكونوا محافظين عليها واصلحوا ما كان محتاجا للتصليح من الاستحكامات والمبانى وهدموا البيوت الموجودة فى الضواحى لئلا توقعهم فى الاختلال عند الضرورة وتجهزوا بسائر ما فى وسعهم حتى علم انهم قد صمموا كل التصميم على المدافعة عن مدينتهم الى ان تكل منهم القوى وينفد ما عندهم ولا يبقى لهم وجه من الوجوه للمدافعة وبعثوا ايضا الى ملك فرانسا رسلا من عندهم انتخبوهم من بين اعيان مدينتهم ليترجوه ان يعدل عن سبل الشر ولا يبحث عن اضرارهم ونكالهم وانضم اليهم لهذا الغرض كل من الامير منتخب تريوس والامير منتخب كولونيا والامير دوق دوكليوس وغيرهم من الامراء المجاورة اياالاتهم لهذه المدينة والكل ترجوا من هنرى ان لا يجحف بمدينة استرسبورغ حيث ان ذلك مغاير لحمله ولما رضيه لنفسه كرما ولطفا من تعهده بان يكون مخلصا لبلاد المانيا ومنقذا لاهلها من قسوة الايمبراطور كما يدل عليه لقبه الذى اتخذه لنفسه وصار مسموع الخاص والعام وقد حصل من اهل الاقطار السويسية لاهل مدينة استرسبورغ الاعانة التامة حيث ألح هؤلاء السويسيون على هنرى ان

سنة ١٥٥٢

يحترم تلك المدينة لما انها منذ سنوات عديدة مرتبطة مع جمهوريتهم بعلائق المحبة ووثائق المشارطات والمودة

ومع ان توسط هذا الجمهور من امراء وخلافهم يرى من الدواعى القوية الاكيدة نقول انه كان لا يمنع هنرى عن الاستيلاء على تلك المدينة لو كان وقتئذ له اقتدار على ذلك لما انه كان يرى فيه لنفسه فوائد جمة ومآرب مهمة غير ان الملوك فى ذلك العصر كانوا قصيرى الباع فى اتخاذ الاسباب حتى يصلوا الى ثمرة مشروعاتهم وكانوا لم يقفوا على معرفة ادارة مؤنة العساكر ومصاريفها بعيدا عن ممالكهم فكان مثل هذا المشروع وما يلزم له يجل من كل الوجوه عما كان لهم من البراعة فى فن الحرب وكانت ايراداتهم اذ ذاك لا تفى بلوازمه ومصاريفه فلم يصل جيش الفرنساوية الى هذه المدينة الا واحسوا بانهم فى كرب شديد لنفاد مؤنتهم وفراغ زادهم مع ان المدينة المذكورة ليست بعيدة بكثير عن حدود مملكتهم ولم يكن عندهم ما يكفيهم من الذخائر اللازمة لمثل هذه المحاصرة وكانت تطول مدتها ولا شك لو شرع فيها ومن جهة اخرى كانت ملكة بلاد المجار حاكمة اذ ذاك بمملكة البلاد الواطية فجمعت طائفة عظيمة من العساكر وجعلت عليها الامير مارتين دوروسام فاغار على اقليم شمپانيا وخربه وكان يخشى منه ان يغار على الاقاليم الفرنساوية الاخرى المجاورة لهذا الاقليم ولتلك الاسباب اضطر ملك فرانسا الى العدول عن محاصرة مدينة استرسبورغ وعدل عن هذا المشروع رغما عن انفه ولكن اراد أن يفهم ان عدوله كان لمحض مراعاة خاطر حلفائه ومعاهديه فاظهر لاهل السويسة ان رجوعه عن مشروعه لم يكن الا من باب الامتثال لقولهم وقبول تشفعهم لديه وبعد ذلك امر أن تسقى خيول عساكره من نهر الرين حتى يقال ان فتوحاته قد وصلت الى تلك الجهات ثم امر بالرجوع الى اقليم شمپانيا المتقدم ذكره

مطلب
معاركات الامير البير وهو البرطة

وبينما كان ملك فرانسه وجيش المتعاهدين الجرمانيين على هذا الحال كان المتعاهدون قد سلموا الى الامير البيردوبراندبورغ طائفة محتوية على ثمانية

سنة ١٥٥٢

آلاف رجل اكثرهم عساكر مستأجرة دخلوا تحت رايته طمعا فى النهب والغنيمة لا فى الماهية غير ان هذا الامير لما رأى عساكره مصممين على التوجه معه حيث شاء اخذ يستنكف ويترك علائق الامتثال والطاعة التى كان متشبثا بها الى ذلك الوقت وصار يدبر فى امور التعالى التى لا تخطر بعقول اولى الطمع الا نادرا فيما عدا صورة واحدة وهى اذا اشتعلت نيران الحروب المدنية وعم الفشل والشقاق فيحملهم الطمع على المخاطرة بانفسهم مؤملين نجاحا قريبا وبناء على مطامع البير المذكور وأمانيه كان حربه على منوال مغاير لما سلكه سائر المتعاهدين فاجتهد وجد فى حركاته واظهر كل القسوة وخرب البلاد التى دخلها حتى يوقع الخوف والرعب فى قلوب الناس ليكون له موقع جليل عندهم فيخشوا بأسه وفرض على سائر البلاد التى مر بها مبالغ معلومة تدفعها له وكان قصده بذلك ان يجمع من الاموال ما يكفيه حتى يمكنه ابقاء جيشه والقيام بمصاريفه وماهياته وحاول الاستيلاء على مدينة نورمبرغ او مدينة اولم او مدينة اخرى من المدائن الحرة الموجودة باعلى بلاد المانيا حتى يجعلها تخت المملكة الخيالية التى شيدتها مطامعه فى فضاء امانيه لكنه وجد تلك المدائن فى اتم احتراس مستعدة لمقاومته ودفعه فحول قسوته الى املاك القسوس التابعين للبابا وخرب اراضيهم اشنع تخريب حتى زادت نفرتهم من دين المعتزلة حيث هو يسوغ لمن استمسك به مثل تلك الفعال المنكرة وكان كل من اسقف بمبرغ واسقف ورزبورغ عرضة له اكثر من غيرهما فغصب من الاول نحو نصف اراضيه وكانت واسعة وألزم الثانى بمبلغ يدفعه له فدية لبلاده واراضيه ووقاية لها من التخريب والتدمير ولم يلتفت البير الى قول المتعاهدين حيث كانوا ينهونه عن تلك الفعال ولا الى اوامر موريس مع انه كان الميثاق بينهما ان يطيعه بوصف كونه رئيس العصبة وبالجملة فعلم من افعاله وعدم امتثاله انه لم يكن مشغولا الا بمصلحة نفسه ولم تكن له علاقة بالسبب الداعى لانعقاد العصبة واضرام نار القتال مع الامبراطور .

مطلب المداولة فى شان الصلح

ثم امر موريس برجوع جيشه الى باويرة واذاع منشورا به امر

القسوس

سنة ١٥٥٢

القسوس المستمسكين بدين لوتير وامر معلمى الاطفال ان يرجعوا الى وظائفهم فى سائر المدائن والمدارس والاونيورسات التى طردوا منها وبعد ذلك لحق الملك فرديننند بمدينة پاسو فى ستة وعشرين من شهر ادار وحيث كانت المداولة بينهما من اعظم المهمات لما انها تتعلق بنشر اعلام الصلح واستقلال الايمبراطورية صارت مطمح نظر الالمانيين كافة فغير الملك فرديننند ورسل الايمبراطور ذهب الى المدينة المذكورة الامير دوق دوباويرة وكل من اسقف سلزبورغ واسقف اكستان ووزراء المنتخبين ورسل امراء المدائن الحرة الكبيرة وافتتح كل من الامير موريس والملك فرديننند المذاكرة اما الاول فبالنيابة عن المتعاهدين والثانى بالنيابة عن الايمبراطور واما الامراء الذين كانوا حاضرين ورسل الامراء الغائبين فكانوا واسطة بينهما

مطلب
الشروط التى طلبها موريس

اما موريس فشرح حاله بقول اطنب فيه واسهب وذكر الاسباب التى دعته الى النزاع وذكر المظالم التى حصلت من الايمبراطور والامور المنكرة التى ارتكبها وكانت مخالفة لاصول الايمبراطورية وقواعدها وبعد ذلك اقتصر على ذكر ثلاثة اغراض كان بينهما قبل ذلك فى منشوره الذى أذاعه عند ابتداء الحرب وهى ان يخلى سبيل الامير حاكم هيسة بدون تراخى وان ينصف الايمبراطور المتعاهدين فيما يشتكون منه فى خصوص ادارة امور الايمبراطورية ومصالحها المدنية وان لا يحصل اضرار المعتزلة ولا تضييق فى التمسك باصول دينهم والعمل بمقتضى آرائهم فلما توقف الملك فرديننند ورسل الايمبراطور فى قبول هذه الشروط كلها كتب من كانوا واسطة بين الفريقين كتابا الى الايمبراطور به يرجون منه ان ينقذ بلاد المانيا من اهوال الحروب المدنية ومصائبها ويجيب موريس وحزبه فيما يرومه حتى ينقطع الحرب وطلبوا ايضا من موريس واجابهم فى قولهم ان يكون فى الهدنة فسحة حتى يجتهدوا على قدر وسعهم ويأتى جواب قطعى من طرف الايمبراطور عما سئل عنه

مطلب
مساعدة امراء الايمبراطورية للامير موريس حتى المساعدة

وارسل الكتاب الى الايمبراطور باسم امراء الايمبراطورية باجمعهم من قاثوليقين ومعتزلة سواء كانوا احبابا للايمبراطور وأعانوه على ازدياد شوكته

سنة ١٥٥٢

اواعدائه يخشون بأسه ولا يرضون بنمو صولته ولم يكن اتفاق هؤلاء الامراء على اعانة موريس وتعضيد قوله ناشئا عن صداقتهم وحسن طويتهم ورجاء فى الصلح وقطع النزاع بل دعتهم اليه اسباب عديدة اكيدة وذلك ان من كانوا من احزاب الكنيسة الرومانية وانصارها قد شاهدوا ان حزب دين المعتزلة كبير وجنده كثير بخلاف الايمپراطور فانه فى ورطة كبيرة لما يلقاه من الصعوبة فى جمع امره للمدافعة عن نفسه فعلموا انه يلزم لهم مزيد السعى والهمة وبذل ما فوق الطاقة حتى يمكنهم ان يقوموا بقتال المعتزلة وقد عظمت صولتهم لعدم الالتفات اليهم والاحتراس منهم وغير ذلك كانوا يعلمون بالتجربة وما عهدوه اكثر من مرة انهم اذا شمروا عن ساعد الجد وقاتلوا المعتزلة لا يعود عليهم من سعيهم ثمرة بل ان ثمرة انتصارهم وظفرهم لا تكون الا للايمپراطور ولا ينشأ عنه سوى تمكين سلاطته عليهم فيكلفهم بما شاء وتقوى شوكته فيضر بحرية المانيا وبناء على ذلك حصل انهم مع فرط الحمية الدينية اذ ذاك آثروا ترك المعتزلة ليفعلوا كيف شاؤا فى التمسك بارائهم على مساعدتهم للايمپراطور فى قمعهم وقهرهم حيث كانوا يخشون ازدياد صولته ويرون انه يترتب عليه هدم اصول الايمپراطورية وقواعدها وزادهم على ذلك تصميما خوفهم ان تصير بلاد المانيا بالشاقى فريسة للتفاقم والحروب الداخلية لما رأوا ان بعضها قد آل امره الى الدمار والتخريب بما ارتكبه البير من سوء الفعال والبعض الآخر كان يخشى عليه ان يؤل حاله الى مثل هذا الاضمحلال فالكل كانوا يودون الاصلاح بين الايمپراطور والامير موريس حيث لم يكن ثم طريقة غير الصلح فى منع تلك المصائب والاهوال

مطلب
الاسباب التى كانت تحمل الايمپراطور اذ ذاك على قبول الصلح

فهذه هى الاسباب التى حملت الامراء على جعل مصالحهم السياسية والدينية فدية لراحة وطنهم واجمعوا على حث الايمپراطور على عقد الصلح مع موريس وكان ذلك من الضرورى اللازم على ان كان للايمپراطور خاصة اسباب اخرى قوية تلزمه بقبول الصلح وهى انه كان لا يجهل ان شوكة المعتزلة قد عظمت باهماله وكبرت حتى صار لا يستطيع مقاومتهم وكان رعاياه الاسپانيوليون قد سئموا

من

سنة ١٥٥٢

من طول بعيده عنهم وتعبوا من حروبه التي كانت لا تنقطع مع انها لا تعود منها
ثمرة على بلادهم فكانوا لا يرضون أن يمدوه بشيء يعوّل عليه لا من رجال ولا من
اموال فهو وان كان يعلل نفسه بالاماني من جهتهم حيث قد نال احيانا ما طلبه
منهم وفاز به اما بالحيلة او بالالحاح والابرام عليهم رأى حينئذ أنه وان كان من
الممكن اخذ امداد منهم الا ان هذا الامداد لا يعطى له سريعا بحيث يستعين به
حكم مرامه كما هي مقتضيات الاحوال اذ ذاك وكانت خزائنه قد نفدت
وعساكره المقرنة التي يعوّل عليها كان قد سرح بعضها والبعض الآخر في شتات
بالجهات واذا جمع عساكر جديدة فمثلهم لا ينبغي ان يعتقد عليهم في التثبت
والصدق وما كان يؤمل الفلاح والنجاح بسلوكه سبل الحيل والمخادعة كما فعل
في حق عصبة سمالكالد اذ أضعفها بالخداع وفتك بها وانما كان لا يؤمل
نجاحا من اتباع سبل المخادعة لان الناس كانوا عرفوا اطباعه بالكنه والحقيقة
وكيف يغترون بمداهنته وقد كانوا قبل ذلك فريسة لخداعه وتحيله وباغترارهم
بزخرف ظاهره وقعوا فيما يكرهون فكان امراء ألمانيا باجمعهم في مزيد
احتراس من الامبراطور بحيث لا يمكنه ان يعميهم بالثاني عن مصالحهم ويتعصب
مع بعضهم ليهلك به البعض الآخر هذا وكان الامبراطور يعلم بالتجاريب
والوقائع ان عصبة كان موريس رئيسها لا بد وان تكون ادارتها خلاف
ادارة عصبة سمالكالد فلا تكون ممن يقدم رجلا ويؤخر اخرى لدى التصميم
ولا ممن تحس بعجزها لدى العمل وكان ايضا يرى انه اذا استمر على الحرب لا بد
وان تحزب عليه اقوى ايالات ألمانيا والباقي ان لم يكن عليه لا يكون معه
وكان يخشى من شيء آخر وهو أنه اذا اهتم بهذا الحرب ووجه اليه سائر جنوده
وعساكره ربما انتهز ملك فرانسا تلك الفرصة وشن الغارة على جهات
اخرى من دولته فلا يجد من يدفعه ويظفر بدون مانع خصوصا وكان هذا الملك قد
تغلب على بعض بلاد من الامبراطورية وكان شرلكان يود ان يجمع امره
حتى يأخذ منه ما تغلب عليه وينتقم منه في نظير اعانته لرعاياه عليه ثم ان ملك
فرانسا كان انتقل الى ما امام نهر الرين ولكن كان لم يزل مزمعا على الحرب

سنة ١٥٥٢

واغار على مملكة البلاد الواطية وكان الاسلام بالدولة العلية العثمانية قد اغضبهم الملك فرديننند لنقضه العهد وهتكه حرمة الهدنة المنعقدة بينهم وبينه ببلاد المجار فباحاح ملك فرانسا اخذوا يجهزون دونما عظيمة ليشنوا بها الغارة على سواحل نابلي وسيسليا ولم يكن بهذه السواحل من يقوم بالمدافعة عنها الا ان الملك فرديننند كان قد اخذ منها كما فعل بغيرها من دوله معظم العساكر المنتظمة المتمرنة ليلحقها بالجيش الذى كان يريد جمعه وقتئذ

مطلب سعى فرديننند فى تتميم الصلح

وتوجه الملك فرديننند بنفسه الى ويلاخ ليعرض على الايمپراطور نتيجة ما انحط عليه القرار لدى المذاكرة فى مدينة پاسو ولا يخفى أن فرديننند المذكور كانت له اسباب خصوصية تدعوه الى بذل الهمة فى ايقاع الصلح وتحمله على تعضيد الاسباب التى تعلل بها الامراء لدى المذاكرة فى رفع الحرب ودفع اهواله عن الناس وبيان ذلك هو أن فرديننند قد حصل له سرور فى الجملة من تصميم الامراء على تضييق شوكة اخيه شرلكان حتى لا يكون مطلق التصرف فى الايمپراطورية وكانت مصلحته توجب عليه السعى فى منع ازدياد شوكة الايمپراطور لكونه اذا قويت شوكته وظفر بمرامه وفتك بالامراء ارباب العصبة لا بد وان يتمم ما تمناه اكثر من مرة وهو حرمانه من وراثة الايمپراطورية وجعلها بعده لابنه فيليش فصمم فرديننند على ان يجتهد بما فى وسعه فى تضييق الشوكة الايمپراطورية حتى يمكنه ان يرث ممالك اخيه بعده وغير هذا السبب القوى كان السلطان سليمان قد اغضبه تغلب فرديننند على اقليم ترنسلوانيا المعروف بالاردل لاسيما وتغلب عليه بالحيل الخبيثة المنكرة فوجه لقتاله مائة الف مجاهد وهزموا جنوده فى واقعة وتغلبوا على جملة مدائن وحصون قوية وصار يخشى منهم ان يتغلبوا على ما بقى من اقليم ترنسلوانيا بايدى فرديننند بل وان يطردوه بالكلية عما كان باقيا فى حكمه من بلاد المجار وكان فرديننند لا يستطيع مقاومة صولة الاسلام ورأى أنه ما دام اخوه شرلكان مشغولا بالحرب مع رعاياه لا يمكنه ان يعينه فى شئ اذ لا يرضى امراء ألمانيا ما دام مقيما على مخاصمتهم ان يمدوه بما كانت عادتهم ان يعطوه له من الرجال

والاموال

سنة ١٥٥٢م

والاموال فى مثل هذه الصورة لدفع جنود المسلمين وكان موريس قد ادرك تحير فرديننـد فى هذا الامر فوعده بانه اذا تم الصلح وكان على اساس متين توجه بعساكره الى بلاد المجار لاعانته على دفع جنود المسلمين فكان لهذا القول موقع عظيم فى قلب فرديننـد وكان فى ورطة تامة لا يجد له نصيرا ولا ظهيرا فصار يدافع عن اهل العصبة من الايمبراطور بما فى وسعه و يعضد قولهم حتى انهم لو كلفوه مهما امكن لألح على الايمبراطور فى قبوله لقصد ايقاع الصلح بين الفريقين حيث يرى ان لا وسيلة سواه فى اثبات تاج المجار له وكاد ينزع منه

مطلب المقتضيات التى ترتب عليها تأخير الصلح

وبالنظر لتلك الاسباب العديدة الاكيدة الداعية الى الصلح كان الناس يترقبون حصوله عن قريب ولكن كان الايمبراطور عنيدا بالطبع وكان قد صمم على محق دين المعتزلة وبذل فى ذلك غاية الجهد فشق على نفسه العدول عن مآربه بعد بذل الهمة فيها وعادل ذلك عنده الاسباب التى كانت تدعوه الى الصلح حتى ظهر عليه انه لا يسلم فى امره فحين عرض عليه ما طلب موريس وكتاب من كانوا واسطة بين الفريقين بمدينة باسو امتنع كل الامتناع عن اجابة شئ مما كان يشتكى منه الالمانيون وابى ان يقبل شرطا تاما من الشروط المتعلقة بأمن المعتزلة على انفسهم والتمسك بديانتهم واصولهم حسب آرائهم واخبر أن يحيل تلك المواد على مشورة الديتة الآتية ليتذاكر اربابها فى شأنها ولم يقتصر الايمبراطور على ذلك بل طلب ان يكافأ فورا فى نظير ما لحق بلاده من الضرر فى هذا الحرب بطغيان عساكر المتعاهدين والفعال الشنيعة التى ارتكبها رؤساؤهم

مطلب نجاح موريس سوغ امر الصلح

وكان موريس يعرف حيل الايمبراطور ففهم ان ما اخبر به من احالة الامر على مشورة الديتة ليس القصد منه سوى مخادعته وضياع اوقاته عليه سدى حتى يجمع الايمبراطور امره فلم يلتفت الى ترجى فرديننـد وتوجه حالا من مدينة باسو الى جيشه وكان معسكرا بمدينة مرغنتيم باقليم فرنكونيا وكانت تلك المدينة من ملك امراء الطائفة التوتونيقية فلما لحق بجيشه امره بالسير وبدأ بالحرب وكان بمدينة فرنكفورسورلومان اى

سنة ١٥٥٢

فرنكفورت على نهر مان ثلاثة آلاف رجل ماهيئهم على طرف الايمپراطور ويمكن ان يضروا بالبلاد هيئة حيث كانت بجوارهم فتوجه موريس سريعا الى تلك المدينة وضرب حصارها واخذ بعزم قوى وهمة زائدة فى انشاء ما يلزم من العمليات لتسخير هذه المدينة فلما سمع الايمپراطور وعلم أن موريس لا تفتر له همة داخله الرعب حتى اخذ يجنح الى امر الصلح ويصغى الى قول فرديننند مع عتوه وكبره احس بان من الضرورى اللازم ان يعدل عن طبعه الى لين الجانب وظهر منه انه يريد التساهل فى بعض اشياء من جهته اذا كان موريس يعدل عن بعض ما طلبه فبمجرد أن ادرك فرديننند منه ذلك اكثر من الالحاح عليه حتى رضى بانه لا يمتنع فى شئ مما يطلبه المتعاهدون ليكونوا به فى امن واطمئنان وحيث كان هذا اصعب الامور كتب فرديننند حالا الى موريس وبعث اليه سفيرا يخبره برضاء الايمپراطور ويقسم عليه ان لا يضيع عليه هباء منثورا ما بذله من الجهد والسعى عند الايمپراطور فى شأن الصلح وان لا يعند فيضيع تلك الثمرة التى هى مطلوب اهل ألمانيا

ومع نجاح موريس ومساعدة الحظ له اذ ذاك كان مستعدا لقبول نصح فرديننند لعلمه ان الايمپراطور وان كان قد اخذ بغتة قد بدأ فى جمع العساكر والجنود لدفع اعدائه وانه مع عجزه حينئذ لما داخله من الرعب والفزع لا بد وان يحزم رأيه فيما بعد ويصدم اعداءه بعزم يليق بعلو شأنه وشوكته واتساع دولته ويبرز بجيش جرار يرهب الناس لا سيما وكان الايمپراطور مشهورا بالنصر والظفر فى وقائعه السابقة وكان موريس يرى ايضا ان العصبة لكثرة اربابها لا يمكن ان تستمر زمنا طويلا على الاتحاد وحزم الرأى حتى يمكنها مقاومة جيش رئيسه واحد لا يشركه احد فى ادارته لا سيما اذا كان هذا الرئيس متعودا على قيادة الجيوش والفتك بعدوه كما كان الايمپراطور نعم ان موريس لم يكن حصل له واقعة شؤم الى ذلك الوقت غير انه لعلمه كونه رئيس عصبة ليس اربابها على قلب رجل واحد كان يفهم ان لا مانع من وقوع الشقاق بينهم بسبب ما ولا مانع من ان ينفصل عنه احد الامراء ارباب العصبة كما حصل من الامير

سنة ١٥٥٢

البيردوبرندبورغ فلا يمكنه ان يدخله بالثانى تحت الطاعة وبناء على تلك الملحوظات كان موريس يخشى اضاعة ثمرة سعيه فى شأن المصلحة العامة المنعقدة لاجلها العصبة وكان هناك اسباب اخرى قوية توجب له خيفة اتلاف مصالحه الخاصة به وهى ان الايمبراطور بعد تخليته سبيل الامير منتخب سكس سابقا ربما رجع فى الفرمان الذى حرمه به من منصبه ودوله فيؤدى ذلك الى خراب موريس لاسيما والمنتخب السابق مع سوء حظه كان محبوبا عند الرعايا محترما لدى حزب المعتزلة وكان الجميع يعاونون ان تجريده عن بلاده واملاكه لم يكن الا محض الظلم والعدوان فاذا سعى فى أخذها بالثانى لابد وان تحصل فى بلاد السكس حركة ربما ادت الى ضياع ما كسبه موريس بطريق الحيل والدسائس ومن وجه آخر كان يخشى ان يغدر الايمبراطور بحاكم هيسة ويعلم ان الايمبراطور اذا أبى اجابة اهل العصبة فى تخلية سبيل الامير المذكور لا يكلف بشئ هذا وكان الايمبراطور يسىء معاملته منذ اسره وأفهم اولاده قبل ذلك حين سعوا فى طلب تخلية سبيل والدهم على ما تقدم انهم ان لم يرجعوا عن مشروعهم فهو لا يطلق قيده بل يسعون عنه عما قليل انه قدم امره وعوقب بما هو اهل له فى نظير قيامه وعصيانه الذى اوقعه فى الاسر

مطلب عقد الصلح فى شان الدين بمدينة پاسو

وقد تداول موريس فى هذه الامور مع حلفائه اهل العصبة واتفقوا على الشروط التى يكون الصلح بموجبها غير أن الايمبراطور لم يقبل شروطهم كما هى بل محا فيها واثبت ومع ذلك رأى موريس ان قبولها اصوب من ان يعرض نفسه للحرب حيث لا يعلم عاقبته هل تكون له او عليه فرجع الى مدينة پاسو واقر المشارطة وكانت بنودها الاصلية أولا انه قبل الثانى عشر من شهر آب يضع

فى ٢ شهر آب

المتعصبون السلاح ويسرحون جنودهم ثانيا انه فى هذا الوقت بل وقبل حلوله يخلى سبيل الامير حاكم هيسة ويحضر به سالما غانما الى قصره بمدينة ونسفلد ثالثا انه بعد ستة اشهر تنعقد مشورة المدينة للتداول فيما يكون به منع النزاع والجدال من الآن فصاعدا فى شارع الدين رابعا انه الى انعقاد تلك المشورة لا يجوز بأى وجه كان للايمبراطور ولا لخلافه من الامراء ان يضر

سنة ١٥٥٢

بين هم مستمسكون بالاصول الدينية الجارية بمدينة اوكسبورغ بل يبقون فى أمن وأمان لايعكر عليهم احد فى التمسك بعقائدهم الدينية واجراء مواسمهم كما شاؤا خامسا ان المعتزلة من جهتهم لايعكرون على القاثوليقيين لافى اقتناآتهم القسيسية ولافى مواسمهم الدينية سادسا ان الديوان الايمپراطورى يكون فى ادارته عادلا بين رعاياه الايمپراطورية خلى-اغراض فى حق كل من المعتزلة والقاثوليقيين وان ينتصب ارباب الديوان الايمپراطورى من كلا الفريقين على حد سواء سابعا ان مشورة الدينية التى ستنعقد فيما بعد اذا كان لايمكنها تتميم امر النزاع فى شأن الدين فما ذكر فى المشارطة من عدم الاضرار بالمعتزلة وعدهم مع القاثوليقيين على حد سواء يبقى معمولا به لاتغيير فى شرطه ولا تبديل ثامنا انه لايطالب احد من ارباب العصبة بما حصل مدة النزاع والحرب تاسعا ان مايدعى به موريس من تعدى الايمپراطور فى شأن اصول الايمپراطورية وحريتها يتحول على مشورة الدينية التى ستنعقد فيما بعد لتتداول فى امره عاشرا ان الامير البيردوبراندبورغ يكون داخلا فى ضمن المشارطة اذا رضى بما فيها وسرح عساكره قبل الثانى عشر من شهر آب المذكور

مطلب ملحوظات على هذه المشارطة وعلى الامير موريس

فانظر الى ما احتوت عليه تلك المشارطة الشهيرة وكيف ترتب عليها هدم ما كان الايمپراطور شرلكان يشيده منذ سنين لتعضيد دين الكنيسة الرومانية ويبذل فى شأنه مافى وسعه من اسباب الصولة والسياسة فقد نسخت تلك المشارطة ما كان رتبه هذا الايمپراطور من القوانين مما يخص الدين وافسدت عليه آماله وما كان يسوغه له خياله من جعل الشوكة الايمپراطورية مطلقة التصرف ووراثية فى عائلته وأثبتت دين المعتزلة وجعلته على اساس متين ولم يكن له قبل ذلك ببلاد الايمپراطورية قرار حيث لم يحصل فى شأنه ترخيص ولا اقرار وكان الفضل والفخار للامير موريس فى تدبير تلك الامور ولم تكن تخطر ببال احد وذلك من اغرب الوقائع واعجب الاخبار حيث مكن الامير موريس دين المعتزلة ببلاد ألمانيا مع انه قبيل ذلك كاد أن يمحوه بحيله وخداعه ويوقعه

سنة ١٥٥٢

فى زوايا المحاق والدمار واظاهر ان معاصريه قد اعتبروا قصده من سعيه اولا فى محق دين المعتزلة واجتهاده ثانيا فى تمكينه وتأييده ولم يلتفتوا الى الطرق التى سلكها والوسائط التى اتخذها فى كلتا الحالتين لقصد النجاح والظفر فمدحوه على الواقعة الاخيرة عدا لها من حبه فى وطنه وغيرته عليه كما كانوا شنعوا عليه فى الواقعة الاولى لما ظنوا به السوء واتهموه بالموالسة وعدم الصداقة فى حق ابناء وطنه ولا يخفى ايضا ان ملك فرانسا مع غيرته على الدين القاثوليقى وما كان يرتكبه من القسوة والصعوبة فى حق من تصدى من رعايا دين المعتزلة كان يبذل وسعه لتعضيد دين المعتزلة وتأييده ببلاد الايمبراطورية واغرب من ذلك ان تلك المشارطة وان كانت مضرة بطبيعتها لكنيسة رومة قد اقرها احد الاساقفة القاثوليقية ووضع عليها امضاءه فانظر ما اعجب الاسباب التى تتعلق بها الحكمة الالهية لتنفيذ ما جرى به القدر ازلا وتحنيره وارشاد العقول البشرية وانقاذها من الزيغ والضلال

مطلب
اهمال مصلحة ملك فرانسا فى المشارطة

ومما ينبغى التنبيه عليه هو أنه لم يحصل التفات بمشورة پاسو المذكورة الى مصالح ملك فرانسا بل ان موريس ومعاهديه بمجرد أن نالوا مرامهم لم يفكروا فى امر هذا الملك فكانهم رأوا ان ما استولى عليه من البلاد فى اقليم لورينة يكفيه جزاءله على خدمته وسعيه معهم فلم يتصدوا لامره فى شئ سوى انهم ذكروا فى المشارطة ان الملك هنرى يكون له الحق فى ان يحرر دعواه وسبب تشكيه من الايمبراطور ويرسلها اليهم وهم يعرضونها على الايمبراطور

وليس بعجيب ما لاقاه هنرى حيث ان ذلك هو حظ كل ملك تصدى لاعانة اهل العصب والتحزبات المدنية وشركهم فى امرهم فلا يستغرب كون المتعاهدين بمجرد ما ظهرت لهم امارات خمود نار الفتنة وحصول الراحة قد نسوا بالكلية خدمته لهم مع انه كان معتمدهم وصاروا يجعلون تخليهم عنه سببا يتحببون به عند ملوكهم وولاة امورهم غير أن هنرى مع ما حصل له من الاغاظة والمكيدة لخيانة معاهديه وصلحهم مع الايمبراطور على ضرره رأى ان

سنة ١٥٥٢

مصلحته تقتضى ان يكون فى صلح مع اعضاء الجمعية الجرمانية فلم يسع فى الانتقام لنفسه ممن خانه وأضرّ به بل ارسل الى موريس والى المتعاهدين ما كانوا دفعوه اليه من الرهن تأييدا لقولهم له حين دعوه الى الدخول فى حزبهم واستمر من بعد ذلك على اظهار الميل لهم والرغبة فى المحافظة على ابقاء الايمپراطورية على اصولها القديمة وحريتها حتى كأنه لم يمسسه من غدرهم به حنق ولا غيظ

المقالة الحادية عشرة من اتحاف ملوك الزمان

بتاريخ الايمپراطور شرلكان

مطلب
توجه موريس الى بلاد المجار لقتال المسلمين فى ٣ من شهر آبه

وبمجرد أن تمت مشارطة پاسو ووضع عليها امضاء كل من الفريقين توجه الامير موريس قائدا عشرين ألف رجل الى بلاد المجار عملا بقوله للملك فرديننـد وما وعده به ولكن لم يحصل منه فى هذه الواقعة ما هو جدير بشهرته ولم ينشأ عن سعيه ما ترتب عليه فائدة للملك الرومانيين وذلك لاسباب وهى ان قوى الاسلام كانت اعظم من قواه وقد عصت عليه عساكره من المانيين واسپانيوليين لعدم دفع ماهياتهم اليهم وكان فى منافسة مع الامير كستلدو فلم يكن يتمكن من ادارة الجيش كيف شاء

مطلب
تخلية سبيل حاكم هيسة

وعقب توجهه الى بلاد المجار بيسير تركه امير هيسة مع عساكره وذهب للقاء ابيه ليسلم له اعنة الحكومة التى كان قد مسك بها منذ غيابه ولكن كانت الشقاوة لم تزل غالبة على حاكم هيسة والده ويأبى الدهر الا تنكيته فحصل ان الجسور ريفانبرغ الذى كان من جملة الانفار فى العسكرية وبلغ رتبة ميرآلاى وجعل على طائفة من العساكر المستأجرة على طرف هيسة خرج بعساكر طائفته سرا من الجيش وهو فى المسير ولحق بهم الامير البيردوبراندبرغ وكان ابى قبول مشارطة پاسو ولم يزل مستمرا على الحرب مع الايمپراطور فمن سوء حظ حاكم هيسة علم هذا الخبر بعد اطلاقه بقليل من قلعة مالين التى كان مسجونا بها قبل ان يتجاوز حدود مملكة البلاد الواطية وكانت ملكة المجار تحكم فيها بالنيابة عن اخيها حصل ان هذه الملكة ظنت ان حاكم هيسة هو الذى امر ريفانبرغ بالهروب وهذا مخالف للمشارطة التى كانت سببا

فى تخلية

سنة ١٥٥٢

فى تخلية سبيله فقبضت عليه وسلمته بالثانى الى من كان قائما بخفرة والمحافظة عليه مدة سجنه الخمس سنين الماضية وعاد فيليبش اسيرا كما كان وضاع منه ما عاد اليه من يسير الهمة لدى اطلاقه من السجن وتغلب عليه اليأس حيث ظن انه لا خلاص له من ربقة الاسر حتى ينقضى اجله غير أن الايمبراطور علم عما قليل ان حاكم هيسة وابنه لم يكن لهما مدخل فى هروب ريغانبرغ مع جماعته فامر باطلاقه من اسره وكانت قد طالت مدته فاضعفته واساءت حاله فهو وان عاد الى دولته كما كان كانت نكباته السابقة قد اضاعت منه قوة العقل وحدته فبعد أن كان اكبر امراء الايمبراطورية جراءة وجسارة صار اشدهم خوفا واحتراسا فى اموره وقضى بقية ايامه فى الكسل والبطالة قليل العزم فاتر الهمة

مطلب
تخلية سبيل الامير منتخب سكس

وخلى سبيل منتخب السكس ايضا بعد مشارطة الصلح المتقدم ذكرها وذلك ان الايمبراطور كان مجبورا على العدول عن تصميمه من تدميرد بن المعتزلة فلم يبق هناك داع لابقاء هذا الامير اسيرا عنده وهناك اسباب اخرى دعت الايمبراطور الى ذلك وهى انه كان مصمما على قتال الفرنساوية فيحتاج الى اعانة رعاياه الالمانيين وكانوا يحبون منتخب سكس حبا جما ويحترمونه لفضله ويرثون لحاله لما نزل به من البلاء فعلم الايمبراطور ان تخلية سبيل هذا الامير هى اعظم طريقة لتحبيبهم فيه واستمالة قلوبهم اليه ولذا اطلق قيده واخذ هذا الامير زمام ما كان باقيا من بلاده بعد تغلب موريس على حكومته وكانت نكبات الدهر لم تضعف فيه ما كان ممتازا به يوم اقباله من عزة النفس وعلو الهمة بل كان لم يزل ذا همة عالية ونفس شريفة وهو مكبول بالسلاسل والاغلال وعاش بعد ذلك عدة سنوات على الشهرة الجليلة التى اكتسبها بعلى فعاله وحميد خصاله

مطلب
تصميم الايمبراطور على الهجوم على مملكة فرانسا

واما الايمبراطور فكان فى غم شديد لفقد كل من مدينة متزة ومدينة طول ومدينة وردوم وذلك انه قبل تلك الواقعة كان لم يحارب جنود الفرنساوية الا وكانت فائدة الحرب له فرأى ان غلبتهم عليه فى تلك الواقعة تزرى بشأنه

سنة ١٠٥١

ونخاره وان من العار له ان يترك لهم المدن التى تغلبوا عليها وكما كان يرى ذلك عارا بالنظر لشأنه وقدره كانت له ثم اسباب سياسية تمكنه فى عزمه وتصميمه على اضرام نيران الحرب مع مملكة فرانسا وذلك ان حدود تلك المملكة من جهة اقليم شمبانيا كانت اضعف جهاتها فكان الايمبراطور اذا شن الغارة عليها يصيبها من تلك الجهة فاذا بقى بيد ملكها ما تغلب عليه اخيرا تصير المملكة حصينة مستحكمة من سائر جهاتها لاسيما والمدن الثلاثة المذكورة كما تكسب الفرنساوية الامن والاطمئنان تجعل الايمبراطور فى خوف منهم لانها كانت محصنة لبلاده وممالكه لاستحكامها فاذا بقيت بايدى اعدائه تصير بلاده عرضة للاخطار والاهوال فهذه هى الاسباب التى دعت الايمبراطور الى التصميم على الحرب وما كان استعد به من المهمات والعساكر لقتال موريس ومعاهديه سوغ له أن يتم عاجلا بتقيم هذا المشروع وتنجيزه

مطلب تجهيز الايمبراطور للحرب

فبمجرد أن تم الصلح بينه وبين رعاياه بموجب مشارطة پاسو خرج بجيز ثياب الخزى من ويلاخ التى كان ملتجئا بها وقت الفتنة وتوجه الى مدينة اوغسبورغ فاذا لطائفة كبيرة من الجنود الالمانية ماهيأتهم عليه وضم اليهم سائر العساكر الذين جمعهم من دولة الايطالية والاسپانيولية ودخل ايضا فى خدمته عدة طوائف من العساكر الذين سرحهم المتعاهدون بل وحمل بعض امراء ألمانيا على ان ينضموا اليه مع اتباعهم وكان يعلم ان هذا التجهيز العظيم ربما ايقظ دولة فرانسا فتأخذ أهبتها وتكون على حذر فاشاع انه متوجه الى بلاد المجار لاعانة موريس على قتال جنود الاسلام غير أنه تقدم جهة الرين دون المجار فكانت هذه الحيلة لا تنفع ولذا تشبث بحيلة اخرى واشاع انه بوصف كونه رئيس الايمبراطورية يجب عليه ان يقمع اهل الفساد منها فها هو متوجه ليعاقب الامير البيردوبراندبورغ فى نظير ما كان يرتكبه اذ ذاك من التعدى على البلاد الالمانية وتخريبها مع جنوده

ولكن كان الفرنساوية يعلمون خداع الايمبراطور وحيله لما مسهم منه فى الماضى

فصاروا

سنة ١٥٥١

فصاروا يلاحظونه مع مزيد الدقة في سائر حركاته وادرك ملكهم هنرى حقيقة قصده من تلك التجهيزات وصمم على المدافعة عن فتوحاته بقوة لا تعلوها قوة من صمم على نزعها منه وادرك ايضا ان اوزار الحرب ستقع اولا على مدينة مترة واذا تغلب الايمبراطور على هذه المدينة سهل عليه تسخير مدينتى طول و وردوم فاناط بحفظها مدة الحصار المتوقع الامير فرنسيس دوقورين دوق دوكيز وكان ذا شهرة ونفر في الملمات

مطلب ما اتخذته مملكة فرانسا من الاحتراسات للمدافعة عن مدينة مترة

وكان أمن المملكة متوقفا على امر تلك المدينة وكان الامير المذكور يحب وطنه حبا جما واذا رأى هنرى ان هذا الدوق لابد وان يبذل ما في وسعه لدفع الاعداء فسلم اليه زمام تلك المدينة وكان يتعذر ولا شك انتخاب احسن منه لهذا الغرض اذ أنه مع اوصافه المذكورة كان ذا جراءة وشجاعة كما كان ذا دهى ونهى مستكملا لصفات استحضار العقل اللازمة لكل من قلد رياسة العساكر وقيادة الجنود وكانت نفسه نفس ابطال لا يهوى سوى المشروعات الجسيمة ولا يميل بالطبع لغير صعب الخطوب التى تكل لديها الهمم حتى يزداد رونقا وبهجة وشهرة فانسر حين انيط بهذا المهم وعده فرصة بها يبدى معارفه النادرة لابناء وطنه وكان له عندهم موقع عظيم وكان حينئذ اشراف الفرنساوية وبكزاداتهم في ولع وشغف بالوقائع والملمات يستهجنون التقاعد والتأخر عما يرون فيه كسب الفخار فهرعوا الى هذا الخطب من كل فج حتى كنت تراهم يدخلون افواجا في طاعة الدوق وكان جديرا بأن يكون قائدا لهم الى سبل الفخار والشرف وانضم اليه ايضا عدة من الامراء الذين هم من العائلة الملوكية وكثير من اعيان البكزادات وسائر من رخص له الملك بذلك من الضباط العسكرية والكل دخلوا بمدينة مترة طائعين مختارين بدون مقابل فلما رآهم المحافظون الذين كانوا بتلك المدينة ازدادوا قوة وثباتا فكان جنود الدوق كلهم يطيرون كلفا بالفخار وشغفا باظهار عزمهم وعلو همتهم

مطلب جعل الدوق دوكيز محافظا على مدينة مترة

ومع فرحه بالخطب الذى انيط به ومبادرته الى قبوله رأى مدينة مترة في حالة عجز وضعف بحيث لو كان سردار آخر اقل منه جراءة وتثبتا ليئس من امكانه

مطلب تاهب الدوق لامر المدافعة كما يجب

سنة ١٥٥٢

المدافعة عنها وانقاذها من شديد بأس الايمبراطور وذلك انها مدينة كبيرة متسعة الاسوار كثيرة الضواحي غير مستحكمة الحيطان والجدران وكانت خنادقها ضيقة وكان بها بروج قديمة لا تعد بالحصون وكانت تلك البروج بالبعد عن بعضها بحيث لا تقي الحيطان التي بينها من اصطدام العدو فاصلح الدوق ذلك كله مهما امكن بالنظر لضيق الوقت وقدوم الاعداء وهدم سائر الضواحي حتى ما احتوت عليه من الديور والكنائس بل والكنيسة المسماة سنت ارنوفل وكان مدفونا بها عدة من ملوك فرانسا غير أنه منعا لان يلوم عليه الناس ويتهموه بالجحود وقلة الديانة لارتكابه هدم محلات العبادة والنسك وهتك حرمة الاموات امر بان تنقل الى احدى الكنائس التي بداخل المدينة سائر الاواني المقدسة وعظام الملوك في زفاف عظيم ومحفل عام ومشى بنفسه على رأس المحفل مكشوف الرأس ماسكا بيده شعلة كسائر الاحاد وهدمت ايضا جميع البيوت المجاورة للاسوار ووسعت الخنادق وطهرت واصلحت الاستحكامات القديمة واحدثت استحكامات اخرى جديدة وكان يلزم لهذه الاشغال مزيد النشاط والسرعة فاشتغل فيها الدوق بنفسه واقتدى به الضباط وسائر من تصدوا الى المدافعة عن المدينة بدون مقابل من بكزارات وامراء وخلافهم واما العساكر فلما رأوا رؤساءهم يشركونهم في الشغل سهل عليهم كل صعب وتجلدوا للمشاق وتحمل التعب والنصب * والزم سائر من لا ينفع للمدافعة ومقاومة العدو أن يخرجوا من المدينة وملئت المخازن من المأكولات ولوازم الحرب وابيدت المزارع والحبوب ونباتات المرعى الموجودة على مسافة عدة اميال من المدينة حتى لم يبق شيء في نواحيها يستعين به العدو لدى الحاجة واما السكان فبذلوا كالعساكر الهمة في مساعدة الدوق وصار له عندهم موقع عظيم لما كان عنده من الملاطفة للناس وحسن المعاملة فلما رأوه منه حببهم فيه وآثروا ما كان يهتم به على مصالح انفسهم فلم يحصل لهم ادنى غم مما ارتكبه من تبديد مزارعهم وهدم بيوتهم وكنائسهم حيث كان قصده بذلك دفع العدو

سنة ١٥٥٢

واما الايمپراطور فبعد أن جمع الجنود واستعد بكل ما فى وسعه استمر فى مسيره الى مدينة متز ولدى اجتيازه من مدائن الرين شاهد آثار التخريب الذى حصل من عساكر البير فى هذه الولاية وكان البير المذكور حين احس بقرب الايمپراطور ذهب الى اقليم لورينة كأنه اراد أن ينضم الى ملك فرانسا وكان قد وضع على بيارقه واعلامه صورة ما هو مرسوم على بيارق الفرنساوية وكان معه عشرون الف رجل ومع ذلك كان لا يسوغ له حاله ان يتلاطم مع جيش الايمپراطور اذ كان لاشتماله على ستين الف رجل معدودا من اعظم الجيوش التى شاهدها اهل ذلك العصر فى حروب اوروبا

مطلب
حصار مدينة متز

وانيط الدوق دالبة بادارة امور المحاصرة على مقتضى ما يأمر به الايمپراطور وجعل الايمپراطور بمعية هذا الدوق لمعاونته الامير ملتزم دومارينان وعدة من انجب جنرالات ايطاليا واسپانيا وانشطهم وكانوا حينئذ فى اواخر تشرين الاول فعرضوا على الايمپراطور أن من الخطر بدء القتال فى ذلك الفصل حيث هو كثير الموانع والعوائق سيما ومثل هذا الحصار لا بد وان تطول مدته فاتعاب العساكر من الآن لا طائل تحته بل هو مغاير لشروط الحزم والكياسة لكنه كان جبارا عنيدا لا يعدل عما صمم عليه وكان فى غرور لكثرة جنوده جازما بالنجاح فامر بحصار المدينة غير أنه بمجرد ظهور الدوق دالبة امامها خرجت عليه طائفة كبيرة من الفرنساوية وهجموا وتخالهم مجانين على طالعة جيشه فأبادوه وقتلوا واسروا منه مقدارا عظيما وفهم الايمپراطور حينئذ مهارة ضباط محافظى المدينة وجراءة العساكر وأيقن بوقوفه على حقيقة اعدائه ان مشروعه هذا من الامور الخطبة التى لا ينال يسرها الا بالعسر ومع ذلك امر باحاطة المدينة وصار الشغل فى المتاريس وخلافها مما يلزم للمحاصرة

١٩ شهر تشرين الاول

مطلب
اجتهاد كل من الفريقين فى استمالة الامير البير الى حزبه

وكان الامير ألبير مطمح نظر كل من الفريقين اى كان كل منهما يريد استمالة هذا الامير وكان معسكره بالقرب من ميدان الحرب يقدم رجلا ويؤخر اخرى كالمتردد بين مقاصد شتى لا يدرى ايها الاوفق به اما الفرنساوية فعرضوا عليه

سنة ١٥٥٢

الفوائد الجمة لكي ينضم الى حزبهم وكذلك الايمبراطور لم يبق شئ يوجب اغترار البير الا ووعده به فبعد تردد مدة بين الامرين انضم الى الايمبراطور مستثمنا فوائده وموقنا بها عن غيرها وكان ملك فرانسا بملاحظة احوال البير قد فهم انه يلزم الاحتراس منه فصدرت اوامره الى الامير الدوق دومال شقيق الدوق دوكيز بملاحظته مع الدقة فى سائر اموره الا ان البير هجم بغتة على طائفة العساكر الذين كانوا مأمورين بملاحظته ومزقهم كل ممزق وقتل كثيرا من ضباطهم حتى ان الدوق دومال قد جرح واسر فى هذه الوقعة ثم صار البير الى مدينة متز يجر أذيال الفخر بالظفر وانضم مع جنوده الى حزب الايمبراطور ففى مقابلة صنيعه هذا سامحه الايمبراطور فيما ارتكبه قبلا وعاهده على ان يبقى له الاراضى التى تغلب عليها مدة الحرب

٤ من شهر تشرين الثانى

مطلب
همة الدوق دوكيز والمحافظين فى المدافعة

ومع ما حل بالامير دوق دوكيز من الغم والحزن لما بلغه من خبر أخيه الدوق دومال لم تفتر له همة ولم يغفل طرفة عين عن تجهيز ما به يقوى على مقاومة الاعداء وكان قد أتعبهم بكره وفره عليهم من حين الى حين مع ضباطه وكانوا فى شغف بكسب الشهرة يتنافسون فى نيل الفخر حتى كان يعسر عليه منعهم اذا آلت شجاعتهم الى التهور بل واضطر المرار العديدة الى غلق ابواب المدينة واخفاء مفاتيحها حتى يمنع الامراء الذين هم من العائلة الملوكية وغيرهم من اعيان البكزادات عن الهجوم على الاعداء هذا وكان عساكر الايمبراطور ايضا يهجمون على المدينة من عدة جهات فى آن واحد غير أن فن المحاصرات لم يكن وصل فى ذلك العصر الى درجة الكمال التى وصل اليها فى اواخر القرن السادس عشر بحرب مملكة البلاد الواطية فبعد اشتغال بذلوا فيها الهمة عدة اسابيع رأوا انهم لا يمكنهم الظفر بشئ ما من المدينة والثلوم التى تحدثها مدافعهم نهارا فى الاسوار كان المحافظون يصلحونها ليلا او يجددون عوضا عنها فيزيد ذلك فى يأس الجنود الايمبراطورية وغضب الايمبراطور حين وصله الخبر بذلك وكان بمدينة تيونويل الى ذلك الوقت لا يتمكن من الخروج لاشتداد داء النقرس عليه فخرج من هذه المدينة مع مرضه وحمل فى تختروان

٢٦ تشرين الثانى

سنة ١٥٥٢

ويلحق معسكره لكي يقوي عزمهم بحضوره معهم والواقع انه بوصوله اليهم ازدادوا قوة وعزما وشددوا في المحاصرة كل التشديد

مطلب
الحالة الشنيعة التي كان عليها جيش الايمبراطور

وكان حينئذ وقت شدة فصل الشتاء فكنت ترى معسكر الايمبراطور تارة غريقا في ماء الامطار وتارة مستورا مغمورا بالثلج وقلت به الذخيرة والزاد وقل الوارد اليه وكانت طائفة من فرسان الفرنساوية تطوف حوله وتمنع عنه الذخيرة الواردة اليه او تعوقها عنه وانتشرت الامراض بين العساكر لاسيما العساكر الايطالية والاسبانيولية فقد صاروا فريسة المرضى حيث لم يكونوا متعودين على قطر مشؤم مثل هذا فمات منهم مقدار عظيم وعجز كثير منهم عن الخدمة ومع ذلك قصد الايمبراطور ان يهجم على المدينة مرة واحدة ليأخذها عنوة لما رآه من اتساع ثلوم الاسوار فلم يوافقه على ذلك أحسن ضباطه وعرضوا ان مثل هذا الفعل فيه مخاطرة كبيرة فهو مغاير لما يلزم من الاحتياط والتبصر في العواقب لاسيما والجنود كلهم ضعفاء لاقوة بهم بخلاف المحافظين فانهم مع كثرتهم وقوتهم فضل رئيسهم شهير في الشجاعة وحسن التدبير ولكن اغلظ عليهم الايمبراطور وابى الا فعل ما صمم عليه واما الدوق دوكيز فانه حين ادرك قصد أعدائه بما شاهده في معسكرهم من الحركة الغير المعتاده لهم نظم جنوده واستعد لملاقاتهم وظهر بهم على الاسوار والثلوم وهم في غاية التثبت وحسن النظام حتى ان الجنود الايمبراطورية عوضا عن ان تهجم لدى الاشارة المعهودة فيما بينهم لامر الهجوم تراهم لم يتحركوا وبقوا باهتين فاترين لا يسمع لهم صوت كأنما خرست ألسنتهم فلاحظ الايمبراطور فتور همة جيشه ورجع حنقا الى سرادقه وصار يسخط على العساكر لغدرهم به ومخالفتهم لامره فليسوا اجديرين بان يطلق عليهم لفظ رجال

مطلب
عدول الايمبراطور عن طريقة الهجوم التي كان صمم عليها الى اخرى

ومع ما لحق الايمبراطور من الغم والخزي لما حصل من العساكر لم يعدل عن المحاصرة وانما رأى من اللازم الضروري ان يغير طريقة الهجوم فامر بابطال نار المدافع عازما على هدم الاسوار بواسطة اللغم لان هذه الطريقة وان كانت ابطأ الا انها امكن واكثر فائدة ولكن لدوام نزول المطر والثلج اذ ذاك قاسى من

سنة ١٥٥٢

كاف بهذا الامر من جنود الايمبراطور مالا مزيد عليه من التعب والنصب وكان الدوق دوكيز يفسد عملهم و يبطل مايصنعونه من الالغام فاحس الايمبراطور ان من المستحيل استمرار الحرب والحصار حيث هو يقاتل عدوين فى آن واحد شدائد الشتاء وكتائب الاعداء ولا يمكنه ان يظهر عليهما لا بالقوة ولا بالتحيل والخداع خصوصا وكانت الامراض الوبائية قد حطت بعسكره وصار يهلك منهم كل يوم عدد كبير من الضباط والعساكر فاضطر الى قبول قول جنرالاته وكانوا يلحون عليه كل الالحاح فى رفع الحصار حتى ينجي مابقى من جيشه فقال الدنيا كالنساء تواصل الشباب وتقاطع من شاب

مطلب اضطراره الى دفع الحصار فى السادس والعشرين من شهر كانون الاول

وامر حالا برفع الحصار وكان بدؤه منذ ستة وخمسين يوما والاشغال لا تنقطع وفقد فى تلك المدة ثلاثين الف رجل مابين هالك بالمرض وقتيل بطعن العدو وقد ادرك الدوق دوكيز قصد جنود الايمبراطور فاستعد حالا لان يتبعهم عند التجائهم وعين عدة جماعات من الفرسان والمشاة لتقفى جيش الاعداء من ساقته واسر من تعقب منهم وكان جيش الايمبراطور عند مسيره فى ارتباك واختلال بحيث يمكن الهجوم عليه بدون مخاطرة وقتل كثير من رجالهم

مطلب تدمير جيش الايمبراطور ومروة الفرنساوية

غير أن الفرنساوية عند خروجهم من المدينة للطم الاعداء والكر عليهم رثوا لحالهم وتغير جنونهم بشفقة وذلك انهم رأوا معسكر الايمبراطور مشحونا بالمرضى والجرحى والقتلى ومن يحضرهم الموت ورأوا الطرق مملوءة بمساكين اجتهدوا فى الفرار ولم يمكنهم ذلك لضعفهم فوقعوا وكانوا فى نزع من شدة العطش والجوع ففعل الفرنساوية فى حقهم شعائر المروءة والانسانية ولقوا منهم مالا يؤملونه من احبابهم وارسل الدوق دوكيز الزاد بالمزيد الى من كانوا يموتون جوعا وامر الجراحين ان يعتنوا بالمرضى والجرحى وارسل بعضهم الى القرى التى حول مترة ومن لا يمكن ارساله الى تلك القرى لشدة مرضه وضع فى مارستانات المدينة المعدة لعساكر الفرنساوية وكل من شفى منهم يرسله الى وطنه مع خفر من عنده ويعطيه مايلزم لمصروفه مدة الطريق وهذه المروءة نادرة

فى مثل

سنة ١٥٥٢

فى مثل ذلك العصر اذ كانت الحروب فى غاية من القسوة كأن الفريقين وحوش تحاول افتراس بعضها فترتب عليها ازدياد بهجة الدوق دوكيز وشهرته التى استوجبها بمدافعته عن مدينة متزة حتى ان نفس الاعداء كانوا يبالغون فى وصفه بالحلم والمروءة عند ابناء وطنهم

مطلب
سوء حال مصالح الايمبراطورية فى ايطاليا

وكانت هذه السنة اشنع واشأم سنوات حكومة الايمبراطور اذ حصل له خسارة اخرى عظيمة فى بلاد ايطاليا ونزل به من البلاء ما لامزيد عليه وذلك انه مدة اقامته فى ويلاخ طلب من الامير كوم دوميديسيس مائتى الف ايكو (نوع من النقود) على سبيل القرض وكان حينئذ غير معتمد فلم ينل هذا المبلغ من الامير المذكور الا بعد أن دفع اليه ولاية پيومبينو على سبيل الرهن ولم يكن للايمبراطور سوى هذه الولاية فى توسكانة فلما استلمها الامير كوم المذكور صار بها مستقلا لا ولاء للايمبراطور عليه فانظر ما يلحق نفسا مثل نفس الايمبراطور من اضطراره الى رهن ارضه على مبلغ يسير احتاج الى قرضه وقد ضاعت منه ايضا حينئذ مدينة سينة لسوء ادارة نائبه الامير ريغ دوماندوزه

مطلب
قيام مدينة سينة

وسبب ضياع هذه المدينة هو أنها منذ مدة مستطيلة كانت كأغلب مدائن ايطاليا الكبيرة جمهورية مستولية امور نفسها تحت حماية الايمبراطورية غير أنه ادى وقوع الفشل والشقاق بين الاهالى وبين الاشراف كما كان ذلك عاما بسائر البلدان الحرة من ايطاليا غلب حزب الاهالى على الاشراف ورتبوا فى مدينتهم اصولا جديدة لادارتها والتمسوا من الايمبراطور ان يكون ملاحظا ومحافظا على اجراء ما رتبوه من القوانين فارسل اليهم طائفة من العساكر الاسپانيولية ليكونوا حفظة على اجراء القوانين وابقاء الامن والاطمئنان بين الاهالى وجعل رئيس هذه العساكر الامير ماندوزة وكان اذ ذاك ايلچى الايمبراطور فى رومة فحصل هذا الامير على الاهالى وهم امنة فى سائر البقاع حتى افهمهم ان تجديد قلعة بمدينة سينة يعين على حفظها ويجعلها فى امن من بأس الاشراف وكان يؤمل انه بهذه القلعة يسهل عليه ان يدخل

سنة ١٥٥٢

المدينة فى حكم الايمپراطور فجعل بناءها وبذل فيه غاية الهمة لكنه قبل تمام القلعة اظهر ما كان من قصده وصار يعامل الاهالى على مقتضى القسوة والغلظة التى كانت من جبلته والجبر الذى كان من طبعه وكانت ماهيات المحافظين من العساكر لا تصرف لهم كعادة الايمپراطور غالبا فى عدم صرف ماهيات عساكره فكانوا يتعيشون من اموال الاهالى مع ما يرتكبونه من التعدى والفعال المنكرة

مطلب استعانة اهالى سينه بمملكة فرانسا

ولهذه الاسباب تفتحت عيون اهل المدينة ورأوا ان من الضرورى اللازم لهم ان يسعوا قبل تمام القلعة فى وقاية انفسهم مما كان ماندوزة مصمما عليه من الاضرار بحريتهم فعرضوا على الچى الفرنساوية الموجود اذ ذاك بمدينة رومة يطلبون الاعانة من مملكة فرانسا فسمع قولهم ووعدهم بالاعانة * واخذوا من جهتهم يتأهبون لطرد أعدائهم وقد انساهم الخطر الذى كانوا عرضة له بغضهم للاشراف ونسى الاشراف ايضا ما كان عندهم من الضغن للاهالى وبعث الاهالى الى الاشراف الذين كانوا مطرودين رسلا يدعونهم الى وطنهم لينقذوه مما يخشى الوقوع فيه من رق وأسر وجمعوا امرهم معا فى اقرب وقت واظهروا مزيد العزم فى تنفيذ ما دبروه وبادر الاهالى الى السلاح ودخل الاشراف المطرودون بأحزابهم من سائر جهات المدينة مع ما جمعوه من العساكر واتت اليهم طائفة من المستأجرين على طرف دولة فرانسا لتعينهم وهجم الجميع بغتة على العساكر الاسپانيوليين وكانوا اقل عددا ومع ذلك دافعوا عن انفسهم مع مزيد القوة والشجاعة لكنهم يئسوا من ان ترسل اليهم اعانة من طرف الايمپراطور ورأوا انهم لا اقتدار لهم على استمرار الحرب وهم بقلعة لم تتم بناء واستحكاما فرجحوا تركها وبمجرد خروجهم منها هدمها الاهالى وجعلوا عاليها سافلها حتى لا يبقى منها شئ يذكرهم باسترقاقهم واسرهم وانفصمت من وقتئذ اسباب المحبة بين اهل سينة والايمپراطور وبعثوا من طرفهم رسلا الى ملك فرانسا يشكرونه على ان كان السبب فى نجاتهم وحفظ حريتهم ويرجون منه ان يبقيها لهم على الدوام بابقائهم على العهد آمنين

بحت

سنة ١٥٥٢

مطلب
نزول جيش الاسلام بمملكة نابلي

تحت ظلاله
وحصل عقب هذه الحوادث مع ما ترتب عليها للامبراطور من الغم والقلق حادثة اشأم منها وهي ان تجبر الامير دون بدر الذى كان نائبا عنه بمملكة نابلي اغضب اهالى تلك المملكة ونفرهم من حكم الامبراطور وكان كبير عصبة من والاهم الضجر هو امير سالرنة فالتجأ الى مملكة فرانسا وكان كل من يبغض الامبراطور ووزراءه يتلقونه بتلك المملكة برحيب صدر ويعطونه ما يلزم له من الامداد فتكلم سالرنة في ديوان فرانسا بما يحكي به امثاله اذا التجؤا الى جهة من المبالغة في قوتهم وكثرة احزابهم حتى يستميلوا الى انفسهم من التجؤا اليه فافهم ان احزابه كبيرة وانصاره كثيرة وان له موقعا عظيما عند الاهالى بحيث يمكنه ان يجعل مملكة نابلي في قبضة الفرنساوية واذا دخل جيشهم بها ينضم اليه عدد كثير من الاهالى ويعضدونه حق التعضيد فرأى الملك هنري في ذلك فرصة تعينه على اذلال الامبراطور لكنه لم يكتف بما وعد به الامير سالرنة بل اراد ان يستمسك بجهات اخرى حتى يتيقن النجاح وتكون عاقبة مشروعه سليمة وكان اقتدآء بوالده فرنسيس لم يزل على عهد المودة مع السلطان سليمان ويرى انه اذا ضاق به الامر لا يجد اشد من هذا السلطان بأسا ولا اقوى منه شوكة حتى يستعين به على الامبراطور فوجه اليه آماله والتمس منه ان يجهز دونمًا عظيمة ويبعثها الى البحر المحيط الابيض لتعينه على الامبراطور وكان السلطان في غيظ من عائلة الاوستريا لما ارتكبه الملك فرديننند بيلاد المجار فاجابه في قوله وجهز مائة وخمسين سفينة وبعث بها الى مملكة نابلي لاعانة الفرنساوية في الوقت الموعود وكان رئيس هذه الدونمًا هو الماهر طورغود تربية الشهير خير الدين باشا المشهور عند الافرنج باسم بربروس اى ذى اللحية الصفراء ولم يكن دون استاذه في المعارف والشجاعة بل ولا في السعد وفور الحظ فسافر بالدونمًا حتى ظهر على سواحل كلبرة في اليوم المتفق عليه وزحف على ارض الاعداء مرارا وحرق ونهب كثيرا من القرى والضياع ثم رسا بسفنه في جون نابلي وقد امتلأت منه

سنة ١٥٥٣

اقلوب فى المدينة رعبا وخوفا غير أن دونمنا الفرنساوية لسبب لم يبينه مؤرخوا العصر لم تلحق دونمنا الاسلام فى اليوم الموعود وانتظرها طورغود عشرين يوما كاملة ولم يرد اليه منها خبر فرجع بسفنه ثانيا الى القسطنطينية ونجى حاكم نابلى من عدو قوى لم يكن له اقتدار على دفعه لو هجم عليه

مطلب
غم الايمبراطور وضجره من سوء حظه

وكادت مملكة فرانسا تطير فرحا بظفرها فى الحرب حيث لم يسبق لها ان ظهرت على الايمبراطور بهذه المثابة واما الايمبراطور فلما كان متعودا على الظفر باعدائه فى كل وقت حصل له غاية الالم من خذلانه فى تلك الواقعة وتوجه من مدينة مترة الى مملكة البلاد الواطية وهو فى غاية الهم والغم ولمعاناة الدهر له فى كبرسنه وتألمه من داء النقرس وكان اضعف قواه واضاع حوله صار كالمختل معتكفا فى سائر اوقاته لا يتمكن احد ان يدنو منه وكان غالبا لا طاقة له على ممارسة امور الدولة ومصالحها واذا افاق حينا فى خلال ذلك لا يتكلم الا بما يثبت تصميمه على الانتقام من مملكة فرانسا واذلالها حتى يمحو ما لحقه من العار بظهور تلك المملكة عليه فمنذ ان افسدت عليه مشارطة پاسو آماله وما كان مصمما عليه اولا فى حق الايمبراطورية الالمانية حلت مملكة فرانسا اول منزلة فى ذهنه وصار الانتقام منها مطمح نظره بخلاف مصالح ألمانيا فلم تكن بالأهم عنده حيث كان يئس من امكان اجراء مقاصده فى شأنها واما الامير

مطلب
التعدى الحاصل من الامير البير

البير دو براندبورغ فكان لم يزل طمعه يجر به الى اقتحام الاهوال حتى ارتكب فى تلك السنة ببلاد ألمانيا ما اوجب تعكيرها وعدم راحتها وكان قد قاد رجالا كثيرين من عساكره بمحاصرة مترة الا ان الايمبراطور دفع اليه ما كان فى ذمته له من المبالغ اما جزاء له حقيقة على خدمته فى المحاصرة او ليجعله ذا اقتدار على مقاومة امراء الايمبراطورية حتى لا ينقطع الشقاق من بينهم فبتلك المبالغ امكن للامير البير ان يجمع من العساكر التى سرحها الايمبراطور جيشا قدر جيشه الاول وكان كل من اسقف بامبرغ واسقف ورسبورغ قد رفعا شكواهما الى ديوان الايمبراطورية يتظلمان من تعدى البير عليهما وطلبا ان يصدر عن هذا الديوان امر بالغاء الشروط التى

الزمهما

سنة ١٥٥٢

ألزمهما بها البير المذكور وقبلاها كرها فابطلهما الديوان المتقدم ذكره وصدرت عنه الاوامر بانهما غير مكلفين بالعمل بمقتضى ما اقراه كرها والزاما وكلف الامير البير ان لا يتعرض لهما واحتوت هذه الاوامر ايضا على تحريض امراء ألمانيا وحثهم على قتال البير ان لم يعدل عن دعواه فتعلل البير بان ما اخذه من هذين الاسقفين قد اثبته له الامبراطور فى نظير انضمامه الى حزبه بمحاصرة متز ولم يقتصر على ذلك بل وجه العساكر لقصد التغلب على الاراضى التى كانت موضوع التنازع لكي يرهب بجسارته اخصامه فعرضت عليه عدة شروط لائقة مستحسنة لمنع اضرام نيران الحرب ببلاد ألمانيا فلم يقبلها لانه كان حديد الطبع ذا حمية لا يبالى بالاخطار ويجزم بالنجاح فى كل مشروعاته

مطلب الحكم عليه من الديوان الايمپراطورى

وبناء على امتناع البير صدرت من الديوان الايمپراطورى الاوامر المحتوية على ما تقدم وامر الامير منتخب السكس وعدة امراء آخرين بتنفيذ تلك الاوامر بطريق القهر والغلبة وتكفل موريس وبقية المتعاهدين بتنفيذ اوامر المجلس الايمپراطورى حيث كانت افعال البير موجبة لخلل الايمپراطورية وعدم راحة اهلها ورأوا من الضرورى اللازم منع تعدى البير وما كان يحمله طمعه على ارتكابه من الفعال المنكرة الشنيعة وقد وهم بعض الناس اذ ذاك ان الامبراطور كان يحرض البير ويحثه على ارتكاب تلك المظالم الفاحشة بل وكان يمده خفية بما يلزم له وكان قصده بذلك ان يتقوى البير حتى يرجح موريس فى الشوكة ونفوذ الكلمة فى الايمپراطورية فيعين الامبراطور اذا اراد تنكيت موريس ونكاله

٣ ابريل

مطلب جعل موريس رئيسا على العصبة المعدة لقمع البير

وتحزب الاقوياء من امراء ألمانيا على البير وكان موريس صر عسكر جنودهم ومع ذلك لم يفزع البير ولم تفتر له همة غير انه كان يرى انه لا يمكنه مقاومة اهل العصبة معا فى آن واحد فاراد ان يفجأهم واحدا بعد واحد قبل انضمامهم الى بعضهم وسار للقاء موريس حيث كان يخشاه اكثر من اعدائه ومن حظ المتعاهدين انهم فوضوا امر هذا المهم للامير موريس

وكان ذا نشاط وحذق لجمع امره فى اقرب وقت واستعد للقاء خصمه واقتدى به المتعاهدون فدبروا امرهم مع سرعة غريبة قل ان تيسرت لامثالهم من اولى العصب والتحزبات وبذلك صار للامير موريس اقتدار على اصطدام البير وكان الى وقتئذ لم يظفر بعظيم شئ وان كان قد بادر وبدأ بالاغارة

سنة ١٥٥٣

والتقى الجمعان فى سيورهوزان بدوقية لونبورغ وكانت جنود كل منهما نحو الاربعة والعشرين ألفا ولبغضاء كل من الرئيسين للآخر لم يثبتا قليلا الا واشتعلت نيران الحرب بين الفريقين

مطلب هجوم موريس على البير

وكان كل جيش فى جزع عظيم لقلق رئيسه فقدم كل منهما الى النزال بقلب ثابت واشتد القتال بينهم وصار كل رئيس يدبر أمر قومه ولا يضيع فرصة يعلو بها هام عدوه حتى مكثت الحرب زمنا طويلا وكل منهما طورا غالب وطورا مغلوب وتارة طارد وتارة مطرود الى أن بان النصر للامير موريس وكانت فرسانه اكثر عددا من فرسان عدوه وانهزمت جنود البير وقد قتل منهم اربعة آلاف رجل وقبض الغالب على معسكره ومهماته ومدافعه ولكن لم تكن تلك النصرة على موريس بثمن بخس بل فقد من اجود عساكره عددا كبيرا وهلك ولدان للامير دوق دوبرونسويك واميرمن دوقات لونبورغ وجملة من الاعيان والاكابر وعظمت المصيبة بقتل الامير موريس وصورة ذلك هوان هذا الامير قد رد جماعة من الفرسان انثنت وتأخرت عن القتال وحمل بهم ثانيا على الاعداء فاصيب برصاصة فى بطنه ومات بها بعد الواقعة بيومين وكان لم يبلغ من العمر سوى ثنتين وثلاثين سنة ولم يتمتع بمنصب المنتخب الاست سنوات

فى ٩ يولية

مطلب انهزام جيش البير

مطلب قتل موريس فى الحرب

وبعد موريس ولاشك اعظم من اشتهروا فى هذا العصر بوصف الشجاعة واقتحام الاهوال وهو عصر كانت الوقائع العظيمة والحوادث الجسيمة تحصل فيه بغتة فتنبه عقول الناس وتفتح لهم سبلا يسلكونها فى علو قدرهم وتحسنها لهم آمالهم ومقتضيات الاحوال اذ ذاك فان كان شديد طمعه وخداعه واجحافه

مناقب موريس

سنة ١٥٥٣

بقريبه وتغلبه على منصبه ودولته لا يجعل له حظا فيما يليق من المدح لاهل الفضائل والبر بالاقارب فحزمه فى جمع امره وعزمه فى اجراء ماصمم عليه وحظه الذى كان ملازماله فى سائر مشروعاته يجعله بمكانة بين اكابر الامراء سيما وكان فى سن تمنع المرء شهواته النفسية ان يحترس فى اموره ويكون على حذر من العواقب بل وفى هذا السن اعظم القرائح لا يتجاوز حد ادراك امر مهم بخصوصه يتجزم مع السرعة والثبات واما موريس فقد دبر امورا جسيمة مهمة وسلك فيها طرقا خفيت على الايمبراطور وكان احذق ملوك الافرنج اذ ذاك واعظمهم فراسة وانورهم بصيرة هذا ولا يخفى ان الايمبراطور كان قد عظم سلطانه وتمكنت صولته حتى كاد أن يكون مطلق التصرف فى الحكم وفى اثناء ذلك قام عليه موريس فانظر الى تلك الجراءة مع تيقنه بانه لا نسبة ثم بين شوكته وصولة الايمبراطور وانظر كيف حزم رأيه حتى قمع الايمبراطور وكفه العدول عن التعدى وارتكاب المظالم ورتب الحرية فيما يخص الديانة بل ورتب الحرية المدنية ببلاد ألمانيا وجعل كلا من الحرية الدينية والحرية المدنية على اساس متين لم يعتره خلل الى الآن نعم ان طريقه الذى سلكه قد اوجب له بغض كل من المعتزلة والقاثوليقيين حينا من الدهر الا انه عرف بحذقه ان يواسى الفريقين معا حتى فاق فى الصولة ونفوذ الكلمة بينهم سائر امراء عصره ونعاه اهل ألمانيا كافة وحزنوا لفقده وقد عهدوا فيه انه حامى حمى وطنه وحافظ قوانينه وشرائعه من الزوال والاضمحلال

مطلب
استمرار البير على الحرب

ويموت موريس تمكن الحزن من قلوب جنوده فمنعهم ذلك عن اجتناء ثمرة النصر واما البير فكان لجراءته وفرط سخائه قد صار بمكانة من قلوب جنوده وكانوا من الرعاع والاوباش لا يعتبرون غير ما اووا من الفوائد ولا يفكرون فى فعال البير ان كانت من باب الانصاف او الاجحاف فامكنه ان يجمع عساكره بعد شتاتها وصار فى اقرب وقت صاحب جيش مشتمل على خمسة عشر

١٢ شهر ايلول

الف رجل واستمر الحرب وقد تجاوز حد ما كان يرتكبه اولا من منكر الفعال وفاحش الاعمال وكان الامير هنرى دوبرونسويك قد قلد الرياسة على

سنة ١٥٥٣

جنود المتعاهدين بعد موت موريس فحمل على البير بقوة وهزمه في واقعة اخرى لم تكن دون الاولى في الفناء وسفك الدماء ومع ذلك لم تفتر همة البير ولم تتركه شجاعته بل بذل جهده حتى جمع امره ودبر مصالحه واستعد بالثاني للقاء الاعداء غير أنه لما يقن نفيه بموجب اوامر المجلس الايمپراطوري وتجريده عن املاكه التي ورثها عن آبائه والاراضي التي تغلب عليها وتخلى عنه اغلب ضباط جنوده وعاين كثرة اعدائه اضطر الى الخروج من ألمانيا فارتحل منها الى مملكة فرانسا ليلتجئ بها فانظر الى ما آل اليه وقد مكث زمنا طويلا وهو يرهق بلاد ألمانيا ويفزعها ولبث بمملكة فرانسا بعض سنوات وهو في المسكنة والفاقة وكان بالطبع ذا أنفة وتكبر فلم يتحمل ضيق عيشه وقضى تلك المدة وافكاره تقلبه على الجمر ولم يزل ينسل بها ويضجر حتى قضى عليه وكان الامراء المتعاهدون قد وضعوا ايديهم على املاكه واراضيه الوراثية فبعد موته انتقلت بامر الايمپراطور الى ورثته من حواشي عائلة برنديورغ حيث لم يكن له ذرية ترثها من بعده

مطلب
اضطرار البير الى الخروج من بلاد المانيا

موت البير

١٢ شهر حزيران سنة ١٥٥٧

ولم تستقر حال الايمپراطورية الالمانية بخروج البير منها الا وحصلت مشاحنة كبيرة في شأن ميراث منصب الامير موريس وبلاده وذلك انه لم يكن له غير بنت وأخ وكانت بنته متزوجة بالامير غليوم امير اورنجة وكان لهما ابن ورث عن جده موريس المعارف كما ورثه في الاسم فكان يمكنه ان يبارز لطلب حقوقه ومن جهة اخرى كان الامير حنا فريدريق المنتخب سابقا يطلب ان يرد اليه منصبه وما ورثه عن آبائه وجرد عنه بعد حرب عصبة سمالكالد واما اوغسطوس اخ موريس فكان يطلب ما ورثه اخوه عن عائلته ومنصب المنتخب وان كان قد حازه بمحض التغلب وكان اوغسطوس هذا مع غزارة معارفه له بشاشة وطلاقة واطوار مألوفة في معاملة الناس تستميل اليه القلوب فاخذ بذلك عقول اهل السكس حتى نسوا فضائل اميرهم الاول اعني حنا فريدريق ونسوا انكباته التي اوجبت لهم ان يرثوا اليه قبل ذلك وجنحوا الى حزب اوغسطوس المذكور واختاروا مبايعته وكان متزوجا ببنت

مطلب
خلف اوغسطوس اخاه موريس في منصب المنتخب

سنة ١٥٥٣

ملك دانيمارقة وكان ملك الرومانيين يميل اليه لبقائه على معزة اخيه موريس الهالك فاعانه كل من هذين الملكين حتى الاعانة وعضد ادعواه وكان الايمبراطور سرا من حزب الامير حنا فريدريق وان كان عدواله قبل الآن ومع ذلك اضطر هذا الامير الى ترك حقوقه للامير اوغسطوس ولم يعط له فى نظير تنازله عن حقوقه سوى شئ يسير من الاراضى اضيف الى ما كان فى ملكه انما اشترط ان يكون منصب المنتخب لعائلته من بعد اوغسطوس ان لم يوجد ثم ذكور من فرع الامير البير ومع شقوة فريدريق وسوء حظه لم يعدل عن شرف النفس وعلو الهمة ومات فى السنة التى اعقبت هذه بعد اقراره تلك المشارطة بمدة قليلة ولم تزل الى الآن ذرية اوغسطوس تتمتع بمنصب المنتخب ببلاد السكس

مطلب
حرب الايمبراطور بمملكة البلاد الواطية

وفى اثناء وقوع هذه الحوادث ببلاد ألمانيا كانت الحرب فى شدتها بمملكة البلاد الواطية وذلك ان الايمبراطور كان فى جزعه يود ان يطهر من الدنس والرجس الذى لحقه بمحاصرة متزة فجهز جيشا وتوجه به الى مملكة فرانسا وحاصر مدينة تروانة وكانت قلاعها وحصونها فى اسوء حال ولم تلتفت الفرنساوية الى تحصينها مع انها كانت ذمام مملكتهم حتى ان الملك فرنسيس الاول كان يقول انها وسادة يمكن لمن كان ملكا على فرانسا ان ينام عليها آمنا مطمئنا فاغترارا من الملك هنرى بنجاحه اولا بمتزة بعد المتزة لم يلتفت الى تحصين هذه المدينة وانما ضم الى محافظيها مقدارا من شبان البكزادات الفرنساوية ظنا منه ان ذلك يكفى فى دفع اعدائه وخيبة سعيهم وكان حكمدارها الامير ديسة احد الضباط الذين شابوا فى العسكرية فلما اشتد ضيق عساكر الايمبراطور على المدينة وشددوا فى حصارها وبذلوا الجهد فى تسخيرها حتى اخذوها عنوة وخشى الايمبراطور من وقوعها بالثانى فى ايدى الفرنساوية فامر بهدم قلاعها واستحكاماتها بل وهدم منها البيوت ووزع اهاليها على المدائن القريبة منها وقويت قلوب الجنود الايمبراطورية بذلك فتوجهت الى مدينة هسدين وحاصرتها واخذتها عنوة مع مدافعتها عن نفسها حتى

٢١ شهر حزيران

سنة ١٥٥٣

المدافعة ومن نجى من القتل من محافظيها اخذ اسيرا وكان ايمنويل فيليبيردو سابوة امير بيمون قد قلده الايمبراطور الرياسة فى محاصرة هذه المدينة فكانت مظهر معارفه الحربية التى عدّ بها بعد ذلك بقليل من اعظم جنرالات عصره واستولى على بلاد ابيه التى كان تغلب عليها الملك فرنسيس الاول الذى حوربه ببلاد ايطاليا

مطلب
تحير ملك فرانسا من ظفر الجنود الايمبراطورية

ولم يكن فقد هاتين المدينتين بيسير على مملكة فرانسا وقد فقدت معهما مقدارا كبيرا من رجالها المتمايزين فى فن الحرب ما بين قتيل واسير وشق ذلك على الملك هنرى واثر فيه جدا تفوق الايمبراطور وعلوه عليه مع الظن وقتئذ بان شوكته قد تلاشت وضعفت منذ انهزامه بمحاصرة مدينة متزة بحيث لا سبيل الى عودتها الى التمكن وندم الملك المذكور على تراخيه وعدم مبادرته بمجاوزة الايمبراطور من قبل ان يعلوا عليه فجمع على العجلة جيشا كبيرا وتوجه به الى مملكة البلاد الواطية

والذى قدومه بهذا الجيش الجرار خرج الايمبراطور من مدينة بروكسيله وكان مقيما بها منذ سبعة اشهر محجوبا عن العالم حتى لغط الناس بموته فى عدة من اقطار اوروبا وكان قد ضعف وتلاشت قوته بمرض النقرس حتى كان لا يستطيع حركة التخترو ان ومع ذلك سافر بسرعة ولحق جيشه وتأهب للقاء عدوه وصار هذان الخصمان مطمح نظر اهل العصر غير ان الايمبراطور كان ذا احتياط وتبصر فلم يخاطر بنفسه فى مثل هذا الحرب ولم يبادر بفحصها وكذلك الفرنساوية منعتهم كثرة الامطار ان يهموا فى حصار مدينة او قلعة ما ورجعوا على اعقابهم ولم يفعلوا شيأ جديرا بتجهيزاتهم العظيمة

مطلب
عدم نجاح الجنود الايمبراطورية ببلاد ايطاليا

واما جنود الايمبراطور التى كانت ببلاد ايطاليا فلم تنجح مساعيها وذلك أن الايمبراطور لنفاد خزائنه كان لا يمكنه ان يسوق جنودا كثيرة الى جهتين فى آن واحد فكان كلما زاد عزمه بمملكة البلاد الواطية تلاشت قوته ببلاد ايطاليا وكان نائب الايمبراطور بمملكة نابلى قد اتفق مع الامير كوم دوميديسيس ان يتغلبا على مدينة سينة وكانت الجنود الفرنساوية قد دخلت بها فقزع

لذلك كوم المذكور ووافق نائب الامبراطور على تسخير هذه المدينة غير ان الجنود الامبراطورية الذى قرب دونما الدولة العثمانية من سواحل نابلى عدلوا عن هذا المشروع وتوجهوا الى نابلى للمدافعة عنها وبذلك سهل على الفرنساوية ان يتمكنوا فى توسكانة بل وباعانة الاتراك لهم استولوا على جزء عظيم من جزيرة قورسقة وكانت حينئذ فى حكم اهل جنويزة

سنة ١٥٥٣

ولم تنجح جنود الامبراطور ايضا ببلاد المجار وذلك ان عساكر الملك فرديننند ببلاد الاردل كانت لا تدفع لهم ماهياتهم على الوجه اللائق فكانوا يعيشون بغصب اموال الناس حتى ضجرت الاهالى من سوء فعالهم وظلمهم ونفرت من حكومة فرديننند حيث هى لا تحميهم من المظالم وانضم الى ذلك انهم كانوا يودون ظهور فرصة بها ينتقمون لقتل الاسقف مارتينوزى الذى تقدم ذكره وكان كل من الاشراف وآحاد الاهالى قد سئموا من تلك الفعال المسيئة واستحسنوا القيام والعصيان وفى اثناء ذلك ظهرت الاميرة ايزابيلة ملكتهم سابقا ببلاد الاردل ومعها ابنها القاصر وكانت طماعة حريصة فندمت على تفريطها فى تاجها سنة ١٥٥١ ولم تستطع ان تعيش كآحاد الناس بعيدة عن الملوكية وزينتها فخرجت من العزلة التى كانت بها وتوجهت الى الاردل مؤملة ان اهل المجار لغضبهم من الحكومة الجديدة يساعدونها على اثبات حقوق ابنها فى الملوكية وبمجرد وصولها انضم الى حزبها جماعة من الاشراف الممتازين وانضم الى حزبها ايضا الباشا والى بلغراد بامر السلطان سليمان واخذ يعينها على فرديننند واما العساكر الايطالية والاسبانيولية فلعدم دفع ماهياتهم لهم كما ذكرنا ابوا ان يتقدموا للقاء الاعداء وافادوا انهم مصممون على الرجوع الى ويانة المعروفة باسم بچ فاضطر اميرهم كستلدو الى ترك بلاد الاردل للاميرة ايزابيلة وللاتراك ورجع مع جنوده العاصين خوفا منهم ان ينهبوا الاوستريا عند مرورهم بها

مطلب عدم نجاحهم ببلاد المجار

مطلب اضطرار فرديننند الى ترك بلاد الاردل

وكان الملك فرديننند مشغولا بشأن ألمانيا وما كان حاصلا بها من الفتن

سنة ١٥٥٣

مطلب هم السلطان سليمان وغمه في داخل عائلته

مطلب ما كان من موت ابنه مصطفى

والتعكيرات وكانت خزائنه قد نفدت في حربه الاخير ببلاد المجار فلم يتجاسر ان يهم باخذ الاردل ثانيا من ايدى اعدائه مع ان مقتضيات الاحوال لذ ذاك كانت تعينه على تنفيذ مرامه لان السلطان سليمان وقتئذ غير اشتغاله بالحرب مع الفرس كانت متراكمة عليه احزان منزلية تمنعه التمكن من اعدائه وذلك انه وان فاق بمعارفه الغزيرة سائر من عداه من امراء العائلة العثمانية لم يكن سلم من شديد الشهوات النفسية التى اشتهر بها اهل تلك العشيرة الفاخرة الجليلة فكان هذا السلطان غيورا على دولته سريع الغضب قاهرا فتاكا لا يملك نفسه لدى غيظه كما لا يملك قلبه لدى عشقه فانظر كيف ادى به عشقه وغيرته على دولته * كان له محظية جركسية فائقة الجمال نادرة البهاء فولد منها ولد سمى مصطفى وكان فطنا زكيا نجيبا فاحبه السلطان والده وعينه لان يرث السلطنة من بعده غير ان محظية اخرى موسقوبية تسمى خرّم استمالت قلب السلطان اليها فسلا بها والدة الامير مصطفى وضافاها سنوات عديدة وولد منها بعدة من الذكور وبنت واحدة ولكن لم تكتف خرّم بسلبها عقل ملك كان يتصرف فى نحو نصف الدنيا بل كان يزيد قلقها كلما فكرت فى كون الامير مصطفى سيملك ذات يوم كرسى السلطنة واولادها يصيرون فريسة له على حسب العادة المستهجنة الجارية عند الاتراك من اعدام سوى من هو معد للحكم من اولاد السلطان حتى يصير الخليفة فى امن واطمئنان لا يجد من ينازعه فى الخلافة وبناء على ذلك اعتبرت الامير مصطفى عدو الاولادها وبغضته كما تبغض زوجة الاب ولد ضرتها وسعت فى فقده واتلافه حتى يبقى كرسى السلطنة لاحد بنيها وكانت مع شدة طمعها ودقة عقلها ذات مكر وخداع لا تعجز عن الشروع فى اى مهم ولا تفتر لها همة لدى السعى فى تنجيز اى ملم وكان الصدر الاعظم وقتئذ هو رستم باشا فعن رضاء السلطان زوجته بابنتها وبعد اطلعته على سرها واخبرته بنيتها وكان من الوزراء الماهرين الذين يحسنون الحيل والخداع وبتزوجه بابنة خرّم صارت مصلحته تدعوه الى اعانتها على تتميم غرضها فوعدها بان يساعدها بما فى وسعه على هلاك الامير مصطفى

حتى

سنة ١٥٥٣م

حتى يبقى الخلافة لاخوة زوجته من بعد السلطان سليمان

وبعد تدبير هذه الامور اخذت خرّم تتظاهر بالتقوى والصلاح والتولع بدين الاسلام وكان السلطان صالحا يتقي الله في دينه وبعد عرضت ان تبني مسجدا ومثل هذه العمارة تبلغ مبالغ جسيمة غير أن ذلك يعد عند المسلمين رأس الخيرات الاخروية واستشير المفتي عن هذا القصد فاثنى عليه الثناء الجميل وكان الوزير رستم قد استماله وجعله من معينيه وانصاره فبعد أن مدح هذا الصنع المبارك قال لخرّم انها اذا هي رقها لاتجتني ثمرة هذه الخيرات بل تكون ثمرتها للسلطان اذ هو سيدها ومالك رقبتها واليه مرجع افعالها فحزنت خرّم لذلك وتمرضت واظهرت انها سئمت من الحياة الدنيا وزينتها وكان السلطان قد تقدم مع جنوده في السفر فلما بلغه حزنها ووقف على سببه وفعل ما يفعله العاشق لرضاء من يهواه ويحبه فكتب اليها بيده انها حرة بالعتق فسرت خرّم بذلك اذ هو من العلامات الدالة على نجاحها فيما نوته في حق الامير مصطفى واخذت تبني في المسجد وهي في غاية السرور والفرح وعند رجوع السلطان الى القسطنطينية ارسل احد آغاوات السراية على حسب العادة ليدعو خرّم الى فراشه فاظهرت انه يشق عليها عدم اجابة مولاها لكن لاترضى ان توقعه ونفسها في المعصية حيث هي عتيقة وما كان شرعا بالنظر لها وهي رقيقة صار الان محرما عليها بنص كتاب الله منذ ان صارت حرة بالعتق فحرك هذا التعفف المتصنع شهوة السلطان حتى استفتى في ذلك فاجابه المفتي بان قول خرّم موافق لحكم القرءان الشريف وانما للسلطان وجه وهو أن يعقد نكاحها وتكون حليلته وكان الوزير رستم هو الذى لقن المفتي ذلك وان كان مخالفا لما اوجبته السياسة على آل عثمان منذ حرب السلطان بايزيد الاول مع التتار حيث ان زوجة هذا السلطان فضحها التتار حين كان اسيرا في قبضة تيمورلنك خوفا من الوقوع في مثل هذا العار صار السلاطين من بعد بايزيد لا يفترشون سوى الجوارى المحظيات ومع ذلك فرح السلطان لقول المفتي وعقد على عشيقته خرّم واشهر

نكاحه بها

ولرضاء السلطان بتلك الأمور الحسنة ايقنت خرّم بحبه لها وعرفت مكانتها عنده حتى صارت تؤمل النجاح فيما تطلب ولا تخشى عاقبة لامر ما فاخذت تدبر فى هلاك الامير مصطفى وكانت العادة جارية اذ ذاك عند السلاطين بتقليد ابنائهم حكومة بعض الاقاليم وكان الامير مصطفى حاكما على عدة اقاليم وكان والده قبل ذلك بقليل قد قلده بحكومة ديار بكر بعد أن نزعها من الفرس وضمها الى سلطنته وفى ادارة هذه المصالح على اختلافها كان الامير مصطفى على الحزم لا يميل عن سنن العدالة والانصاف وكان لفتوته وكرم اخلاقه مألوفا عند العساكر والاهالى وكان مع استمالته قلوب الناس كافة على غاية من الاحتراس والتبصر حتى لم يعهد عليه انه اوجب لوالده الوسواس فى اى خصوص كان

وكان من المحال ان يتهم بذنب او بهفوة توجب ضياع اعتباره ومحبته من قلب ابيه غير أن مكر خرّم كان فوق ذلك كله فاستعانت بفضائل الامير مصطفى على فقده وذلك انها اثنت عليه اكثر من مرة بحضور السلطان واطنبت فى نعته بالصفات العلية الشأن ووصفه بالشجاعة والسخاء ومكارم الاخلاق التى صار بها مألوفا عند الناس وبافراط مدحها فيه وتكرار عد صفاته الجميلة وسرد مكارمه الجليلة على الوجه الاليق بقصدها اوجبت وسوسة السلطان من ابنه وان كان يحبه ويحترمه وانتهى به الحال الى ان صار لا يطرا الامير مصطفى على فكره الا ويحدثه قلبه بامور شتى فيغار منه وقد شاهدت خرّم ذلك من السلطان ولم تضع فرصته ففى اختلائها به ذات يوم انتقلت من موضع الى آخر حتى وقع الكلام بالمناسبة على السلطان بايزيد وقيام ابنه الامير سليم عليه ثم تكلمت على شجاعة الجنود الذين كانوا تحت حكم الامير مصطفى واشارت الى ان ديار بكر بالقرب من دول ملك الفرس وهو عدو مبين للسلطان سليمان وبحسن سبك عبارات خرّم تزينت تقولاتها بزى الحق فاشتدت غيرة السلطان من ابنه حتى نزعت من قلبه شفقة الوالد لولده وضاع

حنانه

حنانه له وخلقه شديد البغضاء فجعل بقربه عيونا يرقبونه و يخبرون عن اقواله وافعاله وصار يخشى منه كانه عدوه الاكبر

فلما نجحت خرّم في هذه المساعي ساغ لها ان تسعى في غيرها فطلبت من السلطان ان يأذن لاولادها بالظهور في الديوان السلطاني وكان مقصدها بذلك انه بقربهم من ابيهم في ديوان الحكم يمكنهم باظهارهم الطاعة والامتثال واتباعهم حميد الخصال ان يكونوا بمكانة في قلب ابيهم وان ينسوه ابنه مصطفى وكان السلطان دائما يراعي خاطر خرّم فرضي بذلك وان كان مخالفا لاصول بني عثمان هذا وحصل من الوزير رستم مخادعات ادق من هذه وذلك انه كتب للباشوات حكام الاقاليم المجاورة لديار بكر ان يكاتبوه في شأن ما يحصل من الامير مصطفى في الحكومة وافاد كلا منهما على حدته انه يلذ على السلطان ان يعرف فعال ابنه الجيدة حيث هو معدّ لان يؤيد فخر العشيرة العثمانية بعد أبيه وكان الباشوات يجهلون مقاصد هذا الوزير المشؤومة ففرحوا بما امرهم به اذ عدوه وسيلة بها يستوجبون حب السلطان سليمان وظنوا ان رستم يريد لهم الخير فصاروا يكاتبونه في هذا الشأن و يطنبون براسلاتهم في مدح الامير مصطفى و يصفونه بانه امير جدير بان يخلف والده وله من المعارف والعوارف ما يلزم لاقتداره على اقتفاء أثر ابيه وانه ربما ساواه ذات يوم في الشهرة والفخار وكان كل ذلك مما يضر بالامير مصطفى حيث كانت كل هذه المكاتبات تعرض على السلطان ولا تعرض عليه الا وقت ما يكون ينشأ عنها للامير مصطفى كل مضرة فكان كل مدح قرأه في شأن الامير مصطفى يجرح قلبه بل وظن أن الباشوات الذين كانوا يكاتبون في هذا الشأن يميلون للامير مصطفى ويلذ لهم أن يساعدوه على نزع السلطنة من يدي والده وبناء على ذلك اشتد به الوسواس حتى تخيل ان الامير مصطفى قد جمع امره ولم يبق بينه وبين الهجوم عليه وخلعه من السلطنة شيء فصمم السلطان على منع هذه المصائب قبل وقوعها واثبات تاج السلطنة لنفسه بقتل ابنه

وتعلل السلطان بانه يريد تجديد الحرب مع الفرس وامر وزيره رستم بالمسير

الى ديار بكر مع جيش جرار ليتقذه من والده حيث ان سلامته متوقفة على هلاكه غير أن هذا الوزير كان حازم الرأى ذا احتراس وتبصر فى العواقب فحذرا من ان ينفذ بنفسه ما امر به من اعدام الامير مصطفى حيث انه بذلك يستوجب لنفسه بغض الناس وحقدهم حصل منه انه بمجرد وصوله الى الشام كتب الى السلطان سليمان ان الخطب قد جل وعظم ولا ينفع فيه سوى حضور السلطان فى اقرب وقت وعلل ذلك بقوله ان المعسكر مشحون من جواسيس الامير مصطفى وعيونه وان العساكر ابجمهم من حزبه وتحبه حبا جما وانه كشف سر مداولة حاصلة بين الامير مصطفى وبين حاكم الفرس فى خصوص تزوجه باحدى بنات هذا الملك وبناء على ذلك فنفوذ كلمته فى مثل هذه الحالة لا يجدى نفعا وانه لا اقتدار لاحد على حل هذا المشكل سوى السلطان بنفسه ولا يتمكن انسان آخر من اجراء ماصدر به امره

ولا يخفى ان اتهام الامير مصطفى بالمداولة مع ملك الفرس محض تهمة لا اصل له ومع ذلك تم بها امر ما كان الوزير وخرّم يقصدانه فى اعدامه وكان السلطان سليمان يبغض الفرس كل البغض فانقبض كل الانقباض حين سمع بذلك وسافر حالا الى الشام واسرع فى سيره بقدر ما كان يخاف ضياع ملكه ويودّ الانتقام ممن خانه و بمجرد أن لحق جيشه بقرب حلب وتداول مع الوزير رستم ارسل جاويشا الى ابنه مصطفى يأمره بالمثول بين يديه وكان الامير مصطفى لا يجهل سعى زوجة ابيه ولا خبث الوزير ويعلم شدة بأس السلطان والده غير أنه بمجرد حضور الجاويش اليه اجابه مطيعا امر والده وتوجه اليه مؤملا انه بطاعته وحسن طويته يفهم السلطان حقيقة الامر ويظهر له كذب هؤلاء الواشين ولما وصل الى معسكر والده وادخل به فى ايوان السلطان لم يجد اولا عسكرا متسلحة بجوار السلطان ولا غير ذلك مما يفزعه بل كان مجلس السلطان على حالته المعتادة من الهدء والسكون غير أنه بعد برهة قليلة رأى الحرس فادرك حقيقة الامر وصرخ قائلا واتعساه واتعساه وهمّ بالفرار فوثب عليه الحرس فوقف وقاومهم وقاتلهم والتمس مع التضرع والابتهال ان

يؤذن

سنة ١٥٥٣

يؤذن له بالكلام مع والده وكان كلما ضعفت قواه أثارها الديه يأسه اوامل بأنه ان
اخرج عن الخيمة بغيته عساكره وقاوم الخرس مدة مستطيلة ولم يتمكنوا منه
بشئ فسمع السلطان صريخه والغاغة الناشئة عن مقاومته وكان قد صمم على
اعدامه فخشى ان ينجو منه فرفع الستارة الحاجبة بينه وبين المحل الموجود به
مصطفى واخرج رأسه ونظر بعين الغضب الى الخرس فكأنه يتهمهم بالبطء
والخمول فحين رأى هذه القسوة من والده نزحت قواه وكلت همته فخنقه الخرس
بالحبل فى عنقه واذاقوه كاس الممات ووضع جسمه امام خيمة السلطان فلما رآه
العساكر احتاطوا به وهم فى غاية الفزع والتعجب وعظمت ضجتهم وزاد سخطهم
وألمهم ولو وجدوا لهم قائدا لقاموا على السلطان لهذه الفعال الفاحشة
وظهرت بذلك محبتهم للامير مصطفى ثم لزم كل منهم خيمته ليبكى بهلسر اعلى
فقد هذا الامير وكان محبوبا مألوفا عند الجميع وامتنعوا جميعا عن الزاد والماء
مدة هذا اليوم وفى صباح اليوم الثانى كنت ترى الحزن مخيما على خيام
العسكر فلا من متكلم ولا من متلفظ فخشى السلطان أن يعقب ذلك فتنة كما يعقب
النسمات رياح عاصفة ورأى من اللازم فعل ما به يسكن غيظ العساكر ليسلم من
عواقب هذا الامر فجرد الوزير من أختام المملكة وطرده من الجيش وأعطى
منصبه لضابط مشهور بالشجاعة والجلادة يسمى احمد كان مألوفا عند العساكر
كافة غير ان طرد رستم لم يكن الا حيلة مدبرة متفق عليها بل ان رستم نفسه هو
الذى دبر هذا الامر حيث رأى انه لا يمكن نجاته ولا نجاة السلطان الا بهذه
الطريقة فلما سكن غضب العساكر واخذ اسم مصطفى يمحى من الاذهان
خنق احمد المذكور بامر السلطان واعيد رستم الى منصبه الاول وكانت
خرّم قد امرت هذا الوزير ان يمحق ذرية مصطفى فاطاعة لها لم يزل
يسعى حتى اراحها ممن كان لمصطفى من الذرية ولم يكن له الا ولد واحد ربما كان
يمكنه ذات يوم أن يأخذ بثار ابيه فاودعوا الوسواس فى قلب جده من جهته
وصغى الى قولهم وامر بقتله وكان هذا الولد فى بورسة فارسل اليه احد
اغوات السراية ونفذ ما امر به بقلب عارى عن الشفقة والمروءة ولم يبق لاولاد

سنة ١٥٥٣م

خرتم من يعوقهم عن الصعود الى اوج السلطنة

ومثل هذه الامور الشنيعة لا توجد الا فى تاريخ الممالك الكبيرة من بلاد المشرق بحيث فيها يظهر أن حرارة القطر مهيجة لسائر الشهوات وبها شهوات الملك تفوق كل حد حيث لاحدود لقدرته وهو مطلق التصرف

مطلب
تصميم الايمبراطور شرلكان على زواج ابنه بماريه اميرة انكلترة

وبينما كان السلطان سليمان واقعا فى مشكل هذه الدسائس المنزلية كان الايمبراطور شرلكان يشتغل بمقصد جديد به يكون ارتفاع عائلته وصورة ذلك أن ايدوار السادس ملك انكلترة كان كثير الفضائل حتى كان رعاياه مدة قصره يصبرون على ما يحل بهم من المصائب الناشئة عن الشقاق والتفاقم الحاصل بين وزراء المملكة لطمعهم ويتحملون كل اذى مؤملين ان يحظوا بالراحة فيما بعد تحت حكمه متى صار رشيد نفسه غير أن هذا الامير لم يحكم الا مدة يسيرة بعد رشده واصيب بداء السل وصار من المأيوس من حياته وحيث كان الايمبراطور لا يغفل عما به يكون علو قدر عائلته حصل انه بمجرد اخباره بذلك عده خير وسيلة تزيد بها فى شوكة ابنه وفى ممالكه وصمم على ضم انكلترة الى ممالكه بتزويج ابنه فيليبش مع ماريه اميرة انكلترة حيث اذا قضى هذا الملك نحبه لا وارث له سواها وكان ابنه فيليبش اذ ذاك ببلاد اسبانيا وكان من الجائز انه لا يرضى بتزويج هذه الاميرة اذ كانت فى سن الثمانية والثلاثين فهى اكبر منه باحدى عشرة سنة فصمم الايمبراطور مع تقدمه فى السن وضعف بنيته على انه اذا امتنع ابنه عن ذلك لا بد وان يتزوج هو نفسه بهذه الاميرة وكانت من اقرب الناس اليه

مطلب
رضاء فيليبش بتزوج هذه الاميرة

وكانت هذه الاميرة مجردة عن جاذبة الفضائل التى تكون زينة المراة بعد ضياع شبابها ومع ذلك رضى الامير فيليبش ان يتزوج بها ولم يحصل منه ادنى توقف وجعل كما هى عادة الامراء اميل نفسه وحظه فداء لطمعه ولم ينتظر الايمبراطور شرلكان بعد موت الملك ايدوار حتى يمهد سبيله الى الوصول لمقصده انما صبر بعد موته حتى عدلت الاميرة حنة كرى عن دعواها فى حق المملكة اذ لم يكن وجه استحقاقها اكيدا او بمجرد ثبوت التاج

الملوكى للاميرة ماريه بعث الى مدينة لوندرة رسالة فى اتم ابهة وبهجة ليعرضوا على هذه الاميرة بعد تهنئتها بالمنصب قصد الامبراطور من تزويجها بابنه فيليش فحظى هذا العرض بحسن القبول وذلك انه بقطع النظر عما قام بنفس ماريه من الفرح بما يكون لها من الفخر بتزوجها بابن اعظم ملوك اوروبا يقال ان هذه الاميرة فرحت لما عرض عليها حيث به تقوى علائق المحبة بينها وبين عائلة والدة الامير فيليش اذ كانت ماريه تحبها حبا جما وثم سبب آخر وهو أن ماريه كانت تود أن تمكن الدين القاثوليقى ببلاد انكلترة وكان الامبراطور يفعل كذلك ببلاده فرأت انها بتزوجها مع ابن امبراطور قوى الشوكة شديد البأس تتمكن من تنفيذ مقصدها فى تعضيد دين الكنيسة ومحق دين المعتزلة ولكن كان حال رعاياها بخلاف ذلك اذ كان احزاب دين المعتزلة كثيرين جدا وكانوا يخشون عاقبة هذا الزواج حيث كانوا يعلمون ميل فيليش الى دين الكنيسة الرومانية وكان لفرط حميته فى هذا الشأن فوق ما تسوغه بدع الاسپانيوليين وغير ذلك كانت الملة الانكليزية متعودة على أن تعيش مع ملوكها على التألف وعدم التكلف حتى ان بعض هؤلاء الملوك كان ممن ارتقى من حضيض الرعايا الى اوج السلطنة فكانت لا تستطيع المعيشة تحت حكم امير متكبر ذى عنفوان مثل فيليش كما هى عادة القسطيليين من الكبر والانفة هذا وكانوا متيقنين ان هذا الامير اذا تزوج بملكتهم يصير له بالضرورة نفوذ عظيم فى المشورة وكانوا يخشون منه اذ هو قد شب على امور الحكومة الاسپانيولية وهى مخالفة لما تسوغه الحرية من الاصول الانكليزية فربما حمل اميرتهم ماريه اذا تزوج بها على ان تقتدى به فى السياسة ويقدم لها ما تحتاج اليه من الرجال والاموال لخفض رعاياها واذلالهم وكان مجلس وكلاء العمالات حينئذ على غاية من الانقياد والامتثال لولى الامر فى المملكة لا يعارضه فيما اراد ومع ذلك ابى اقرار هذا الزواج وافهم بعبارات مقنعة عدم رضائه به وانه بعث عدة رسالات قدحا فى هذا الغرض تبين عواقبه الخطرة وتصف على وجه شنيع وقاحة فيليش وتولعه لحد

سنة ١٥٥٣

مطلب
ما كان شأن الاميرة ماريه ورعاياها لهذا الزواج

مطلب
توقف مجلس وكلاء العمالات وعدم رضائهم بهذا الزواج

سنة ١٥٥٣

الافراط بالدين القاثوليقي بدون تعقل غير ان الاميرة مارية لم يكن من عادتها العدول عما صممت عليه فلم تصغ لقول وكلاء العمالات ولم تلتفت الى انقباض رعاياها لهذا الغرض لاسيما ومن كانت تعتمدهم من الوزراء وتثق بهم كانوا من حزب الايمپراطور حيث استمالهم بالرشوة وارسل اليهم مبالغ جسيمة ليصرفوها في استمالة بقية اهل المشورة الانكليزية الى حزبه فاقر هؤلاء الوزراء الملكة على نيتها وقد حصل ان البابا بمجرد توليته بعث الكردينال دولاپول الانكليزي الى انكلترة نائباً عنه ليعقد روابط المحبة بين وطنه والكنيسة الرومانية غير انه حجز بمدينة ديلانقان في ألمانيا بامر الايمپراطور وسبب حجزه هو أن الايمپراطور كان يخشى منه ان يمنع زواج فيليش بالملكة وأن يعين بنفوذ كلمته قريبه الامير كورتوناى قونتة ديونسير على التزوج بالملكة وكانت الملة الانكليزية تألفه وتود زواجه بملكتهم

مطلب عقد النكاح

هذا وكانت المداولة في شأن الزواج مستقرة بين الايمپراطور وبين ديوان انكلترة ورضى الايمپراطور بدون توقف بكل ما اشترطه وزراء انكلترة لازالة نفرة الملة الانكليزية واذهاب خوفهم من الوقوع في حكم ملك اجنبي والبنود الاصلية من هذه المشارطة هي اولا ان فيليش مادامت الملكة على قيد الحياة يلقب بملك انكلترة ولكن لايكون له دخل في امور المملكة بل الحكم يكون للملكة وحدها وهي تتصرف كيف شاءت في ايراد المملكة ووظائفها وما يتعلق بها ثانيا أن اولاد فيليش من الملكة يرثون دولها بعدها ويكون لهم ملك دوقية بورغونيا ومملكة البلاد الواطية ثالثا اذا مات كرلوس ابن فيليش من زوجته الاولى ولم يعقب ذرية يكون لاولاد الملكة مارية من ذكور واناث الحكم على مملكة اسبانيا وسائر دول الايمپراطور شرلكان رابعا يؤخذ ميثاق بالملا على فيليش قبل عقد النكاح انه لايتخذ لخدمته سوى اناس من رعايا الملكة وانه لايدخل في انكلترة احدا اجنبيا يوجب شبهة الملة الانكليزية ووسواسها خامسا انه لايغير ولا يبدل في قوانين المملكة واصولها وانه لايخرج منها الملكة ولا احدا

سنة ١٥٥٤ في ١٢ من شهر حزيران

سنة ١٥٥٤م

من اولادها سادسا اذا ماتت الملكة ولم يكن لها من يرثها من اولادها يبقى الملك لمن يستحقه ارثا ولا يدعى فيليش فى شأنه استحقاقا ايا ما كان سابعا ان انكلترة لا يلزمها بمناسبة هذا الزواج ان يكون لها مدخل فى الحروب الحاصلة او التى تحصل بين اسبانيا والفرنسيس بل ان معاهدة انكلترة مع مملكة فرانسا لابد من دوامها على ما هى عليه

مطلب
غيظ الانكليز وخوفهم عاقبة هذا الزواج

ولكن مع تساهل الايمبراطور وما فعله هو ووزراء انكلترة لازالة خوف الانكليز من عاقبة هذا الزواج كانوا لم يزالوا متحيرين متفكرين ولم يذهب ما كان قائما بهم للشروط المذكورة آنفا وان كانت فى الظاهر عظيمة الفائدة لهم وكانوا يرون ان القول والوعد سور غير متين فلا يقيهم من طمع الامير فيليش حيث أنه بوصف كونه زوج ملكتهم يمكنه ان ينقض سائر الشروط المضيقة لقدرته وكلمته او المانعة له عن تنفيذ مآربه ومقاصده وكانت انكلترة تخشى أن يمسها اذا دخلت تحت حكومة اسبانيا ما مس نابلى وميلان وسائر البلدان الاخرى التى انضمت الى تلك الحكومة الظالمة فتضطر كغيرها من هذه البلدان الى أن تذهب اموالها ورجالها فى الحروب مع الممالك الاجنبية مع انها لا تعود اليها منها فائدة ما وبهذه الملحوظات ظهر الغم على الانكليز كافة وصاروا يسخطون على من اعانوا على تتميم هذا الزواج من اعيان انكلترة

مطلب
فتنة كان تومة ويات رئيسها

فلما انتشر الغم بينهم وكانوا مستعدين الى العصيان والقيام اخذ رجل يقال له تومة ويات فى تحريض سكان كنتة على اشهار السلاح لخلاص وطنهم من حكم الاجانب وكان هذا الرجل من متوسطى الناس اعتبارا غير انه كان يحب وطنه حبا جما ولا يفرط فى مصلحته ففى مدة قليلة اجتمع تحت لوائه عدد كبير وسار سريعا الى مدينة لوندرة ولم تكن الملكة تهيأت للمدافعة وكانت مقتضيات الاحوال لا تساعدها حتى ان هذه الفتنة كانت تضر بحكمها كل الضرر لو انضم بعض الاعيان اولى الاعتبار الى العاصين او لو كان لرئيسهم تومة ويات من القريحة والتدبير ما يساوى جسارته غير أنه لعدم تبصره فى اموره وتردده فر أغلب رجاله وقليل من عساكر الملكة شتت من كانوا باقين

سنة ١٥٥٤

تحت لوائه وقبض عليه نفسه قبل أن يتم امرامهما يكون اهلا لحينه وغيرته على وطنه وقتل بعد التعذيب فى نظير تجاسره وعصيانه وثبتت صولة الملكة وتمت شوكتها بخيبة هذا المشروع وهزيمة اعدائها وقد قدمنا انه كان باقيا ممن لهم الدعوى فى حق الملوكية الاميرة حانة كرى فعند حصول هذه الفتنة حرض هذه الاميرة اقاربها على التصدى لطلب التاج الملوكى وسمعت قولهم فقتلت على رؤس الاشهاد مع صغر سنها وعدم ارتكابها ما يوجب حتفها حيث طمع اقاربها هو الذى حملها على التعرض لهذا الامر واما الاميرة ايليزابيطة اخت الملكة مارية فقد جعلت لها عيون ترقبها وتلاحظها فى سائر امورها وبالجملة فقد اقر ديوان البرلمان عقد النكاح واستكملت اركانه وشروطه

مطلب اشهار الزواج

ونزل الامير فيليبش ببلاد انكلترة فى احتفال عظيم واشهر زواجه مع مزيد الابهة والزينة غير أن الطبع يغلب التطبع فتعذر على فيليبش أن يستر ما عنده من الانفة والكبر وان يسلك طرق الملاطفة والرفق ليستميل قلوب الناس اليه واتخذ سبيل السخاء والبذل المفرط لترغيب اعيان الانكليز وتحبيبهم فيه وكان قصده ان يجعل لنفسه كلمة نافذة فى حكم المملكة الانكليزية فلازالة كل عائق يمنعه عن الوصول الى هذا الغرض جعل الايمپراطور على سواحل الفلمنك اثنى عشر الف رجل من العساكر متهيأة لان تنتقل لدى الحاجة الى انكلترة لتعين فيليبش على تتميم مقصده

مطلب شروع الملكة مارية فى محق دين المعتزلة من بلاد انكلترة

وقوى قلب مارية لظفرها وما ألفته حينئذ من المقتضيات المساعدة لها فاخذت مع الحمية التامة فى تنجيز مقصدها من محق دين المعتزلة فى دولها وابطلت الاوامر الصادرة عن الملك ادوار الخامس قبلها فى شأن راحة المعتزلة وطردت قسوسهم واعادت ما بطل العمل به من مواسم الكنيسة الرومانية ومراسمها الدينية وكان الكردينال دولابول نائب البابا محجوزا بامر الايمپراطور كما تقدم فبعد أن تم النكاح واشهر الزواج خلى سبيله ورخص له ان ينزل بانكلترة التى هى وطنه ويوفى بوظيفته فيها بدون

سنة ١٥٥٤

معارض له بوصف كونه نائبا عن البابا فعفى عن الملة الانكليزية على رؤس الاشهاد فى ما جنته من الكبائر باتباعها دين المعتزلة الهراطقة واصلح ما بينهم وبين الكنيسة الرومانية ولكن لم تقنع مارية بتشييد بنيان دين الكنيسة على اطلال دين المعتزلة بل ألزمت سائر رعاياها ان يتمسكوا بديانتها ويتلوا صيغة تعبدها وان يعدلوا عن سائر العقائد والبدع المخالفة لعقيدتها وانيطت عدة اشخاص بالتجسس عمن يتجاسر على ارتكاب كبيرة التمسك بدين المعتزلة واعطى هؤلاء الاشخاص من الكلمة ما صاروا به اكبر نفوذ ممن كانوا فى بعض الممالك كمملكة اسبانيا اعضاء لمحكمة التفتيش الدينى ولم يكن حصل مثل ذلك قط ببلاد انكلترة غير ان قلوب القسوس المعتزلة لم تخشع مع هذا كله ولم تفجعهم اخطاره حيث كانوا يرون ان دين المعتزلة هو الحق وان مدافعتهم ليست الا عن امور لا بد منها لسعادة البشر وراحة الخلق فأبدوا آراءهم على رؤس الاشهاد وعارضوا فيما صدر فى حقهم فتتبعتهم الدولة بما لا ينشأ من القسوة والاساءة الا عن الجهل والعماء فى الدين وبعد أذيقوا انواع الحتف الشنيع الذى كانت الكنيسة الرومانية اذ ذاك تقاصص به اعداءها ولكن حيث كانت الملة الانكليزية لا تعلوها ملة من ملل اوروبا فى الرأفة والانسانية وكانت حدودها لا تخلو عن التلطيف والرفق غضبت وسخطت وامتلأت رعبا وعجبا حيث رأت هؤلاء القسوس مع علو قدرهم ومناصبهم وما يجب لهم من الاحترام والاعتبار لهرمهم وعلمهم وتقواهم يعذبون بما لم يرد به اثر ولا خبر ولم يسبق اجراء مثله فى حق ذوى الكبائر والفحش

مطلب
العوائق التى لاقتها مارية لدى تنفيذ غرضها

فتشديد مارية وان بلغ حد الافراط لم تكن غايته ما كانت تؤمله وذلك أن صبر المعتزلة من شيوخ وصبيان ورعاع واعيان وذكور ونسوان وتجلدهم فى اثناء العذاب وعدم مبالاتهم وهم يذاقون كأس الممات لتولعهم بدينهم وكانوا يرونه حقا قد اثبت كثيرا من المعتزلة فى عقائدهم بل ربما ان من ثبتت عقيدتهم بذلك كانوا اكثر ممن عدلوا عن دين المعتزلة خوف العذاب والحتف واما القضاة الذين كانوا منوطين بتحقيق قضايا المعتزلة كان يؤتى اليهم كل يوم باناس متهمين

سنة ١٥٥٤م

بالاعتزال والالحاد حتى سئموا من وظيفتهم اذلم يروالها انتهاء مع كثرة آثامها هذا وقد رأى احذق وزراء الملكة ان من الخطأ والخطر اغضاب الاهالى بكثرة هذه المظالم المنكرة المنفرة بل ان فيليش مع غلظة طبعه رأى ان ماريه قد تجاوزت الحدود فنصحها الرفق واللين والعدول عما كانت عليه

مطلب استنفوان الانكليز من فيليش

وكان فيليش بنصحه الملكة الملاطفة واللين يقصد استمالة قلوب الانكليز اليه ومع ذلك لم يزالوا يستخونونه و يخشون غدره حتى ان بعض القرى باغواء الديوان الملوكى عرض على ديوان وكلاء الملة ان يقدم امدادا الى الايمپراطور يستعين به فى حربه مع مملكة فرانسا فابى وكلاء الملة وردوا العرض خائبا وقد حصل ايضا ان الديوان الملوكى سعى فى حمل ديوان البرلمان اى ديوان وكلاء الملة على تتويج فيليش بوصف كونه زوج الملكة فأبى البرلمان ذلك وعدل الديوان الملوكى سريعا عما كان يلتمسه

مطلب حيرة ملك فرانسا لهذا الزواج

هذا ولا يخفى ما قام بملك فرانسا من الغيرة والحيرة لوقوع المداولة لقصد المواصلة بين الايمپراطور وانكلترة حيث كان يعلم ان زواج فيليش بملكة هذه الدولة القوية يزيد فى قوة عدوه وشوكته ويرى ان الانكليز مع خوفهم واحتراسهم لابد وان يكون لهم ذات يوم مدخل فى الحروب ويضطروا الى اعانة الايمپراطور على تحقيق ما تسوله نفسه الطماعة فامر وكيله الموجود بانكلترة ان يبذل غاية جهده فى تعطيل هذا الزواج او فى تأخيره ان لم يمكن تعطيله غير أنه لما لم يكن حينئذ امير من عائلة فرانسا الملوكية حتى يبارز فيليش فى تطلب الملكة امر ملك فرانسا وزيره المذكور ان يعين الانكليز فيما كانوا يتمنونه من تزوج الملكة باحد رعاياها ولكن قبلت الملكة سريعا زواجها بالامير فيليش فافسدت على ملك فرانسا آماله فعدل الى نهج جديد واخذ يسلك ما يقتضيه الحزم والكياسة من اظهار خلاف ما يضمر حتى ان ويات رئيس العصبة المتقدم ذكره وغيره من رؤساء العاصين قد طلبوا الاعانة والامداد من هذا الملك لدى قيامهم وعرضوا عليه فوائد جمة فى نظير اعانته لهم فلم يرض بل وامر وزيره المحكى عنه بانكلترة ان ينهى الملكة على اتحاد

سنة ١٥٥٤

نار الفتنة وعلوها على عدوها
وذكرنا آنفا ان هذا خلاف مايضمر وانما اظهره امتثالا لاحكام الضرورة
والواقع انه كان يخشى عاقبة هذا الزواج حيث به تقوى شوكة الامبراطور وفيه
مايكفيه فى تعويض ماخسره ببلاد ألمانيا لحصول الفتن المتوالية بها على
ماتقدم فاضطر ملك فرانسا الى ان يبعث فى آن واحد جنودا الى بلاد
ايطاليا واخرى الى مملكة البلاد الواطية لانه كان من المهم الضرورى لهذا
الملك ان يحمل الامبراطور على الصلح بشروط مقبولة قبل ان تنال الملكة
مارية من رعاياها أن يقرّوها على اعانة الامبراطور فى حروبه فقده بما يلزم له
من رجال واموال فعدل هنرى عن سبل البطء والتراخى وبذل جهده حتى
جمع فى اقرب وقت جيشا جرارا على حدود مملكة البلاد الواطية واقسم هذا
الجيش الى قسمين قسم منه وجه لتخريب اودية اقليم ارتوازة وكانت خالية
عن الحصون والقلاع والقسم الآخر سار به الامير مدتمورنسى قائده الى
اقليم ليجية واقليم هينوت بطريق غابة الاردين

مطلب تجهيزاته الكبيرة للحرب

وكان افتتاح الحرب محاصرة مدينة مريانبورغ وكانت ملكة بلاد المجار
المتولية اذذاك حكومة مملكة البلاد الواطية قد صرفت مبالغ جسيمة
فى تحصين هذه المدينة غير أنه لم يكن بها سوى مقدار قليل من العساكر والمحافظين
فتغلب عليها الفرنساوية بعد ستة ايام من حصارها ولفرح الملك هنرى لهذا
الظفر لحق بجيشه وسار به لمحاصرة مدينة بوينس فاخذها عنوة بدون
مقاومة الا القليل وتغلب ايضا على مدينة دينان مع السهولة ثم انقلب
الى يساره وسار الى اقليم ارتوازة واما الامبراطور فلما بعثه قبل تلك الواقعة
من المبالغ الجسيمة الى انكلترة كان يتعذر عليه ان يستعد للحرب بما يلزم
من الجنود والمهمات ولم يكن عنده من العساكر ما يكفى لدفع الفرنساوية
فى مبدأ الواقعة نعم انه جمع قواه وما كان فى وسعه اذذاك غير أن جيشه كان دون
جيش اعدائه لكنه قلد برياسته الامير ايمنويل فيليبير دوسابوة فبمهارته
وحسن تدبيره وادارته سد خلل مافاته من عدد الجنود حيث انه انتخب لمعسكره

مطلب نجاح جنوده

٢٨ من شهر حيزران

مطلب عدم اقتدار الامبراطور على المقاومة

سنة ١٥٥٤

وضعا محكما وصار يلاحظ حركات جيش الفرنساوية ويفسد عليهم مايدبرونه حتى اعجزهم ولم يمكنهم الهجوم عليه ولا محاصرته محاصرة تعود عليهم بالفائدة ولم يزالوا معه على هذا الحال حتى اضطروا الى ان رجعوا على اعقابهم لعدم وجود ما يتقوتون به ولكن عند رجوعهم نهبوا ما كان فى طريقهم من المدائن الغير الحصينة ونهبوا البلدان وخربوا العمران وارتكبوا من الفساد مايليق بجنود خفيفة غير منتظمة لا بجيش جرار يقوده ملك من اعظم ملوك العصر ولكن لم تسمح نفس هنرى بتسريح جنوده قبل ان يتغلب من بلاد اعدائه على ما يكون اهلا لتجهيزاته العظيمة التى استعد بها للحرب فحاصر مدينة رنتى وكانت مهمة الوضع حيث هى موضوعة على حدود اقليم ارتوازة واقليم بولونواس فكانت محصنة للاول من هذين الاقليمين وتعين جيوش الايمبراطور لدى عدوها وهجومها على الاقليم الثانى وكانت المدينة المذكورة منيعة الحصون كثيرة العساكر والمحافظين فقاومت الاعداء حق المقاومة ولكن كان من المعلوم ان مثل هذه المدينة لا يمكنها ان تقاوم مدة مستطيلة جيش الفرنساوية وكان جرارا وهجم عليها باجمعه فادرك الايمبراطور ذلك وكان حينئذ فى افاقة من آلام داء الملوك او النقرس بحيث يستطيع حركة التعتروان فبادر بجيشه لانقاذ هذه المدينة وكان قد جاءه امداد جديد حتى صار ذا اقتدار على مقابلة جيش اعدائه وكان الفرنساوية فى جزع ينتظرون وصول الايمبراطور اليهم حتى اذا التقى الجمعان تمت محاصرة مدينة رنتى اما عليهم واما لهم غير ان الايمبراطور لتبصره فى العواقب كما هى عادته بذل جهده فى عدم ايقاع القتال ولم يكن مطمح نظره الا انقاذ المدينة فاقتصر على المدافعة عنها بما اوجبه مقتضيات الاحوال ولم يعرض نفسه الى ريب الحروب

مطلب محاصرة الفرنساوية بمدينة رنتى

ومع ما احترس به الايمبراطور من وقوع الحرب حصل انه لداعى محطة اراد كل من الحزبين التغلب عليها ادى ذلك الى التصادم الجندين والتقاء الجيشين وكان الامير دوق دوكير فى جيش الفرنساوية يحكم الجناح الذى كان معظم الهجوم عليه فثبت لاصطدام العدو بمهارة وادارة جديرتين به وبما ابداه

سنة ١٥٥٤

من العزم لدى المدافعة عن مدينة مترة فبعد التثبت من الجهتين واستمرار القتال وبلوغ القوى من الحزبين حد النصب والاين تزحزحت الجنود الايمبراطورية وبقيت المحطة بايدى الفرنساوية ولو كان الامير دوموتمورانسى اما لبطئه وتردده الذين كانا طبعا فيه واما لغيرته من خصمه اعنى الامير دوكيز لم يتأخر عن التقدم بعسكره الاحتياطية لاعانة عسكر الدوق دوكيز لتشتت شمل الايمبراطورية وتمت هزيمتهم ولكن مع ما خسره الايمبراطور وتزحزحه عن المحطة المحكى عنها مكث فى معسكره الاول بخلاف الفرنساوية فتركوا معسكرهم لما وجدوه من الضنك والكروب لعدم المؤونة عندهم وعدم امكانهم استمرار المحاصرة بحضور جيش الايمبراطور ورجعوا القهقرى غير أنهم لدى التجائهم كانوا على غاية من النظام حتى كان يظن انهم يستصغرون اعداءهم لا انهم يريدون الفرار منهم

مطلب
التحام الصنعين فى ١٣ شهر آب

وحيث كان مقصد الايمبراطور انما هو انقاذ المدينة من اعدائه وقد تممه حكم مرامه لم يتعرض الى الفرنساوية عند التجائهم غير أن الملك هنرى لدى وصوله الى حدود دولته وضع محافظين فى مدائن الضواحى وسرح بقية جيشه فقوى بذلك عزم نفر الايمبراطور وتقدموا وهم فى جند كبير الى اقليم پيكارديا وبالغوا فى تخريبه لينتقموا لانفسهم مما ارتكبه الفرنساوية من التخريب فى اقليمى هينوت وارتوازة ولكن لم تكن عندهم القوة اللازمة لان يتغلبوا على شئ من الحصون الجسيمة المعدودة فلم يجتنوا ثمرة اجل مما جناه اعداؤهم بهذه الطريقة الخشنية المذرية بكل من نسج على منوالها فى حروبه

مطلب
تخريب الايمبراطور لاقليم پيكارديا

ثم ان مصالح الفرنساوية ببلاد ايطاليا كانت كل يوم تزداد عطلا وكسادا وذلك ان الامير كوم دوميديسيس المعروف بالمهارة والجسارة قد فزع لدخولهم بمدينة سينة واستيطانهم فيها وسبب فزعه هو أنهم ما داموا بالقرب من ولايته وهى فلورنسة لابد وان يكونوا مستندا لمن كانوا يودون من اهل تلك الولاية ارجاع الديمقراطية القديمة التى اذهبها ويطلبون اذهاب الحكومة

مطلب
حال مصالح الفرنساوية فى ايطاليا

سنة ١٥٥٤

المطلقة التى اعانه الامبراطور على ترتيبها فى فلورنسة على ان كوم المذكور كان يعلم انه يميله الى الامبراطور قد صار مبغوضا عند الفرنساوية فهم لغضبهم منه لابد وأن يهجموا على توسكانة اذا لم يطردوا من مدينة سينة قبل أن يتحصنوا فيها فاقوى واسطة يقى بها نفسه من بأسهم هى طردهم من المدينة المذكورة قبل ان يبعث اليهم امدادا من مملكتهم فلا يكون طردهم بيسير غيرأنه كان يعلم ان فقر الامبراطور ومصلحته يقتضيان طرد الفرنساوية من هذه المدينة اذ كانوا ابو سط دوله فحاول اولا ان تكون اعمال الحرب على الامبراطور وفى اول واقعة لم يعده الا بمبلغ قليل صرف على الجنود الامبراطورية من جملة ماهياتهم

مطلب نية الامير كوم فى شأن مدينة سينة

وكانت خزائن الامبراطور قد نفدت بما ارسله الى انكلترة لتتميم الزواج وبما كانت تستلزمه المدافعة عن مملكة البلاد الواطية من الاموال ولهذا كانت تجهيزاته ببلاد ايطاليا ضعيفة جدا فعلم الامير كوم أن الفرنساوية لابد وأن يتقووا ببلاد ايطاليا اذا اعتمد على الامبراطور ولم يلتفت بنفسه الى الحرب ويبذل جهده حتى يخرجهم منها فصمم على طردهم حيث رآه من الضرورى اللازم غير أنه اراد أن تكون له فائدة اخرى غير طرد الفرنساوية من جواره فارسل الى الامبراطور شرلكان مخصوصا من طرفه ليعرض عليه مرامه من التكفل بالحرب مع هنرى والتغلب على مدينة سينة باموالة ورجاله بشرط أن يترك له الامبراطور التمتع بما يتغلب عليه من المدائن والبلدان الى ان يدفع له ماصرفه مدة الحرب وكان الامبراطور اذ ذاك لا يقتدر على ان يوفى بمصاريف ما كان مشغولا به من الحروب العديدة فرضى بذلك وكان كوم لا يجهل نفاد خزائن الامبراطور فامل ان سيبقيه يتمتع بالمدائن التى يتغلب عليها حيث لا يقدر ان يدفع له ماسيصرفه فى تسخيرها من المبالغ واستعد كوم المذكور بتجهيزات عظيمة للحرب مع الفرنساوية اغترارا منه بالامانى المتقدمة وكان يعلم ان ملك فرانسا قد وجه سائر قواه الى مملكة البلاد الواطية ففرح حيث جمع من العساكر مايكفى لمقاومة الفرنساوية ببلاد ايطاليا غير انه كان

مطلب مداولات الامير كوم مع الامبراطور

مطلب ذهاب كوم للحرب مع مملكة فرانسا

سنة ١٥٥٤

من الضرورى اللازم لاعانة البابا اياه ومكنته خلى أغراض عن الحزبين فزوج احدى بناته بسبط هذا الكاهن وزوج احداهما بالامير دوق ديربورسين ليخلصه من حزب الفرنساوية وكانت عائلته منذ زمن طويل تميل اليهم هذا وفعل كوم ماهو أهم من ذلك وهو أن جعل حنايا كس مدسينو ملتزم ماريشان قائدا لجيشه وكان اصله من الاوباش فارتقى بالتدريج حتى وصل الى رتبة الجنرال وبشهرته بالمعارف صار معدودا من امهر جنرالات هذا العصر المشهور بالحروب والوقائع لكنه لكثرة طمعه لم يكتف بوصوله الى تلك الدرجة الرفيعة بل لتلزيه من دناءة اصله اراد باتصاف اسمه مشاكلا لاسم العائلة المديسية ان يعد من ذرية المديسيس اعنى عائلة الامير كوم ففرح كوم بان وجد فى طبيعة هذا الرجل من حب التعالى مايعين على استمالته اليه فأقره بان يكون من اقاربه واذن له فى حمل نشانات هذه العائلة ومن وقتئذ فرح الملتزم مدسينو ورأى من عين فخره خدمة عائلة مشهورة كان يتراءى اذ ذاك انه منسوب اليها وانه من نسلها فاخذ يبذل غاية جهده فى جمع العساكر والجنود وكان قد خدم كثيرا مع الطوائف المستأجرة المتركبة منها جيوش ايطاليا وصار له بين ضباطهم نفوذ كلمة فامكنه ان يستميل اكابر هؤلاء الضباط الى الدخول تحت ألوية الامير كوم

مطلب
تولية مدسينو رئيسا على الجيش

واما هنرى فرأى ان الاحرى بان يبرز لهذا الجنرال الماهر هو الامير بطرس استروزى احد بكزادات فلورنسة وكان بعد نفيه من وطنه مقيما منذ زمن طويل بمملكة فرانسا وكان له من المعارف والشهرة ماصار به اكثر من مرة رئيسا على الجنود والجيوش الجرارة وهو ابن الشهير فيليش استروزى وقد اجتهد والده سنة ١٥٣٧ فى طرد امراء عائلة المديسيس من فلورنسة وفى ترتيب الحكومة الجمهورية بهذه الولاية وقتل فى اثناء همته بتجهيز هذا المشروع وكان بطرس قد ورث عن ابيه البغضاء والعداوة لعائلة المديسيس والميل الكلى الى الحرية وانضم الى ذلك حبه الاخذ بثار

مطلب
تولية الامير بطرس استروزى رئيسا على جيش الفرنساوية ببلاد ايطاليا

سنة ١٥٥٤

ابيه حيث قتل فى الحرب مع عائلة المدسيس ولذا كان الملك هنرى يؤمل النجاح بهذا الجنرال حيث فيه اسباب قوية تدعوه الى كراهة عائلة المدسيس لاسيما وهو معد لان يقاتل فى وطنه فلابد وان يجد من اهل بلاده احزابا وانصارا يعينونه فى تتميم ما ربه

ثم أن انتخاب هنرى لهذا الامير فى محله لظاهر تلك الاسباب المذكورة الا انه كان مضرا للمملكة فرانسا وذلك أن الامير كوم بمجرد اخباره بجعل عدو عائلته رئيسا على جيش الفرنساوية فى توسكانة فهم ان مقصد ملك فرانسا ليس مجرد حماية مدينة سينة بل نيته الغدر بعائلة المدسيس والاغارة على ايالاتها فشمر عن ساعد الجد فى جمع العساكر والجنود ليستعد لقتال الفرنساوية

ومن جهة اخرى كان الكردينال دوفرار مأمورا بمصالح فرانسا فى بلاد ايطاليا وكان لا يشركه احد فى تلك المأمورية فلما علم تولية استروزى داخلته الغيرة من ذلك اذ رأى انه خصم سيشركه فى وظائفه او ينفرد بها و يحل محله اذا نجح فلمنع نجاحه كان غالبا لا يسعفه بما تحتاج اليه عساكره من الذخائر والاموال على ان الامير استروزى نفسه قد اعمته اذ ذاك عداوته لعائلة الميدسيس فعوضا عن ان يسلك بجيشه مسلك الحزم والاحتراس اللائق برئيس ماهر جدير بالرياسة لم يتبع سوى اندفاعات نفسه وكان يسوقها حب الانتقام من عائلة نجعته على والده

مطلب واقعة مرسيانو

وقد بدأ استروزى بالهجوم على عدة مدائن من اقليم فلورنسة وكان هجومه بعزم قوى حتى ان ميدسينو لدفعه ومقاومته قد اضطر الى اخذ معظم جيشه المشغول بمحاصرة سينة وكانت تلك المحاصرة قد بدئ فيها قبل مجيء العدو ولكن لا يخفى ان الامير كوم لعدم معين له على الحرب كان لابد من نفاد خزائنه بعد قليل وكان كل من نائب الايمپراطور فى نابلى وحاكم ميلان لا يمكنهما اعانته بوجه من الوجوه وكانت العساكر التى ابقاها مدسينو بمحاصرة سينة لا يمكنهم الشروع فى شيء مما يخص المحاصرة مدة غيابه وبناء

سنة ١٥٥٤

على هذه الاسباب كان يجب على استروزى التأنى وتوجيه جميع عساكره الى ارض فلورنسة وكان ذلك هو الاليق به لمقتضيات الاحوال كما ذكرناه انفا غير أنه كان فى تهوّر عظيم لحقده من عائلة كوم ويريد هدم مبانى علاها مرة واحدة فبدأ أعداءه بالحرب قريبا من مرسيانو وكان الجيشان متساويين عددا ولكن حصل اما خيانة اوجبنا من الضباط ان طائفة من خيالة ايطاليا كان يعتقد عليها استروزى كل الاعتقاد فرّت قبل القتال فبقيت المشاة وحدها عرضة لقوى جيش مدسينو ومع ذلك ثبتت للقاء العدو اقتداء برئيسها استروزى اذ أنه وان كان قد جرح جرحا خطرا حيئ اراد يجمع شمل الفرسان الذى هربوا بهم كنت تراه فى كل محل من جيشه يثبتهم ويقوّى عزمهم فابدوا من العزم والقوة مايوجب الثناء عليهم ولكن احاطت بهم عساكر مدسينو من كل جهة وركبت عليهم مدافع مهولة شديدة النار وهجمت عليهم الخيالة فانحل نظامهم وتزلزلت اقدامهم وحقت عليهم الهزيمة واما رئيسهم استروزى فبعد أن نزحت قوته بنزيف دمه ويئس وندم على ماارتكبه من عدم التبصر فى العواقب اخذ فى الفرار مع قليل من رجاله ولم ينج الا بشق الانفس

مطلب
هزيمة الفرنساوية فى ٣ من شهر آب

وبعد أن تمت النصرة لجيش مدسينو توجه به لمحاصرة مدينة سينه واما استروزى فمع ما بذله من غاية جهده لم يمكنه ان يجمع من عساكره بعد هزيمتهم طائفة مقتدرة على تعطيل جنود مدسينو فى اشغال المحاصرة وعملياتها واما اهل مدينة سينه فلم تكن تعترهم همتهم وان كانت هزيمة استروزى منعتهم ان يؤملوا امدادا من اى جهة كانت واستعدوا للمدافعة عن مدينتهم الى آخر رمق ودافعوا عنها بقوة عظيمة لاتنشأ عن غير حب الحرية واعانهم على ذلك حق الاعانة الضابط مونلوك حكمدار جنود الفرنساوية الذين كانوا محافظين بهذه المدينة وكان هذا الضابط قد دعى الى محافظة هذه المدينة لغزارة معارفه وكثرة شجاعته وكان يأبى أن يتقدم بخلاف هذين الوصفين فاجتهد ان يمتاز فى هذه الواقعة بما يترتب عليه حقا امتياز المرء من الشجاعة وثبات

مطلب
محاصرة مدسينو لمدينة سينه

مطلب
مدافعة اهل سينه عن مدينتهم واعانة الضابط مونلوك لهم حق الاعانة

سنة ١٥٥٤

القلب فأول شئ اهتم به هو أن اصلح ما كان في الاستحكامات والتحصينات من الخلل ودرب اهالى المدينة على التعليمات العسكرية وعودهم على اقتحام المشاق والتحام الاخطار مع العساكر وكان العدو قد سد جميع المسالك فيما حول المدينة فاعتنى مونلوك بصرف الذخيرات مع غاية التدبير وحمل المحافظين والسكان على الاكتفاء بقليل من الزاد في كل يوم وامتثلوا لذلك مع مافيه عليهم من المشقة واما مدسينو فلم يمكنه لقلة عساكره التغلب على المدينة بمحض القوة وان كان تقدم مرتين في ان يأخذها عنوة فانه رأى منهم غاية التثبت وقد ادى هجومه على المدينة رجالا كثيرين فيئس من امكان اخذها عنوة وضرب حصارها حتى يحملها بقطع الوارد عنها وبالجوع والقحط على أن تسلم اليه

مطلب
سد مسالك المدينة

وحصن مدسينو معسكره غاية التحصين واستولى على اهم المحطات حول المدينة ليسد مسالكها ويمنع مواصلتها مع غيرها من البلدان مؤملا ان يلزم بهذه الطريقة سكانها بفتح ابوابها له لكنهم لحميتهم وغيرتهم على حريتهم صبروا على الضنك والضيق وتحملوا مهالك القحط والمجاعة واما مونلوك فخطاباته وتكليف نفسه كل مشقة عود عساكره على الاقتداء بتثبت سكان المدينة في تلك الشدائد فتثبتوا للاهوال عشرة اشهر حتى نفد زادهم ولم يبق عندهم مضغة واكلوا خيولهم وكلابهم وسائر ما احتوت عليه مدينتهم من الحيوانات فاضطروا الى التسليم وعرضوا على العدو ان يسلموا اليه المدينة ومع اضطرارهم

مطلب
اضطرار اهل سينه الى التسليم لوقوع الجوع والقحط بينهم

هذا شرطوا على عدوهم شروطا توجب لهم الفخر والشرف وكان الامير كوم يعلم ما آل اليه حالهم وما هم فيه من الضنك والشدة فخشى عدم اجابتهم فيما طلبوه خيفة ان يحملهم يأسهم على ارتكاب ما يفسد عليه آماله فاجابهم وسلموا مدينتهم بموجب شروط كانت فوق آمالهم

٢٢ شهر نيسان

وكانت مشارطة التسليم باسم الايمبراطور فالتزم بان يدخل المدينة في حمى الايمبراطورية ووعد أن يقوم بحفظ الحرية كما كانت عليه في عهد الجمهورية وان يبقى للقضاة وولاة الامور حكمهم كما كان وان يبقى الاهالى على التمتع

باراضيهم

[سنة ١٥٥٤]

باراضيهم واملاكهم ومزاياهم الاولى وعفا عن كل من عصوا عليه وسامحهم فيما فرط منهم فى حقه غير انه جعل لنفسه الحق فى أن يضع محافظين من عسكره بالمدينة ولكن لا يبنى القلعة بها الا اذا رضى السكان واقروه على ذلك واما مونلوك ومن كان معه من عساكر الفرنساوية فرخص لهم فى ان يخرجوا من المدينة مع انواع التبجيل والتشريف اللازمة بمقتضى اصول العسكرية

مطلب انتقال مقدار جسيم من اهالى سينة الى مدينة مونتالينو

وقد راعى مدسينو مع غاية الدقة بنود المشارطة المتفق عليها ولم يحصل للسكان من طرفه اساءة ولا أذى وعومل المحافظون الفرنساوية لدى خروجهم بما يلزم لهم من الاحترام والتعظيم الذى استحقوه لشجاعتهم ولكن تساهل الامبراطور والامير كوم فى قبول ماعرضه سكان المدينة من الشروط لدى التسليم توهم كثير من السكان انهما سينقضان هذه الشروط بمجرد حصول فرصة وبناء على ذلك تركوا مدينة سينة وان كانت مسقط رأسهم عزيزة عليهم وتوجهوا مع الفرنساوية الى مدينة موتلسينو ومدينة

مطلب ترتيب حكومتهم القديمة بمدينة موتلسينو

پورتوركول وغيرهما من المدائن الصغيرة الموجودة فى ارض الجمهورية وجعلوا فى مدينة موتلسينو الحكومية التى كانوا يتمتعون بها فى سينة وولوا فيها قضاة وحكاما وجعلوا اقتاءهم عين ما كان بمدينة سينة وتسلوا عن ما خسروه بذلك حيث كان محتويا ولو صورة على حريتهم القديمة

مطلب ما حصل لسكان سينة من الاساءة

وقد تحقق ما خطر ببالى سكان سينة من غدر الامبراطور والامير كوم بهم وذلك انه بمجرد استيلاء الجنود الامبراطورية على المدينة اخذ الامير كوم فى ارتكاب افعال منكرة ولم يرع حرمة الشروط المتفق عليها وكان بموجبها تسليم المدينة فعزل القضاة والحكام الذين كانوا بها من قبل وبدلهم بغيرهم ممن كانوا فى حزبه يميلون اليه والزم سكان المدينة بتسليم اسلحتهم اما عزل القضاة والحكام فقد تحملوه وان كان يشق على انفسهم حيث لم يحكمهم قبل ذلك احد اجنبى واما الامر الشاق وهو تجريدهم عن اسلحتهم فبمجرد الزامهم به هرب كثير من الاعيان الى مدينة موتلسينو وانضموا الى ابناء وطنهم مرجحين

سنة ١٥٥٤

ان يكونوا بها عرضة للمصائب والنكبات مع بقائهم احرارا على معاملتهم في مدينتهم الاصلية معاملة الارقاء الاسرى

مطلب هجوم كوم على من اقاموا بمدينة مونتلسينو من اهل سينة

نخشى كوم حيث رأى اهل سينة يجتمعون بمدينة قريبة منه وهم اعداؤه وكانوا في الجملة لم يزالوا اقوياء وامر مدسينو بالهجوم عليهم في مدينة مونتلسينو وكان جيش مدسينو قد ضعف وقل عدده لطول محاصرة سينة ومع ذلك امتثل امر كوم وتوجه بجنوده الى مدينة بورنوركول واحاط بها وكانت تحصيناتها في اشنع حال ففتح سكانها له الابواب من اول وهلة وكانت هذه آخر واقعة له الى ذلك الوقت مع اهل سينة لان الايمبراطور في اثناء ذلك صدر منه امر للامير كوم بان يوجه معظم عساكره الى اقليم بيمون فبهذا اضطر الى امهال اهل سينة الموجودين في مونتلسينو ولكن لم يكن ذلك آخر شقوة سكان سينة بل ان الايمبراطور فضلا عن ان يعمل بمقتضى الشروط المذكورة في مشارطة التسليم جعل ابنه فيليش اميرا على هذه المدينة وما يتبعها فحصل ان فرنسيس

١٣ حزيران

سنة ١٥٥٥

دوطوليدة نائب فيليش في ولايته الجديدة عامل اهل سينة معاملة الغالب المغلوب ولم يلتفت الى مزاياهم القديمة ولا الى اصول جمهوريتهم ورتب بينهم الحكومة المدنية والعسكرية كما هي موجودة ببلاد اسبانيا وقد اضطر الايمبراطور لضعف جيشه في اقليم بيمون وكسل ضباطه الى ارجاع عساكره من طوسكانة وهم في اثناء الفتوح والنصر واضطر ايضا الى ان يجعل على جنوده رئيسا يكون بشهرته ومهارته جديرا بان يعادل المارشال بريساك الذي كان قائد الجنود الفرنساوية بايطاليا فجعل عليها الدوق دالبة

مطلب حرب الايمبراطور في بيمون

غير ان انتخاب الايمبراطور للدوق المذكور وجعله رئيسا على جنوده كان ناشئا عن الدسائس لا عن اعتماد الايمبراطور عليه وعلى معارفه وذلك ان هذا الدوق منذ زمن طويل كان ملازما لمداهنة فيليش ابن الايمبراطور حتى اخذ بعقله لتواضعه وامتثاله وصار عنده بمكانة يعتمد عليه كل الاعتماد وكان ثم نسبة بين طباع فيليش وطباع هذا الدوق حتى اتحدا ببعض

مطلب تولية الامير دوق دالبة سرعسكر جنود الايمبراطور

وصارا

وصاروا على غاية الامتزاج وغدت للدوق كلمة نافذة عند فيليبش وكان الامير رويغومز دوسلوا من ندماء فيليبش المتقربين اليه فداخلته الغيرة من الدوق المتقدم وخشي ان يزيد نفوذ كلمته بقرب فيليبش فتحيل حتى حمل الايمبراطور على جعله رئيسا على العساكر في اقليم بيمون وعلم الدوق دالبة ان انتخابه لهذا الغرض ناشئ عن نميمة عدوه بقصد ابعاده عن ديوان الملك لكنه لم يمكنه المخالفة لانه ربما قيل ان عدم رضائه ليس الا خوفا من اخطار تلك الوظيفة ومشاقها غير انه لم يقبلها الا بشروط يفرح بها من طبعهم حب الظهور بعلو الالقاب والمناصب وهذه الشروط هي ان التمس من الايمبراطور ان يجعله قائدا كنائبه ببلاد ايطاليا مع تلقيبه بسرعسكر الجيوش الايمبراطورية والاسبانيولية معا فقبل شرلكان ذلك وقلد الدوق دالبة بهذه المناصب وجعل له حكومة تكاد ان تكون مطلقة لاحد لها

ولكن لم يحصل له في مبدأ الحرب ما هو اهل لما كان يحظى به من الشهرة ونفوذ الكلمة بل كان ما حصل دون آمال الايمبراطور وذلك ان جيش المريشال بريسالك وان كان اقل عددا من العساكر الايمبراطورية كان يفوق عليهم من سائر الوجوه لما انه منتخب من عساكر قد تعودوا منذ زمن طويل على الحرب في هذا الاقليم وكانت مدائنه وقصوره كلها كناية عن قلاع وحصون فيعرفتهم طرق الحرب بهذا الاقليم كانوا يفوقون جنود الايمبراطور على ان اميرهم بريسالك كان له من حسن الادارة بقدر ما كان لهم من الهمة فافسد على عدوه ما كان يدبر بل واخذ منه بعض اراض ضمها الى البلاد التي كانت بيده ولم يمكن للدوق دالبة ان يتمم شيأ قل او جل وان كان قبل ذلك قد اطنب في مدح نفسه وهو يقول انه في اسابيع قليلة سيطرد الفرنساوية من اقليم بيمون ورجع بعد خيبته الى المشتى وهو يجر ذيل الخزي حيث لم يمكنه ان يحفظ للايمبراطور ما كان بيده اولا من البلدان

وكان الحرب في البلاد الواطية على ما كان عليه في اقليم بيمون اى لم تثبت ثمرته لاحد المتحزبين وذلك ان كلا من الايمبراطور وملك فرانسا لم يكن لهما اقتدار على

مطلب قلة نجاحه في مبدأ وقائعه

مطلب الفتنة التي حصلت سرا لتسليم مدينة متزه الى حزب الايمبراطور

سنة ١٥٥٥

جمع العساكر اللازمة لحرب كبير يتم به امرهما معا غيران الايمپراطور أمل ان يسترد ما فاته من القوة بمخادعة حربية ولو نجحت على طبق مرامه لاغنته عن عدة نصرات وبيان هذا هو انه مدة حصار متزة كان القسيس ليونار كبير دير من الديور الفرنساوية بهذه المدينة قد استمال قلبه الدوق دوكيز وصار عنده بمنزلة لما كان يبديه من الميل وقت المحاصرة الى حزب الفرنساوية وكان هذا القسيس متيقظا ذا نباهة تامة وعقل مطبوع على الدسائس والتعصبات فنفع الفرنساوية وقت المحاصرة كل النفع بتحريضه الاهالى على التثبت فى المدافعة وبالمكاتبات سرا بينه وبين بعض احزابه ليوقف الفرنساوية على احوال الاعداء ومقاصدهم فاحبه الدوق دوكيز مراعاة لهذه الخدمة حتى انه عند ارتحاله من متزة وصى عليه الامير ولويل وقد ولى حاكما على المدينة فعمل ولويل بقول الدوق وصار يراعى هذا القسيس كل المراعاة ويأتمنه كل الائتمان حتى اذن له ان يخاطب من شاء حيث انه كان ممن لا يشك فى صداقتهم غيران ليونار اما لخفة عقله كما هى عادة من يحبون الترقى والمخاطرة بأنفسهم لنيل المعالى واما لرؤيته أن مملكة فرانسا لم تكافئه حق المكافأة ارطلنا منه انه يسهل عليه الشروع فى كل شئ بدون ان يمسه ضرر صمم على ان يسلم مدينة متزة لجنود الايمپراطور فعرض مقصده على ملكة المجار وكانت حاكمة اذ ذاك بمملكة البلاد الواطية فبمجرد وقوف الملكة على ذلك لم تتوقف حيث رأت فيه ثمرة لشقيقها الايمپراطور واعانت القسيس على تدبير امره بحيث يتحقق النجاح فى مقصده وانعقدت الشروط على ان القسيس المذكور يحمل قسس ديره على ان يكونوا من ارباب الفتنة وان يدخل فى هذا الدير مقدارا من العساكر بعد ان يلبسهم ملابس القسيسين حتى لا يعرفهم احد واذا استعد القسيس بذلك وتمم ما يلزم لتجهيز مقصده يتوجه حاكم مدينة تيونوى الى متزة ليلا مع طائفة كبيرة من العساكر ويتسلق حيطان المدينة فاذا هم محافظوا المدينة بدفع الاعداء من اعلى الاسوار يضع القسوس النار فى عدة من زقاقاتها ويخرج حينئذ العساكر المختفية فى الدير ويهجمون

مطلب كيفية الفتنه

على

سنة ١٥٥٥

على محافظى الاسوار من خلفهم ولاشك انه فى اثناء الرعب والخوف وما يترتب من الخلل والارتباك عن ذلك يسهل على جنود الامبراطور ان يتغلبوا على المدينة ومن جملة الشروط ان القسيس مجازاة له على ذلك يجعل اسقف على متزة وان يجازى سائر القسوس الذين يعينونه فى هذه الفتنة مجازاة عظيمة

مطلب
نجاحه فى تدبير هذا الامر اولا

واستعد القسيس ليونار فى اقرب وقت لتدبير امره من غير أن يشعر به احد وكان له شوكة عظيمة فبالحاحه على القسوس حسن لهم مكافأتهم وما سيمنحونه تشريفا القدرهم اخذ بعقولهم وادخلهم فى الفتنة وادخل فى الدير من العساكر ما امكنه ادخاله بدون ايقاع شك فى قلوب احد واخبر فى وقته الامير حاكم تيونويل وكان له علم من قبل بهذا المقصد حتى كانت جنوده متهيئة للرحيل عند الطلب وقرب آن ضياع مدينة متزة من يدى ملك فرانسا

مطلب
معرفة سر الفتنة

لكنه لحظه حصل فى اليوم الموعود أن اخبر ولويل وكان من الضباط الماهرين المتيقظين من طرف جاسوس كان له بمدينة تيونويل ان بعض الرهبان الفرنسيسكية يجتمعون كثيرا عند حاكم تيونويل ويتذاكرون معه سرا وهو يطلعهم على اسراره والظاهر أنه يستعد لمشروع مهم فبمجرد أن وقف ولويل على ذلك توجه الى الدير الفرنسيسكانى من غير ان يخبر أحدا فوجد العساكر مختفية به وألزمهم بان يخبروا عما يعرفونه من خصوص الفتنة وكان القسيس ليونار قد توجه الى مدينة تيونويل ليتمم امره فعند رجوعه الى متزة قبض عليه فى بابها واقر من تلقاء نفسه قبل العذاب والتعذيب بقصده وحكى عنه تفصيلا

مطلب
انهزام طائفة من عسكر الامبراطور فى هذه الفرصه

ولم يكتف ولويل بقبضه على الخائنين وافساد ما دبروه بل عزم على الانتقام من جنود الامبراطور وخرج من المدينة مع اجود رجاله واختفى بقرب الطريق التى يأتى منها حاكم تيونويل وانقض على جنوده وكانوا لأنهم على غير احتراس فلحقهم الرعب والفزع حين هجم العدو عليهم وهم يظنونه فى غفلة ويحسبون ان سيكون فريسة لهم وتشتت شملهم ولم يحصل منهم ادنى

من سنة ١٥٠٠

مقاومة وقتل اغلبهم واسر وقتل فيهم اناس كثيرون من اولى القدر والامتياز ورجع ولويل الى المدينة على الفجر بجرّ أذيال النصر والفخر

مطلب عقاب من كانوا اسبابا فى الفتنة

وقد بقى امر عقاب القسيس ليونار ومن كان معه فى الفتنة من القسوس مجهول الحال مدة وسبب تأخير عقابهم فى نظير سيء ارتكابهم هو احترامهم ومراعاتهم بالنظر لوظيفتهم سيما ولوحظ أن بعقابهم يشمت اعداء الكنيسة الرومانية فيها ولكن حيث كان عقابهم مما لابد منه ليعتبر بهم غيرهم ولا تحصل خيانة مرة اخرى صدر الامر بتحقيق دعواهم ولم يكن اثبات خياناتهم بعسير حيث كانت ظاهرة بديهية لا تحتاج الى دليل فحكم على ليونار وعلى عشرين من قسيسيه بالقتل وكان قد وضع كل منهم فى سجن على حدته حتى تم تحقيق قضيتهم وحكم عليهم بالقتل فجمعهم الخازن معا فى غرفة كبيرة فى الليلة التى يكون اجراء قصاصهم صبيحتها وانما جمعهم ليسهل عليهم أن يمكنوا انصرانيتهم قبل موتهم على حسب دياناتهم فبمجرد أن خلوا وحدهم صار الشباب منهم فضلا عن اشتغالهم بواجباتهم الدينية يوبخون ليونار واربعة قسوس شيوخ كانوا اغووهم ويلومونهم على طمعهم حيث هو أدّى بهم الى الحتف والى طائفتهم بالمعرة والرجس ومن التوبيخ انتقلوا الى لعن هؤلاء الشيوخ والسخط عليهم وبعد ذلك تلبس هؤلاء الشباب بالغضب واعماهم اليأس فانقضوا على الشيوخ تخالهم مجانين وقتلوا ليونار وأساؤا القسوس الاربعة كل الاساءة حتى انهم فى الصباح لعدم اقتدارهم على المشى وضعوهم فى عربة ذات عجلتين مع رمّة ليونار وارسلوهم الى الميدان المعدّ لقتلهم وعفى عن ستة من الاصغرين سنا وقتل الباقون لما استحقوه بارتكابهم الغدر والخيانة

مطلب عدم نفع ما حصل من المداولات فى شأن الصلح

هذا ومع ذهاب قوى كل من الايمپراطور وملك فرانسا لطول الحروب كان لا يظهر منهما رغبة فى الصلح وذلك ان الكردينال دولاپول الذى بعثه البابا الى انكلترة تابعا عنه كما تقدّم قد بذل من الجهد فى ايقاع الصلح بينهما ما تسمح به نفوس اهل الديانة والمروءة حتى أنه حمل ملكة انكلترة على التوسط بينهما بل وحمل الايمپراطور وملك فرانسا مع عداوتهما وبغضائهما لبعضهما على

أن

سنة ١٥٥٥

ان يبعثا رسلهما للمداولة فى شأن الصلح الى قرية بين مدينة غراولونس ومدينة اردروس وتوجه هذا الكردينال بنفسه الى تلك القرية صحبة الاسقف ونكستر لقصد التوسط بين الحزبين فيما يحصل فيه التوقف وقد عين الملك هنرى اعظم وزير عنده للمداولة فى الصلح وكذلك الايمبراطور عين من يأتمنه ويعتمد عليه من وزرائه ومع ذلك فلدى اجتماع الوزيرين انضح انه لا احد من الحزبين يود الصلح بطيب خاطر كيف وقد عرض كل من الوزيرين شروطا فوق كل حد بحيث لا يمكن قبولها فبذل الكردينال دولاپول غاية جهده مع نباهته وفصيح بيانه فى تحسين الصلح للفريقين حتى يدعوهم الى العدول عن تلك الشروط الصعبة واشتراط غيرها الا انه رأى ان لا سبيل الى تأليف قلوب تحالفت على الحقد لبعضها ففك المجلس ورجع الى انكلترة

فى ٢١ من شهر ايار

مطلب مصالح المانيا

وكانت بلاد ألمانيا فى أثناء هذه المداولات السياسية فى غاية من الامن والراحة فكان هذا اوفق وقت بعقد مشورة الدينية لقصد المداولة فى شأن الدين وهو الامر الاهم لراحة داخل الايمبراطورية ولا يخفى انه بمقتضى المشارطة المنعقدة بمدينة باسو سنة ١٥٥٢ من الميلاد كان قد احيل الى مشورة الدينية المذكورة ان تصلح بين الناس فيما يخص الدين بحيث يمنع ما كان حاصلا اذ ذاك من التفاقم والشقاق وكان قد انحط الرأى على انعقاد تلك المشورة بمدينة اوكسبورغ بعد اتمام المشارطة المتقدم ذكرها غير أنه منع من انعقاد المشورة المذكورة شيآن احدهما ما كان حاصلا اذ ذاك لبلاد المانيا من الرعب والخوف بسبب حرب الامير البيردوبراندبورغ والثانى هو اشتغال فرديننند بمصالح بلاد المجار

مطلب انعقاد مشورة الدينية بمدينة اوكسبورغ وخطاب فردينند لهذه المشورة

وبعد أن تأخرت المشورة تلك المدة لداعى الاسباب المتقدمة تحتم على فردينند لشدة لزوم تلك المشورة ان يذهب الى مدينة اوكسبورغ وتوجه اليها فى اوائل هذه السنة ولم يوجد بالمشورة سوى افراد قليلين من الامراء والوكلاء ومع ذلك بادر فردينند بافتتاحها وعرض على الحاضرين بها ان يجتهدوا فى ازالة الشقاق والفتن التى كانت المنازعات والمشاحنات الدينية سببا فيها وحكى ان هذا

سنة ١٠٥٥

الخصوص هو أهم المصالح لديه ولدى الايمپراطور ثم سرد عليهم الموانع الجمة التى لاقاها الايمپراطور لدى طلبه انعقاد مشورة قسيسية عامة لبت هذا الامر وذكرهم بالمصائب التى اوجبت تأخير هذه المشورة القسيسية ثم اوقفتها بالكلية ونبه على ان الاعصار تكاد أن تشبه بعضها فما حصل من التوقف الآن لابدّ من حصوله غدا والمشورة القسيسية لابدوأن يحصل التوقف فى اجتماعها مادامت ملوك النصرانية مع بعض فى عناد وخصام وان المشورة القسيسية الملية التى اريد انعقادها فى المانيا وكان يؤمل ان تكون اعظم وسيلة فى منع النزاع لدى المذاكرة هى مشورة لم تسبق بمثلها فتكون اشبه ببدعة وافتاؤها لا يكون معلوم الحدّ ولا الصورة وانه لا يرى لمنع المنازعات الدينية التى تسبب عنها كل ضرر وشؤم سوى وسيلة واحدة وان هذه الوسيلة وان لم يكن لها ثمرة قبل ذلك فلابد من حصول ثمرة جليلة منها مع استقامة من يوكلون بها وخلوص بواطنهم من كل ضغن وعناد وهذه الوسيلة هى ان ينتخب بعض افراد من العلماء العارفين المدققين المشهورين بالاستقامة والصدق وبالمذاكرة مع بعض بالتى هى احسن فى الامور الدينية المتنازع فيها ان لم يمكن ارجاع الحزبين المتخاصمين الى عقيدة واحدة فلا اقل من امكان حملهما على مداراة بعض بحيث لا يكون تنافر بينهما وان كانت عقائد احدهما تخالف عقائد الآخر

مطلب وسواس المعتزلة وخوفهم

وقد طبع هذا الخطاب ونشر على حسب العادة فى سائر بقاع الايمپراطورية فاوجب خوف المعتزلة ووسواسهم وتعجبوا مما فهموه من قول فرديننـد حيث لم يذكر فيه مشارطة پاسو مع انها كانت معدودة عندهم اقوى وسيلة فى حفظ المترية من جهة الدين والعقائد وقد كبر الوسواس فى صدورهم بما كان يبلغهم خبره كل يوم من ان المعتزلة كانوا يعاملون بأسوأ معاملة فى دول فرديننـد الوراثية واستدلوا باعمال هذا الملك على نياته فلم يعتمدوا على ما كان يظهره من الاستقامة والخلوص حيث كانت افعاله تكذب اقواله

مطلب ازدياد وسواس المعتزلة وخوفهم لدى مجىء وكيل من طرف البابا ليحضر مشورة الدينية

وتدوافق لغطهم مجىء الكردينال موروون ليحضر مشورة الدينية بالنيابة عن البابا فزادهم ذلك ثباتا فيما كان قائما باذهانهم وجزموا بان المقصد انما هو

تدبير حيلة للتعكير على المعتزلة والاضرار بديتهم والواقع أن البابا جولس اغترارا منه برجوع الانكليز الى طاعة الكنيسة الرومانية ظن أن العاصين قد بطل جهدهم وضعفت حدتهم وان الامم بأجمعهم سيرجعون الى الامتثال لتلك الكنيسة وسيعود دين المسيح مظفرا منصورا فبعث وكيله موورون الى اوكسبورغ وامره ان يصرف جيد فصاحته فى حث الالمانيين على الاقتداء بالانكليز فى اتباع الكنيسة الرومانية وان يمنع بحذاقته صدور كل امر مضر بالدين المسيحى من اوامر الدييتة وكان لموورون باع طويل فى المداولات والدسائس يشبه فى ذلك اباه الشهير كاتب السجلات بدوقية ميلان فلولم تحصل تلك الحادثة الآتى ذكرها لاعيى المعتزلة وافسد عليهم تدبيرهم

سنة ١٥٥٥م

مطلب هلاك البابا جولس الثالث

والحادثة المذكورة هى موت البابا جولس فكفاهم شر محضر وكيله موورون وسبب موته هو أنه لكثرة انهماكه على اللعب واللهو الذى لا يليق بكبر سنه ولا بمنصبه تعود على البطالة والكسل حتى صار ينفر كل النفور من التصدى للمصالح الجد واذا تصدى لمهم كان لا يقدر على تسويته وكان ابن اخيه منذ زمن طويل يلح عليه فى عقد مجلس الكردينالات وكان جولس يحاوله ويمارغه فى ذلك خوفا من أن يناقضه ارباب هذا المجلس فيما كان نواه من اعلاء قدر ابن اخيه المذكور ولكن حيث كان مع ما يقترحه من الحيل لا يجد راحة بسبب الحاح ابن اخيه وكان نفوره من الاشغال يزداد يوما فيوما استصوب ان يتمارض ليسلم من الحاحه وابرامه فلازم غرفته وغير اكله وشربه وكيفية عيشه حتى لا يفهم احد ان ذلك تمارض منه ولا مرض به وواظب على هذا الامر المضحك كل المواظبة فأورثه مرضا صحيحا هلك به بعد ايام قليلة وترك الكردينال دلمونت نديمه فى الوقاحة وقسيمه فى الفضيحة على منصب الكردينالية الجليل الذى كان يدنسه بشين اهماله وبمجرد وقوف موورون على خبر هلاك جولس سافر من اوكسبورغ وكان بها منذ ايام قليلة وتوجه بدون تراخى الى رومة ليحضر بها انتخاب البابا الجديد

مطلب رجوع موورون الى رومة فى ٢٣م من شهر ادار

وبتباعد موورون اطمأنت المعتزلة وعرفوا ان خوفهم كان فى غير محله وان

فرد يننـد لم تكن نيته نقض مشارطة باسو ولا الاضرار بهم ومن المعلوم أن الايمبراطور سلم لاخيه فرد يننـد فى حكومة المانيا وادارتها الداخلية منذ اطمسه موريس وافسد عليه ما ربه فى حق المانيا وهدم جور الدين وجور السياسة بعد أن كاد هذا الايمبراطور يمكنهما بتلك البلاد وكان فرد يننـد اقل طمعا من الايمبراطور فعدل عن نهجه ولم يقتد به فى ما كان مصمما عليه ولم يمكنه تنجيزه مع عظيم بطشه وصولته وصرف فرد يننـد كل همته فى استصحاب امرآء المانيا فيه وفى عائلته فعدل فى حكمه وسلك كل ما يوجب ميل الناس اليه وكان سلوكه على هذا المنوال مبنيا على الصدق التام وخلوص الطوية من جهته لاسيما وكان حينئـذ يلزمه مداراة الناس ليساعدوه على ما ربه ويكونوا معه على قلب رجل واحد وينصروه على اخيه الايمبراطور فى امر كان نواه وهو تبديل شروط حق وراثة الايمبراطورية بحيث يكون الملك من بعـده لابنه فيليش وقد كان شرع فى ذلك قبل الآن وعورض فيه حتى اضطر الى تأخيره لهذا الوقت وألح بالثانى على اخيه فرد يننـد ان يقبل جعلا ويتنازل لعائلة الاستريا عن حقه فى وراثة الايمبراطورية ولم يكن فرد يننـد ممن يرضون بحرمان انفسهم من مثل ذلك المنصب الجليل ولكن رأى ان ثباته وتصميمه على الاباء لا يكفيان فى حفظ حقه ولا بقيانه من الحاح الايمبراطور ان لم يساعده امراء الايمبراطورية فصار يميل اليهم فى كل الامور ويجيبهم الى مطالبهم حتى يستميلهم ويدخلهم فى حزبه

وثم سبب آخر كان يحمل فرد يننـد على مراعاة امرآء الايمبراطورية والامتثال لقولهم وهو أنه كان محتاجا لامداد قوى من طرف مشورة الدينية ليستعين به على مقاومة الاتراك حيث انهم بعد استيلائهم على معظم اراضيه ببلاد المجار كانوا يتأهبون بجيش جرار الى الهجوم على ما كان باقيا بيده من البلدان بالمملكة المذكورة وحيث كان لا يستغنى عن اعانة المعتزلة لزمه ان يستميلهم ليساعدوه على هذا الحرب فأحب ان يمكن اساس الصلح بداخل الايمبراطورية حتى يمكنه ان يثبت للقاء الاجانب

مطلب الاسباب الحاملة للملك فرد يننـد على مساعدة المعتزلة

مطلب ما نواه الايمبراطور من تبديل شروط حق الوراثة فى الايمبراطورية

مطلب تأهب الاتراك الى الاغارة على بلاد المجار

سنة ١٠٥٥

وقد حصل من المعتزلة بعد افتتاح الديتة بأيام قليلة ما اوجب على فرديننند ان يكون على غاية الاحتياط فى معاملتهم وذلك انه حين اذيعت صورة خطابه للمجلس كما تقدم واوجب قوله خوف المعتزلة ووسواسهم ذهب كل من منتخبى السكس وبراندبورغ وحاكم هيسة الى نومبورغ وهناك جددوا مشارطة المعاهدة التى مكثت بها عائلاتهم على الاتحاد والالتئام حينا من الدهر وزادوا فيها شرطا جديدا وهو أن تعهدوا بابجرآء ما انحط عليه الرأى فى مدينة اوكسبورغ وتحالفوا على اجرآء مناسكه ورسومه الدينية كل منهم فى البلاد الموجودة تحت حكمه

مطلب ما حصل من المعتزلة مما اوجب على فرديننند ان يتبع سبل الاحتياط والاحتراز

وبناء على ما تقدم اجتهد فرديننند فى سياسة المذاكرة بمشورة الديتة وتدبيرها على وجه بحيث لا يغضب حزب المعتزلة حيث كانت محبتهم اذ ذاك لازمة له بقدر ما كان تنفيرهم يضر به فعرض على اهل المشورة أن يقدموا المذاكرة فى امر الدين على كل شئ وامتثلوا لقوله غير أنه لدى افتتاح المذاكرة اشتدت حمية الحزبين وعلا النزاع فيما بينهم كما هى العادة من أن المحاجة فى هذا المخصوص لا ينشأ عنها سوى هيجان العقول وفوران الاذهان وكلما اتسع ميدان المجادلة كثرت الحروب المدنية وعظمت المصيبة بدون وقوف على غاية لذلك

مطلب اجتهاد فرديننند فى الاصلاح بين حزبى المعتزلة والقاثوليقين

اما المعتزلة فزعموا ان الحرية فى العقيدة حق ثابت بمقتضى مشارطة پاسوا ويجب ان يعم ذلك الحق كل من كان متمسكا او سيتمسك بمذهب لوتير واما القاثوليقيون فقرروا ان البابا هو قاضى القضاة وحاكم الحكام فيما يخص الدين فان كانت حالة الايمبراطورية الآن وحب الصلح ألزمتهما بالتساهل فى اباحة العقائد الجديدة فهم لا يتساهلون فى أن نعم تلك الاباحة المدا آت العاملة بمقتضى النائب الوقت الذى كان نشره الايمبراطور قبل ذلك ولا فى ان نعم القسيسين الذين يعتزلون من الآن فصاعدا وينفصلون عن كنيسة رومة ولم يكن امر الاصلاح بين الحزبين بيسير حيث كان لكل منهما علماء عارفون يؤيدون دعواه مع تبحرهم فى علم التيولوجيا وتمكنهم من فن البحث والمجادلة والاتيان بدقيق

مطلب دعوى كل من القاثوليقيين والمعتزلة

سنة ١٥٥٥

المعانى مع الطعن بالالفاظ المعهودة عند اهل هذا العلم ومع صعوبة ايقاع الوفق بين هؤلاء امكن فرديننداً ان يحمل كلا من الحزبين على التساهل فى امور وفسر المسائل المشكلة تفسيرا يليق بالحال وصار تارة يبرهن على لزوم اتفاقهم معا وما يترتب عليه لهم من الفوائد الجمة وتارة يهددهم بان يفسخ المشورة ان لم يمتثلوا حتى وصل الى ارضاء الحزبين والاصلاح بينهم

مطلب حصول الصلح فيما يخص الدين فى ٢٥ من شهر ايلول

وتحرر تقرير بمقتضى ماذكر وصدق عليه ارباب المشورة واذيع بين الناس على حسب ما تقتضيه العادة اذذاك من الرسوم ولنذكر الشروط الاصلية من هذا التقرير فنقول اولا ان الامراء والمدائن التى اتبعت المذهب المتفق عليه فى اوكسبورغ لا حرج عليهم فى اتباع هذا المذهب واجراء ما يتعلق به من المناسك ولا حق لاحد فى ان يعكر عليهم فى ذلك بل ولو كان نفس الايمپراطور اواخاه فرديننـد ملك الرومانيين ثانيا ان المعتزلة يجب عليهم ايضا ان لا يعكروا على الامراء ولا على الدول المتمسكة بقواعد القاثوليقيين فى شئ ما من مناسكهم وتعبداتهم ثالثا انه من الآن فصاعدا اذا حصل نزاع فى الدين يجب انها ما بالتى هى احسن اى بالمذاكرة والمشاورة مع اتباع سبل الرفق والملاطفة رابعا ان قسيسى الكنيسة الرومانية لا حق لهم فى الافتاء فيما يخص الدين على البلدان التابعة لمذهب اوكسبورغ خامسا ان كل من كان بيده شئ من التزامات الكنيسة اوايراداً ثبتته له الكنيسة قبل ذلك يحفظه ولا يجوز مزاحمته فى هذا الخصوص من طرف الديوان الايمپراطورى سادسا ان الحاكم السياسى له الحق فى ان يخص اى بلدة كانت باى عبادة كانت ولكن لا حق له فى ايذاء من خالفه فى ذلك من الاهالى وانما يجوز لمن لم يمتثل ان يخرج من البلدة بمتاعه وما ملكت يداه ويذهب الى اى بلدة اخرى اراد الاقامة بها سابعا اذا حصل من الآن فصاعدا من حبر أومن قسيس مهما كان ان ترك دين رومة فهو يحرم مما بيده من ابريشية اوايرادا وخلاف ذلك وما بيده يعد محلولا كباقى الاملاك بعد نقلها عن صاحبها او بعد موته وبعد حلها ونزعها من يده تعطى بامر صاحب الحل والعقد فى ذلك لانسان آخر

سنة ١٥٥٥

يكون مجرّب الاطوار مشهورا بحبه دين الكنيسة الرومانية
هذه هي الشروط الاصلية المذكورة في هذا التحرير الشهير الذي كان اساسا لصلح الدين في بلاد المانيا ورابطة الاتحاد بين دولها وكانت اعتقاداتها الدينية في غاية التباين اما في عصرنا هذا فكل ملة متمدنة عرفت بقيمة الحرية الدينية وفوائدها الجليلة لابد وان تستغرب من هؤلاء الناس كونهم لم يبادروا باتباع سبيل الرفق والوفاق كما هو مدلول دين المسيح وفحواه الصحيح ولكن سبيل المعروف وان كان الاقرب والاصوب كان الناس تعوّدوا على خلافه وتنوّعت عقائدهم حتى ضلوا وعميت ابصارهم عن ذلك الهدى نعم كانت الآراء والاعتقادات في شان الديانة كثيرة متنوعة بين المشركين في الجاهلية ولكن لم ينشأ عن كثرتها منازعات ولامشاحنات بين الملل و بعضها وذلك لانه كان لكل بلدة آلهة مخصوصة بها وكانت عبادة كل امة الهها لاتستلزم نفي وجود اله ملة اخرى فبهذا الاعتبار لم تكن ديانة بلدة منافية بأي وجه كان لديانة غيرها ولذا لم يترتب على ضلالاتهم وخرافاتهم مضرة بصلح الدول ومع كثرة تعدد آلهتهم وتنوع شعائرهم ومناسكهم الدينية كانت الاباحة في العبادات لم تزل موجودة عندهم وكانوا مع بعض على التألف والتحبب لايحملهم اختلاف عباداتهم على التنافر من بعض فكأن المتعبد بشيء يقول لمن سواه لكم دينكم ولي دين
ولكن لما ظهر عيسى عليه السلام بما اوحي اليه من انه لا اله الا الله وان الدين واحد لاسواه يليق بذاته العلية رأى من لحقته الهداية وعرف حقيقة هذا الدين ان التمسك بما سواه من الديانات من البدع الباطلة بل وهو كفر على الاطلاق ومن ثم نشأت غيرة اوّل من تنصر على اذاعة دينهم ونشره ونشأت عندهم تلك الحمية التي حملتهم على السعي في ابطال العبادات الاخرى ونسخها غيرانهم في مبدأ الامر لم يسلكوا في نشر دينهم سوى طرق الحلم والملاطفة اللائقة بدين النصرانية كالاستيلاء على عقول العباد بقوة البراهين والادلة واستمالة افئدتهم باتباع اعظم الفضائل واجلها ثم حصل فيما بعد أن الحكام وولاة الامور ساعدوا دين النصرانية وانضموا الى حزبه لابطال ما عداه ودخل

مطلب
بعض ملحوظات على تقدم الناس في معرفة الدين وفي الحرية الدينية

سنة ١٥٥٥

معظم المشركين تحت قبضة الكنيسة اقتداء برؤسائهم الا انه بقيت جماعات كثيرة منهم محرصة على دياناتها الاولى لا ترضى ان تعدل عنها وكان امناء الانجيل لم تفتر همتهم فى نشر دين النصرانية ولو لم يكونوا باقين على فرط حميتهم الاولى لخنقوا الآباء الحزب العاصى وامتناعهم من الدخول فى دين المسيح وارادوا أن يلزموهم بالتمسك به من غير سؤال عن علة ولا معلل فتجاوزوا حدود رسالتهم وقوموا الملوك والحكام على من لم يتيسر لهم اقناعه والخامه بالحجج والادلة

ومع ذلك فالنصارى انفسهم لم يبقوا على الاتحاد مع بعض بل وقعت المشاجرات بينهم فى نفس دين النصرانية وعما قليل قاتلوا بعضهم بالاسلحة التى كانوا يحاربون بها من أبى الدخول فى دين المسيح وصار كل كاهن من الكهنة المتنافسين اذ ذاك يسعى فى استمالة ولى الامر الى مذهبه وما ملك احد منهم فرصة الا حرض الملوك والحكام على اخصامه واستعار جاه الشوكة الملوكية فى نزعهم وتدميرهم وبادرت حينئذ اساقفة رومة بادعائهم العصمة والتنزه عن الخطأ فى تفسير الاصول والاحكام الدينية وفيما يصدر عنهم من الفتاوى فى بت اى قضية كانت من القضايا الدينية المتنازع فيها وقد نالوا مطلوبهم هذا بابرامهم وكثرة حيلهم ودسائسهم وأنزهم الناس بجهلهم اذ ذاك على المعصومية والتنزه عن الخطأ وصار ذلك حقا لهم بعد أن كان دعوا باطلا ومن وقتئذ صار هؤلاء القسوس اذا حكموا بامر فى احدى القضايا او احد الاحكام الدينية وناقضه احد او شك فيه فكأنه كذب الحق او عصى لمرا منزلا من السماء ومتى ارادوا الانتقام ممن وقع منه ذلك استعانوا عليه بساعد الصولة الملوكية وكانوا قد استحوذوا على الملوك لحيلهم حتى كانوا طوع ايديهم لا يخرجون عن اقوالهم

فترى ان بلاد اوروبا كانت قبل منذ قرون متعوّدة على ان يذاع فيها بعض القوة والتعصب ما كان نظريا محضا تصديقه موقوف على تصوره وادراك حقيقته ولم تكن اذ ذاك ادلة مقنعة غير الالزام والاكراه واهملت شعائر الحلم

سنة ١٥٥٥م

والرحمة التى هى مبنى دين النصرانية وكانوا يجهلون اباحة التعقل التى تجوز لكل امرئ ان يتبع حكم عقله و يتمسك بما استحسنه من التعبدات وبالجملة فالاباحة ولو بمعناها الدالة عليه الآن كانت مجهولة عند هؤلاء الناس وكانوا يعتقدون ان الاستعانة بساعد الظلم فى قمع اهل الزيغ والالحاد من ضمن مزايا من ضواهر الحقائق وحيث كان كل حزب يزعم انه اختص بهذه المنحة كانوا كلهم يرتكبون المظالم كل بحسب اقتداره ظنا ان ذلك حق له بوصف كونه مفتاح باب الحق ولما كان القاثوليقية عاملين باصول البابا وكان الناس حينئذ يعتقدون انه معصوم عن الخطا طلبوا مع الانفة والكبر من الصولة الدينية ان تدمر المعتزلة فى تطير ابتداعهم فى الدين وكان المعتزلة ايضا يجزمون بحسن مذهبهم وجودته فأبوا الا التصميم عليه وحرضوا امراءهم على ايذاء من يتجاسر على مخالفته ومناقضته واخذ كل من لوتير و كلوين و اكرانمير واكنوكس وهم رؤس المعتزلة ببلده فى عقاب من شك فى حقيقة مذاهبهم ومتى ظهرت لهم فرصة كانوا يعذبون من عدل عن سننهم بنفس العذاب الذى كانت الكنيسة الرومانية تتبعه فى تعذيب المعتزلة ولو لم يفعلوا ذلك لظن احزابهم واصحابهم بل وتوهم اخصامهم انهم فى شك من صحة مذاهبهم

وفى انتهاء القرن السابع عشر من الميلاد صارت الرخصة الدينية مقبولة بجمهورية الاقاليم المجتمعة وانتقلت منها الى بلاد الانكليز ثم انضم الى المصائب الناشئة عن ايذاء المعتزلة تأثير الحرية فى تكامل الدول وتأثير العلوم فى تقدم الناس وكسبهم الشفقة والرأفة وتأثير كياسة الحكام ونفوذ همتهم فى ضبط البلاد وترتب على هذه الاسباب ما نراه الآن من التنظيمات المحكمة وازيلت الحمية الجاهلية الاولى التى سولها للناس جهلهم بحقيقة الدين واسرار أحكامه او عودتهم عليها قوانين الكنيسة الرومانية وقواعدها التى وضعتها وأذاعتها بينهم

ومن المشاهد حسا فى مشارطة اوكسبورغ ان من حضر المشورة التى

سنة ١٥٥٥
مطلب
الفوائد التي نشأت عن صلح الدين لاتباع لوتير

ترتيب تلك المشارطة لم يعملوا بموجب ما تقتضيه اصول الحزم والاصابة فيما يخص اباحة التعقل وترخيص الديانات باجمعها وانما كان القصد من ذلك ايقاع الصلح من حيث كان بين حزبي المعتزلة والقاثوليقيين لاسباب سياسية حملت كلا من الحزبين على التساهل في التوافق وكان لازما لراحتهما وأمنهما على انفسهما ويوجد برهان قوي على ما ذكرناه في احد بنود هذه المشارطة وهو ما ذكر من ان فوائد صلح تلك المشارطة لا تشمل غير القاثوليقيين ومن يتبع الاصول الدينية التي أقرت في مشورة اوكسبورغ وبهذا القيد حصل حصر بين اصحاب ازونغلو واحزاب كلوين وصاروا عرضة للعقابات المعدة في القوانين لطائفة المعتزلة اوالخوارج ومضى نحو المائة سنة والقوانين لا تسعفهم بالحماية والمدافعة عنهم ولم يتمتعوا بما كان ثابتا لاصحاب لوتير من المزايا فيما يخص الاباحة الدينية الا بعد انعقاد مشارطة وستفاليا

مطلب
الفوائد التي خصت القاثوليقيين من صلح الدين

ولكن كما فرح اتباع لوتير لمشارطة اوكسبورغ حيث جوزت لهم مذهبهم فرح كذلك اعداؤهم القاثوليقيون لما اشتملت عليه المشارطة المذكورة من أن يختص قسوس القاثوليقيين بايرادات من يعدلوا من الآن فصاعدا عن دين رومة واشتهر هذا الشرط ببلاد المانيا باسم الخصوصية القسيسية وهو على طبق ما كان قائما اذ ذاك في عقول الناس على ماهية الحقوق الثابتة لكنيسة رومة فظهر وقتئذ من العدالة والانصاف أن تلك الايرادات حيث كانت معدة من الاصل لتعيش من تمسك بدين الكنيسة الرومانية لا بد وأن تبقى على ما اعدت اليه كالوقف اذ لا يصح تغيير شرط الواقف وقد احس نفس المعتزلة مضرة ذلك وعارضوا فيه خوفا من عواقبه لكن معارضتهم لم تجد شيأ واضطروا الى السكوت هذا وكان امراء المانيا القاثوليقيون يدققون في اجراء هذا الشرط ويحافظون عليه مهما امكن فصار ببلاد المانيا اقوى سور تدفع به كنيسة رومة مسوء المعتزلة ومن وقتئذ صار لا فائدة لاحد من القسوس في العدول عن دينه فقل أن وجد احد بعد ذلك اذى به اعتقاده

في الدين

سنة ١٥٥٥

في الدين الجديد وجزمه به الى ضياع الارباح والايرادات الجسيمة التي كان يتمتع بها

مطلب انتخاب مرسيل الثاني بابا في تسعة من شهر نيسان

ومدة انعقاد مشورة الديتة اختير مارسيل سنروينو كرديتال الصليب وجعل بابا على كنيسة رومة بعد موت البابا جاليوس ومارسيل المذكور لم يغير اسمه لدى ترقيته كما هي العادة بل حفظ اسمه اقتداء بالبابا ادريان وكان مثل ادريان المذكور طيب النية لكن يفوقه في علم الحكومة ومعرفة كنه ديوان رومة وجبلة اربابه فكان لا يخفى عليه فساد هذا الديوان والتحسين اللازم له وكان الخاص والعام يؤمل من عقل هذا الحبر انشاء قوانين جامعة مانعة تصلح ما افسد وترجع الى الكنيسة الرومانية من لم يتفرقوا منها الا لفرط مناقص قسوسها ونحشهم غير ان هذا الحبر

موته

ما تسلم حتى ودع ولم يستقر غير برهة على كرسي الكنيسة وحرم الناس بموته مما كانوا يؤملونه من حكمته وسبب موته هو ان صحته كانت أخذت في الهبوط لطول حكته مبتدا بالاشغال في ديوان الكرديتالات فعند توليته بابا تعب تعبا شديدا لطول الاحتفالات والتكلفات الرسمية التي لزمت لتبريكه وتهنيته وانضم الى ذلك مشقة حصر فكره في التحسينات التي كان يريد احداثها في الكنيسة وكانت بنيته ضعيفة فلم تتحمل تلك المشاق الفادحة ومرض في اليوم الثاني عشر من توليته ومات في المكمل للعشرين منها

انتخاب بولص الرابع لمنصب البابا

ثم اخذ الكرديتالات يتداولون في انتخاب من يحل محل مرسيل المتقدم وبذلوا في ذلك دقائق الحيل والمخادعة التي هي من شأن دواوينهم فظهر حينئذ فريقان فريق الكرديتالات الذين كانوا من حزب الامبراطور وفريق من كانوا منهم معينين لحزب الفرنساوية وبذل كل من الفريقين الجهد في استمالة ارباب الديوان اليه وتكثير الآراء من جهته لانتخاب من كان يريد توليته

٢٣ من شهر ايار

وبعد مجادلات اشتدت بقدر اهمية موضوعها اجمعوا على انتخاب ماري بطرس كاراف كبير جمعية الكهنة وهو ولد القونتة موتاربو من عائلة شهيرة في نابلي وكان انتخابه لاسباب منها ان الكرديتال فرنيز

سنة ١٥٥٥

كان معيناله كل الاعانة وقد كان له حينئذ موقع عظيم ونفوذ كبير ومنها ان كاراف نفسه كان اهل عرفان ومنها انه كان طاعنا فى السن فرجحه الطالبون منصب البابا عن غيره لاملهم ان يخلو المنصب بموته بعد قليل فيمكنهم طلبه وكاراف المذكور لدى توليته اختار اسم بولص الرابع وجعله لنفسه تعظيما لبولص الثالث الذى كان أولاه منصب الكردينال واعترافا بالشكر لعائلة فرنيز

مناقب هذا البابا

كان هذا البابا عجيب الطبع وكان يسلك منذ زمن طويل مسلكا يبعده عن هذا المنصب فعند توليته تحير اهل ايطاليا فى امرهم لانهم كانوا يعلمون اخلاقه واطواره بحيث لا يخفى عليهم ماسيلحقهم فى حكمه وكان بولص من عائلة شهيرة بحيث يسوغ له بدون معارف الوصول الى اعلا درجات الكنيسة ومع ذلك شمر فى صغره عن ساعد الجد والاجتهاد كمن لا يريد الارتقاء الا بمجرد فضله ولم يزل منقطعا للطلب حتى تبحر فى العلوم اللاهوتية السكولاستيكة وفى معرفة اللغات وعلوم الآداب وكان قد حدث تدريسها عن قريب ببلاد ايطاليا وصارت مرغوبة بها اذ ذاك غيرانه بمقتضى الجبلة كان قائم العقل ميله الى المجادلات اللاهوتية اكثر من رغبته فى ظرافة الآداب ولطافتها فصار بمكانة من تعصب القسوس واعتقاداتهم المعهودة لا على شئ من المعارف اللازمة لتدبير المصالح الجسيمة وكانت قد اعطيت له ارباح وايرادات كبيرة عند دخوله فى خدمة الكنيسة وارسل نائبا عن البابا فى عدة من دواوين الملوك الافرنجية ومع ذلك سئمت نفسه من الخدمة وعزم على ان يقضى عمره فى الخلوة اذ هى اوفق له واليق بطبعه فترك جميع مناصبه القسيسية واستعفى من الخدمة ورتب طائفة من القسس سماهم التياتين على اسم المطرانية التى اقام بها وانضم بنفسه الى هذه الطائفة وصار يعمل بمقتضى الاصول الصعبة التى فرضها على قسوس تلك الطائفة ورجح التسكير والحبس فى الدير مع شرفه بانشاء الطائفة المذكورة على المناصب الجليلة التى كانت مأمولة له من خدمته بديوان رومة

سنة ١٥٥٥

ومضت عليه مدة طويلة وهو معتزل فى الدير حتى سمع البابا بولص الثالث
عن تقواه وغزارة علمه فدعاه الى رومة ليستشيره فيما به يمكن محو الالحاد
وارجاع شوكة الكنيسة الرومانية وبعد ان اخرجه البابا من عزلته صار
يرجوه تارة ويغلظ عليه اخرى حتى البسه قلنسوة الكردينال واخذ
بالثانى ما كان تركه من الايرادات والارباح وعلق بتشريف الخدمة بعد ان
أظهر الرغبة عنها غير انه وان شهد اثنين من البابات لوث احدهما ديوان
رومة بانواع الحيل والدسائس لشدة طمعه ودنسه الآخر بجميع الفواحش
وانواع الفسق لم يتحول عن زهده وتقشفه الذى كان عليه فى الدير وكان عدوا
مبينا للابتداعات فيما يخص الديانة ومدققا للغاية فى مراعاة الدين واتباع
احكامه فاعان اكثر من غيره فى ترتيب المحكمة المشؤمة الكريهة المشهورة
بمحكمة التفتيش الدينية على ما ذكرناه فى المقدمة ولم يجد قط فرصة الا وعضد
حقوق الكنيسة وناقض فى كل ما اريد احداثه لمجرد اسباب سياسية
او مصلحة نفسية لا لقصد تشريف الكنيسة الرومانية واعلاء كلمتها فكان
ارباب الديوان يرون ان حكم مثل هذا البابا لا بد وان يكون قاسيا شديدا
كطبعه وان تكون السياسة فدية للآراء العاطلة السقيمة التى منشأها
التعصب والجهل وكان الاهالى يخافون ان تبدل فى حكمه البشاشة والسخاوة
الموجودتان من مدة فى ديوان رومة بعبوس اهل الدير وشحهم غير ان البابا
المذكور بادر باظهار ما يزيل به خوف الناس مما كان قائما باذهانهم فى حقه حيث
انه بمجرد استيلائه على الحكومة عدل بالكلية عن الشح والتقتير الذى امتاز به
هو وعائلته الى وقتئذ حتى ان وكيل بيته حين سأله عما يأمره به فى خصوص
ترتيب المأكل والمشرب من الآن فصاعدا اجابه مع الانفة بقوله كما يليق لملك
كبير وقد اجريت مراسم تتويجه فى غاية الابهة والاحتفال ويوم جلوسه على
الكرسى جاد بعدة امور لا تصدر حقيقة الا عن اهل الكرم والسخا وكان قصده
بذلك استمالة اهالى رومة وتأليف قلوبهم ومع ذلك لا بد وان كانت تغلب
عليه غلظته الجبلية وتحقق ظنون ارباب ديوان رومة ومخافة الاهالى

سلوكه بعد توليته

مطلب فرط ميله الى ابن اخيه

سنة ١٥٥٥

لولم يأت عقب توليته بأثنين قربه من ابناء اخيه القوتة دوموتوريو وجعل الاكبر منهما حاكما على رومة والثانى اولاه منصب الكردينالية ثم جعله رئيس البطارقة فى بولونيا مع انه الى وقتئذ كان خدم فى العسكرية بمملكة فرانسا وبمملكة اسبانيا وطبيعته واخلاقه اوفق لهذه الصنعة من استخدامه فى القسوس على ان المنصب الذى اوليه كان مقامه ونفوذه اعظم منصب حتى للبابا ان يتصرف فيه هذا ولم يقتصر البابا بولص على ذلك فى اعلاء درجة المذكورين بل تعدى الحد فى اعتماده عليهما وميله اليهما حتى ظهر منه انه يؤثر مصلحتهما على سائر ماعداها ويهون عليه ان يشترى اعلاء قدرهما بكل ما كان فى وسعه ولكن لو بل هذا البابا ووباله كانت مطامع المذكورين فوق كل حد ونهاية وذلك انهما لعلمهما بما سبق قبل من ارتقاء عائلة الميديسيس فى توسكانة الى المنصب الملوكى بواسطة البابات الذين خرجوا من هذه العائلة ولما رأياه كذلك من ان عائلة الفرنيز قد تولت مللتدوقية برمة ودوقية بليزنسة لحسن فرعهما البابا بولص الثالث تعلقت آمالهما بتطلب مثل ذلك وحيث كانا يعلمان ان عمهما بولص الرابع المذكور وان بلغ حبه فيهما مابلغ لايجترئ به الى حل شئ من اوقاف الكنيسة لامناحه لهما رأيا انه لاتتم امانيهما الا بالسعى فى تمزيق املاك الايمبراطور شرلكان الموجودة فى ايطاليا حتى يخصهما شئ منها ولو لم يكن غير هذا السبب لكفى فى حملهما على السعى فى ايقاع الشقاق والتفاقم بين عمهما البابا المذكورين الايمبراطور على انه كانت هنالك اسباب اخرى حملتهما على ذلك وهى

مطلب ماتعلقت به مطامعهما

كان الكردينال كاراف المتقدم وقت خدمته عند الايمبراطور فى عساكر اسبانيا لم يكرم ولم يحصل من الايمبراطور فى حقه من الاحترام والتجبيل ما كان يراه لائقا لحسبه وفضله فحنق لذلك وترك خدمة الايمبراطور ودخل فى خدمة فرانسا واكرمه الفرنساوية ورحبوا به فصار من وقتئذ يحبهم ويميل الى قربهم وقد كان اتحد غاية الاتحاد مع الجنرال ستروزى قائد جيش

سبب حقدهما للايمبراطور

الفرنساوية

الفرنساوية في توسكانة وكان ستروزي المذكور يبغض الايمبراطور فنفره منه وافهمه انه العدو الاكبر لاستقلال دول ايطاليا وحريتها هذا وتقس البابا كانت له اسباب تحسن لعقله ماصورته له النميمة في حق الايمبراطور وذلك انه عند انتخابه لمنصب البابا عارض فيه الكردينالات الذين كانوا من حزب الايمبراطور وكان توقفهم لم تزل صورته منقوشة بمرآة خياله فحقد للايمبراطور من وقتئذ وزاد عنده هذا الحقد بتذكره ماحصل له قديما من الاساءة من طرف الايمبراطور ووزرائه

فلما احس ولدا اخيه منه الكراهة للايمبراطور اخذا يبديان مالا يوصف من المكر وانواع الحيل والخداع في ايقاع النزاع بين الفريقين واضرام نار بينهما لا يمكن اخمادها فبالغا فيما لحق الايمبراطور من الغم لتوليته منصب البابا ورفعا اليه كتابا قبضا عليه مضمونه ان الايمبراطور يصف كردينالات حزبه بالاهمال والعجز حيث انهم لم يمنعوا انتخابه وزعما ذات يوم انهما وقفا على امر خفي وهو اتفاق وزير الايمبراطور مع كوم دوميديسيس على اعدامه وادعيا مرة اخرى انه قد حصل تواطئ بين احزاب الايمبراطور على قتلهما وبهذه الاراجيف القياه في حيرة زائدة وفزع كبير وكان حديد الطبع وزاد حدة ووسوسة لكبره وشيخوخته كما هي العادة فجرت به التقاويل الى سلوك طرق كان يستقبحها في اوقات اخرى كيف لا وقد قبض على جماعة من الكردينالات الذين يميلون للايمبراطور وحبسهم في قلعة سنت أنج واضر باحراء عائلة الكولون وغيرهم ممن كان في حزب الايمبراطور من اعيان رومة وبارونانها وقصارى الامر انه اشتد به خوفه من الايمبراطور وبغضه له حتى الجأه ذلك الى السعي في جلب محبة ملك فرانسا ليعول عليه ويتخذه عونا له

مطلب
حث ماله على استجلاب محبة ملك فرانسا

وكان هذا الامر غاية مامول ابني اخيه حيث كانا يريان ان لا وسيلة سواه في حصول امانيهما ولما كان عمهما كبير السن خشيا ان تنشب به اظفار المنية قبل حصول مرامهما فعوضا عن اضاعة الاوقات في المداولات بهذا

الخصوص مع الجى فرانسا الذى كان بمدينة رومة حينئذ افهما عمهما ان الاوفق ارسال معتمد من طرفه الى نفس هنرى ملك فرانسا ليتم المعاهدة فى اقرب وقت فقبل البابا قولهما و بعث من يثق به فى هذا الخصوص الى ملك فرانسا وحسن له الشروط بحيث يامن من امتناعه وكان مضمون ماعرض على الملك المذكور من الشروط هو ان يتحالف مع البابا وان تنضم عساكرهما الى بعض لشن الاغارة على دوقية توسكانة ومملكة نابلى فان تحصلوا ظفرا على العدو جعلا توسكانة جمهورية كما كانت واما نابلى فيجعل احد ابناء ملك فرانسا ملكا عليها بعد ان يفصل منها قسم يلحق بدول الكنيسة ويقسم الى ولايتين يعطى لكل واحد من ابنى اخى البابا واحدة منهما

مطلب مناقضة الجنرال مونتمورانسى فى محالفة الملك هنرى مع البابا

فاغتر ملك فرانسا لذلك وتلقى مبعوث البابا مع غاية الاحترام واكرم مثواه ولكن حين عرضت هذه الشروط على ديوان الفرنساوية لينظر فيها وكان الجنرال مونتمورانسى من اربابه وهو بالطبع يكره كل مشروع خطر وزاد وسوسة لكبر سنه وكثرة تجاربه فناقض فى تلك المحالفة ولم يرض باجرائها وذكر ان حروب الفرنساوية ببلاد ايطاليا قد اضرت بمملكة فرانسا كل الضرر مدة حكم ثلاثة ملوك متتالية وافاد ان الملة الفرنساوية لم تنجح فى التصدى لمثل هذا وقد كانت عساكرها وخزائنها على احسن حالة فكيف تنجح مع ماهى عليه الآن من الضعف الذى وقعت فيه لحروب لم تنقطع منذ خمسين سنة وافهم ان من عدم الحزم والكياسة محالفة مثل هذا البابا وقد بلغ من العمر ثمانين سنة فقوائد المحالفة معه كحبل حياته قريبة الانفصام والانصرام على ان موته لابد وان يترتب عليه تقلبات كبيرة فى امور ايطاليا و يبقى لملك فرانسا أعباء الحروب بأسرها وختم بأن الايمپراطور شرلكان حيث عزم على الخلوة وترك علائق الدنيا لابد وأن يمكن الصلح فى دوله قبل أن ينزل عنها لابنه فبناء على ذلك ينبغى التأنى ومن اللازم أن يحصل الصلح عن قريب بين فرانسا والايمپراطور واضاف الى ذلك

ان

سنة ١٥٥٥

ان هذه المحالفة تجر الى الحرب بين انكلترة وفرانسا اذ فى تلك المحالفة مايفهم ان طمع الفرنساوية هو المانع لاغيره من نشر الوية الصلح ببلاد اوروبا

مطلب
تعضيد الدوق دوكيز لهذه المحالفة

وغير كون هذه الاسباب قوية فى حد ذاتها اذا راعيت كونها صادرة من مونتمورانسى المذكور وكان كبير النفوذ والاعتبار وعبر عنها مع مزيد الحمية رأيت انها كانت تكفى فى ترغيب ملك فرانسا عن المحالفة مع البابا الا ان الدوق دوكيز وأخاه كردينال دولورينة كانا يفرحان للملمات وخطر المشروعات بقدر ماكان مونتمورانسى المتقدم يهابها ويخشى عواقبها فجنحا الى تعضيد المحالفة لاسيما وكان الكردينال المذكور يؤمل أن يفوض له امر المداولات فى هذا الخصوص مع ديوان رومة والدوق دوكيز كان يعشم أن يجعل رئيسا على الجيش الذى يرسل الى غزوة نابلى بموجب المحالفة المذكورة فكل منهما كان يرى هذه فرصة يظهر فيها ويظفر بما كان قائما بنفسه من المطامع وقد عضدت قولهما عند الملك معشوقته المسماة ديانة دوبواتير وكانت تحب العائلة الكيزية وتساعد فى اتمام مآربها وكان توسط المذكورة فوق حد الكفاية فى استمالة الملك الى قبول قول الاميرين المذكورين وترجيحه على رأى مونتمورانسى وان كان سديدا فلعماء الملك وعدم تبصره سمع ماجاء به رسول البابا

مطلب
وكالة الكردينال دولورينة بالمداولة مع البابا

وعما قليل ارسل الكردينال دولورينة حسب أمنيته الى رومة وفوض له فى امر المداولة وعقد المشارطة بشرط أن يكون ذلك فى اقرب وقت الا أن البابا لدى المذاكرة ظهر عليه الفتور والتراخى بل واستبان منه مافهم انه كان يود الغاء المذاكرة وعدم المحالفة مع فرانسا وذلك انما نه فكر فى تلون حرباء الحرب وتقلب صروف الدهر أو أن وزير الايمبراطور التى فى ذهنه لنباهته مااوجب قلقه واضطرابه غير أن ابنى اخيه اخرجاه من هذا التردد باشعال نيران حقده للايمبراطور واتبعا فى ذلك مسلك الحيل الذى سلكاه اولا وفهما فيه وافهماه ان الايمبراطور مصمم له على كل سوء وان وزراءه

سنة ١٥٥٥

مطلب
غضب البابا من الشروط الصادرة عن جمعية اوكسبورغ

لم يزالوا في عتوهم يظهرون في حق البابا انواع التهديد والتخويف ويسعون في اضرام نيران الفتن لقصد اعدامه

وحيث كان من المشهور ان الابرام مع التكرار يضيع الاعتبار لا بدّ وان كان الحاح ابني اخي البابا لا يؤثر فيه تلك المرة وكان لا يجيبهما الى مطلوبهما غير انه لمساعدة الدهر لهما حصلت حادثة مهمة لا حيث جروح البابا وزادته سخطا وغضبا على الايمپراطور وهي الجمعية المنعقدة في مدينة اوكسبورغ لخصوص المذاكرة في المنازعات الدينية وقد كانت الشروط الصادرة عن هذه الجمعية مساعدة للمعتزلة على ما تقدم فغضب البابا غضبا شديدا على الايمپراطور وملك الرومان حتى جرّ به حنقه الى التصميم من نفسه على المشروعات الجسيمة التي كانت مطمحا لنظر ابني اخيه وكانا يحاولان ترغيبه فيها وكان البابا يرى ان مزايا الكنيسة بديهية الثبوت ويبغض المعتزلة ودينهم وابداعاتهم التي كانوا شارعين فيها فرأى أن ما انحط عليه الرأى في جمعية اوكسبورغ مجرد اجحاف بالكنيسة واضرار بمزاياها لا سيما وكان بعض ارباب هذه الجمعية خارجا عن فرقة القسيسين فعدّ البابا ان تصدّيهم لبت امر يخص الدين من باب الفضول واساءة الادب حيث ان هذا الامر حق ذاتي له لا يعزى الى سواه ورأى ان الاباحة الدينية التي اعطيت للمعتزلة بموجب قرار الجمعية المذكورة ملغاة لا يعمل بها اذ ان مثل ذلك شيء متعلق به وهو لا يقر ما حصل ويراه ظلما وتعديا على حقوقه الذاتية واخبر بذلك الايمپراطور وطلب أن تنشر اعلامات بالغاء القانون الصادر عن الجمعية المتقدمة واوعد الايمپراطور وملك الرومان بكل سوء اذا ابيا اجابته في ذلك او توانيا في ابطال القانون المذكور وحكم مطلوبه وبالجملة فكان قوله مع اظهار ابهته على نمط ما كان يصدر عن خلفاء دين النصرانية في القرن الثاني عشر حيث كان يمكنهم بمجرد صدور امر منهم ان يخلعوا اعظم ملوك ذلك العصر الا ان خطابه هذا لم يكن في اوانه لا سيما وكان يخاطب وزير ملك قد اضرّ بطشه غير مرة بقسوس كانوا اعظم من البابا المذكور واشدّ منه باسا ومع ذلك لم يقلق الجي الايمپراطور من تهديد البابا بني صفي

سنة ١٥٥٥

المدينة مع غاية الصبر والتأني واخذ يهديه ويسكن غيظه ويفهمه الضنك الذي وقع فيه الايمبراطور بمدينة أنسبروق واضطراره الى التزام ماتعهد به للمعتزلة لخلاص نفسه من ورطته وكيف الجأته الضرورة فيما بعد الى انجاز عهوده وكيف ألزمته مقتضيات الاحوال بابقاء ماوعد به المعتزلة غير ان هذه الاسباب وان كانت قوية راجحة لم يكن لها ادنى تأثير عند البابا لشدة غروره وجهله واجاب الايلجي ثانيا بما مضمونه أنه بمقتضى ماله من الاجتهاد والتصرف حسب منصبه قد حكم ببرآءة الايمبراطور وفك قيده من عهوده مع المعتزلة بل وينهاه عن انجازها وانه لا يجوز اسخاط الله لارضاء العبيد ومصلحة دين الله مقدمة على كل شئ فلا ينبغي العدول عنها لاى سبب كان او جبنه السياسة والكياسة اوحمته الفكرة في عواقب الامور البشرية وان الايمبراطور قد عاقبه الله تعالى بخزلانه في مشروعاته ببلاد ألمانيا لكونه آثر مصلحة نفسه على مصلحة الدين ثم انصرف عن الايلجي بوجه غليظ ولم ينتظر منه جوابا

مطلب
اشعال ابن اخيه لنيران حقده

وغير ذلك لم يقصر ابنا اخيه في مدحه على صنيعه ونيته وكان لغروره وامتلاء ذهنه باوهام القسوس يرى ان صولته فوق كل صولة وكان يكرر دائما أنه خليفة من حطوا الملوك والايمبراطرة وان كلمته نافذة على الجميع فلا مانع له من تنكيس من يتجاسر على مقاومته ومعارضته هذه كانت نيته في حق عائلة الاوستروبا حين قدم اليه الكردينال دولورينة بصدد عقد المعاهدة بينه وبين مملكة فرانسا

مطلب
مشارطة البابا مع فرانسا

فلم يشق على الكردينال المذكور استمالة البابا الى وضع امضائه على المشارطة المحررة بينه وبين الفرنساوية وكان القصد منها ابادة الايمبراطور وهو عدوه الاكبر وكانت شروط هذه المعاهدة عين الشروط التي قدمها رسول البابا بمدينة باريس وقد حصل الاتفاق على ابقاء هذه المحالفة خفية الى أن يتأهب كل من الطرفين الى الشروع في الحرب

مطلب
عزم الايمبراطور على التنازل عن دولته الوراثية

ولكن في اثناء المداولة في شأن هذه المحالفة ظهرت على حين غفلة حادثة

سنة ١٥٥٥

يترتب عليها ازالة الاسباب التي كانت علة فيها وتلك الحادثة هي أن الايمبراطور تنازل عن دولة الزواثية لابنه فيليبش وعزم على نقض علائق الدنيا وامضاء مابقي من عمره في الوحدة والعزلة ولا حاجة الى امعان النظر وقدح الفكر في معرفة كون مقام الملوكية لايخلو عن الهم والغم وان اغلب الناس الجالسة على سرير الملك يشترون هذا المنصب المحسودين عليه باغلاء ثمن اى يتجرعون في تطيره كأس الحيرة والقلق وانواع الحرص والملل التي لاتنفك عنهم طرفة عين غير أن التنازل عن اوج العلا والمراتب الى حضيض التبعية والرضاء بترك الدولة لقصد تحصيل الراحة والسعادة الحقيقية شيء يرى مما فوق الطاقة البشرية ومع ذلك قد ذكر في التاريخ انه حصل اكثر من مرة كون بعض افراد من الملوك تنازلوا عن سرير الملك ليقضوا بقية ايامهم في الوحدة الا انهم كانوا على قسمين قسم منهم قليل التؤدة والتمكين سقيم العقل فيعض على يديه بعد التنازل ندما على مافرط منه والقسم الثاني عبارة عن اناس جليلي الشأن عاندهم الدهر واسعف عدوهم بالنصر فنزلوا من اوج الملوكية الى حضيض الخمول والتبعية وهم في حسرة زائدة واسف كبير وتظن أن لا احد من الملوك الجديرين بمقام الملوكية قد تنازل عن المملكة تنزها وعلوا في النفس سوى ديوقلسيان فانه تخلى عن الايمبراطورية مع نفس عالية عمايشين خالية وترك العلا والمناصب ترك حكيم ينظر الى الاشياء الدنيوية بعين التحقير ومضى سنوات عديدة في العزلة والتنزه بمحض اختياره من غير أن يلتفت الى مازهده ادنى التفات او يتأسف على ماعدل عنه من الابهة ورفيع الدرجات

مطلب اسباب هذا التنازل

قد تعجبت بلاد اوروبا من تنازل شرلكان عن الملك ولم يفهم معاصروه بل ولا مؤرخوا عصره لذلك سببا وان لم يألوا جهدا في البحث عن مابه يستدلون على حقيقة الامر والواقع أن تنازله من الغريب الذي يستبعده العقل حيث كان طمعا عامجبولا على حب العلا والرياسة سيما وكان في سن الستة والخمسين وفي هذا السن يقوى طمع النفس بضعف سائر

الشهوات

سنة ١٥٥٥

الشهوات النفسية فيصمم الطماع على ما رآه ويأبى الاتمام بها وانفاذها وقد نسب كثير من المؤلفين تنازله الى اسباب واهية سقيمة لا تؤثر فى قلوب البشر ولا تصح أن تكون الحاملة له على التنازل وبناه آخرون على اسباب سياسية خفية ولكن رأى المتبحرون المتفقهون من المؤرخين أن لا حاجة لتكلف مثل تلك الاسباب السقيمة من سياسية وغيرها حيث ثم اسباب مشاهدة محسوسة لتنازل الامبراطور وهذه الاسباب هى انه كان مصابا بداء النقرس من صغره ومع اعتناء أمهر اطباء زمنه لم يزل هذا الداء يشتد عليه كلما كبر فى السن ويزيد وجعه منه فى كل سنة بحيث كان لا يطيق آلامه فضعفت بنيته وتلاشت قوته وجر ذلك الى ضعف قواه العقلية حتى صار لا اقتدار له على القيام بمصالح الدولة الا فى اوقات قليلة كان يفيق فيها من آلامه واما سائر اوقاته فكان يقضيها فى العاب يتسلى بها على وجعه ويريح بها ذهنه حيث كان قد كل وملّ من شدة العلل وبهذه المثابة كان لا يتيسر له أن يقوم باعباء ممالكه فبالضرورة كان لا يمكنه المداومة على انجاز مقاصده الجسيمة التى نواها وهو فى عنفوان شبابه ولا على ما اتخذه مذهبا فى السياسة اذ كانت سياسته محيطة بممالك اوروبا بأجمعها وحاوية لمعضل مصالحها ومشكل امور ملوكها على انه كان معتادا منذ مدة مديدة على أن يكون لنظره الصائب احاطة بسائر فروع الادارة وأن يباشر بنفسه امور الدولة ولا يكون له شريك فى بت جميع الاحكام فاسف وتأثر حين رأى امراضه افضت به الى تسليم عنان الامور لوزرائه ويدل على ذلك أن الدولة من وقت ما اصيبت بمصيبة الاونسبرغ الامبراطور الى عدم اقتداره على القبض باعنة الدولة ومباشرة امورها بنفسه وكان يشكى من الدهر حيث أراه فى آخر عمره خصما شابا يمكنه تدبير اموره وانفاذها بدون احتياج الى الاشتراك فيها مع احد واما هو فقد صار مضطرا الى الاعتماد على غيره فى كل الامور وبناء على ما تقدم مما اعتراه من عطل الكبر والهرم قبل اوانه استصوب أن يحذو حذو العقلاء وأن ينزوى فى زوايا الوحدة ليخفى عيوبه عن اعين الناس لتيقنه ان عدم تركه

سنة ١٥٥٥

مطلب المقتضيات التي كانت سببا في تأخير تنازل الايمبراطور الى هذا الوقت

لاعنة الدولة مع عجزه عن أن يسوسها و يحسن ادارتها مما يجر الى ضياع فخاره وبجليل اشتهاره
وكان الايمبراطور قد صمم على ذلك منذ عدة سنوات واخبر به اختيه ملكتي فرانسا والمجار بالوراثة عن بعليهما واستحسنتا منه ذلك وعرضتا عليه أن تصحباه الى محل عزلته وان تقيما معه الا انه كان ثم عدة اسباب منعته عن انفاذ هذا المقصد وحملته على تأخيره لوقت آخر ولا يقال انه اخر تنازله الى وقتئذ لكون ابنه فيليش كان لم يبلغ في السن ولا في التجارب درجة كافية بحيث يمكنه القيام باعباء المملكة بدون مشقة عليه كيف وكان فيليش في سن الثامنة والعشرين من عمره وكان متعودا من صغره على الاشغال والتقيد بالمصالح وكان له في هذا المعنى دراية كبيرة ورغبة زائدة فلا يصح ان لشفقة الايمبراطور على ابنه أخر تنازله حتى لا يكلفه مالا يطيق والاحرى من ذلك بان يكون سببا في تأخير تنازله عن الايمبراطورية هو ان امه كانت لم تزل في قيد الحياة وكانت تشركه حكما في ملوكية اسبانيا وان كانت منذ نحو الخمسين سنة محجوبة عن الناس باقية على الاختلال الذي اورثه لها موت زوجها كما تقدم وكان اسمها يكتب في جميع الاوامر بجانب اسم ابنها وكان اهل اسبانيا يبجلونها ويحترمونها كل الاحترام حتى كانوا لا يرضون باقرار فيليش بالحكم عليهم الا اذا رضيت باشراكه معها في الملوكية وحيث كان لا يمكن جلب رضائها وهي في حالة اختلال مزمن اضطر الايمبراطور الى تأخير تنازله حتى ماتت في تلك السنة وزال بزوالها كل مشكل وصار متصرفا في ملوكية اسبانيا لامنازع له اذا تنازل عنها لابنه فيليش هذا وكان يود شيأ آخر وهو سد باب الحرب الموجودة بينه وبين مملكة فرانسا حتى يترك ممالكه لابنه وهي في اتم صلح عيران هنري ملك فرانسا لم يكن يجنح الى الصلح بل وعرضت عليه في هذا المعنى امور مقبولة لطيفة لاستمالته الى الصلح فتلقاها بطريقة تشعر بانه مصمم على دوام الحرب فرأى الايمبراطور ان لافائدة في الانتظار

سنة ١٥٥٥

وهمّ بتنجيز ما كان فى نيته منذ سنوات من التنازل عن الملوكية •

مطلب
الرسوم التى اجراها عند تنازله

واحب ان يكون تنازله عن الملوكية مقرونا بالرسوم والاحتفالات اللائقة به وان يشهر آخر يوم له فى الحكم بحلة غريبة يبقى تأثيرها فى نفوس رعاياه وفى نفس ابنه فيليبش على مدا الايام فكتب اليه امرا بالحضور من انكلترة وكان فى تلك المملكة منغص العيش لغلاظة طبع زوجته ملكة الانكليز سيما وكانت شراسة اخلاقها فى ازدياد لكونها لم ترزق منه بذرية وهنالك سبب آخر لتنغيص عيشه بتلك المملكة وهو ان الانكليز كانوا يغارون منه فكان لا يؤمل ان يحظى ذات يوم بان يكون ملكا عليهم ثم عين الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول لانعقاد مشورة وكلاء مملكة البلاد الواطية فى مدينة بروسيلة وفى اليوم الموعود ذهب الى المشورة وجلس على سريره وكان ذلك آخر جلوسه على سرير الملك وكان ابنه فيليبش على يمينه واخته ملكة المجار ونائبة البلاد الواطية على يساره وكان خلفه جم غفير من اكابر اسبانيا وامراء المانيا وعبر رئيس مجلس فلاندرة بوجه مختصر عن قصد الايمبراطور من عقد تلك المشورة ثم قرأ على الحاضرين الحجة المشتملة على تنازله لابنه فيليبش عن حكمه واقضيته وما يملكه بالبلاد الواطية وذكر فى هذه الحجة رفع التكليف عن رعاياه اهل مملكة البلاد الواطية بالطاعة له ليكونوا فى طاعة وارثه الشرعى فيليبش ويقوموا بخدمته مع الغيرة والصداقة كما كانوا مدة حكمه عليهم وبعد قراءة ذلك قام شرلكان من كرسيه متوكئا على كتف امير اورنجة لسبب ضعفه وهزاله وخاطب بنفسه المشورة وبيده ورقة يستعين بها على تذكار ما يريد قصصه على الحاضرين فقص عليهم مع الهيبة والجلال الخاليين عن الغرور والتباهى ما شرع فيه واتمه من الامور الجسيمة منذ ان حكم عليهم فقال ما معناه انه وهو فى سن السبعة عشر قد وهب نفسه لخدمة المملكة وحوّل كل همه الى سياسة الملك ولم يصرف من اوقاته فى راحة نفسه الا القليل ولم يضع شيأ منها فى اللعب واللهو وانه طورا فى زمن الصلح وطورا بقصد الحروب قد نزل تسع مرات ببلاد المانيا وست مرات ببلاد اسبانيا

سنة ١٥٥٥

واربعا بمملكة فرانسا وسبعا ببلاد ايطاليا وعشرا بمملكة البلاد الواطية وثنتين بمملكة انكلترة ومثلهما بقسم افريقة وعبر البحر احدى عشرة مرة وكل ذلك لمصلحة الدولة ومادامت صحته تسوغ له القيام بما يجب عليه فى حق الممالك الواسعة الموجودة فى قبضة حكمه لم يتأخر طرفة عين عن الاشغال الشاقة التى تستلزمها الحكومة ولم يشك قط من تلك المشاق ولكنه الآن قد زاد هزاله ووهن العظم منه لما اعتراه من التعب والنصب بسبب دائه الذى صار عضالا واوهنه يزداد يوما فيوما ويذكره بأن لا بد من ترك تلك الدنيا وانه لا يرغب فى الحكم مادام لا يقتدر على قبض اعنة الحكومة بحيث يحمى حمار رعاياه ويسعى لهم فى اسباب السعة والثروة وانه اعظم دائه لا يؤمل ان يعيش سوى اليسير فاستصوب ان يجعل ملكهم بيد ابنه فيليبش حيث هو جامع بين قوة الشبوبية والعقل هذبته التجارب وانه يطلب العفو والسماح ان كان وقع منه خطأ او هفوة فى الادارة مدة حكمه او كان حصل منه ظلم فى حق أحد من رعاياه مدة اثقاله باعباء المملكة وتفرغه لتدبير امورها وانه لا ينسى ابدا صداقة رعاياه ومحبتهم له وانه يذكر ذلك فى عزلته ويتسلى به ويعده برءا عظيما له فى تطير ما ألقاه مدة حكمه من التعب والمشاق وان اخر آماله وغاية مناه ليست الا دعوات صالحات يرفع بها كف الضراعة الى المولى جل وعلا بصون ممالكه وسعادة رعاياه

وعند ذلك جثى فيليبش على ركبتيه ليقبل يده فالتفت اليه قائلا لو تركت لك بموتى هذا الميراث العظيم الذى زاد فى عهدى زيادة كبيرة لكان يجب عليك ان تذكرنى بالخير وتترحم على ولكنى تنازلت لك عنه بمحض الارادة فلى الحق فى ان اطلب منك ان لا تنسى ذلك الفضل ولا تسلك مسلك كفران النعم غير انى اسامحك فى ذلك واعد حبك لرعاياك وسعيك فى راحتهم وثروتهم أدلة قطعية على ذكرك الجميل صنعى وعليك ان تحقق آمالى فيك وما منحتك اياه بمحض محبتى لك فكن اهلا لاعتمادى عليك وكن فى سياسة ملكك على وفور العقل محافظا على الدين مؤيدا لاركانه مؤمنا بقواعد القاثوليقيين وارع شرائع

سنة ١٥٥٥

مملكتك وقوانينها ولا تهتك حرمة رعاياك ولا تتعد على حقوقهم ولا على شيء من مزاياهم واسأل المولى جل جلاله ان يرزقك بغلام صالح بحيث اذا اردت ذات يوم ان تستريح مثلي من أثقال المملوكية تراه اهلا لان تتنزل له عن الملك بطيب خاطر وانشراح صدر كما هو حاصل لي الآن في تسليمي لك أعنة الحكومة

ولدى فراغه من هذا الخطاب ألقى بنفسه على سريره يكاد أن يغمى عليه مما لحقه من التعب لذلك وفي اثناء خطابه كان جميع الحاضرين يسكبون العبرات بعضهم تعجبا من علو نفسه والبعض الآخر تأثرا من عجيب عباراته الدالة على حب ولده ورعاياه وكلهم تألموا اسفا عليه حيث كان مدة حكمه لا يغفل عن تمييز اصل غرسه ومسقط رأسه وكان يخصه بالرعاية ومزيد الاعتبار

وكان فيليبش لم يزل جاثيا على ركبتيه بين يدي والده فقام حينئذ وتكلم بصوت منخفض دال على الطاعة والامتثال ليشكره على صنعه وما منحه له بمحض فضله ثم خاطب اهل المشورة معتذرا بأنه في المزائد من عدم اقتداره على التكلم مع السهولة بلغة فلاندرة حتى يفصح لهم بنفسه عما يجب عليه لرعاياه اهل مملكة البلاد الواطية وترجاهم ان يأذنوا لاسقف أراس المسمى غرانويل في ان يتكلم بالنيابة عنه واطنب غرانويل في خطابه واطرأ في مدح فيليبش ونيته الخير في حق رعاياه وتصميمه على صرف كل برهة من زمانه وكل لمحة من عرفانه في سعادتهم وانه سيقتدي بابيه في معاملة اهل فلاندرة مع التلطيف التام ويخصهم بالتبجيل والاحترام ووقتئذ نزلت الاميرة مارية ملكة المجار عن نيابة مملكة البلاد الواطية وكانت موكلة بسياستها بامر اخيها الايمبراطور منذ خمس وعشرين سنة وثاني يوم من ذلك حضر فيليبش بمجلس وكلاء الملة وحالفهم على حسب العادة ان يحافظ على حقوق رعاياه وعلى مزاياهم وحالفه جميع وكلاء الملة عن انفسهم وعن من هم موكلون عنهم على الطاعة والامتثال

٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٥٥٦

وبعد ذلك ببعض اسابيع جمع شرلكان ايضا مشورة كبيرة وتنازل

سنة ١٥٥٦

بالابنه عن ممالك اسبانيا وماتتبعها من الاراضى فى قسمى الدنيا الجديد والقديم ومن هذا كله لم يبق شرلكان لنفسه سوى مرتباسنويا عبارة عن مائة الف ايكو ليصرفه فى لوازم بيته وفى الصدقات وما اشبه ذلك

مطلب اختيار شرلكان مقره ببلاد اسبانيا

وقد كان اختار أن تكون اقامته ببلاد اسبانيا مؤملا ان يسكن داؤه بجودة هوائها وحرارة قطرها ولم يجعل الاقامته بمملكة البلاد الواطية لما سبق له من اشتداد دائه عليه بها لكثرة رطوبتها وشدة شتائها وكان يود ان لايتأخر ساعة واحدة عن الخروج من مدينة بروسيلة وركوب البحر ليتوجه الى محل عزلته حتى يخلص بالكلية من غوائل المصالح و يبعد عن قيل العالم وقاله

مطلب اضطراره الى الاقامة مدة بمملكة البلاد الواطية

غيرأن اطباءه افهموه انه يخشى عليه من ركوب البحر فى مثل هذا الفصل وهو ابرد فصول السنة واكثرها رياحا وعواصف فرضى على رغمه بتأخير سفره بعض شهور

مطلب المداولات التى حصلت لصدد الصلح

وقبل سفره من مملكة البلاد الواطية ادرك امرا قرت به عيناه وهوأن نجح فى افتتاح مادة الصلح مع مملكة فرانسا وكان هذا الامر غاية آماله لكونه غيرمراعا به فى ذلك مصلحة ابنه كان يود أن يثبت لنفسه الفخر قبل تركه علائق الدنيا بكونه اعاد الى ممالك اوروبا الراحة التى سلبها منها منذ جلوسه على سرير الملك وصورة ذلك ان تعينت قبل تنازله بمدة وكلاء من طرفه وآخرون من طرف ملك فرانسا للمذاكرة فى استبدال من اسروا من الطرفين مدة الحروب السابقة وكانت المذاكرة فى هذا الشان فى دير وسيل قريبا من مدينة كمبريه فاتفق فى اثناء المذاكرة مااوجب تسهيل الصلح وهو أن اتفق وكلاء الطرفين على هدنة طويلة يبقى كل من الحزبين حافظا لما بيده من البلاد والممالك المنازع فيها ويصرف النظر مدة الهدنة عما يدعى به فى كل خصوص وكان شرلكان لايجهل ما لحق ممالكه من الخراب والدمار بسبب الحروب الطويلة التى اوقعه فيها طمعه ويعلم ان الصلح لابد منه لابنه حتى يثبت على سرير الملك فرضى بالهدنة وان كان فى شروطها ما يضر به ويكسبه العار وكان له موقع عظيم فى قلوب الناس من جهة العقل

والدراية

سنة ١٥٥٦

والدراية واختباره الامور بكثرة تجاربه حتى ان ابنه لم يمكنه المخالفة ورضى بالهدنة على تلك الشروط وان كانت تكبر عن أن تقبل

مطلب
انعقاد الهدنة

ولم يكن شئ احب الى هنرى من تلك الهدنة لما كان له فيها من الفوائد الجمة المهمة وهى أن يبقى بمالكه معظم دوقية ساوة مع ما تغلب عليه من القلاع والمدائن الجسيمة على ضواحى ألمانيا ولكن كان ثم عائق عظيم يمنعه عن تلك الهدنة وهو معاهدته مع البابا كما تقدم ولولا ذلك لما تردد طرفة عين فى قبول الهدنة المذكورة وكان الواسطة والسبب فى معاهدته مع عائلة كاراف اعنى عائلة البابا هو الكردينال دولورينة وفى اثناء المفاتحة فى الهدنة المذكورة كان غائبا فاغتنم الجنرال دومونتمورانسى فرصة غيابه وافهم الملك هنرى ان من الخطر العظيم اهمال ما فيه مصلحة حقيقية للدولة مراعاة لبعض مواعيد لم تكن ناشئة الا عن عطل الرأى وقلة الحزم وكان هنرى بالطبع من اولى التردد الذين لا يصممون على امر عن فكر فيصغون الى آخر رأى طرق آذانهم فجنح الى قول دومونتمورانسى وامر من بعثهم الى الامبراطور ان يعقدوا الهدنة بخمس سنوات على الشروط المتقدمة انما المحقق أن البابا سيغضب لهذا الفعل ألح فى أن يصرح باسمه فى المشارطة ليكون ذلك وسيلة فى تسكين غيظه واخماد ناره

فى ٥ من شهر شباط

مطلب
اقرار الهدنة من طرف كل من القرالين

وارسل القونتة دولالان من طرف الامبراطور الى مدينة بولواس وبعث الاميرال دوكولونى من طرف ملك فرانسا الى مدينة بروسيلة ليحضر كل منهما بالنيابة عن سيده اقرار المشارطة وميثاق كل من ملك فرانسا من جهة والامبراطور وولده من الجهة الاخرى أن يرعوا ماصدق تلك المشارطة وأن لا يخرموا شيأ من شروطها

مطلب
ما اعترى البابا من الفزع والحيرة

واما البابا فلم يفزع حين وصل اليه الخبر فى مدينة رومة بالمذاكرة الحاصلة فى هذا الخصوص بمدينة فوسيل وبشروط الهدنة المتفق عليها وانما لم يفزع لذلك لانه كان يعتقد فى الملك هنرى شرف النفس والفتوة فلم يجوز له عقله امكان نقضه للمعاهدة المنعقدة بينهما عن قرب على ما تقدم

سنة ١٥٥٦

وثم سبب آخر اثبت عند البابا عدم صحة ماطرق آذانه وهو أنه كان يعهد في الايمبراطور شرلكان كمال العقل والكياسة فتعذر عليه التصديق برضاء شرلكان بمثل تلك الهدنة وكانت شروطها تضر به وقد جزم بالبابا جزمه بماذكر الى أن قال ان هذه المداولات كغيرها من المداولات السالفة عديمة الجدوى لاتنتج شيأ ولكن من الخطأ الكبير في السياسة وتدبير الدول أن يستنتج الانسان من عدم احتمال الشئ ظاهرا عدم امكان وقوعه ولم تمض مدة يسيرة الا وايقن البابا بما كان سمعه ولم يصدق به وثبت غمه وهمه لثبوت اقرار الهدنة واشتد غيظه لهذه العلة وكان متكبرا مغرورا وكان الكردينال دولوورينة لم يزل بمدينة رومة وان كان قد اتم المعاهدة التي هو مبعوث بصددها من طرف ملك فرانسا نخشي حينئذ عاقبة غضب البابا وسافر سريعا من رومة وترك امر تسكين غيظه للكردينال دوتورون واحس البابا وابنا اخيه وقتئذ بعظم خطويهم خشية بطش فيليبش وكان حديدا عنودا واظهر من الحنق مالا مزيد عليه لدى علمه خبر المعاهدة الحاصلة بين البابا وملك فرانسا سيما وكان المأمور من طرف فيليبش بالانتقام من المتحزبين عليه هو الدوق دالب وكان بعرفانه وقسوته الجبلية جديرا بان يفوض له في مثل هذا الامر فسار من ميلان الى نابلي وبدأ بجمع الجنود والعساكر من حدود الاقاليم القسيسية هذا وكان البابا ضعيف الشوكة بقدر ما كان فيليبش قويا مقتدرا فرأى هو وولدا اخيه ان ترك مملكة فرانسا لهم في هذه الحالة يترتب عليه خيبة آمالهم وضياع ثمرة اعمالهم ولذا بذلوا الجهد في ارجاع فرانسا الى حزبهم فانظر فيما بعد الى سعيهم لنيل ما ربهم

مطلب
سعي البابا في ايقاد نار الحرب

واستعان بولص في هذا الامر بالحيل والدسائس كما هي عادة ديوان رومة من اتباع طرق المكر وسلوك سبل الخداع في كل امر دهم همه فاظهر البابا أنه استحسن تلك الهدنة حيث هي وسيلة جليلة في منع سفك دماء النصارى وهو يرجو أن تكون ممهدة للصلح العام وجعله على قرار مكين ووعظ

سنة ١٥٥٦

المصممين اعنى الملك فيليش وملك فرانسا أن ينتهزا تلك الفرصة ويشتغلا بتمكين الصلح فى ممالكهما وهو يكون واسطة فيما بينهما ليصلح شأنهما حيث هو كأب للملة المسيحية وبهذه العلل الباطلة ارسل من طرفه الكردينال روبيبة الى ديوان بروسيلة وابن اخيه الكردينال كاراف الى ديوان فرانسا كل منهما بوصف نائب عنه فى الديوان الذى وجه اليه وكان ما امر به هذان النائبان على رؤس الاشهاد ووكلا بتلقينه لمن هما مبعوثان اليه موافقا لما اظهره البابا من استحسان الهدنة ومطابقا لما قاله بفيه من قبل فكانا مأمورين ببذل الجهد فى استمالة الملكين المتقدم ذكرهما الى قبول توسط البابا حتى يتيسر بعد ايقاع الصلح الاخذ فى الاسباب اللازمة لجمع مشورة كنيسة عامة غيران ذلك وان كان مزينا يسهل التصديق به حيث لا يليق بخليفة المسيح سوا لم يكن نية البابا ولم يظهره الا امتثالا لاحكام الضرورة وكانت نيته مغايرة لهذا بالكلية اذكان كاراف مأمورا فى السر بان يدعو ملك فرانسا الى العدول عن الهدنة وأن يحسن له بمزيد الرجاء والتضرع تجديد المحالفة مع الكنيسة الرومانية بل وامره أن يعده بما طاب له وأن يقدم اليه من الهدايا ما طمع فيه حتى يرغبه فى تلك المحالفة ويستميله الى حزبه هذا هو الغرض الحقيقى للبابا من بعث من بعثه وكان امره على حد يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم ولم يكن ظاهر فعله الا ليخدع الايمپراطور وابنه ويخفى ما فى نفسه عن العوام وسافر الكردينال كاراف من وقته الى باريس ووصلها سريعا واما الكردينال روبيبة فحجز فى رومة عدة اسابيع بعد ذلك الى أن اذن الوقت بتوجيهه الى محل مأموريته بل وامر سرا بالتوانى فى سفره حتى تعلم رومة قبل وصوله الى بروسيلة طالع كاراف فى ما امر بتلقينه لكى تعرفه ما يجب عليه اتباعه فى آداء ما امر بتبليغه الى الايمپراطور وولده فيليش

فى الحادى عشر من شهر آيار

مطلب
مداولة كاراف فى هذا الغرض

وقد دخل كاراف مدينة باريس فى محفل فوق العادة وقدم الى الملك هنرى سيفا مبروكا من طرف البابا كأنه يفهمه بهذا انه ملجأ للبابا

سنة ١٥٥٦

وان البابا لدى الملمات لايعتمد على غيره ولا يؤمل اعانة من سواه و بعد ذلك اقسم عليه أن لا يرد رجاء البابا وهو كوالده وقد وقع فى كرب عظيم وأن يعد هذا الحسام لمساعدته واسعافه ثم قال ما معناه ان اعانته واجبة من وجهين الاول عملا بحق بر الولد والديه والثانى ان الايمبراطور لبغيه حق التعزب عليه وان البابا ان كان فعل شيأ جر الى غضب ملك اسبانيا عليه وعلى ولدى اخيه فلم يفعله الا اعتمادا على مشارطته مع فرانسا فهم يرجون معا من ملك فرانسا أن لا يتركهم فريسة لعدوهم وكان حبهم له ولمملكته هو السبب فى بغضه لهم ومع تحيل كاراف بهذه الكيفية على هنرى ليرق قلبه ذكر له اسبابا قوية بحيث تؤثر فى نفسه وتثير طمعها فأفهمه ان الاوقات مساعدة اذ ذاك على الهجوم على بلاد فيليبش بمملكة ايطاليا وان مع الهجوم لابد من النجاح حيث ان مصطفى صفوف العساكر الاسبانيولية الذين هذبتهم الحروب قد هلكوا جميعا فى وقايع بلاد المجار و بلاد ألمانيا ومملكة البلاد الواطية وان الايمبراطور لم يترك لابنه الا ممالك نافدة القوى خالية عن الرجال والاموال وان المقصود قتاله الآن ليس شرلكان مع مهارته الباهرة ودرايته الوافرة وسعد طالعه بل المراد قتال ابنه وهو مبتدئ فى هذا المعنى لم يجلس على كرسى المملكة الا عن قريب وليس بمقتضى الخلقة ممن هم اهل للحكم وتدبير الممالك سيما وهو مبغوض عند اكثر بلاد ايطاليا وكل الناس ينفرون منه و يخشون عاقبة الوقوع فى حكمه واضاف الى قوله هذا ان البابا قد بدأ بلم العساكر اللازمة حتى يوجد عنده الآن جيش عظيم مهيأ للبراز لدى الطلب وان هذا الجيش اذا انضم اليه مقدار مناسب من الجنود الفرنساوية يكفى مع بذل الهمة والجهد فى طرد الاسبانيولين من ارض نابلى وتبقى لملك فرانسا وكانت منذ نصف قرن قبله مطمعا لنظر اسلافه وسيما فى حروبهم مع الايمبراطور ببلاد ايطاليا

مطلب
ثمرة ذلك

وقد أثر قول كاراف كل التأثير فى نفس هنرى وايقن أن الحق للبابا

فى ان يلومهم

سنة ١٥٥٦،

فى أن يلومه على فعله اذ ليس من الانسانية عدوله عن مخالفته ودخوله فى مشارطة الهدنة المنعقدة فى ووسيل هذا وكان هنرى يودّ أن يشهر ايام حكمه بفتوحه مملكة نابلى وقد عجز عن تسخيرها ثلاثة قبله من ملوك فرانسا على ان هذه المملكة كانت معدّة لان تعطى لاحد اولاده بمجرّد نزعها من ايدى الاعداء ومع ذلك كله مكث مدّة وهو يتردّد حايرا فى امره لايدرى من ينبغى له ترجيحه من الحزبين فهووان اثر فيه قول كاراف كان ثم اسباب توجب عليه عدم العدول عن حزب الامبراطور الاوّل منها هو قسمه بأن يرعى شروط الهدنة ولايخالف شيأ منها الثانى هو أن البابا كان هرما فمن الجائز أن يموت على حين غفلة فتتغير الاحوال و يترتب على موته اضطراب عظيم فى سياسة ايطاليا الثالث ان مونتمورانسى كان لم يزل يلح عليه فى الصلح مع الامبراطور و يفهمه ان فى مهادنته فوائد جليلة بخلاف المخالفة مع البابا فمافيها سوى محض الضرر فكانت تلك الاسباب تعادل ولاشك قول كاراف الاان كاراف المذكوركان على مكانة من فنّ المداولة وحسن السبك فلم يعجز عن ابرازه لنفى هذه الموانع وازالة ماىذهن هنرى فأبرز حق الترخيص له من طرف البابا ببراءته من قسمه اى بتبرئته عما يلزمه من الخطيئة اذالم يعمل بيمينه واماما كان قائما بذهنه مما يترتب على موت البابا فأزاله كاراف بافهامه له ان البابا نفسه سيفعل مايكون به الاطمئنان فى هذا الخصوص اى انه يولى كردينالات يفوضون الى هنرى الامر لدى انتخاب غيره بعد موته وبذلك يسوغ له ان يجعل من شاء فى منصب البابا ليكون مطيعاله فى سائر الامور و يعمل على اغراضه

واما ما فعله ليرغب الملك عن اتباع ما كان يفهمه به الامير مونتمورانسى و يحمله على عدم الاصغاء الى نصحه وكان له عنده موقع عظيم فهوانه استعان على ذلك بنشاط الدوق دوكيز وفصاحة الكردينالى دولورينة ومكر المعشوقة ديانة دواپوتيير المتقدم ذكرها ووافقت فى ذلك الاميرة قاترينة مع انها كانت لاتوافقها على شئ ولاتريها سوى المخالفة

سنة ١٥٥٦

فى كل الامور لقصد اغاظتها ولكنها الشقاوة بمملكة فرانسا وافقتها فى تلك المرة وتحزب الجميع فأثر قولهم على الملك لاسيما وكان من قبل مهيأ لذلك ومن وقتئذ صار لايعتنى بقول مونتمورانسى ولايبالى بما كان يحذره به من الاهوال والاخطار ثم فك نائب البابا الملك هنرى من قيد قسمه وجدد معه عصبة اشتعلت بها نيران الحرب ببلاد ايطاليا ومملكة البلاد الواطية

مطلب ما ارتكبه البابا من الجبر فى حق فيليبش

وبمجرد اخبار بولص ان كاراف ميقن بالنجاح فى سعيه مع ملك فرانسا ارسل مخصوصا الى روبيبة على طريق بروكسيلة ليأمره بالرجوع الى رومة وذلك ان البابا لم يكن محتاجا وقتئذ الى اظهار الملاطفة بوصف كونه واسطة فى الاصلاح بين الطرفين ولا الى كظم غيظه من فيليبش فعدل عما كان يظهره الى الآن من المراعاة والملاطفة ليخدع اعداءه وفعل امورا فاحشة تؤدى الى عدم امكان منع الحرب بينه وبين فيليبش فقبض على مبعوثه ووضع عليه السجن وصدر أمره بحرمان عائلة كولون وكانت من حزب اسپانيا وعزل ماركانتوان كبير هذه العائلة من دوقية باليانة واعطى اراضيها الى القونت دوموتتوريو ابن اخيه ثم رفع دعواه مع فيليبش الى ديوان الكردينالات وحاصل تلك الدعوى هو ان فيليبش وان كان ولى المملوكية على نابلى بمحض فضل الكنيسة قد نقض عهود الامانة والطاعة الواجبة عليه لها وقبل فى دولته عائلة كولون مع انه حكم عليها بالحرمان وعدت من العصاة الباغين ولم يقتصر فيليبش على قبول من هم من تلك العائلة فى دولته بل اعطاهم مايلزم لهم من الاسلحة وهاهو يتأهب للانضمام اليهم ليزحفوا معا على مخلفات خليفة المسيح وختم دعواه بما معناه ان هذه الفعال من طرف التابع فى حق المتبوع من باب الخيانة والغدر الفاحش ويجب عقاب الخائن بنزع الملك المعطى له وبناء على شكواه التمس منه امين الدعاوى بمجلس الكردينالات أن يبحث عن القضية بالاطراف والاكناف وان يعين يوما لتسمع فيه اوجه اثبات هذه

سنة ١٥٥٦

التهمة كما يأمر جنابه بعقاب يليق بعظم جرم المذنب وكان بولص لكبره وغروره ممن يفتخرون باحضار ملك عظيم مثل فيليبش الى ديوانهم فقبل قول امين الدعاوى واخبر أنه سيتذاكر مع الكردينالات فى الطرق اللازم اتباعها فى مثل تلك القضية المهمة ظنامنه ان اجراء العقاب سهل كالحكم به فيمكنه تنفيذ مايحكم به على ابن شرلكان

فى سبعة وعشرين من شهر غوز

مطلب فزع فيليبش لفرط جهالته من غضب البابا عليه

ومن الغريب انه بينما كان البابا يطيع نفسه فى فرط الحقد والحنق كان فيليبش على غاية من الاستكانة ولين العريكة وسبب ذلك هو أن فيليبش قد رباه رهبان اسبانيا وعودوه من صغره على احترام الدين والكنيسة وكان بالطبع سوداويا يميل الى الاعتقادات الباطلة العاطلة وقول الترهات فلم يزده تقدمه فى السن الا بدعا على بدعه التى اكتسبها من الرهبان والقسيسين فلما رأى غضب البابا عليه وفهم ان ذلك يجر الى الحرب بينهما وان لابد له من قتال خليفة المسيح واب كافة النصارى فزع وارتعدت فرائصه ولشدة ماقام به من الفزع سأل بعض علماء اللاهوت الاسبانيوليين الذين يحلون المشكلات عن جواز مثل هذه الحرب وكانوا لما عندهم من الحذاقة واللباقة يدورون مع الدهر فأجابوه بما يوافق مقتضيات الاحوال اذ ذاك وافهموه انه بعد سلوك سبل الترجى تارة والترهيب اخرى ان لم يمكن عدول البابا عن البغى ولم يفىء الى الحق فله بمقتضى الشرائع الالهية والقوانين البشرية أن يدفع عن نفسه لدى الهجوم عليه بل وله ان يهجم على البابا فى بلاده ان لم يمكن ارجاعه عن بغيه بطريق اخرى الا ان فيليبش مع قولهم هذا لم يزل مترددا حائرا فى امره ظنا منه ان اعظم شؤم ووبال عليه ان يفتتح حكمه بحرب مع البابا وهو امام الدين يجب احترامه وتبجيله

مطلب بدء الدوق دالب بالحرب مع البابا

وكان الدوق دالب وقتئذ سر عسكر الجنود الامبراطورية الموجودة ببلاد ايطاليا نمراعاة لسيده فيليبش تجنب اسباب الحرب وسلك سبل المداولة لينهى امر المنازعة بالتى هى احسن لكنه وجد ان لاسبيل الى استعطاف البابا وتسكين غضبه وان اتباع سبل الرفق معه يزيد

سنة ١٥٥٦
في خمسة من شهر ايلول

في طغيانه وامهاله بكثر في بغيه فبدأ بالحرب وزحف على اراضي الكنيسة وكان جيشه لا ينيف عن اثني عشر الف رجل الا انهم كانوا محاربين شبوا وشابوا في العسكرية وكان رؤساؤهم من البارونات الرومانيين الذين غربهم البابا عن اوطانهم فبانضمام شجاعة العساكر الى حقد رؤسائهم للبابا وكانوا يقاتلون لقصد استخلاص ما غصبه منهم من الاملاك لدى نفيهم حقت الهزيمة على جنده وان كانوا اكثر عددا وكان الى ذلك الوقت لم يأت اليه امداد أياما كان من جانب فرانسا وسلمت بعض المدائن الحصينة الى جند دالب بلا جبن محافظيها لان العساكر منهم كان لا المام لهم بتعليم العسكرية وكان الضباط لا دراية لهم وبقية المدائن فتح سكانها ابوابها الى البارونات ساداتهم وبهذا الوجه تغلب دالب على بادية رومة في اقرب وقت غير انه خيفة ان يتهم بالكفر لزحفه على اراضي الكنيسة جعل تغلبه على هذه المدائن بالنيابة عن ديوان الكردينالات معلنا انه سينزل عنها بمجرد شروع الكردينالات في انتخاب احد غير بولص المذكور لمنصب البابا

وامتلأت قلوب الناس رعبا في مدينة رومة لظفر جنود اسبانيا ونجاحهم وكانت عساكرهم الخفيفة تزحف حتى تصل الى ابوابها فاضطر بولص مع غلاظته وفظاظته الى العدول عن دعواه وكان الكردينالات لخوفهم يلحون عليه في المصالحة فصغى لقولهم وبعث رسلا من طرفه الى الدوق دالب بصدد انعقاد هدنة بين الطرفين لكنه لم يفعل ذلك عن طيب نية بل كان قصده شيئين الاول اذهاب رعب اهل رومة والثاني ان يكون معه في الوقت فسحة حتى يصل اليه من جانب فرانسا ما كان ينتظر أن تمده به واما دالب فلم يرده في طلبه بل اجابه لوقته وذلك انه كان يعلم ان سيده لا يود الا انهاء هذه الحرب اذ كانت على غير مرامه وثم سبب آخر وهو تناقص جيشه لما انه أخرج منه ملازم للمحافظة على المدائن والحصون التي تغلب عليها وبذلك كان لا يمكنه المداومة على الحرب بدون جمع جنود جديدة فرضي بما عرض عليه وعقدت اولا الهدنة بعشرة ايام ثم بأربعين يوما

شهر تشرين الثاني

وفي اثناء

سنة ١٥٥٦

وفى اثناء تلك المدة عرض من الطرفين اكثر من مرة بصدد الصلح واستمرت المداولة فيما بينهما لهذا الخصوص الا ان المداولة من طرف البابا لم تكن عن طيب نية بل كان يظهر خلاف ما يضمر وقد حصل انه لدى رجوع ابن اخيه من فرانسا ووصول مبلغ جسيم من الدراهم ارسله اليه الملك هنرى وطائفة من العساكر الفرنساوية وظهور ما جعله يؤمل أن يمدّه الفرنساوية بغير ذلك طغى وبغى ورجع الى ما كان عليه اوّلا وابى الا الحرب والانتقام من خصمه

(المقالة الثانية عشرة)

*(من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الايمبراطور شرلكان)*

مطلب
سعى الايمبراطور بالثانى فى تمييرواثة الأيمبراطورية

وبينما كان البابا وفيليبش مشغولين بهذه الدسائس رفض الايمبراطور ما كان باقياله من العلاقات بهذه الدنيا وسافر الى محل عزلته وكان الى وقتئذ لم يزل باقيا فى مقام الايمبراطورية غير أن محافظته على هذا المنصب لم تكن ناشئة عن علاقة قلبية تمنعه التنازل عنه وذلك ان من المستبعد عقلا كونه بعد تنازله عن الامارة الحقيقية والتصرّف المطلق اللذين كان يحظى بهما فى دوله التى ورثها عن آبائه يشق على نفسه ترك مملكة لم يكن مطلق التصرّف فيها حيث كان ملكها يولى بطريق الانتخاب والسبب الحقيقى فى تأخيره امر تنازله عن التاج الايمبراطورى هو أن كان يريد فسحة الوقت معه حتى يسعى بالثانى فى تنجيز امر تكلمنا عليه سابقا وهو نيته من نقل التاج الايمبراطورى الى ابنه فيليبش وكانت رغبته فى تتميم هذا الغرض فوق كل حدّ وغاية فهو وان كان يظهر عليه انه متيقن ببطلان هذه الدنيا وزاهد فى زهرتها وزينتها وتارك لها محتقرا لما احتوت عليه من الابهة والعلاكان لم يزل ذهنه مشغولا بالمطامع الجزيلة والمقاصد الجليلة التى استغرقت منه دهرا وعمرا فكان يشق عليه أن يترك لابنه بين ملوك اوروبا مقاما دون مقامه نفسه وقت ان كان فى مجال الحكم وقد حصل منه على ما تقدّم انه سعى ولم ينجح فى اثبات التاج الايمبراطورى لابنه فيليبش مؤملا انه بانضمام ممالك اسبانيا

سنة ١٥٥٦

الى املاك عائلة بورغونيا يتيسر لابنه المذكور أن يحذو حذوه و يتمكن من تجيز ما كان فى نيته من المشروعات الجسيمة ومنعه كبره وعياه عن انفاذه

مطلب عدم ظفره بمقصوده المذكور

هذه كانت امانيه فكان يشق على نفسه عدها مما لا يمكن تجيزه

لا يخفى أن اخاه فرديننـد لم يمكنه قبل الآن من نقل التاج الايمبراطورى الى ابنه فيليبش ومع ذلك لم يعتبر والح عليه بالثانى فى هـذا المعنى ووعده أن سيعطيه فى نظير تخليه عن التاج اقليما ببلاد ايطاليا او بمملكة البلاد الواطية وكان فرديننـد لم يعبأ بقوله وقت ان كان مهابا مقتدرا فكيف يصغى الى قوله بعـد تنازله عن المعالى واختياره الانحطاط لنفسه و بالجملة فرده خائبا ولم يقبل منه عـدلا ولا صرفا حتى انه لحقه الخجل من نفسه حيث وهم انه يمكنه فى الحالة الراهنة الظفر بما تعذر عليه وقت ان كان ذا بطش واقتدار فيئس لوقته من حصول تلك الامانى وترك اعنة الايمبراطورية لاخيه فرديننـد ملك الرومانيين وتنازل له عن حقوق ملوكيته على جرمانيا وكان ذلك بمقتضى حجة مستكملة الشروط والاركان وضع عليها امضاءه ودفعها الى غليوم امير اورنجة وامره أن يقدمها الى ديوان المنتخبين

فى ٢٧ من شهر آب

مطلب رحلة شرلكان الى اسبانيا

و بعد ذلك لم يبق عائق يمنع شرلكان عن الارتحال الى العزلة التى كان تماهد لنفسه وكان قد تأهب للسفر قبل ذلك بمدة فارتحل الى زيلاندة قاصدا زويتبورغ وكانت ميعادا للسفن المعدة لرحلته ومنها سلك سبيل مدينة غندة وكانت مسقط رأسه واعتراه من الفرح والطرب ما يعترى امثاله من الشيوخ لدى رجوعهم الى اصل غرسهم ورؤيتهم الاشياء التى كانت لهم من جملة الملاهى فى شبو بيتهم ثم سافر من غنـدة مصحوبا ببنته وبابنه فيليبش وباختيه ملكة فرانسا وملكة المجار وبصهره مكسمليان وبعدد كبير من امراء الفلمنك وقبل ركوبه البحر ودع الجميع وخاطب كلا منهم بما يليق له من التعظيم والمودة وعانق ابنه فيليبش معانقة الاب لابنه عند فراق لا تلاقى بعده وركب البحر فى ١٧ من شهر ايلول وكانت تخفره دونمة كبيرة من مراكب اسبانيا والفلمنك والانكليز وقد دعته

سنة ١٥٥٦

ملكة الانكليز مع مزيد الابرام لينزل بمحل من بلادها ليستريح عندها وتحظى برؤياه فلم يجبها الى ذلك قائلا انها من الملوك فلا يسرها ملاقاتي واما والد زوجها وصرت الآن من آحاد الناس

مطلب
وصوله الى اسبانيا

ولم يحصل له مدة سفره ادنى شيء يعكر خاطره ووصل سالما الى لاريدو في بسكاى الحادى عشر بعد ارتحاله من زيلاندة وعند نزوله البر وضع جبينه على الشاطئ وقال عبارة يفهم منها انه كان يعد نفسه من الاموات وان كان لم يزل بقيد الحياة وهى أن خاطب الارض بعد تقبيلها بقوله ياام البشر قد خرجت من بطنك عريانا وسأعود اليك عريانا ثم ارتحل من لاريدو الى بورغوس تارة يحمله خدمته فى كرسي وتارة يضعونه فى تختروان وهو فى غاية المشقة يتألم فى كل حركة وخطوة وقد ذهب الى بورغوس بعض اعيان اسبانيا لمقابلته لكنهم كانوا قليلين جدا ولم يؤدوا اليه من رسوم التعظيم والتبجيل ما كانوا يفعلونه في حقه قبل الآن واحس شرلكان منهم التكلف وهذه اول مرة ايقن فيها انه تجرد عن مقام الملوكية وأثر فيه ذلك كل التأثير لانه كان متعودا من صغره على تعظيم الناس له واحترامه كما يليق بشأن الملوكية فتلقاهم مع الغرور والانفة كما هى عادة الملوك وتأثر لضعفه من كونهم لم يحترموه كالعادة مع انه كان يظن ان احترام الناس له لم يكن عن عقله بل كانوا يحترمونه نظرا لذاته الا انه لم تمض عليه برهة الا واعتاد على تلك الامور التي أثرت فيه وصار يتحمل من رعاياه اهمالهم فى حقه ولا يعبأ بافعالهم ومع ذلك لحقه الالم والحزن من فعلة تنافى شروط المروءة والانسانية فعلها فى حقه ابنه فيليش وهي انه لم يرع حقوق نعمه عليه ولم يرسل اليه نصف مرتباته فى الاوقات المعينة مع ان تلك المرتبات كانت قليلة ولم يبق لنفسه سواها من جميع ما كان فى حكمه من الممالك والاقطار ولتأخيرها اضطر شرلكان الى الاقامة بمدينة بورغوس عدة اسابيع حيث بدون وصول المبلغ المذكور اليه لم يكن فى وسعه أن يكافىء خدمته بما هم اهل له في نظير خدمتهم او بما اعتاده اليهم من العطايا بمحض الكرم واذا

سنة ١٥٥٦

عسر عليه كظم غيظه واخفاء ما قام به من التعجب والاستغراب لفعل ابنه والحاصل انه بعد أن وصلت اليه مرتباته سرح كثيرا من خدمته لزيادتهم عن اللزوم عنده اولعدم اتساع التكاليف عليه فى عزلته ثم ارتحل الى مدينة ولادوليدة وفيها ودع اختيه وبكى لفراقهما ولم يأذن لهما فى أن يصحباه فى عزلته مع انهما الحتا عليه فى ذلك وأدمعهما ساكبة قائلتين ان اقصى امالهما مساعدته فى آلامه واوجاعه سيما وقصدهما أن يستفيدا من التعبدات والتنسكات الدينية التى سيقضى فيها بقية ايامه

محل عزلته

وتوجه من ولادوليدة الى مدينة بليزنسة الكائنة باقليم استرامادور وكان سبق له انه مر بهذه المدينة واستحسن موقع دير سانجوست التابع الى طائفة سانجيروم والدير المذكور غريب الموقع بالبعد عن مدينة بليزنسة ببعض اميال وكان شرلكان قبل ذلك عند رؤيته لهذا الدير قال لكثير من اتباعه ان هذا محل لورآه ديوكلسيان لود ان يتخذ له خلوة فيه فلم يزل تأثيره باقيا فى نفسه حتى جعل عزلته فيه وكان هذا الدير موضوعا فى حوض ضيق مشتمل على غدير صغير ومحاط بتلال مخضرة وفيه اشجار كبيرة تظل ارضه ومن بهجة طبيعة الارض واعتدال القطر كان هذا الحوض الطف بلاد اسپانيا واسلمها للصحة وكان الايمپراطور قبل تنازله بعدة شهور قد ارسل احد البنائين ليصنع له فى الدير المذكور سكنا لكنه امر أن لا يبنى هذا السكن على ما يليق لمقام الملوكية بل يكون على حسب ما يليق بحال الخمول والوحدة التى هو عازم على اتخاذها فصنع له ست غرف اربع منها على هيئة صوامع الرهبان وحيطانها مجردة عن الزخرفة والنقوش والغرفتان الباقيتان كانت مساحة كل واحدة منهما عشرين قدما مربعا وكانت حيطانهما مستورة بقماش اسمر وفراشهما وامتعتهما عارية عن الزينة والرونق وكان سطح هذا المسكن مستويا مع سطح الارض وله من احدى جهاته باب على بستان كان شرلكان قد اعطى رسمه بنفسه وملأه من نباتات متنوعة ليزرعها بيده وهو فى وحدته ومن جهة اخرى كان للسكن المذكور فرجة

سنة ١٥٥٧ فى ٢٤ من شهر شباط

موصلة لمحل من الديركان شرلكان اعتده لنسكه وتعبداته ودخل ذلك الايمبراطور ومامعه من الخدم سوى اثنى عشر نفسا بهذا المسكن الحقير الضيق الذى لا يكفى لسكنى شخص من آحاد الناس بحيث يكون فيه مستريحا و بانزوائه هنالك انزوى معه فى زوايا الخمول والفتور مطالبه العالية المهمة ومطامعه الغالية الجمة التى اوقعت ممالك اوروبا مدة نصف قرن كامل فى الفزع والاضطراب والرعب والانقلاب وارتعدت فرائص كل امة من بأسه وشوكته وخشيت أن تنشب بها اظفار بطشه وصولته

مطلب المغايرة الموجودة بين اعمال شرلكان وافعال البابا

وكان ثم بون بعيد بين اعمال الايمبراطور واعمال البابا حتى ادرك الفرق بين افعالهما كل غافل اومتساهل من المتفحصين وعند مقابلة امورهما ببعضها عاب الناس على البابا بولص المذكور وذلك ان شرلكان وان كان من الفاتحين المجبولين على حب الحكم والرياسة وكان معتادا منذ زمن طويل على الابهة والتفاخر كما هو مقتضى مقام الملوكية وما تصدى اليه من تطلب المجد والمعالى حسبما جرّ به طمعه وولعه قد ترك الدنيا بغتة وهو غير طاعن فى السن و يمكنه بدون التنازل عن سرير الملك أن يقضى بقية ايامه فى الراحة والتنعم بأن يجعل لنفسه اوقاتا مخصوصة يخلو فيها عن الاشغال لمريض عقله ويريح ذهنه واما بولص فهو وان كان قسيسا قضى سنيه الاولى منزويا فى المدارس منكبا على الاشتغال بالعلوم النظرية وسبق له ما يفهم زهده فى الدنيا حيث اعتكف عن الخلق عدة سنوات وسجن نفسه بنفسه فى خلوة من احد الديور ولم يرق الى كرسى البابا الا وهو هرم طاعن فى السن قد ظهر عليه على حين غفلة شدة الطمع الذى هو من شأن الشبوبية وتصدى الى مشروعات كبيرة ولم يخش أن يترتب على سعيه فى تنجيزها وقوع القتل فى اوروبا واشتعال نيران الحرب فى كافة دولها ومع كون الناس عابوا عليه فى ذلك ووصفوه بالنقص والخسة لم يرجع عن الوقاحة التى هو مجبول عليها ولم يزل مصرا على ما ربه حتى ان وقاحته وان كانت وقتئذ فوق حد ما يتصور طغى وبغى وزاد عتوا الذى مجيء الدوق دوكيز الى ايطاليا لقصد

سنة ١٥٥٧

امداده واعانته

مطلب
توجه الدوق دوكيز الى ايطاليا مع جيش من جنود الفرنساوية

وقد حصل ما كان تتمناه الامبراطورة دولورينة من التسليم فى قيادة الجيش المبعوث لاعانة البابا الى الدوق دوكيز حيث ارسل هذا الدوق الى ايطاليا مع جيش مشتمل على عشرين الف رجل من اجود الجنود التى كانت موجودة اذذاك فى خدمة فرانسا وكان لهذا الدوق شهرة كبيرة فى العسكرية وكان يؤمل فيه أن سيبذل غاية جهده وماعنده من العرفان فى هذه الحرب سيما وكان هو السبب فى ايقاع فرانسا فيها ولم يوقعها فى ذلك الا ليفتح لنفسه ابواب الشهرة والفخر ولهذا الداعى اندرج فى جيشه كثير من البكزادات الفرنساوية بمحض ارادتهم واجتاز هذا الجيش جبال ألبة فى فصل شتاء شديد وتقدم الى رومة ولم يتعرض اليه عساكر اسبانيا الموجودين بذلك الطرف لانهم لم يكونوا كثيرين حتى ينتشروا فى محلات كثيرة فبقوا مجموعين معا على حدود مملكة نابلى ليمنعوا الاعداء عن الدخول بها

مطلب
اظهار البابا العداوة الى فيليبش

وقوى قلب البابا لقدوم الفرنساوية فاظهر ما كان بضميره من الحقد للملك فيليبش لان البابا وان كان حديد المزاج وكان غيظه من فيليبش لامزيد عليه الجأته الضرورة بكظمه حيث لم يكن ذا اقتدار على مخاصمة فيليبش فلما رآى الفرنساوية انصارا له عين من طرفه اناسا وامرهم بيت الحكم فى الدعوى التى كان امين الدعاوى بديوان الكردينالات قد قصها فى حق فيليبش لقصد اثبات ضياع حقه فى تاج مملكة نابلى بسبب عصيانه على الكنيسة وهو من ابناءها وصدر من البابا ايضا اوامر الى نوابه الموجودين بديوان كل من شرلكان وابنه فيليبش والمضالعين معهما بالرجوع الى رومة وكان القصد من ارجاعهما اغاظة الكردينال دولابول الذى كان ناتباعنه فى ديوان انكلترة وكان حبرا ممتازا وبذل غاية جهده حتى اصلح ما بين انكلترة وكنيسة رومة وكان يؤمل فيه أن يخدم الكنيسة فى امور جسيمة اخرى ومع ذلك حقد له البابا وغضب عليه لكونه

فى ١٢ من شهر شباط

فى ٩ من شهر نيسان

توسط

سنة ١٥٥٧

توسط فى ايقاع الصلح بين عائلة الاوستريا ومملكة فرانسا وكانت العادة جارية فى رومة بلعن اعداء الكنيسة فى يوم الخميس المقدس من كل سنة فاضاف پولص الى الجارى فى كل سنة مقدارا جسيما من السخط واللعن وحكم بالطرد والحرمان على من شنوا الاغارة اخيرا على دول الكنيسة ولم يستثن منهم احدا قل او جل وبناء على ذلك ابطل فى اليوم الثانى من عزبة البابا الدعاء المعتاد للايمپراطور

ولكن البابا مع اتباعه هوى نفسه فى غضبه وتجاوزه الحد فى تهوره حتى صارت فعاله فى ذلك تعد من قبيل ما لا يرتكبه الا الاطفال او المجانين كان لاهماله او عدم اقتداره لم يستعد بما يجعل غضبه ذا تأثير عند اعدائه وذلك ان الدوق دوكيز وان تلقوه عند دخوله مدينة رومة مع الاحتفال والابهة كأنه قادم من حرب انتصر فيها او آتاه الدهر آماله لا قادم الى واقعة اما عليه واما له لم يحصل له انشراح لدى وقوفه على حقيقة الامور حيث لم يجد مهمات الحرب ومالزمها فى الحالة التى اخبرعنها كاراف ووجد جنود البابا اقل عددا مما انعقدت الشروط عليه ولم يكن هنالك من الذخائر والاصناف ما يكفيهم ولم يكن موجودا بالخزينة ما يلزم لصرف ماهياتهم هذا وقد حصل ان اهل البنادقة اعتبارا بما صب على جمهوريتهم سابقا من المصائب اخبروا البابا واحزابه انهم مصممون على أن يبقوا خالي اغراض وأن لا يتداخلوا فى حروب ملوك اعظم منهم قوة واما بقية دول ايطاليا فانضم بعضها جهرا الى حزب فيليپش والبعض الآخر كان يود سرا انتصاره على هذا البابا حيث اوجب طمعه الزائد اشتعال نيران الحرب بالثانى فى بلاد ايطاليا

مطلب وقايع الدوق دوكيز

ولما ايقن الدوق دوكيز ان اعباء الحرب ستقع كلها عليه ندم حيث لا ينفع الندم على وثوقه بالبابا واعتماده على امداد من طرفه بحيث يمكنه تنجيز ما كان فى نيته من المشروعات الجسيمة الا انه كان له رغبة عظيمة فى تتميم ما اهتم به وكان البابا يلح عليه كل الالحاح فى افتتاح الحرب فتوجه الى ناپلى وقابل

سنة ١٥٥٧

الاعداء بالقتال غير أن نجاحه فى مبدأ الامر لم يكن قدر ماله من الشهرة ولا على طبق ما كان يؤمل فيه بالنظر لدرايته بالحروب بل ولم يكن على وفق ماوعد به هو نفسه من قبل وذلك انه افتتح الحرب بمحاصرة سيوتلا وهى مدينة كبيرة موجودة على حدود مملكة نابلى فدافع عنها المحافظ الاسپانيولى الموجود بها مع مزيد القوة وغلبت قوته عزم الجنود الفرنساوية حتى اضطر الدوق دوكيز بعد ثلاثة اسابيع الى رفع الحصار ورجع يجر ذيل الخزى لدى الادبار لكنه أملا فى محو ما لحقه من العار عطف عنان جسارته نحو معسكر الدوق دالب وعرض عليه القتال وكان دالب المذكور من ذوى التبصر فى عواقب الامور لا يجهل فائدة الاقتصار على المدافعة مع عدو دفعته نفسه الى القتال فجنب الحرب واقتصر على المدافعة عن معسكره من داخل المتاريس وداوم على هذا المنوال مع التثبت والاصرار كما هى عادة القسطيليين ابناء وطنه وفسد لحزمه وتدبيره جميع مادبره الدوق دوكيز من المكر والخداع ليوقعه فى القتال هذا وكانت الامراض فى اثناء ذلك تفنى جنود الفرنساوية وكانت حصلت منازعة كبيرة بين سرعسكرهم وبين رئيس الجنود الرومانية فانتهز الدوق دالب تلك الفرصة وجدد اغاراته على الاراضى القسيسية وايقن البابا عجز نفسه وعدم اقتداره على المدافعة عن بلاده من الاعداء بعد أن كان يؤمل الظفر بهم والتغلب على بلادهم فصار يتشكى ويتظلم ويتطلب الصلح واما الدوق دوكيز فتأثر كل التأثير من عدم نجاحه حتى انه تضرع الى ديوان ملك فرانسا فى أن يرسل اليه امدادا او يأذن له بالرجوع من ايطاليا ولم يقتصر على ذلك بل طلب من البابا أن يوفى بما كان قد تعهد به وحض الكردينال كاراف وصار يلومه تارة ويهدده اخرى ليجبره على تأدية مواعيده حيث هى اوقعته فى الخطأ ولم يلح على سيده هنرى فى فسخ الهدنة مع فيليپش والمعاهدة مع البابا الا لاعتماده على تلك المواعيد واغتراره بزخرفها

مطلب
الحرب الحاصلة وقتئذ بمملكة البلاد الواطية

وبينما كان الفرنساوية فى اسوء حال ببلاد ايطاليا حصلت فى مملكة البلاد

سنة ١٥٥٧

الواطية حادثة لم تكن على خاطر احد وبها دعى الدوق دوكيز من ذلك المحل وكان يعد عليه به اكتساب الفخر والشهرة الى محل آخر وجعل فى اعظم منصب واشرف مقام بعد مقام الملوكية وسبب ذلك هو ان الفرنساوية لدى ارسالهم الجيش المتقدم ذكره الى ايطاليا ومحاولتهم التغلب على بعض المداين الموجودة على حدود فلاندرة فهم منهم انهم عازمون على فسخ الهدنة المنعقدة بمدينة وسيل كما تقدم فصمم فيليبش وان كان لا يحب الخصام على الحرب والقتال مع همة لا تكل حتى يرى اعداءه ان الولد سر ابيه وان والده شرلكان لم يخطئ فى كونه رآه جديرا بأن يسلم له فى اعنة الحكم وكان فيليبش يعلم ان ملك فرانسا قد صرف مبالغ كبيرة لتجهيز الجيش المبعوث الى ايطاليا مع الدوق دوكيز وان خزائنه لا تكفى الا قليلا فى المصاريف الجسيمة التى تستلزمها الحرب فى مثل تلك الاقطار البعيدة وبناء على ذلك ادرك ان الفرنساوية اذا فتحت عليهم حربا اخرى من جهة مملكة البلاد الواطية لا يمكنهم القيام بأعبائها مادام باب الحرب مفتوحا عليهم ببلاد ايطاليا فصمم لاصابة رأيه على تحويل معظم قواه الى الجهة التى لا يوجد فيها الا القليل من جنود الفرنساوية وجمع من مملكة البلاد الواطية لهذا القصد جيشا يبلغ نحو ستين الف رجل وساعده اهل فلاندرة على مآربه كل المساعدة كما هى عادة الرعايا غالبا فى حق كل ملك تولى الحكم عن جديد هذا وكان فيليبش من صغره يظهر عليه علامات النباهة والتبصر فى عواقب الامور فلم يكتف بهذا الجيش الجرار وسعى فى امور اخرى حتى يتحقق النجاح فى مشروعاته المذكورة فجد فى استمالة الانكليز الى حزبه ليكونوا حلفاءه وانصاره

مطلب
سعيه فى استمالة الانكليز الى حزبه ليعينوه فى هذه الحرب

وكان منذ زمن طويل يسعى فى استمالة الانكليز الى مساعدته على الحرب وكان الانكليز لا يجهلون ان لهم مصلحة كبيرة فى مكثهم خلى اغراض عن الحزبين المتشاحنين بل وكان فيليبش لا يجهل كونه مبغوضا عند الملة الانكليزية بحيث يشق عليها أن تساعده على تتميم اى شىء كان من مشروعاته

سنة ١٥٥٧

ومع ذلك لم يقنط فيليبش من اعانتهم له لدى التماسه الاعانة منهم وكان يعتمد فى ذلك على محبة ملكة الانكليز له وهى زوجته كما تقدم وكانت لم تزل تحبه مع ما فعله معها من الامور الغير اللائقة فكان جازما بأنها لا تخرج عن رأيه وانها لا بد وان ترضيه فيما يطلبه هذا وقد سافر بنفسه الى انكلترة حتى لا يعسر عليه شئ ويفوز بمرامه

وكانت ملكة انكلترة مدة غيابه فى كآبة وهزال ففرحت لقدومه وعادت اليها القوة فلم تلتفت الى مصلحة مملكتها ولا الى قول رعاياها واطاعته فى جميع ما عرضه عليها وعارضتها شوراها الخاصة فى ذلك وافهموها ان التعرض لتلك الحرب من الخطأ وعدم التبصر فى العواقب بل ويلقى بالملة الانكليزية الى التهلكة والاخطار وذكروها بالمعاهدات والمشارطات الاكيدة المنعقدة بين كل من مملكتى فرانسا وانكلترة وافهموها ان تلك المشارطات لا يجوز نقضها بأى علة كانت الان مارية لم تقبل منهم عدلا ولا صرفا وسبب عدم اصغائها لقولهم اما أن يكون استحواذ فيليبش على عقلها بالحيلة والخداع او انه اغلظ عليها وكانت تحبه حبا جما فلا يعظم عليه تهديدها وتخويفها بما شاء والحاصل انها اصرت على الحرب فى اقرب وقت مع مملكة فرانسا ولم تزل شوراها الخاصة تعارضها مدة مستطيلة مع انصافها بمقام الملوكية ومع تحيل فيليبش على اربابها كل التحيل وبعد المعارضة تلك المدة سلمت الشورى فى الامر المطلوب الا ان تسليمها لم يكن عن طيب خاطر بل لمحض الامتثال الى امر الملكة واعلن رسم الحرب الى مملكة فرانسا

فى ٢٠ من شهر يونيو

وربما لم يسبق للملة الانكليزية الدخول فى حرب بدون اختيار الا هذه المرة وكانت مارية تعلم ان نفرة الانكليز من هذا الحرب فوق كل حد ولذا لم تجسر على عقد مجلس البرلمان اى خشيت ان تجمع وكلاء الملة لتطلب منهم الامداد والاعانة بل ضربت بنفسها مبالغ جسيمة على الرعايا وفى ذلك تجاوز لحدود قدرتها حيث يجب عليها بمقتضى اصول الدولة ان تعرض مثل هذا الامر على ارباب مجلس البرلمان اى وكلاء الملة

سنة ١٥٥٧

فاذا اقروه لدى المذاكرة معا حكموا بالاجراء وعلى كل فقد جمع ما امرت به من المبالغ وبه امكنها ان تجمع طائفة كبيرة من الجنود وارسلت ثمانية آلاف رجل تحت رياسة القونت دوپامبروك الى جيش فيليپش ليكونوا معينين له

مطلب
وقايع جيش فيليپش بمملكة البلاد الواطية

ولم يكن فيليپش ذاته فى اكتساب الشهرة والفخر بالتظاهر والعلو فى الحرب فاعطى قيادة جيشه الى الدوق دوساووة المسمى ايمانويل فليبير ثم توجه الى مدينة كامبرى ليقيم بها حتى يكون قريبا من محل الواقعة لتصله الاخبار فى اقرب وقت من رئيس جنوده المذكور ويأمره بما يستحسنه وقد افتتح هذا الدوق الحرب بما شهد له بالمهارة والشطارة واثبت تفوقه فى المعارف على رؤساء الجنود الفرنساوية وتحقق الناس ان اختيار فيليپش له كان فى محله وانه لابد وأن يكون النصر حليفه فى جميع وقائعه مدة هذا الحرب وذلك ان الجهة التى عينها لتكون ملتقى جنوده كافة كانت بعيدة جدا عن المحل الذى كان نوى فى ذهنه ان يجعله مركزا للحرب ثم مكث مدة يشاغل اعداءه وهم لايدركون حقيقة ما ربه وخدعهم بسيره من جهة الى اخرى كالمتردد فى اموره وظنوا ان نيته أن ينقض بجنوده على اقليم شمپانيا ليلج من تلك الجهة فى مملكة فرانسا وبناء على هذا الظن توجه الجيش الفرنساوى الى هذا الاقليم وزيد الى محافظيه معظم من كانوا محافظين على المدائن الاخرى الموجودة على حدود المملكة حتى لم يبق بهذه المدائن من الجنود ما يكفى للمدافعة عنها لدى الهجوم عليها

مطلب
احاطته بمدينة سانكانتين

فلما رأى الدوق انخداع اعدائه بحيله وتدبيره عطف الى يمينه مجدا فى السير وجال فى اقليم پيكاردية وارسل امامه الفرسان من جنده وكانوا كثيرين ولم يزل مستمرا على السير حتى احاط بمدينة سانكانتين وكانت معتبرة اذ ذاك من احصن المدن وكانت من اهمها لانه قل ان كان يوجد وقتئذ مدائن اخرى محصنة فيما بينها وبين باريس التى هى تخت مملكة فرانسا ومع ذلك كان اهمل الفرنساوية فى تحصينها كل الاهمال واخذ مقدار من محافظيها

سنة ١٥٥٧

ارسل الى اقليم شمبانيا حتى لم يبق بها من الجنود ما يكفى لتحمل مشاق المحاصرة على ان رئيس المحافظين بها وان كان بطلا هماما ذا خبرة ودراية كانت رتبته ونفوذه دون ما يلزم لحفظ مدينة كبيرة مهمة مثل هذه وقد هجم عليها جيش جرار ولو بقيت على هذا الحال لتغلب عليها الدوق دوسابوة فى ايام يسيرة الا ان الاميرال دوكولونى حاكم اقليم بكاردية رأى ان من العار له ضياع تلك المدينة وان حفظها مما يجب عليه لوطنه سيما وكانت من جملة مدن اقليمه فألقى بنفسه الى المدينة مع من امكنه جمعه من العساكر وذلك فعل جليل لا يجسر عليه سوى ذوى الشهامة كيف وقد جز مقدار من سرية جنوده ومع ذلك لم يزل يجول بين صفوف الاعداء حتى ولج بالمدينة فلما رأى محافظوها انه خاطر بنفسه مع علو رتبته وسمو شهرته واقتحم الاهوال حتى وصل اليهم ليساعدهم تقوت قلوبهم وعظم تجلدهم وقد صرف كولونى كل ما جادت به قريحته مع تمكنه من فن الحرب وتجاربه الكثيرة فى أتعاب المحاصرين للمدينة وفى تحصينها حتى يمكن من بها أن يدافعوا عنها وعن انفسهم حق المدافعة وانضم اهل المدينة الى العساكر وخدموا كولونى خدمة صادقة حتى كان يتراءى منهم انهم مصممون على القتال الى أن يموتوا و يجعلوا انفسهم فداء لسلامة مملكتهم

مطلب حضور الفرنساوية لاعانة مدينة سانكاتين

ووصل القونت دوپامبرولث مع العساكر الانكليزية الى الدوق دوسابوة وهو يبذل غاية جهده فى حصر المدينة والمضايقة عليها ومما لا ينبغى تفصيله هنا تفوق مثل هذا الجيش وكان جرارا يكثر عنده جميع ما يلزم له من الذخائر والمهمات على محافظى المدينة وكانوا لقلتهم لا يجسرون على الخروج منها ليفسدوا على المحاصرين ما يدبرونه من العمليات وكان كولونى لا يجهل ان المدينة فى خطر عظيم وانه يستحيل عليه المدافعة عنها مدة مستطيلة فكتب الى عمه مونتمورانسى يخبره بذلك وكان وقتئذ سر عسكر الفرنساوية و بين له طريقة يمكن بها توصيل الامداد الى المحصورين بالمدينة وكان مونتمورانسى يعلم ان حفظ تلك المدينة من اهم الامور حيث ان

سنة ١٥٥٧

الاعداء اذا تغلبوا عليها ساغ لهم الجولان بداخل المملكة وان من الواجب عليه انقاذ ابن اخته من تلك التهلكة التي اوقعه فيها حبه لوطنه فقبل ما عرض عليه وصمم على التوجه لاعانة المدينة ولو اوقعه ذلك في المهالك والاخطار وسار على تلك النية من لافير الى سانكانتين المذكورة وكان جيشه لا يبلغ نصف جيش الاعداء فاعطى الامير داندلوت شقيق كولونى قيادة طائفة من العساكر الخاصة وجعله رئيسا على كافة المشاة من جنود الفرنساوية وعرّفه الطريق الذى اخبره به كولونى من قبل وأمره أن يدخل منه الى المدينة واما هو نفسه فبقى مع معظم الجيش ليهجم على معسكر الاعداء من جهة اخرى حتى يشتغلوا به ويغفلوا عن داندلوت وعساكره لدى دخولهم المدينة لكن داندلوت لم يتبع في اجراء ما امر به سبل الاصابة والسداد وانما اعتمد على الشجاعة والجلادة وانقض بعسكره على الاعداء بدون احتراس وهزموا اول فوج تصدى لسد طريقهم لكنهم بعد قليل وقع الخلل في صفوفهم وانقضت عليهم جنود اخرى واحتاطت بهم من كل فج حتى قتل اكثرهم الا ان داندلوت كان لم تدن منيته فساعد جسارته الحظ هو وخمسمائة معه من جنوده ووصلوا بشق الانفس الى المدينة ودخلوا بها

مطلب واقعة سانكانتين

هذا ما كان من شأن داندلوت واما مونتمورانسى فجرت به نيته الى ان قرب جدا من معسكر الاعداء المحاصرين للمدينة فارتبك حاله ولم يمكنه ان يرجع على عقبيه آمنا من جهتهم اذ كانوا اكثر منه نفرا وكان الدوق دوسابوة متيقظا متنبها فادرك ان مونتمورانسى قد اخطأ خطأ كبيرا في تقربه من المعسكر وتأهب لانتهاز تلك الفرصة وصف جيشه سريعا ورقب الفرنساوية حتى اخذوا في المسير نحو لافير ووجه اليهم القونت دغمون مع فوج الفرسان ليهجموا على ساقة جيشهم واما هو نفسه فقدم مع المشاة ليكون معينا للفرسان على الهجوم ولم يزل الفرنساوية اخذين في الالتجاء مع الثبات التام وحسن النظام الى ان رأوا دغمون منقضا عليهم مع الفرسان وكانوا كثيرين جدا فأحسوا أن لا طاقة لهم على المقاومة

سنة ١٥٥٧

وأن لات حين مناص سيما وكانوا لا يعتمدون حينئذ على اميرهم مونتمورانسى لكونهم قد ادركوا جميعا ما ارتكبه من الخطا فى التقرب من معسكر الاعداء فتمكن الرعب والخوف من قلوبهم واخذوا يجدّون فى السير وساقة الجيش تدفع من امامها حتى ظهر عليهم فى اقرب وقت علامات الهزيمة والانكسار وفهم انهم آخذون فى الفرار لا فى الالتجاء وادرك دغمون حال ارتباكهم فحمل عليهم حملا قويا ولم تمض برهة الا وانهزم فرسان الفرنساوية وولوا مدبرين وان كانوا حينئذ معتمد الجيوش الفرنساوية وزهرتها الا ان مونتمورانسى كان لم يزل مع المشاة وكان له فيهم كلمة نافذة تمنعهم عن الشتات والتبدد ولم يزالوا باقين تحت ألويته آخذين فى الالتجاء مع حسن النظام الى ان أتى دغمون بعدّة مدافع ووجه شرار نارها الى مركز هؤلاء المشاة فانحل نظامهم فى اقرب وقت وحل بهم الخلل والارتباك وامر حينئذ دغمون الفرسان بالهجوم عليهم فهدموا بناء صفوفهم وحقت عليهم الهزيمة وقتل منهم فى تلك الواقعة نحو أربعة آلاف من جملتهم الدوق دانغيان وكان من العائلة الملوكية ووجد فيهم ستمائة من اعيان البكزادات واما مونتمورانسى فلم يجد اذ ذاك وسيلة فى ارجاع الحظ اليه بعد الادبار وخشى العار وصمم على أن لا يعيش بعد تلك المصيبة وكانت ناشئة عن قلة حزمه وعدم تبصره فى عواقب الامور فرمى بنفسه الى اكثف صفوف الاعداء ليهلك وهو يقاتلهم بحسامه فجرح جرحا قاتلا وانتزحت قواه بنزيف دماه فاحتاط به عند ذلك بعض ضباط فلمنكيين كانوا يعرفونه وأنقذوه من ايدى العساكر وحملوه على التسليم واخذ اسيرا وأسر معه ايضا كل من الدوق دومونيانسية والدوق دولونكويل والمارشال دوسنتاندرة وعدّة من الضباط الممتازين وثلاثمائة من البكزادات والاعيان ونحو اربعة آلاف من العساكر وتغلب الغالبيون على اعلام المشاة جميعها وعلى الذخائر والمهمات الحربية وجميع المدافع سوى قطعتين منها على ان الغالبين لم يفقد منهم فى هذا الحرب اكثر من ثمانين رجلا

مطلب
هزيمة الفرنساوية وشتاتهم

وكانت

سنة ١٥٥٧

مطلب
ماكان لهذه الواقعة من التأثير اول وهلة

وكانت هذه الواقعة مشؤمة على مملكة فرانسا كواقعة كريسى وواقعة ازانكور لدى انتصار الانكليز عليهم فى عين هذا المكان وتشبه الواقعتين المذكورتين ايضا من وجوه اخرى وهى انهزام الفرنساوية فى اقرب وقت وعدم حزم اميرهم وكثرة من قتل او أسر فيها من الضباط الممتازين وقلة من فقده الغالبون وما نزل بمملكة الفرنساوية اذذاك من الهم والغم والرعب الجم حتى ان كثيرا من اهل باريس فزعوا كما اذا كان الاعداء فى ابواب المدينة وبادروا بالارتحال منها الى داخل المملكة وصار الملك وقتئذ يبذل جهده فى تطمين من بقى بها وتقوية قلوبهم وباشر بنفسه ما لزم من الاشغال لاصلاح الحرب من استحكامات المدينة وحصونها وبذل فى ذلك وسعه وتأهب لدفع الاعداء لدى هجومهم على المدينة الا انه لحظ فرانسا كان فيليبش خوفا هيابا وكان الاميرال دوكولونى لم يزل مقيما على المدافعة عن مدينة سانكانتين بقوة وعزم يندر وجودهما فى الخلق ولذا أمنت مدينة باريس من الخطر الذى كانت تخشى الوقوع فيه بل وألفى الفرنساوية فى الجملة وسعة فى الوقت حتى أفاقوا من دهشتهم واطمأنت قلوبهم مما اصابهم بغتة فأفزعهم واضاع قوتهم وشمر الملك هنرى عن ساعد الجد والجهد فى تدارك ما يأمن به على مملكته واستعد فى اقرب وقت لدفع اعدائه وتأهب لذلك بأمور جليلة تشهد له بانه جدير بالحكم على ملة قوية حربية مثل ملة الفرنساوية

مطلب
توجه فيليبش الى جيشه

ثم ان فيليبش بعد الواقعة المتقدم ذكرها توجه حالا الى معسكر جنوده تحت اسوار سانكانتين وتلقوه ثم فى موكب عظيم من المواكب العسكرية التى تصنع عادة لدى الظفر والنصر ولشدة فرح فيليبش بانتصاره فى اول حكمه ظهر عليه حسن الخلق وان كان متكبرا جبارا ومكث حينا وهو يمازج الخلق ويلاطفهم ملاطفة لم تكن من طبعه حتى ان الدوق دوسافوة لدى دنوه منه اراد أن يجثو على ركبتيه ليقبل يديه فعانقه فيليبش معانقة الاحباب قائلا يجب على نفسى أن اقبل يديك حيث كنت سببا فى هذا النصر

سنة ١٥٥٧

الجليل ولم يفقد من رجالنا سوى القليل

مطلب
مذاكرة فيليبش مع كبار ضباطه فى شان استمرار الحرب

وبعد فراغ مراسم تبريك قدومه وتهنئته فى قومه انعقد مجلس عسكرية وحصلت المذاكرة به فيما يلزم فعله لاغتنام ما احتوت عليه تلك النصرة من الفوائد الجليلة اما الدوق دوساوة ومن كان معه من الضباط الماهرين الذين تربوا فى عهد شرلكان فكان رأيهم ان يترك حالا حصار سانكانتين اذليس حريا باشتغال الجيش به وأن يساق بالجيش الى مدينة باريس لحصرها حتى تسلم اليهم وعضد الدوق المذكور هذا الرأى بما افاده من أنه لا يوجد فى طريقهم عساكر تصدهم ولا قلاع تردهم وتمنعهم الوصول الى تلك المدينة وان الفرنساوية فى دهشة كبيرة لانهزام جندهم فما من عائق هنالك يمنعهم المسير الى باريس والتغلب عليها باسهل طريق واما فيليبش فكان اقل جراءة واكثر تبصرا من رؤساء جيشه فرجح ثمرة قليلة حقيقية عن ثمرة جليلة مشكوك فى الظفر بها فأفاد ارباب المجلس بأن مملكة فرانسا قوية لا تعجز عما تدفع به عن نفسها وان الفرنساوية ابطال جبلوا على حب الفخر بالحرب وحب ملوكهم وانه يرجح كثيرا ما برح يحاربهم فى ارضه وبلاده ويخسر خسرانا مبينا ويهلك جيشه اذا جال فى مملكتهم قبل أن يتغلب على مكان يجعله وصلة بينه وبين بلاده بحيث يأمن العاقبة ويسهل عليه الالتجاء اذا خانه الدهر واضطر الى الرجوع على عقبيه هذه كانت ملحوظاته وبموجبها انحط الرأى على استمرار حصار سانكانتين وامتثل اليه رؤساء جيشه فى ذلك عن طيب خاطر اذ كانوا جازمين بأن سيكون تغلبهم على سانكانتين المذكورة قبل مضى ايام قليلة بحيث لا تستغرق منهم مدة تضيع عليهم ما دبروه من الهجوم على باريس بل وكانوا جازمين بأنهم مع تشميرهم عن ساعد الجد والاجتهاد يتغلبون عليها فى اقل مما يظن ويباشرون تنجيز ما كان فى نيتهم

مطلب
مدافعة كولونى عن مدينة سانكانتين

وكانت تحصينات سانكانتين فى اسوأ حال وكان محافظوها لا يؤملون وصول امداد اليهم من اى جهة كانت ومن هذا الوجه كان يظهر ان ضباط فيليبش

لم يخطئوا

سنة ١٥٥٧

لم يخطئوا فى حسابهم انهم سيتغلبون على المدينة فى اقرب وقت ولكن ثم أمر آخر لم يلتفتوا اليه وهو أن كولونى كان رئيسا فى المدينة ففغلوا عن قدره ولم يدخلوه فى حسابهم وان كان يفوق على جميع امراء عصره فى العسكرية و يمتاز عنهم بصفات جليلة وهى انه كان يصبر على البلوى و يرى منه التجلد التام لدى الشدائد والملمات وكان ذا نهى وذهاء بجودة عقله بكل نادرة حتى تخال قريحته تزداد سعة وقوة عند كل مشكل ومعضل وكان بمكانة من جلب قلوب الناس اليه مع بقائه مهابا محترما عندهم نافذ الكلمة بينهم ولو كان ذلك فى اعسر وقت واكبر كرب وهذه صفات لا يليق سواها بمقتضيات الاحوال اذ ذاك وكان يعلم ان كل برهة لا تعادلها قيمة بالنسبة لوطنه فى تلك الشدائد والاهوال فبذل وسعه فى اطالة مدة الحصار ومنع الاعداء عن الشروع فى امر آخر يكون اشأم من حصار المدينة المذكورة على مملكة فرانسا والحاصل انه ثبت امام الاعداء و بذل فى دفعهم عن تلك المدينة من البراعة والمهارة ما لا مزيد عليه وعلم كيف يلقى الصبر على المحافظين حتى ان مدة المحاصرة كانت سبعة عشر يوما وان كان يوجد بها رجال من ملل ثلاثة اعنى الاسبانيولين والفلمنكيين والانكليز وكانوا يتسابقون معا لغيرة كل منهم على اشتهار ملته وعلو افتخارها و يبذلون الجهد للتغلب على المدينة فى اقرب وقت و بعد ذلك اخذت المدينة عنوة وتكاثر الاعداء على كولونى واسروه وهو بالثلم لم يبرح عاكفا على قتالهم

مطلب
اخذ المدينة عنوة فى ٢٧ من شهر اوغسطوس

هذا ومدة ما كان كولونى يشغل الاعداء بتجلده وتثبته كان الملك هنرى يصرف جهده فى أن يتأهب للقائهم ومنعهم الدخول فى مملكته فعين ضباطا لجمع البقايا الشاتة من جيش الامير مونتمورانسى وصدرت منه اوامر بأخذ رجال للعسكرية من جميع بقاع المملكة واستصرخ كافة الاشراف والبكزادات الموجودين بضواحى المملكة ليدعوهم الى التسلح والاجتماع تحت رياسة الدوق دونوير فى اقليم بيكارديه واحضر ايضا معظم الجنود القديمة الموجودة باقليم بيمون تحت رياسة الماريشال دوبريسالك

مطلب
ما دبره الملك هنرى للمدافعة عن المملكة

سنة ١٥٥٧

وبعث اكثر من سفير الى الدوق دوكيز يأمره بالرجوع مع جيشه حالا للمدافعة عن المملكة وارسل مخصوصا من عنده الى حضرة السلطان يلتمس منه أن يمده بالسفن العثمانية وأن يقرضه مبلغا من الدراهم يستعين به على ما اصابه وبعث آخر الى مملكة ايقوسيا ليحث اهلها على شن الاغارة على شمال انكلترة حتى تشتغل الملكة مارية بذلك فلا يمكنها أن تمد فيليبش بجنود أخرى من عندها وبالجملة فقد رأى هنرى فى رعاياه من الشهامة والصداقة ماشد عضده اما مدينة باريس فتبرعت له بثلاثمائة الف فرنك واقتدى بها فى تلك المروءة جميع المدائن الكبيرة من المملكة وساعدته بحسب مافى وسعها وتعهد عدة من اكابر الاشراف بأن يقوموا بما يلزم للمدافعة عن القلاع والمدائن التى يخشى عليها من الاعداء اكثر من غيرها ولم تكن تلك الشهامة مقصورة على مجموع طوائف الاهالى بل ازدادت الحمية عند جميع الناس حتى كان كل فرد مستعدا لبذل جهده ومافى وسعه كأن عرض الملك ونجاة الوطن متوقفان على مجرد عزمه ومحض شهامته

مطلب
لم يستفد فيليبش من نصرة سنكانتين عظيم فائدة

وكان فيليبش لايجهل ماكان يدبره ملك فرانسا لصون بلاده وما كان الفرنساوية عليه من الحمية والشهامة للمدافعة عن اوطانهم وادرك أخيرا انه قد فاتته فرصة لايسمح الدهر بمثلها وانه بعد ذلك لايمكنه الدخول بمملكة فرانسا فعدل بدون ان يلحقه كبير أسف عن تلك النية اذ كانت جسيمة خطرة على كل هياب من امثاله واقتصر على حصار كل من مدينة هام ومدينة كاتليت وتغلب عليهما بجنوده فى اقرب وقت وكان هاتان المدينتان مع مدينة سانكانتين ثمرة تلك النصرة الكبيرة التى لم يفز أحد بأعظم منها فى ذلك العصر ومع ذلك كان فيليبش لم يزل يظهر الفرح التام لانتصاره على الاعداء وكان فى كل الامور ذا اوهام باطلة كاسدة واعتقادات عاطلة فاسدة فنذر أن يبنى كنيسة وديرا وقصرا لقديس يسمى لوران فى نظير انتصاره بواقعة سانكانتين حيث صادف ذلك مولد القديس المذكور وقبل مضى السنة

وضع

وضع فى موقع يسمى اسكوريال بقرب مدينة مدريد اساس عمارة مشتملة على مانذره ولفرط بدعه جعل بناء هذه العمارة على شكل مصبع حيث ورد فى سير القديسين ان هذا القديس زهقت روحه وهو يعذب على شبالة من الحديد تقاد تحته نار حامية ومع ما اوقعه به طمعه من المشروعات العظيمة الجسيمة المصاريف مكث اثنين وعشرين سنة وهو يجد فى اتمام هذه العمارة المعدودة اثرا لغروره وفرط تدينه وصرف عليها مبالغ شتى وبقيت بعده لملوك اسبانيا قصرا يعد آخر القصور الملوكية الموجودة ببلاد اوروبا واكثرها تجملا وزينة وان لم يكن اظرفها فى الرسم والصورة

مطلب رجوع الفرنساوية من ايطاليا

واول من وصل خبر هزيمة الفرنساوية بواقعة سانكانتين الى مدينة رومة هو المبعوث من طرف هنرى بصدد حضور الدوق دوكيز مع من كان تحت رياسته من الجنود وحيث تقدم أن البابا مع اعانة الفرنساوية له لم يمكنه أن يدافع عن نفسه حق المدافعة من الاسپانيوليين ايقن انه لدى تنحى انصاره عنه لابد وان يزحف الاسپانيوليون على بلاده بدون تراخ واذا تظلم من خروج جيش الفرنساوية من اراضيه وبالغ فى لوم الدوق دوكيز حيث كان السبب فى ايقاعه بهذا المشكل وتشكى من هنرى حيث تركه وتخلى عنه فى تلك الشدائد والملمات ولكن لم يجد ذلك نفعا اذ كانت الاوامر الصادرة الى الدوق دوكيز قطعية لاتقبل ردا فاضطر البابا المذكور مع غلظته وحدة طبعه الى أن يدور مع الدهر و يمتثل لاحكام الضرورة وتوسل فى طلب الصلح مع فيليبش بأهل البنادقة وبالامير كوم دوميديسيس وكان فيليبش متأسفا من خصامه له وكانت حربه معه على غير مرامه بل انه فى اثناء انتصاره كان فى شك من جواز حربه معه حتى فاتحه اكثر من مرة فى شأن الصلح فأبى الا القتال وبناء على ذلك رضى فيليبش بما عرض عليه فى شأن الصلح وبادر الى قبوله واظهر من التساهل ولين العريكة ما لايؤمل ممن اغتر من الملوك بظفره وامتلأ كبرا بنصره

سنة ١٥٥٧

مطلب مشارطة الصلح المنعقدة بين البابا والملك فيليبش

وتعين لهذا الخصوص الدوق دالب من طرف فيليبش والكردينال كاراف من طرف البابا واجتمعا هذان المرخصان ببلد يسمى كاوى واخذا يتذاكران فيما هما مأموران بصدده وكانا مهيأين للصلح فلم تطل مدة المذاكرة بينهما وعقدا معا مشارطة كان مضمونها أن يتخلى البابا بولص عن العصبة المنعقدة بينه وبين فرانسا وأن يلازم من الآن فصاعدا ما يليق به بوصف كونه ابا لكافة النصارى من بقائه خلى الاغراض لا يتداخل فى امر تعصب ولا تحزب وان يترك فيليبش حالا جميع المدائن والحصون التى تغلب عليها من بلاد الكنيسة واما ما كان يدعى به كاراف من جهة دوقية باليانو وسائر بلاد العائلة الكولونية فمآل قضيته الى جمهورية البنادقة لتبت الحكم فيها وان الدوق دالب يجب توجهه بنفسه الى رومة ليطلب العفو من البابا عن سيده وعن نفسه فى نظير ما حصل اخيرا من الاغارة على اراضى الكنيسة حتى يطهره البابا مما لحقه لذلك من الدنس والرجس هذا معنى ما احتوت عليه من الشروط فتأمل كيف امكن البابا لفرط اوهام فيليبش أن ينهى امر تلك الحرب وكانت شؤما عليه من غير أن يمس الكنيسة ادنى ضرر فكان حظ الغالب التذلل والاعتراف بالذنب مع الاستكانة وكان حظ المغلوب ان عومل معاملة الاعلى مع الادنى بدون أن ينزل عما كان من عادته من الغرور وما جبل عليه من الكبر والانفة

وتوجه الدوق دالب على حسب المشارطة الى رومة وقبل قدمى البابا وهو فى هيئة الذليل الخاضع وتضرع اليه أن يسامحه و يعفو عنه مع انه قبل ذلك ببرهة كان قد افزعه وأوقعه فى اشد الكروب و يستدل مما اخبر به الدوق المذكور على ان الاسبانيوليين لفرط وهمهم كانت هيبة البابا عندهم فوق كل حد ونهاية وذلك ان هذا الدوق كان متعودا من صغره على معاشرة الملوك والامراء وممازجتهم بل وربما كان اعظم اهل عصره كبرا وانفة ومع هذا قد اعترف انه لدى قربه من البابا امتلأ قلبه رعبا وخوفا لهيبته حتى عجز

عن

سنة ١٥٥٧

عن التكلم وضاعت منه رؤيته لدهشته

مطلب
ردّ فيليش اقليم پليزانسة الى الامير اوكتاوة فارنيز

وهذه الحرب وان ظهر فى اوائلها أن سيترتب عليها تقلبات عظيمة وحوادث مهمة جسيمة قد انتهت بدون حصول شئ مّا فى البلاد التى كانت موضوع النزاع وانما نشأ عنها حوادث مهمة جدّا فى بلاد اخرى من مملكة ايطاليا وذلك ان فيليش كان لا يودّ الا رفع النزاع بينه وبين الپاپا فرأى من الواجب عليه أن لا يخل بما يلزم للاستحواذ على كل من كان يظن فيه أن يكون معينا مع الفرنساوية لهذا الپاپا ولهذا القصد اخذ يتداول مع الامير اوكتاوة فارنيز حاكم پارمة ليخرجه عن المعاهدة مع الفرنساوية وردّ اليه مدينة پليزانسة مع ما يتعلق بها من الاراضى وكان شرلكان قد تغلب عليها سنة ١٥٤٧ وبقيت بيده الى ذلك الوقت واعطاها لابنه مع سائر ما تنازل له عنه من الممالك

مطلب
ما دبره الامير كوم دوميديسيس لينال سينة

وبهذه الفعلة عرف الامير كوم دوميديسيس طبع فيليش وادرك ما آربه لانه كان اروغ امراء ايطاليا واكبرهم مهارة وحذقا فانتهز تلك الفرصة لينال ما كان فى باله منذ مدة ولم يظفر به وهو انضمام مدينة سينة مع ما يتعلق بها من الاراضى الى اراضيه الموجودة باقليم توسكانة وكان يعلم انه لا ينجح فى مثل هذا المأرب الا مع بذله غاية اللباقة والحزم فلم يبق من خداع السياسة وملح التدبير شيأ الا وصرفه فى اتمام هذا المشروع فبدأ بأن طلب من الملك فيليش أن يوفيه بالمبالغ الجسيمة التى كان اقرضها لوالده الايمپراطور مدة محاصرة سينة وانما طلب ذلك منه لعلمه انه لا اقتدار له على تأديته حيث كانت خزائنه قد نفدت فى الحروب ولذا ماطله فيليش وحاول أن لا يجيبه الى ما طلب فاظهر كوم لذلك غاية التكدر وارسل حالا الى مبعوثه الموجود بمدينة رومة يامره بالمداولة مع الپاپا فى مهم مّا مفهما ان مماطلة فيليش له كانت السبب فى ذلك وقد وفى المبعوث المذكور بما امر به مع غاية الحزم والحذاقة حتى وهم الپاپا أن كوم قد نفر من اسپانيا وعزم على نقض ما بينه وبينها من العهود فعرض عليه

سنة ١٥٥٧

ان يتعاهد مع مملكة فرانسا ويتزوج ابنه البكرى باحدى بنات هنرى ملك الفرنساوية فقبل كوم منه ذلك واظهر من الانشراح والسرور ما به تحقق وزراء البابا ومبعوث فرانسا الموجود بمدينة رومة من كون هذا الامير الخطير قد صار من حلفائهم بلاشك حتى صاروا يتكلمون بذلك على رؤس الاشهاد وكان كوم يعلم انه لابد وان يفزع فيلبيش من وصول خبر ذلك اليه فبعث قريبه لويز دوطوليد الى مملكة البلاد الواطية ليلاحظ ما يلحق فيلبيش من الغم وينتهز الفرصة قبل فواتها وكان لويز المذكور جديرا بان يفوض له فى مثل هذا الامر المهم فصبر حتى تحقق وصول الاخبار الى فيلبيش وفهم انه فزع منها وامتلأ رعبا وخوفا فسأل مقابلته ولما قابله طلب منه بقلب ثابت ما كان والده الايمبراطور اقترضه من الامير كوم وفى اثناء الحاحه عليه فى هذا الطلب ألقى قصدا بعض عبارات مشتبهة احسن سبكها ليفهمه ان كوم مع اصراره الآن لا يبعد عليه فعل شئ ما اذا لم يعط حقه سيما وذلك يذكره باساآت اخرى حصلت فى حقه قدما

مطلب نجاح تلك المداولات

فلما سمع فيلبيش ذلك من طرف امير صغير مثل امير توسكانة تعجب كل العجب وتيقظ لما اتت له به الاخبار من مدينة رومة ففهم ان كوم لم يتجاسر على اظهار ذلك الا لاعتماده على معاهدة بينه وبين فرانسا وخشى أن ينضم هذا الامير الى حزب البابا والملك هنرى فتقوى به عصبتهما وتزداد صولة وبطشا لاسيما والامير المذكور مع معارفه الكبيرة كان موقع بلاده يساعد جدا على الاضرار بمملكة اسپانيا فرضى فيلبيش أن يسلم له فى حق الحكم على سينة اذا قبله فى نظير ماله من الدراهم وتعهد بان يقدم من طرفه طائفة من الجنود لتدافع عما كان لملك اسپانيا من الاراضى ببلاد ايطاليا من كل عدو مدة البهايد التعدى وعند رضاء فيلبيش بهذا الامر ولم يكن كوم بحيله وخداعه يقصد سواه اخذ يحاول البابا فيما كان موضوع المداولة بينهما ويستعين على ذلك بفرط حيله ومكره وقبل ما عرضه عليه فيلبيش وانعقدت بينهما مشارطة بهذا الامر واسرع

فيلبيش

سنة ١٥٥٧ م

فيليبش بوضع امضائه عليها وان عارضه فى ذلك احذق ارباب شوراه وكانت غيرة فيليبش على حقوقه لم يسبقه احد من الملوك بمثلها واذا تعجب الناس من تسليمه بدون مقابل لكل من امير بارمة وامير توسكانة فى تلك الاراضى الواسعة مع ان والده لم يحزها الا بعد أن جد سنوات عديدة وسفك دماء غزيرة وصرف مبالغ واموالا كثيرة ولا يمكن وجود سبب لتفريطه فى الاراضى المذكورة سوى خوفه دوام الحرب بينه وبين الپاپا وكان لفرط وساوسه واوهامه لا يطيق أن يكون خصما للأب النصارى وعلى كل حال فقد حصل ان كانت المشارطات المذكورة سببا فى توطين ميزان تعادل فى القوى بين امراء ايطاليا وتمكين التساوى بينهم اكثر مما كانوا عليه منذ أن دكت ايطاليا دكا باغارة كرلوس الثامن عليها ومن وقتئذ خلت ايطاليا عن الحروب التى كانت لا تنقطع من بين كل من ملك اسپانيا وملك فرانسا وايمبراطور ألمانيا اذ كانت ميدانا لحروبهم وكانوا بها يتسابقون فى اكتساب الفخر والشهرة وابراز البطش والقدرة نعم ان ما حصل بينهم بعد ذلك من الحروب لم يكن قليلا غير أن موضوع تلك الحروب كانت امورا أخرى غير ايطاليا فانتقلت حروبهم الى سواها وسفكوا دماء كثيرة فى اقطار اخرى من بلاد اوروپا حتى تخربت وكبرت شقوتها كما يحصل عادة لكل بلدة دهمتها الحروب واحتاطت بها الخطوب

مطلب
خروج الدوق دالب من رومة فى ٢٩ من شهر سبتامبرو

ولنرجع الى الدوق دوكيز فنقول انه خرج من مدينة رومة يوم تذلل خصمه الدوق دالب امام الپاپا وامتثاله له وعند دخوله بمملكة فرانسا اكرموه وبالغوا فى تبجيله حتى كأنه الملك الموكل بحفظ تلك المملكة وكأنهم نسوا ما حصل له من الهزيمة والخيبة ببلاد ايطاليا فصاروا يبالغون فى خدمه القديمة لاسيما مدافعته عن مدينة متزة وفى كل مدينة مر بها اكرم واحسن مثواه كما اذا كان متكفلا بأمن الناس كافة واطمئنان المملكة

مطلب
تلقيه بمملكة فرانسا

حيث انه بعد أن رد بحزمه وعزمه جنود الايمبراطور المنصورة قد لبى دعوة وطنه وسعى اليه ليردعنه فيليبش ويمنعه أن يظفر به لكبير بطشه هذا

سنة ١٥٥٧

وقد حصل له من طرف الملك مثل ما حصل له من الاهالى وذلك ان هنرى تلقاه مع غاية الترحيب والاكرام بل اخترع ألقابا ومناصب جديدة جليلة شرّفه بها مجازاة له على جليل صنعه بجعله رئيس رجال الدولة داخل المملكة وخارجها وجعله مطلق التصرّف فى جميع الامور حتى كان تصرّفه دون تصرّف الملك بيسير فانظر الى ذلك السعد الغريب الذى كان مقارنا لطالع امراء عائلة لورينة حتى انهم مع خيبتهم فى مشروعاتهم كانوا يزدادون رونقا وبهجة ويرقون اوج العلى والسعود كيف لا وقد كان ما اصيب على مملكة فرانسا من المصائب وما ارتكبه الامير مونتمورانسى من الخطأ سببا فى ارتقاء الدوق دوكيز المذكور الى درجة جليلة من الشوكة والفخر وعلوّ القدر على انه كان لا يؤمل الوصول الى مثل ذلك بل ولو ساعدته المقادير ونجح فى ابهج امانيه مما كان يحدثه به طمعه السامى وولعه بكل نخر سامى

مطلب تولية الدوق المذكور قيادة جيش الفرنساوية

ثم ان الدوق دوكيز تولع بأن يظهر فى ظفر عظيم حتى يحقق آمال ابناء وطنه فيه ويكون اهلا لوثوق الملك به فجمع ما امكنه جمعه من الجنود وسار بهم الى بندر كومبينة وكان اذ ذاك اشدّة فصل الشتاء ومع ذلك بارز الاعداء مع جنده واما الملك هنرى فقد جمع من مملكة فرانسا بمزيد همته ومساعدة رعاياه له مقدارا كبيرا من العساكر وجلب من ألمانيا وبلاد السويسة ايضا مقدارا آخر عظيما حتى ألف جيشا يهابه اعداؤه ولو كانوا منتصرين عليه واذا فزع فيليبش حين رأى جنود الفرنساوية تساق الى القتال مع شدّة الشتاء وخاف على ما تغلب عليه من المدائن والحصون لا سيما مدينة سانكانتين فان اسوارها لم يكن تم ترميمها وتعميرها

مطلب محاصرته مدينة كالس فى غرة شهر ينويه سنة ١٥٥٨

غير أن الدوق دوكيز كانت نيته الزحف على جهة اخرى اهمّ مما كان قائما بذهن فيليبش فبعد أن خادع اعداءه وتأهب اكثر من مرة للهجوم على مدينة ثم اخرى من المدائن الموجودة على حدود اقليم فلندرة حتى افهمهم ان ذلك الطرف هو مطمح نظره عطف بغتة بجميع جنوده الى شماله

وحاصر

سنة ١٥٥٨

وحاصر مدينة كالس، ولا يخفى أن هذه المدينة كان انتزعها الانكليز في عهد الملك ايدوار الثالث بعد نصرتهم الشهيرة في واقعة كريسي وكان لم يبق بايديهم من الاراضي الواسعة التي كانت لهم بمملكة فرانسا غير هذه المدينة وكان بها يسهل عليهم الدخول بالمملكة المذكورة في اى وقت كان ولذلك كان الانكليز يفتخرون ببقائها في ايديهم كما كان الفرنساوية في حسرة واغاظة كبيرة لانتزاعها منهم وكان موقعها بالطبع قويا حصينا وكانت حصونها واستحكاماتها معدودة مما لا يمكن تسخيره والتغلب عليه حتى لم يجسر احد من ملوك الفرنساوية على الهجوم عليها ولم ينازع الانكليز فيها احد مدة الحروب الطويلة المهولة التي حصلت بين عائلة بورقة الملوكية وعائلة لانكسترة وان كان يظهر وقتئذ ان انكلترة قد أعيتها تلك الحروب الداخلية وصارت لا تلتفت الى أمر ما من الامور الخارجية ووقت ان حاصر الدوق دوكيز مدينة كالس كانت مهملة خلية عن من يقوم بحفظها والمدافعة عنها وذلك أن الملكة مارية كانت لا تعرف شيأ مما يخص سياسة الحرب وكان ارباب شوراها اغلبهم من القسيسين لا يدرون اكثر منها في هذا الخصوص وكانت هي وهم لا يشتغلون بسوى تطهير المملكة من عقائد الهراطقة الملحدين فلم يلتفتوا الى ما يلزم للأمن على هذا الثغر المهم الجسيم ظنا منهم أن شهرة ما به من الحصون تكفي في حمايته والذب عنه حتى أنهم بعد شهور الحرب بين انكلترة و فرانسا لم يعدلوا عن أمر كان اوجبه قبل نفاد خزائن المملكة وهو أن يؤخذ مدة الصلح معظم المحافظين على هذا الثغر في أواخر الخريف و يرد اليه في فصل الربيع وذلك أن الاراضي التي حول مدينة كالس كانت تملؤها المياه مدة الشتاء فتصير البرك الموجودة حول تلك المدينة غير صالحة لان تكون مطروقة الا من جهة واحدة وتلك الجهة عليها قلعتان حصينتان وهما قلعة سنتاغات وقلعة نونامبريج ولهذا كان يؤخذ محافظوا المدينة المذكورة واخذوا وقتئذ ايضا على حسب العادة وان كانت الحرب حاصلة بين الملتين وقد تشكى

سنة ١٥٥٨

الامير واتتفورث محافظ المدينة من هذا الفعل مفهما ان تجريد المدينة عن الجنود فى مثل ذلك الوقت من قبيل الامساك الذى لامعنى له حيث من الجائز ان يفاجئها الاعداء فلا يجد عنده من المحافظين ما يكفى للذب عنها ووصلت شكواه الى الشورى فاستحقرتها ونبذتها ظنا منها أنه لم يعرض عليها ذلك الا لخلوه عن ثبات القلب او لرغبته فى أن يبقى تحت اداوته مقدار كبير من العساكر شرها منه وحبا فى الرياسة بل ان بعض ارباب المشورة لفرط وثوقهم بنفسهم كما هى عادة الجاهلين افادوا أن فيهم اقتدارا على أن يدفعوا بعصيهم البيضاء اى عدو تصدى للهجوم على مدينة كالس مدة الشتاء هذا وعند رجوع الملك فيليبش من انكلترة الى مملكة البلاد الواطية مر بالمدينة المذكورة واطلع على حالها فاخبر الملكة أنه يخشى عليها من الاعداء وبين لها ما يلزم للامن عليها من تغلب الغير بل وعرض أن يضيف الى محافظيها مدة الشتاء سرية من جنوده الا ان ارباب مشورة تلك الملكة وان كانوا يخدمونها بنصح فيما يخص الدين كانوا كسائر الانكليز يسيؤن الظن بالملك فيليبش فوهموا أن ذلك حيلة وخداع منه ليتغلب على المدينة المذكورة ولم يقبلوا نصحه ولا العساكر التى اراد أن يمدهم بها وتركوا كالس ولم يكن بها من الجنود سوى الربع ممن كان يلزم لحفظها والذب عنها

مطلب تشديد الدوق دوكيز فى المحاصرة

وكان الدوق دوكيز يعلم أن كالس على هذا الحال فقوى قلبه وصمم على حصرها حتى تعجب منه ابناء وطنه بقدر ما تعجب اعداؤه وكان يعلم أن نجاحه فى هذا المشروع يستلزم غاية السرعة فى التجهيز حتى لا تتمكن الانكليز من امداد تلك المدينة بحرا أو يأتى اليه فيليبش برا فيعاق عن تتميم آماله وبناء على ذلك ضيق على المدينة كل التضييق وصرف فى تسخيرها من القوة والعزم ما كان يندر وقوعه اذ ذاك فى شأن المحاصرات

وبمجرد هجومه اخرج الانكليز من قلعة سنتاغات وتغلب عليها ثم زحف عليهم فى قلعة نوهامبريج وثبتوا للقتال ثلاثة ايام ثم تغلب عليها وأخذ ايضا

عنوة

سنة ١٥٥٨

عنوة القلعة المحصنة للمينا وفي اليوم الثامن من وصوله الى مدينة كالس تعب المحافظون من كثرة الاشغال ومشاق القتال وكانوا لا يفنون عن خمسمائة رجل فاضطروا الى تسليم المدينة

مطلب
استيلائه على المدينة

ولم يهمل الدوق دوكيز الانكليز حتى يفيقوا من دهشتهم بل توجه حالا الى مدينة غينة وضرب حصارها وكان محافظوها اكثر عددا من محافظي كالس ومع ذلك لم يثبتوا امام الفرنساوية وسلموا في المدينة بعد مدافعة قليلة واما العساكر الذين كانوا في قلعة هام فانهم هربوا قبل وصول الفرنساوية اليهم

استيلائه على غينة وقلعة هام

فانظر كيف كانت جسارته حيث هو في مدة قليلة مع شدة الشتاء وفتور همة الفرنساوية بما حصل لهم من الهزيمة في مدينة سانكانتين حتى صاروا لا يفكرون الا في المدافعة عن بلادهم امكنه أن يطرد الانكليز من مدينة كالس وكانت في حكمهم منذ مائتين وعشر من السنين وكان لم يبق لهم في مملكة فرانسا سواها من جميع ما كانوا يملكونه بتلك المملكة من الاراضي الكبيرة الواسعة وبهذه الحادثة صار لمملكة فرانسا موقع كبير عند الافرنج كما صار للدوق دوكيز اعتبار عظيم عند ابناء وطنه حتى عدوه أعظم ضباط عصره وصاروا يتضاحكون في كل ناد بنصره وظفره وهم به في فرح زائد واما الانكليز فصاروا يسخطون على ملكتهم وارباب شوراها كما هي عادة كل ملة حرة ذات انفة وشمم اذا أصابها ضرر وكان السبب فيه عدم رأى أولى الامر منها وصارت الملكة ووزراؤها محتقرين مبتذلين لا حرمة لهم عند الانكليز وكانت المذكورة مطلقة التصرف في حكمها ذات جبر وقسوة ومع ذلك لم يخش الانكليز لها بأسا وبالغوا في زجرها ونهرها والسخط عليها وعلى وزرائها حيث كانوا سببا في ادخال الملة الانكليزية في الحرب الواقع بين فيليبش والفرنساوية مع عدم المصلحة لها في ذلك وقد جرتها اهمالهم وعدم رأيهم الى أن ركبها العار والخزى وضاع منها ما هو أعظم ما حازه الانكليز وأفخر ما كسبوه منذ حين

مطلب
رونق هذا الفتوح وتنائجه

سنة ١٥٥٨

وقد فعل ملك فرانسا فى حق كالس مثل ما فعل بها اول ملك تغلب عليها اعنى الملك ايدوار الثالث وذلك أن ملك الفرنساوية لدى تغلبه على هذا الثغر أمر بخروج من كانوا به من الإنكليز واعطى بيوتهم للفرنساوية وكلفهم الاقامة بها مع انعامه عليهم بمزايا وخصوصيات كثيرة وأعد للمحافظة على المدينة المذكورة مقدارا كبيرا من العساكر وجعل لهم رئيسا من اولى الخبرة والدراية وبعد انفاذ ذلك كله دخل جيشه المنصور فى المشتى لتستريح عساكره ولم يحصل شئ بعد تلك الحوادث بل اعقبها الفتور والخمول بسبب الشتاء كما هى العادة فى هذا الفصل

مطلب تسليم التاج الايمپراطورى الى فردينند اخى شرلكان فى ٢٤ من شهر فبريه

وعقد فردينند حينئذ بمدينة فرانكفور مجلس المنتخبين ليطلعهم على جهة تنازل اخيه شرلكان له عن الايمپراطورية وسبب تأخير هذا الامر الى ذلك الوقت هو ما حصل من التوقف فى خصوص توليته بحق التنازل حيث لم يسبق فى الايمپراطورية تولية ايمپراطور بهذا الحق فعند تسوية الامور وارضاء الجمهور بادر الامير دورنجة باجراء ما كان شرلكان كلفه به من تبليغ تنازله لاخيه عن التاج الايمپراطورى وأقره المنتخبون على ذلك وحكموا بصحة تولية فردينند محل أخيه وألبسوه تاج الايمپراطورية وما للمنصب الايمپراطورى من الشعار والعلامات

مطلب امتناع الباپا عن اقرار فردينند على المنصب الايمپراطورى

وبعد اقرار فردينند على الايمپراطورية من طرف المنتخبين وجه قنجليره اى كاتب سجلاته المسمى كوزمان الى الباپا ليعلمه بهذه الحادثة ويبلغه احترامه للكنيسة المقدسة ويفهمه أنه سيبعث اليه عن قريب سفيرا كبيرا ليتذاكر مع جنابه فى شأن تتويجه بتاج الايمپراطورية غير أن الباپا بولص المذكور كانت لم تهذبه التجارب ولم تعظه الصروف والنوائب وكان باقيا على كبره وغروره وجزمه بأن الباپا من شأنه أن يكون له السلاطة على كل ملك وأمير وكان غليظا لا يدور مع الدهر ولا يرعى شروط المدارة فأبى أن يأذن لمبعوث فردينند فى الدخول اليه وأعلن ببطلان ما أقره المنتخبون بمدينة فرانكفور وكان زعمه أن الباپا بيده مفاتيح ملك السموات والارض

سنة ١٥٥٨

بوصف كونه خليفة المسيح وان تقليد احد بالمنصب الايمپراطوري ليس الامن خصوصيات الكنيسة وان ماحصل قبله من اسلافه البابات من الترخيص للمنتخبين فى تعيين ايمپراطور وهم يقرونه بعد هذا التعيين لم يكن فى مثل تلك الصورة بل ذلك مقصور على صورة ما اذا كان كرسى الايمپراطورية قد خلا بموت من يشغله فان الحجة التى كتبها شرلكان بتنازله لغو لاعمل لها حيث هى عرضت الى مجلس ليس من شأنه الحكم فى مثل ذلك ولا يشركه البابا احد فى هذا الحق فله أن يعطى او يمنع او يقر هذا التنازل او يلغيه و يجعل من شاء فى منصب الايمپراطورية وانه بقطع النظر عن ذلك كله ثم شيآ ن يبطلان صحة انتخاب فرديننده الاول أن المنتخبين الذين هم من المعتزلة قد وجدوا فى المذاكرة وسمعت آراؤهم فى شأن التولية مع انهم بخروجهم عن الدين القاثوليقى قد صاروا لاحق لهم فى منصب الانتخاب وماله من المزايا الثانى هو أن نص فردیننده قد اقر ما حكمت به مشورة الدينية مساعدة للهراطقة وبهذا صار لا يصلح لان يكون ايمپراطورا حيث أن الايمپراطور مجعول لان يحمى حمى الكنيسة لا لتخريبها وتدميرها غير أن البابا بعد أن قال ذلك مع غاية الكبر والانفة اخبر متساهلا بأنه يساعد فردیننده كل المساعدة اذا كان يقر بأنه لاحق له فى التاج الايمپراطورى وان مجلس المنتخبين المنعقد فى مدينة فرنكفورد لا يثبت له حقا ما و يستغفر على رؤس الاشهاد فى نظير ما فرط منه قبل ذلك فى جنب الكنيسة و يرفع الى البابا اكف الضراعة والابتهال ليقر حجة شرلكان المثبتة لتنازله له عن الايمپراطورية و يقر توليته بدلا عنه هذا وكان كوزمان مبعوث فردیننده لا يظن حصول مثل هذه الامور من طرف البابا حيث هى من دعوى البابات القديمة المستهجنة التى قضى عليها فتعجب كل التعجب لدى سماعه اياها فى مثل ذلك العصر حتى انه تحير فى رد الجواب لكنه لحزمه لم يتعرض لخصوصيات البابات ولا لبيان دائرة سلاطتهم واقتصر على ابداء كل ملحوظة سياسية توجب على

سنة ١٥٥٨

الباپا أن يكون لين العريكة وأن يقرّ فرديننـد على الايمپراطورية حيث هو قد تولاها ولبس تاجها فلا فائدة فى المعارضة وألق ما ابداه من المحفوظات بكيفية لابدّ وان كانت تؤثر فى هـذا الكاهن لوكان ممن يعرف مصلحة نفسه وقد حصـل ايضا أن فيليپش ابن شرلكان قد بعث من عنـده سفيرا الى رومة ليرجوه أن يعدل عن دعواه حيث لاتليق بالحال اذ ذاك ولا ينشأ عنها سوى اغضاب امراء الايمپراطورية كافة كما تغضب فردينند بل وربما اتخذها اعداء الكنيسة وسيلة فى القدح فى أقضية الپاپا وبادروا بالتشنيع عليها محتجين بأنها منافيـة بالكلية لحقوق الملوك وموجبة لزوال كل حكومة مدنيـة وانحلال كل عروة سياسية وكان پولص ممن يرى من الكبائر مراعاة شروط الحزم ومداراة البشر فى صورة المدافعة عن مزايا الكنيسة وحقوق باپاتها فلم يعـدل عما تفوه به اوّل مرّة ولم يقرّ ديوان رومة فردينـنـد على الايمپراطورية مادام پولص المذكور ماسكا بأعنته

مطلب
سعى هنرى فى حث اهل ايقوسيا على القيام على انكلترة

وبينما كان هنرى يتـدارك مايلزم للحرب الآتى بينـه وبين فيليپش كانت تصـل اليه الاخبار بنجاح سعيه فى بلاد ايقوسـيا وذلك ان اهل ايقوسـيا قد عرفوا بطول التجارب ان من عدم الرأى والاصابة تداخلهم فى الحروب والوقائع الحاصلة بين فرانسا وانكلترة فأبوا ان يصغوا الى سفير الملك هنرى مع ابرامه عليهم ولم يلتفتوا الى قول ملكتهم مع تحيلها وصولتها فيما بينهم ولم يرضوا ابدا بالانضمام الى حزب الفرنساوية لقتال الانكليز وكان امتناعهم من ذلك مراعاة للمصلحة العامة وراحة المملكة وان كانوا الى ذلك الوقت لا يلتفتون الى مثـل تلك المصلحة حيث كانوا اهل شهامة وولع بالحروب يخرجون من واقعة ويلجون فى اخرى غير أنهم مع امتنـاعهم عن المداخلة فى الحرب قد رضوا بأمر آخر كان هـنرى امر سفيره بمفاتحهم فيه

مطلب
تزوج ابن ملك فرانسا بملكة ايقوسيا

وكانت ملكة ايقوسـيا قد خطبت منذ سنة ١٥٤٨ لولى العهد من

ابنام

سنة ١٥٥٨

ابناء ملك فرانسا ومن وقتئذ أخذت وربيت فى ديوان تلك المملكة حتى صارت أرق أميرة وعدت من أدق نساء ذلك العصر وطلب هنرى فى تلك السنة رضاء اهل ايقوسيا باشهار النكاح فعقدوا مجلسا لذلك وعين ارباب هذا المجلس ثمانية اشخاص ليكونوا نائبين عن الملة الايقوسية فى محفل الزواج ورخصوا لهؤلاء الثمانية فى أن يضعوا امضاءهم على جميع الاوراق والوثائق التى يلزم تحريرها قبل عقد النكاح وعند عقد الشروط من الطرفين احترس الايقوسيون مهما أمكن حتى لا يمس حريتهم واستقلال بلادهم أدنى خلل واما الفرنساوية فلم تبق وسيلة الا وتشبثوا بها لكى يثبتوا لابن ملكهم وولى عهدهم حق ادارة المملكة وتدبير أمورها مادامت زوجته بقيد الحياة واذا ماتت قبله يخلفها فى الحكم على ايقوسيا وكان اشهار النكاح مع ما يليق من الاحتفالات بقدر الزوجين وبأبهة ديوان فرانسا وكان اذذاك ابهى دواوين ملوك الفرنجة فانظر الى هنرى حيث أمكنه فى ظرف بعض شهور أن يسترد ملكا جسيما كان قبل لمملكة فرانسا وضاع منها ثم ضم اليها بزواج ابنه مملكة كبيرة وترتب على تلك الوقائع ايضا ان حظى الدوق دوكيز بشهرة جليلة واعتبار لانهاية له فزوج بنت اخته بثانى ابناء ملك فرانسا وازداد بهذا الزواج رفعة وشأنا وعظمت كلمته وزاد نفوذا عما كسبه بانتصاره فى وقائعه المتقدم ذكرها

فى ١٤ من شهر ابريل

مطلب افتتاح الحرب

وقد افتتح فى الحرب بعد زواج ولى عهد فرانسا بمدة يسيرة وجعل الدوق دوكيز رئيس الجيش وجعلت له كلمة نافذة وتصرف مطلق كما كان قبل ذلك وكان ملك فرانسا قد امده رعاياه بمبالغ جسيمة تكفيه لجمع جيش كبير ونقوم بجميع ما يلزم له من المصاريف والمهمات واما فيليش فكانت خزائنه قد نفدت بما لزم للحرب الحاصل قبل ذلك حتى انه اضطر الى تسريح بعض عساكره مدة الشتاء فكان لا يمكنه أن يجمع من الجنود ما يكفى لمقاومة جيش الفرنساوية وكان الدوق دوكيز لا يجهل تلك الاحوال بل يعلم تفوقه

سنة ١٥٥٨

ورجحانه عليه فبادر بانتهاز هذه الفرصة وحاصر مدينة تيونويل وهي
ثغر حصين من دوقية لوكسامبورغ على ضواحي مملكة البلاد الواطية
لاتنكر اهميته لمملكة فرانسا بسبب قربه من مدينة متزة وقد بذل من
كانوا بهذا الثغر كل وسعهم في المدافعة عنه و بقوا ثلاثة اسابيع على
هذه الحال حتى أعيتهم كثرة الجنود واضطروا الى التسليم

في ٢٢ من شهر ابريل

مطلب
هزيمة جيش الفرنساوية في كراولينس

وبينما كان يتراءى أن هذه النصرة ستجر الى غيرها حصل عقبها بقليل حادثة
أخرى بجهة ثانية من بلاد المملكة الواطية ترتب عليها خذلان الفرنساوية
ونكالهم وتلك الحادثة هي أن المارشال دوترمس محافظ مدينة
كالس لما صال على اقليم فلاندرة وجال بها ولم يجد من يدفعه و يرده حاصر
مدينة دونكرقة ومعه خمسة عشر ألف رجل واخذها عنوة في اليوم
الخامس من المحاصرة ومنها اغار على نيوپورطة ولولا وصول القونتة دغمون
في جيش اكثر منه نفرا لتغلب عليها في اقرب وقت الا انه اضطر الى الادبار
وركن الى الفرار وكانت جنوده في ارتباك لثقلها بما غنمته في مدينة دونكرقة
وغيرها من البلاد التي خربتها في مسيرها حتى كانت بطيئة السير بخلاف جنود
دغمون فانه كان قد ترك خلفه مهماتها الثقيلة ومدافعها وكانت جيوشه
خفيفة سريعة السير فتعقب الفرنساوية ولحقهم بقرب مدينة كراولينس وهجم
عليهم بأقوى همة وكان دوترمس قد جعلهم في موقع محكم في قطعة ارض
على شكل زاوية فيما بين البحر ومصب نهر آيا وثبت لقاء دغمون ثباتا
عظيما حتى بقي الحزبان مدة على القتال من غير أن يظهر تفوق احدهما
على الآخر نعم ان جنود دغمون كانوا اكثر من جنود الفرنساوية
الا أن الفرنساوية كانوا يعرفون أنهم اذا هزموا في تلك البطاح وكانت اعداؤهم
لابد وأن يهلكوا عن آخرهم فصاروا يقاتلون مع قوة من غلب عليه اليأس
والقنوط حتى كانت همتهم تعادل كثرة اعدائهم الى أن طرأ أمر يجل عن أن
تحيط به بصيرة البشر علما فتحقق به الهزيمة على جنود الفرنساوية وذلك أن
فرقة من سفن الانكليز الحربية كانت بهذا الساحل فجرتها الى محل الواقعة

صوت

سنة ١٥٥٨م

صوت البارود والنار حتى دخلت فى نهر آيا وحررت مدافعها على الجناح الايمن من جيش الفرنساوية فكسرته فى أقرب وقت وانتشر الخوف والرعب بين كافة العساكر وازداد اهل فلاندرة قوة وعزما وصالوا على الفرنساوية قبل أن يفيقوا من دهشتهم وهزم كافة الفرنساوية فى أقرب وقت وقتل منهم فى الهيجاء ما يبلغ نحو الفى رجل وعند فرارهم بعد الهزيمة تبعهم فلاحوا البلاد التى كانوا خربوها قبل فى مسيرهم وصاروا يذبحونهم بدون رأفة وقتلوا منهم اكثر من ذلك ومن نجا منهم بعد هذا كله أخذ أسيرا وأسر معهم كبيرهم دوترمس وعدة من اكابر الضباط

مطلب توجه الدوق دوكيز الى قتال الجنود المنتصرة

وقد حصل من فيليبش ان أساء الامير دغمون فيما بعد ولم يعامله بما هو أهل له من الرعاية والاكرام نظرا لتلك النصرة العظيمة التى افزعت الفرنساوية حتى اضطر الدوق دوكيز الى العدول عن مقاصده الاولى وتوجه سريعا نحو ضواحى بيكاردية ليرد الاعداء عن الجولان بمملكة فرانسا وكانت الهزيمة المذكورة قد زادته رونقا وشهرة عند أبناء وطنه حتى أيقنوا أن لا سواه جدير بالانتصار قدير على الاخذ بالثار وعدوه معتمدهم لدى الخطوب والملمات ومرتكنهم فى الكروب والمعضلات ولما استعد للمسير للقاء الاعداء اخذ الملك هنرى مقدارا عظيما من محافظى المدائن والثغور القريبة من تلك النواحى وأدخلها فى عساكر الدوق المذكور حتى بلغ جيشه اربعين ألف رجل وكان جيش الاعداء بعد انضمام الدوق دوساوة بجنوده الى جنود القونتة دغمون لا ينقص عن هذا المقدار فكان كل من الفريقين فى جيش جرار وضربت خيام الجيشين على البعد من بعض ببعض أميال وكان كل من الملكين فى مقدمة جيشه فصار الفريقان مطمح نظر كافة الناس حيث سبق لهما معا حرب وضرب وكان كل منهما طورا غالبا وطورا مغلوبا فظن أن تكون هذه الواقعة نهاية كل غاية بينهما وأن لا بد من قتل احدهما بالآخر وانفراده فيما بعد بالقوة والبطش ويقائه منتصرا مطلقا فى بلاد الفرنجة يكلفها بما شاء وكان فى وسع كل

سنة ١٥٥٨

من الخصمين أن ينهى قضية النزاع فى تلك المرة اماعليه واماله ومع ذلك لم يستتنسبا تعليق مصالحهما الجمة ومما لكهما المهمة على واقعة واحدة اما الملك هنرى فكانت صورة واقعة سنكانتين وواقعة كرافويلس لم تزالا منقوشتين فى مرآة خياله فعدل عما كان من عادته من الجسارة والجراءة ولم يلق بنفسه الى الحرب مع جنود الاعداء اذ كانوا هم ورؤساؤهم وضباطهم عين من غلبوا جنوده فى الواقعتين المتقدمتين وألبسوهم رداء الخزى والعار واما الملك فيليپش فكان بالطبع يكره الحروب واقتحام الخطوب ولا يسلك غير طرق التبصر والاحتياط سيما وكان ميقنا بأن السعد منعقد بناصية الدوق دوكيز فخشى العاقبة وأبى التعرض للقتال والحاصل أن كلا من هذين الملكين قد اقتصر على الاحتراس من الآخر حتى كأنه كان بينهما تواطؤ على ذلك وأخذ كل منهما يتحفظ و يتحصن فى معسكره و يتجنب كل ما يجر الى التصام كافة جنودهما معا

مطلب اظهار كل منهما الرغبة فى الصلح

و بينما كانت جنود الحزبين على هذا الحال من قلة الاعمال كان الملكان يودان الصلح حتى ظهر على كل منهما مايدل على نيته الرضاء بما يؤدى الى المسالمة وازالة المخاصمة وسبب ذلك هو أن كلا من مملكتى فرانسا واسپانيا كانتا منذ خمسين سنة لم تزالا فى حروب مستمرة مع بعضهما وصرفتا مالا يحصى من المبالغ بدون حصول تفوق كبير لاحداهما على الاخرى ومابذله كل منهما من الجهد فى تلك الحروب لم يكن يعهد حصول مثله بين امم الفرنجة قبل وقوع التفاقم والشقاق بين شرلكان والملك فرنسيس الاول فكانت عاقبة ذلك ان ساء حال الملتين وأحستا بالخراب والدمار حتى كان يتعذر عليهما امداد ملكيهما بما يلزم للحروب الحاصلة بينهما فايقنتا أن لا بد لهمامن الصلح حتى تفيقا مما دهمهما وأصابهما هذا وكان حال الملكين كحال رعاياهما فكان فيليپش يرغب جدا فى الصلح لانه كان متشوقا الى بلاد اسپانيه لايود الا العود اليها اذ تعود من صغره على هوائها ومائها واخلاق اهلها فكان يحبها حبا جما ولا يطيب له عيش بسواها

ولكن

سنة ١٥٥٨

ولكن حيث كان لابد وأن يعار عليه و يعاب بل وربما كان يعرض نفسه للاخطار اذا هو ترك البلاد الواطية مدة الحرب ورحل الى اسبانيا كان له فى الصلح رغبة جمة حتى لايبقى مايحول بينه و بين مايشتهى هكذا كان حال فيليبش واما الملك هنرى فلم تكن رغبته فى الصلح دون ماذكر حيث كانت عقائد الهراطقة قد فشت وكثر احزابها بمدينة باريس وغيرها من المدائن الكبيرة من المملكة حتى كان يخشى أن تجر الى ضياع الدين فكان يود انقضاء الحرب بينه و بين فيليبش ليتمكن من قهر المعتزلة وقسرهم ومحق عقائدهم

مطلب الدسيسة الحاصلة فى ديوان فرانسا لتسهيل الصلح

وغير هذه الملحوظات المقررة قد حصل فى ديوان فرانسا دسيسة اعانت على تسهيل مادة الصلح وانجازها فى أقرب وقت وهى أن الامير دومونتمورانسى مدة أسره كانت الغيرة ترعى قلبه من ظفر الدوق دوكيز ونصره فى الحروب وكان بعد كل نصرة ثبتت لهذا الدوق قصا فى نخر نفسه وشهرته حيث يعلم أن اعداءه لابد وأن يستعينوا بنصر الدوق المذكور على اضاعة اعتباره من قلب الملك وتأكيد نفوذ كلمة الدوق دوكيز ولعلمه أن الملك هنرى أمنة خفيف العقل كان يخشى من أن يترتب على ذلك أن يصير عنده نسيا منسيا وأن يزول من قلبه ما كان له عنده من المحبة ولكن كان دومونتمورانسى لايرى له سبيلا الى منع وقوع ذلك الا السعى فى الرجوع الى ديوان فرانسا لكى يبذل جهده بنفسه فى افساد آمال اعدائه وتجديد علائق المحبة التى كانت بينه و بين الملك هنرى وكانت تلك العلاقات بينهما أكيدة كمحبة اثنين من الاقران تصادقا فى عهود المودة لا كما يحصل أحيانا بين أحد الملوك و بعض اخصائه من العلائق الواهية المعللة بالاغراض

و بينما كان مونتمورانسى يدبر أمرا يتوصل به الى الرجوع الى مملكة فرانسا وكان فى حيرة كبيرة حيث كان يظهر له تعذر ذلك طرأت حادثة غريبة ساعدته على تحصيل مرامه وهى أن الكردينال دولوربنة أخ الدوق دوكيز وقسيمه فى القبول عند الملك ونفوذ الكلمة بين الخلق لم يصن

سنة ١٥٥٨

حقوق النعم وداخله الغرور فنسى فضل الاميرة دووالنتنواى عليه وعلى الجيه ولكثرة غروره أظهر ما يفهم أن لا فضل لاحد عليه فى خصوص تلك النعم بل انه استحقها بخدمة عائلته للدولة وكثرة ما عاد من الفائدة على الدولة من عشيرته مع أن الاميرة المذكورة كانت السبب فيما كان يتمتع به من النعم الجليلة والخيرات الجزيلة ولم يقتصر على صدها واهمالها بل صار يعاندها فى اغراضها ويذم فى ذاتها وصفاتها ويسبها اكل المسبة

وقد نقل معاصرو هذه المراة أنها بقيت الى سن الستين على جمال الشبوبية وبها تهاوكمال بهجتها ومحاسنها فكان الملك متولعا بها مشغوفا بحبها فاشتد غضبها على من سبها وصممت على الانتقام منه فى أقرب وقت وحيث لم تجد الى خلع امراء عائلة لورينة سبيلا سوى المحالفة مع مونتمورانسى عرضت عليه أن تزوج احدى بناتها بأحد أبنائه فقبل منها ذلك بدون توقف وبعد احكام روابط المحالفة بينهما بعقد تلك القرابة بذلت ما كان لها عند الملك من القبول ونفوذ الكلمة فى استمالته الى الصلح واطلاعه على الطرق التى يسهل بها حصوله فحسنت له بتحيلها ان الاوفق أن يفاتح مونتمورانسى حزب فيليپش فى مادة الصلح حيث هو من اهل الخبرة والدراية فلا يدمع حزمه أن يتم هذا الخصوص على أحسن حال و يأتى على طبق الآمال

مطلب ترخيص هنرى للامير مونتمورانسى فى خصوص الصلح

وكانت عادة هنرى منذ زمن طويل الاعتماد على مونتمورانسى فى أهم الامور فكفى قول الاميرة المذكورة فى ارجاعه الى قديم طباعه وكتب حالا الى مونتمورانسى مع الرفق والملاطفة وعلامات المحبة كما كانت عادته ورخص له فى ترقب الفرص حتى يلوح له ما يختبر به قلب فيليپش ووزراءه و يقف على ضميرهم فى خصوص الصلح وقد حصل من مونتمورانسى ان سلك اوفق طريق فى التوصل الى ايقاع الصلح وهو أن فتح ضميره للدوق دوسابوة وكان قد ارتقى الى اوج العلا والمناصب وحاز فى العسكرية بخدمة اسپانيا صيتا كبيرا وفخرا شهيرا وكان اذ ذاك مغتربا منفيا عن أوطانه وكان فى غاية الاشتياق الى رؤيتها وكان لا يؤمل امكان رجوعه اليها

بطريق

سنة ١٥٥٨م

بطريق القوة والقهر فخطر له أن لا سبيل الى ذلك سوى حصول مشارطة قطعية بين فرانسا واسبانيا وبدونها لا يمكنه العود الى دولة المنتزعة منه وكان يعرف الحامل للملك فيليبش على الصلح فسهل عليه استمالته الى سماع ما عرض عليه فى شأن الصلح بل وأذن للامير مونتمورانسى فى العود الى فرانسا بدون طلب رهن عنه وكلفه بأن يدعو سيده هنرى الى الصلح ويقوى عنده الاسباب الداعية الى المسالمة وعند دخول مونتمورانسى عند سيده هنرى رحب به وبالغ فى اكرامه كأن غيابه عنه زاده عنده محبة واعلاء مكانة حتى انه بمجرد دخوله بالديوان الملوكى صار له عند الملك منزلة اعلى من منزلته الاولى ولما رأى الدوق دوكيز واخوه الكردينال دولورينة اعتبار الملك له امتثلا لاحكام الضرورة وصارا لا يتعرضان الا لما يخص وظائفهما وتركا مونتمورانسى والاميرة دووالتنواى يتصرفان على اغراضهما فى مصالح الدولة وتدبير امورها وقد أثمر سعيهما حتى حملا الملك هنرى فى أقرب وقت على تعيين اناس فوض لهم امر الصلح وعين فيليبش ايضا من طرفه اناسا لهذا الخصوص وتعين دير سركامب لان يكون به مجلس مرخصى الطرفين وبعد قليل انحط الرأى فيما بينهم على عقد هدنة برفع الحروب حتى يتم المذاكرة فى شأن الصلح وتنهى خصمة النزاع والشقاق

مطلب موت شرلكان

وفى اثناء تلك المقدمات الممهدة لنشر ألوية الصلح والراحة ببلاد اوروبا هلك شرلكان فى دير سانجوست وكان طمعه وشرهه سببا فى ايقاع بلاد الفرنجية حينا من الدهر فى الشقاق والفشل والمشاق والملل ولا يخفى أنه بعد دخوله الخلوة كانت عيشته وسطى اى كان يعيش عيشة انسان من الاعيان ايراده يسير فكانت مائدته منظومة نظما لا تقا لكنها خلية عن التكلف والزخرفة وكان اتباعه قليلين وكان يعيش معهم كالاقران لانه كان أبطل التكلف والرسوم فيما يخص خدمة نفسه اذ هى لما فيها من المشقة لا تليق بما كان يبتغيه من قضاء ما بقى من ايامه فى الراحة وصفو البال فبجودة هواء

سنة ١٥٥٨م

تلك البطالة وبعده عن مصالح الدولة وعدم تشويش ذهنه بتدبير امورها خف بالتدريج داء النقرس وسكنت آلامه الحادة التي كانت تنغص عليه عيشه ولربما صفت اوقاته في هذه الخلوة الوضيعة وتمتع براحة لم يذق طعمها في عهد دولته وصولته كيف لا وقد كان لا يشغل باله بالمطامع والافكار التي كانت تقلبه على الجمر مدة حكمه وصار لا يلتفت بالكلية الى حوادث الفرنجة وسياستهم واحوال بلادهم بل وكان لا يسئل ابدا عن هذا المعنى حتى كأنه عرف ان ليست الحياة الدنيا الامتاع الغرور آفاتها شتى ولذاتها باطلة لا تبقى فزهد فيها احتقارا لها ليأمن غوائلها وهو من نقض علاقاتها في سرور وحظ موفور

مطلب اشغاله وملاهيه في خلوته

وكانت أشغاله في خلوته مما ينبغي التنبيه عليه فكان احيانا يزرع بيده النباتات في بستانه وأخرى يذهب لقصد النزهة الى اجمة كانت بجواره راكبا على حصان صغير الجثة لم يبق لنفسه سواه ويستصحب واحدا من اتباعه يذهب معه راجلا وكانت اسقامه تمنعه غالبا الخروج من محله لمثل هذه الرياضة وفي تلك الاوقات كان يأتي لزيارته بعض افراد من الاعيان القاطنين قريبا من الدير وكان يرحب بهم ويدعوهم يأكلون معه على مائدته وكان أحيانا يشتغل ببعض مسائل من فن الميقانيقا أعني فن الآلات وكان يشتغل بتعليم اصول هذا الفن وكان له فيه بالطبع رغبة جمة ويفهم فيه جيدا بل انه قبل خلوته اخذ معه شخصا يقال له توريانو وهو من أدق اهل عصره في هذا الفن وصار يشتغل معه في اكثر الآلات فنما ويجرب خاصية كل منها ولربما كانت ملحوظات الملك وسيلة في تكميل اختراعات الاوستة وكان أحيانا يتسلى بصنع آلات مستغربة عجيبة مثل صور بباطنها عدة تحركها حتى تصير تشبه الانسان في الاشارات والحركات فيعجب لها القسيسون من جهلهم كل العجب ولا يفهمون سرها فتراهم تارة لا يصدقون حواس انفسهم وتارة يظنون أن شرلكان وتوريانو لا يخلوان عن تواطؤ واتفاق مع ارواح لا تدركها الابصار وكان لشرلكان

سنة ١٥٥٨م

رغبة عظيمة فى صنع الساعات من كبيرة دقاقة وصغيرة ورأى بعد التجارب المتعددة أنه لا يمكنه أن يوفق بين حركة اثنتين منها فتفكر متعجبا على ماقيل وتأسف على ماصرفه من الايام لقصد التوفيق بين الناس فى الامور العقلية والاسرار المشكلة الدينية وقد توارت بحجاب ووقف دونها أولوا الالباب

الجد من اشغاله

ومع هذه الاشغال كان له دائما اوقات مخصوصة معدة للتعبد والنسك فكان صباحا ومساء يحضر اداء الفرائض الدينية فى معبد الدير الذى كان به وكان منكبا على مطالعة كتب التدين لاسيما تأليف كل من القديس اوغوسطين والقديس برنار وكان يتحادث كثيرا فى المسائل الدينية مع قسيس اعترافه ومع أملم الدير

ومثل هذه العيشة يليق برجل مثله قد قطع علائق هذه الدنيا وتأهب للارتحال الى الدار الاخرى فأول سنة من خلوته قضى بعضها فى ملاهى بريئة من اللوم يستعين بها على تخفيف آلامه وأوجاعه ويريح عقله عما لحقه من التعب والنصب مدة حكمه الطويل واشتغاله بتدبير ملكه وادارة اموره الشاقة وقضى البعض فى النسك والتعبد حيث كان يراه ضروريا له ليتأهب به للرحلة الى دار الآخرة لكنه قبل موته بستة أشهر بلغ به داء النقرس غاية الشدة كأنه لم يسكن قبل ذلك مدة فوق العدة الا ليرجع اليه فى نهاية الاشتداد فزادت آلامه عن المعتاد وكان ضعيف البنية نحيفا فلم يطق شدة الآلام والاسقام وضعف من وقتئذ عقله وهزل جسمه وكبر ملله حتى لم يبق فيه أثر من عقله القوى ونهاه العلى الذى امتاز به عن معاصريه وصار من ذلك الوقت ذا اعتقادات باطلة وأوهام عاطلة وهجر كل تسلية واقتصر على النسك والعبادة واتبع طرق الرهبان المتعبة ومناسكهم الشاقة الصعبة وصار لا يصحب سوى معاشرة الرهبان يصرف اوقاته الا القليل منها فى قراءة الاناجيل معهم وكان لقصد تكفير سيآته يجلد نفسه جلدا مبرحا حتى وجد بعد موته المسوط الذى كان يضرب به نفسه ملوثا بدمه نعم أن مثل هذه الكفارة

سبب موته

سنة ١٥٥٨

شاقة جدا لكنه سبق بمثلها فاراد أن يفعل شيأ يتفرد به لما أنه تمكن منه القلق والوسواس والخوف كما هي عادة من غلبت عليهم الاوهام والاعتقادات السقيمة فتكدر عيشه وتعكر ذهنه وعظم طيشه ورأى أن فعله المتقدم ذكره ليس بكبير شئ حتى ينال به الرحمة والمغفرة وصمم على فعل شئ يعتمن أغرب ما خطر ببال من اعماهم فرط التعبد والنسك وجردهم عن نور العقل وهو أن صمم على اجراء جنازته بنفسه قبل موته وانطوائه في رمسه وبناء على ذلك بنى لنفسه قبرا في معبد الدير وسار أتباعه وخدمه الى هذا القبر على رسم الجنازة وبيدهم شموع سود وهو خلفهم ملفوف بالكفن ثم وضعوه في نعش في محفل عظيم وتلوا عليه ما يتلى على الاموات وكان هو يتلو معهم وينوح على نفسه مع الحاضرين كما اذا كانت تلك جنازته حقيقية وانتهى رسم الجنازة على حسب العادة بصب ماء مقدس على النعش ثم انصرف كل الناس وغلقت عليه ابواب المعبد فخرج بعد انصرافهم وعاد الى مسكنه وذهنه مشحون بكل فكرة محزنة تنشأ عن مثل هذا المحفل وقد حصل أنه اما لتعبه من طول المحفل او لشدة تأثره من صورة الموت اعترته حمى شديدة في اليوم الثاني وكان نحيف الجسم من الاسقام فلم يطقها ومات بها في الحادي والعشرين من شهر سبطمبر وسنه ثمان وخمسون سنة وستة اشهر وخمسة وعشرون يوما

في ٢١ من شهر سبطمبر

مطلب مناقبه

وكما كان شرلكان بمقتضى منصبه ومقامه اول ملوك عصره كان ايضا ما فعله ابهج ما جرى في ذلك العهد وأبهاه اذ كانت مشروعاته كثيرة جمة تدل على علو الهمة ونجح فيها كل النجاح وفتحت له ابواب السودد والفلاح وبالاطلاع على كتب اهل اسبانيا تراهم قد بالغوا في مدحه لكونهم اهل وطنه كما أن كتب الفرنساوية قد بالغت في ذمه وقدحه فبها لا يمكن الوقوف على حقيقة هذا الدهى وكنه ما اتصف به من القريحة والنهى بل الطريقة في معرفة كنهه هي التأمل في اعماله وافعاله والواقع أنه مع امعان النظر في ذلك يرى أنه يختص بأوصاف جليلة وشمائل جميلة تقضي بامتيازه عن سائر ملوك

عصره

عصره بل وتفهم سر تفوقه عليهم تلك المدة الطويلة ففي كل امر دبره تشوهد أنه لم يعدل عن سبل الحزم والاحتياط ولم يكن ذلك مجرد تعود منه بل اتصف به بأصل الجبلة والفطرة وزادته التجارب دراية وخبرة فقد خلق على معارف لدنية كان نموها فيه بطيأ ولم تبلغ غاياتها الاشيأ فشيأ مع تقدمه في السن واذا تعود على امعان النظر وقدح الفكر في كل أمر كان له به مدخل او مصلحة ما فيزاول تدبيره ليحيط به علما ولا يشتغل في اثناء ذلك بلهو يجر الى فتور همته او بهوى يحول بينه وبين نيته وكان يكتم سره حتى يفقه أمره فاذا لاح له السداد ووقف على غاية اومراد أخبر وزراء وأفهمهم بما نواه وبعد وقوفه على آرائهم وسماعه لانهائهم يباشر بتنجيز قصده مع عزم شديد وجزم اكيد يندر وجودهما في من كان مثله بطيأ ذا تأنى لدى التدبير والتفكير فكان بون بعيد بين افعاله وبين افعال كل من هنرى الثامن ملك انكلترة وفرنسيس الاول ملك فرانسا حيث كانت افعالهما لا تخلو عن عطب الاستعجال وعدم التؤدة والتبصر في المآل بخلاف افعاله فكانت مع مقابلتها مع بعضها ترى كمذهب ذهب اليه وسنن صمم عليه بحيث ترى جميع اموره مرتبطة ببعضها كل الارتباط خالية عما هو من قبيل الاعتباط مشتملة على ما يكون به تمام المرام كأن تدبير جليلها وقليلها مع غاية الاحكام كان لم يفرط فيهامن شئ بل هي جامعة لما يحتمل وقوعه وان كان بمعزل عن اصل القضية موضوعه وكان لدى المداولة والمشاورة ذا رخاوة وبرود ولدى العمل والتنجيز ذا قوة نادرة وعزم عزيز وكان ذا حزم عظيم في معرفة ما يوصل الى سبل السودد والنصر كما كان جيد القريحة في ايجاد ما به يثبت لنفسه الظفر ولم يكن بالطبع يميل الى الحروب والخطوب ففي عنفوان شبوبيته وشدة شهوته كان خاملا قليل العمل لكنه لما صمم على تسيير جنوده لمبارزة الاعداء وتصدى للقائهم لم تتعلق آماله بغرض في هذا المعنى الا وكان مقتدرا على حل مشكله وفض معضله وبعد قليل أبرز في فن الحرب بعود رياسة الكتائب ما ساوى به أمهر أبطال عصره بذهنه الثاقب وكان يعرف حق المعرفة فنا آخر لا بد منه للملوك وهو معرفة

سنة ۱۵۵۸

الناس بالسماو السلوك فكان يجعل كل واحد من رجال دولته فى الوظيفة اللائقة بطبيعته ومنذ موت وزيره شيورة الى آخر حكمه وتنازله لم يجعل وزيرا أو واليا أو سفيرا الا وكانت معلوماته كافية للخدمة التى اعد لها والوظيفة التى حلها ثم كان عاريا من لطافة الطبع وظرافة الخلق التى كان فرنسيس الاول يمتاز بها عنه و يستحوذ على قلوب من كان يقرب منه لكنه كان ذا حظ من الفضائل المرغوبة المألوفة الداعية لقبول الانسان وصدق الناس معه فى كل أوان فكان يعتمد على رجال دولته و يثق بهم و يكرمهم كل الاكرام فى مقابلة خدمهم ولا يغبطهم على ما يحوزونه من الفخار والشهرة ولا يظهر عليه أنه يغار منهم اذا عظم بطشهم فى مملكته وكسبوا نفوذا وقدرة وكل امراء الجنود الذين حكموا جيوشه معدودون ماعدا قليلهم من اكبر أبطال ذلك العصر قدروا وأعظمهم فخرا وقد كان ولاشك تفوقه على اخصامه ناشئا عن تفوق ضباطه الذين انتخبهم وأعدهم للقاء الاعداء بعد أن اعلا رتبهم نعم ان هذه العبارة تقص فى فضله الذاتى وفخره لكن ان صدق ذلك يكون فى صورة ما اذا ثبت أن من المسلم كون معرفة الجيد والاجود واعداد كل لما اليه استعد لا يشهد للمرء بالفضل والكياسة وحسن التدبير والرياسة

ولكن اتصف شرلكان من جهة السياسة بمسالب وعيوب تنقص ما حازه من الفخر بمعارفه الكبيرة الوافرة وذلك ان كان طمعه فوق كل غاية وشرهه يكبر عن أن يقف الى نهاية فان لم يصح ما ذهب اليه اهل عصره من أنه بلغت به الامانى الباطلة الى أن صمم على جعل ممالك اوروبا مملكة واحدة فمن اليقين ان حبه الرياسة وتمييز نفسه عمن سواه فى خصوص فتوح البلدان وتسخيرها قد أوقعه فى حروب دائمة مستمرة جرّت الى افقار رعاياه ودمارهم ومنعته عن تكميل العلوم والفنون بين رعيته واحكام القوانين الداخلية فى مملكته مع أن هذين الغرضين هما الاحرى باشغال فكرة كل ملك عرف أن القصد من حكمه انما هو راحة الاهالى وعمارية البلدان وكان من

سنة ١٥٥٩

صغره قد جمع بين تاج الايمپراطورية وبين ممالك اسبانيا وما وراءه من الاراضى الواسعة عن كل من عائلة اوستريا وعائلة بورغونيا فبوجود هذه الممالك الكثيرة فى قبضة يده تمكن منه الغرور وعظم طمعه حتى أوقعه فى امور جسيمة مشكلة أصعب من خرط القتاد حتى كان غالبا يتحقق من عجزه عن اجرائها وانفاذها فيستعين على تتميمها بحيل ومخادعات دنيئة لا تليق بعلو قريحته بل كان يعد أحيانا عن سبل المروءة بعدا يزرى بمثله من ذوى الهمة من الملوك وكان غدره فى السياسة يكبر ظهورا ويزيد الخلق نفورا لحسن سلوك معاصريه فرنسيس الاول وهنرى الثامن وصدقهما فى معاملة الناس نعم كان اختلافهم فى السلوك ناشئا عن اختلاف طباعهم ولكن مع الالتفات الى مغايرتهم لبعض فى السياسة والى مذهب كل منهم فى هذا المعنى يلتمس لشرلكان معذرة من بعض الوجوه وذلك أن فرنسيس وهنرى كانت شهواتهما تدفعهما دفع القوى الضعيف وتسوقهما الى ما كان مطمح نظرهما بدون تفكير واما شرلكان فكان فى افعاله ذا فكر ونظر قراها محكمة على منوال منتظم جيد التدبير ومن المعلوم أن من كان طبعه من القبيل الاول اذا قصد امرا لا يبحث عن حيلة ينفذها وسيلة فى تنفيذ ذلك الامر واما من كان طبعه من القبيل الثانى أعنى طبع شرلكان فلدى التفكر فى قصد او اجراء أمر لا بد له من الميل الى سلوك طرق دقيقة فتوقعه دقته فى اتخاذ سبل الحيل وهذه تنتهى غالبا بأن تكون خداعا وغشا

وما احتوت عليه التآليف فى مناقب شرلكان وأوصافه الذاتية واحواله شئ هين يسير بالنظر لعدة المؤلفين الذين تصدوا لتأليف سيرته ومع ذلك فنحن لا نتعرض لذكر شئ من هذا المعنى لانه بمعزل عن موضوع كتابنا هذا حيث جعلناه لبيان الوقائع الحاصلة مدة حكمه لا لوصف احواله الذاتية وتعريف فضائله اورذائله الخصوصية

مطلب المذاكرة الحاصلة لخصوص الصلح

وفى اثناء ذلك كان مرخصوا فرانسا واسبانيا وانكلترة لا يزالون

سنة ١٥٥٩

يتذاكرون فى دير سركامب وقد حصل اولاً أن كل مرخص قد طلب عن لسان سيده اموراجسيمة كما هى عادة المأمورين فى مثل هذا المعنى ولكنهم كانوا جميعا يودون الصلح وكانت نيتهم التساهل حتى لا يبقى عائق ولا مانع ويتم الصلح على أحسن حال ولما مات شرلكان ازدادت رغبة فيليبش فى الرجوع الى اسبانيا حيث لم يبق بها احد فوق مقامه فكان لا يود الا حصول الصلح فى أقرب وقت ولكن مع رغبة الجميع فى المسالمة طرأت حادثة ترتب عليها تأخير المذاكرة وهى موت مارية ملكة انكلترة وكان موتها بعد افتتاح مذاكرة سركامب بنحو شهر وكانت مدة حكمها قصيرة وقد ثبت أنها لم تكن بادارة المملكة جديرة وتولت المملكة اختها ايليزابيطة وفرح كافة الناس بتوليتها وعلو درجتها وسبب تأخير المذاكرة هو أن مرخصى انكلترة قد انفسخ توكيلهم بموت الملكة مارية فقطعوا المذاكرة حتى يأتى اليهم أمر من طرف الملكة الجديدة .

مطلب موت مارية ملكة انكلترة وتولية ايليزابيطة عوضا عنها فى ١٧ من شهر نوامبر

وقد كانت تولية ايليزابيطة موجبة لاشتغال بال كل من هنرى وفيليبش وذلك أن مارية كانت ذات ظن ووسواس فسلكت ايليزابيطة مدة حكمها مسلكا حسنا يبرؤها من كل شبهة وأظهرت من الحزم والاحتياط ماهو فوق سنها فأيقن الملكان المذكوران أنها ذات معارف وافرة وعقل كبير وان مسلكها فى الحكم سيصير غير مسلك اختها مارية وأحسا بأن استمالتها من اهم الامور فلم يبق كل منهما وسيلة فى استمالتها الى حزبه وكان كل منهما قد فعل معها صنعا جميلا قبل ذلك اما هنرى فكان عرض عليها أن تلتجئ بمملكته اذا اشتدت فى حقها اساءة مارية وصارت لا تأمن الاقامة بمملكة انكلترة وكذلك فيليبش فانه لبطشه وصولته منع مارية عن اعدامها فكان كل منهما يؤمل استمالتها اليه بما قدمه فى حقها فكتب اليها هنرى يهنيها بعبارات التبجيل والتعظيم والاحترام والتكريم وأفادها أن الحرب الذى حصل بينه وبين انكلترة لم يكن مبنيا على سبب آخر غير مراعاة مارية لخاطر زوجها فيليبش وذلك عما بقصيرة منها

مطلب سعى كل من هنرى وفيليبش فى استمالة ايليزابيطة الى نفسه

واقسم

سنة ١٥٥٩م

واقسم عليها فى كتابه بالعدول عن المحالفة مع فيلبيش حيث ثبت اضرارها بمملكة انكلترة وترجاها أن تعقد معه صلحا خصوصيا بقطع النظر عما يخص مملكة اسبانيا وأن تنفصل بالكلية عن حزب تلك المملكة واما فيلبيش فكان يعلم أن محالفته مع انكلترة جليلة الفائدة كما ثبت ذلك بانتصاره على الفرنساوية بمساعدة الانكليز له فلخوفه ضياع تلك المحالفة لم يقتصر على اظهار تلك المحبة والاحترام للملكة ايليزابيطة ولا على افهامها تصميمه على دوام المصادقة بينهما بل عرض عليها أن يتزوج بها لاحكام عروة المودة بينهما وتعهد بأن يستاذن البابا حتى يحكم له بتحليل ذلك و يرتفع كل محظور

مطلب
تفكر ايليزابيطة فيما ينبغى لها فعله

واما ايليزابيطة فقد وزنت ما عرضه عليها كل من الفريقين لتعرف الارجح لرواج مصلحتها وكانت تفقه كنه الامور وتعرف من أين يؤكل الكتف فقبلت اولا قبولا حسنا ما عرضه عليها هنرى من المداولة بينهما بدون ادخال فيلبيش معهما لانها رأت ذلك وسيلة الى استجلاب فوائد جليلة من مملكة فرانسا فى صورة ما اذا حصل من فيلبيش تفريط فى مساعدتها على حصول آمالها من المحالفة المطلوب عقدها بين الجميع ولكن مع قبولها لقول هنرى كانت على احتياط عظيم حتى لا توجب نفور فيلبيش اذ كان خلنا ما فى جميع من الناس وليس من الرأى تنفيره وهو حليفها بسعيها فى استمالة هنرى وكان عدوا لها على أن هنرى المذكور قد وقع منه خطأ كبير تعسر مسامحته فكان سببا فى منع ايليزابيطة عن مكاتبته ومراسلته كثيرا بحيث يوجب ذلك غضب فيلبيش وخطأ هنرى هو أنه فى اثناء جده فى استمالة المذكورة واستجلابها ترجاه امراء عائلة لورينة أن يأذن لزوجة ابنه ملكة ايقوسيا أن تلقب بملكة انكلترة وأن تلبس نشاناتها وعلاماتها فسمع القول وأذن للملكة المذكورة فيما ذكر مع انه لا حق له فى هذا مطلقا فترتب عليه ما حصل للملكة ايقوسيا من الضرر والشقاوة واضاعة محبته عند ايليزابيطة اذ حقدت له من وقتئذ وبغضته كل البغض

سنة ١٥٥٩

وصارت لا تأمنه ولا تثق به فى شئ ما واستنسبت أن تكون على غاية من التودد والموالاة مع فيليبش وأن لا تعتمد فى حصول الصلح الاعلى اشراكه معها فى المداولة والمشاورة *

مطلب ترخيصها للمبعوثين فى المذاكرة بخصوص الصلح

و بمجرد جلوسها رخصت بالمذاكرة لمن كانوا مأمورين من طرف اختها وأمرتهم أن لا يفعلوا شيأ الا بمشاركة مبعوثى اسپانيا وأن لا يتعرضوا الى امر ما الا بالمذاكرة معهم لكنها مع استصوابها اظهار وثوقها بملك اسپانيا لم تظهر الميل الى قبول ما عرضه عليها من تزوجه بها ومن جملة ما منعها عن ذلك كون الانكليز قد لاموا على اختها التزوجها هذا الملك وفرحوا بموتها حيث ترتب عليه قطع علاقة النسب بينه و بينهم فمن الخطر الرضاء بتزوجه اذهو يغضبهم و ينفر قلوبهم هذا ولما كانت تعهده فى فيليبش من الفظاظة وغلاظة الطبع لم تكن ترغب فى زواجه سيما وكانت لا تظن أن تحليل البابا يكفى رفع كل محظور فى زواجها به لانه يؤذن ببطلان طلاق ابيها للاميرة قاترينة داراغون وبطلان تزوج امها الاميرة آندوبولان بالملك هنرى الثامن واذا ثبت ذلك ثبت كونها نفسها من الزنا حيث تكون بهذا الفرض ثمرة نكاح غير مستوف للشروط والاركان غير أنها مع تصميمها باطنا على عدم قبول زواجها بالملك فيليبش كانت مقتضيات الاحوال اذذاك لا تأذن لها برده بوجه قطعى فيما طلب فأجابته بجواب ملتبس مبهم و بعد أن اطنبت فى تعظيمه واحترامه افادته بما معناه انها وان كان لا يمكنها الآن اجابته فى مرغوبه فلربما كان لا مانع من تحقق مطلوبه فيما بعد *

مطلب المذاكرة الحاصلة فى كاتو كامبريزى

فى ٦ من شهر فبراير

هذا وقد أخفت ما كانت تضمره فى شأن الدين حتى انخدع فيليبش بحيلها وساعدها كل المساعدة فى المذاكرة التى تجددت بدير سركامپ واستمرت بعد ذلك فى كاتو كامبريزى وكان القصد من تلك المذاكرة بت امر النزاع بين ملك اسپانيا وملك فرانسا وملكة انكلترة بعقد مشارطة تبين حقوقهم وتوفق بينهم فيما كان يدعيه كل منهم وكان بينهم امور مشكلة يعسر

سنة ١٥٥٩

حلها فكان يظهر أن لا بدّ من طول مدّة المذاكرة ولكن صار مونتمورانسى ينتقل من ديوان ملك فرانسا الى ديوان فيليپش لقصد ازالة كل مشكل وحل كل معضل وسلك فى ذلك مسلك الحذق والحزم حتى اصلح بينهما فى القضايا المنازع فيها وجهز كل ما يلزم لرفع الشقاق وعقد مشارطة بنية بالاتفاق ولم يتأخر انهاء تلك المشارطة الا لسبب واحد وهو ما كانت تطلبه مملكة انكلترة من استرداد مدينة كالس من ايدى الفرنساوية واصرارها على عدم قبول الصلح بدون هذا الشرط وكان ملك فرانسا لا يرضى بذلك فصار كل من الفريقين يشدد من جهته حتى ظهر أنه لا سبيل الى عدول احدهما عن نيته وكان ملك اسپانيا يعضد دعوى ايليزابيطة لا لكونه رأى من الانصاف مساعدة الانكليز على استرداد ما فقدوه بتصديهم لنصره بل ولم يكن قصده بذلك مجرد استصحابه عند ايليزابيطة بل كانت نيته اضعاف مملكة فرانسا بنزع هذا الثغر الجسيم منها وجعله بين أيدى الانكليز وهم اعداء لها فيه يسهل عليهم الجولان فيها متى ارادوا ولكن قد حصل ان فترت همته شيأ فشيأ وعدل عن تعضيد حق الانكليز وسبب ذلك هو أن ايليزابيطة كانت أيقنت بتمكنها من كرسى الملوكية فعدلت عما كانت عليه قبل من طرق المداراة واظهرت فى اثناء المذاكرة ما لم تكن تظهره قبل من محو ما كانت احدثته اختها لتأييد دين الپاپا بل وبدأت فى فعل ما به يكون دين المعتزلة على قرار مكين ومن وقتئذ أيقن فيليپش أن تعلق آماله بزواج ايليزابيطة من الامانى الباطلة وقلت مساعدته لها وضعف تعضيده لمصالحها بل ولم يكن يفعل ذلك القليل الا لخوف اللوم ومراعاة لملحوظات سياسية بعيدة الشأو وقد أدركت ايليزابيطة منه هذا وفهمت باطنه من لسان حاله وكانت تعرف أن بقاء الحرب بينها وبين فرانسا يضر جدا بمصلحة رعاياها بل انها مع دوامه لا تتمكن من تنفيذ ما كان فى نيتها من وضع ما يلزم من القوانين لترتيب ممالكها وادارتها الداخلية فأحست بلزوم الامتثال لمقتضيات الاحوال والمبادرة بالعدول عن الامور الجسيمة التى

مطلب
التوقف الحاصل بسبب دعوى انكلترة

سنة ١٥٥٩

كانت تطلبها من مملكة فرانسا حتى يمكن اتمام الصلح قبل عدول فيلبيش بالكلية عن حزبها وبناء على ذلك صدرت منها الاوامر الى وكلائها بالتساهل وانعقدت المذاكرة بينهم وبين وكلاء الفرنساوية وكان مبعوثوا اسبانيا واسطة بين الفريقين ووجدت ثم وسيلة تؤذن لها بالتساهل والعدول عما كانت تطلبه اولا من استرداد كالس وبعد تسوية هذا الشرط سهلت جميع الشروط وحصل فيها الاتفاق بدون أدنى توقف من الطرفين وقد اراد فيلبيش أن يتقدم انهاء المشارطة بين ايليزابيطة وهنرى على مشارطته مع هنرى المذكور وانما فعل ذلك خوفا من أن يفهم الناس رغبته عن حزب الانكليز وبالجملة فقد اقرت المشارطة الاولى فى الثانى والثانية فى الثالث من شهر ابريل ولم تكن المشارطة بين فرانسا وانكلترة محتوية على شئ مهم غير أمر كالس * فوقع الاتفاق على أن يبقى هذا الثغر وتوابعه بيد هنرى مدة ثمان سنوات وبعدها يرده الى انكلترة واذا أبى رده بعد تلك المدة يدفع اليها خمسمائة ألف كورون (نوع من النقود بنحو اربعة وعشرين قرشا) ويضمنه فى اداء هذا المبلغ سبعة او ثمانية من التجار لا يكونون من رعاياه وأن يسلم الى انكلترة فى خمسة من اكابر الفرنساوية يبقون تحت قبضتها على سبيل الرهن حتى يعطى اليها ضمان التجار المطلوب وانه بعد دفع المبلغ المذكور لا يزال حق انكلترة فى كالس ثابتا مقررا وأن يكون كل من ملك ايقوسيا وملكتها داخلا فى المشارطة وانه اذا حصل من هنرى او من حلفائه نقض للصلح باظهار معاداة او تعد أيا ما كان وجب عليه حالا رد كالس وكذلك اذا حصل من طرف ايليزابيطة باعث الى نقض الصلح فلا يجب على هنرى ولا على ملك ايقوسيا وملكتها اجراء شرط ما من الشروط المذكورة

مطلب ما احتوت عليه المشارطة المنعقدة بين فرانسا وانكلترة

مطلب حقيقة نية الفريقين من هذه المشارطة

ومع ما اشتملت عليه تلك المشارطة من شروط الاحتراس والتبصر يرى من البديهى الجلى ان هنرى لم تكن نيته رد كالس وان ايليزابيطة لم تكن

سنة ١٥٥٩

تؤمل امكان استردادها وذلك ان من المتعذر بقاء هذه المملكة مدة ثمان سنوات على عهد الاتحاد والمحبة مع مملكتى فرانسا وايقوسيا حتى لا يمكن أن يتعلل هنرى عليها بشئ ويتهمها بكونها بدئت بنقض العهود وفسخ الصلح الموجود فاذا فرض امكان مضى تلك المدة بدون حصول مكدر بينهم فمن الجائز أن لا يرضى هنرى بعد فراغ المدة بدفع المبلغ المقرر وفى هذه الصورة لا سبيل الى ايليزابيطة فى طلب حقها سوى الجبر والقهر وبناء على ما ذكر لم يكن القصد مما تقرر من الشروط فى شأن كالس استردادها من الفرنساوية بل كان قصد ايليزابيطة ارضاء خاطر رعاياها وقد عد هذا اهل السياسة دليلا على حزمها حيث سترت عجزها وقصدها عن استردادها بطريقة مقبولة تؤدى الى تعلق آمال رعاياها بردها اليهم عن قريب ولو غفلت عنها بالكلية ولم تشترط شيأ من ذلك لنسبت الى الجبن ونفرت منها قلوب الانكليز

مطلب ما كان وسيلة فى تسهيل الصلح بين مملكتى فرانسا واسبانيا

واما ما جعله مونتمورانسى وسيلة فى ايقاع الصلح بين فرانسا واسبانيا فهو أمر زواجين نذكرهما هنا الاول منهما زواج الاميرة ايليزابيطة بكرية هنرى ملك فرانساء بالملك فيليبش وكانت هذه الاميرة قد صار الاتفاق فى مذاكرة سركامب على تزويجها بالامير كرلوس بن فيليبش فنوى أن يأخذها لنفسه غدرا بابنه المذكور * الثانى زواج الاميرة مارغريطة اخت هنرى المرقوم بالدوق دوساوة ثم ان روابط القرابة والمخاتنة ضعيفة بين الملوك لا يرعون حرمتها مع تمكن الطمع منهم ولكنهم يظهرون أحيانا المخادنة والمحبة لبعض اذا كان لهم فى ذلك مآرب كتحسين أمور أرادوا فعلها وكانت مخالفة للسياسة او للناموس فيتعللون بالقرابة والنسب حتى لا تسلقهم ألسنة الناس او لا يعاب عليهم بها وهذا كان قصد هنرى من زواج اخته وبنته فانه جعله وسيلة فيما سلم فيه الى فيليبش والدوق دوساوة اذ بدونه كان لا يمكن من اجابتهما فى شئ من ذلك الا ويكون عرضة لقدح الناس وطعنهم

سنة ٩٥٥

مطلب البنود التى اشتملت عليها مشارطة الصلح

فى عرضه

والشروط الاصلية المندرجة فى مشارطة الصلح بين فرانسا واسبانيا مبينة على الوجه الآتى (اولا) أن تدوم مملكتا فرانسا واسبانيا على صدق المحبة مع بعضهما (ثانيا) ان هنرى وفيليبش يسعيان معا فى عقد مشورة قسيسية عامة لمنع تقدم مذاهب الهراطقة وتأييد دين الكنيسة وجعله على قرار مكين (ثالثا) ان جميع البلدان التى تغلب عليها كل منهما فيما امام جبال ألبة من ابتداء حرب سنة ١٥٥١ ترد كل بلدة منها الى من كانت بيده منهما قبل الحرب (رابعا) ان دوقية سابوة وايالة بيمون واقليم بريسة وسائر الاراضى التى كانت قبل ملكا للدوق دوسابوة ترد الى الامير ايمانويل فيليبير بعد اشهار زواجه بالاميرة مارغريطة ويستثنى من ذلك مدينة تووان ومدينة قيرس ومدينة بينرول ومدينة شيواس ومدينة ويلانواه فان هذه المدائن لا تعطى للامير فيليبير بل تبقى مع هنرى الى ان تحقق دعواه فى شأنها من كونها حقه بالوراثة عن جدته ويكون للملك فيليبش الحق فى وضع محافظين من جنوده بمدينتى ورسيل وأستى مادامت المذكورة بيد هنرى (خامسا) ان هنرى ينزل حالا عن المدائن التى كانت تحت قبضته من بلاد توسكانة واقليم سينة وأن يعدل عن دعواه فيما يخص هذه المدائن (سادسا) ان يرد اقليم مونتفرات الى الدوق دومانتو وان يعفو عن اهل جنويزة ويسلم لهم فى المدائن التى تغلب عليها من جزيرة قورسقة (سابعا) ان كل ملك اوأمير من هؤلاء ردت اليه بلدة لا يسأل اهلها عما فرط منهم فى حقه مدة حكم غيره عليهم ولا يؤاخذهم بما حصل منهم فى تلك المدة بل ما مضى يلقى به فى زوايا النسيان وقد اندرج فى هذه المشارطة اسم الباپا والايمپراطور وملك دانيمارقة وملك اسوج وملك پولونيا وملك البرتغال وملك ايقوسيا وملكتها واكثر ملوك النصارى من صغير وكبير وكان اندراج هؤلاء بوصف كونهم حلفاء للفريقين بعضهم حليف للملك

هنرى

سنة ١٥٥٩

هنرى والبعض الآخر للملك فيليپش

مطلب
نشر ألوية الراحة والامن ببلاد اوروبا

وبعد هذه المشارطات انتشرت ألوية الراحة ببلاد الفرنجة ولاح نسيان جميع الاسباب التى اوجبت الشقاق والقتل مدة مستطيلة بين فرانسا واسپانيا وكانت اسباب التشاقق قوية حتى توارثه الابناء عن آبائهم وانتقل الشقاق من شرلكان الى ابنه فيليپش ومن فرنسيس الاول الى ابنه هنرى ولم يتشك احد من هذه المشارطات سوى قوم الفرنساوية فانهم لم يستحسنوا الشروط لقلة ما يعود عليهم من الفائدة وغضبوا من ملكهم حيث تساهل على هذا الوجه اتخذا عابقول مونتمورانسى وتحيل الاميرة والاتنواس مع ان الحاحهما لم يكن عن طيب نية كما تقدم بيان ذلك لان الامير مونتمورانسى كان يود الخلاص من ربقة الاسر والاميرة المذكورة كانت تريد الانتقام من الدوق دوكيز ومن اخيه وكيف لا ترفع الفرنساوية صوت الشكوى وقد كان ما سلم ملكهم فيه اذذاك عبارة عن مائة وتسع وثمانين من المدائن الكبيرة الحصينة بعضها ببلاد ايطاليا وبعضها بالبلاد الواطية وأخذ فى مقابلة هذه المدائن الجسيمة ثلاث مدن صغيرة وهى مدينة سنكانتين ومدينة هام ومدينة كاتليت وبالجملة فقد رأوا من العار الذى لا يمكن تطهيره لهم منه الرضاء بالنزول عن تلك المدائن وكانت مع اتساع اراضيها يسهل حفظها والذب عنها حتى كان الاعداء لا يؤملون امكان انتزاعها من ايديهم ولو قاتلوهم مدة سنين وانتصروا عليهم فى كل حين

مطلب
اقرار الصلح على الشروط المذكورة بين فرانسا واسبانيا

ولكن لم يلتفت هنرى الى تظلم رعاياه بل ولم يعبأ باخطار شوراه وأقر المشارطة وعمل بمقتضى ما اشتملت عليه من الشروط وتوجه الدوق دوساوة الى پاريس فى محفل عظيم لاشهار نكاحه مع اخت هنرى وذهب الى تلك المدينة ايضا الدوق دالب فى رسالة بهية ليكون وكيلا عن فيليپش فى تزوجه بالاميرة ايليزابيسطة وتلقى كل منهما مع غاية الاكرام والتبجيل غير انه فى اثناء الولائم ومحافل الفرح والسرور هلك هنرى بغتة بحادثة

سنة ١٥٥٩

مطلب
موت الملك هنرى فى عشرة من شهر بولية .

فى ثمانية عشر من شهر اوغسطوس

عجيبة اشهر من أن تذكر وخلفه ابنه فرنسيس الثانى وكان حديث السن ضعيف البنية والذهن وبعد ذلك بقليل لحقه البابا بولص وكان ظالما جبارا وهلك وهو فى نزاع مع كافة الناس وفى غضب شديد على اقاربه المتقدم ذكرهم ولخ فيلبش فى اساءتهم وايذائهم وتخلى عنهم من خلف بولص فى كرسى البابا وان كانوا هم الذين رفعوه الى اوجه فحكم عليهم بالقتل وكانوا يستحقونه لشدة طمعهم وعظم جرمهم بما ارتكبوه من الفواحش وقد كان موتهم شنيعا موجبا للفضيحة كما كانت حياتهم كبيرة الآثام كثيرة الكبائر فانظر كيف طوى الدهر فى آن واحد جميع من كانوا مدار الحوادث الجسيمة التى حصلت فى ذلك العصر ببلاد اوروبا وبعدهم بدئ عصر جديد بخلق جديد لهم تاريخ آخر وشأن تدونه كتب الاواخر وكانت مطالعهم ومآربهم اخرى وحصلت بين ملوكهم منازعات جديدة وظهرت اطماع عديدة اشتغل بها الناس وحل بهم الشقاوة والياس * وبالتأمل فى تاريخ كل عصر اتصف بكثرة الحوادث والتقلبات يرى بون بعيد بين ما ينشأ عن تلك الحوادث من التغير وما صرف من الجهد فيها ويرى أن الفتوحات لا تكثر ولا تتم فى أقرب وقت الا بين الملل المتفاوتة فى فن الحكم والادارة فانظر الى اسكندر الاكبر حين اخذ قومه وكانوا اولى شجاعة وقناعة لا تنكر درايتهم فى الحروب وهمتهم لدى الخطوب لضبط قوانينهم الحربية وربط اصولهم العسكرية وسار بهم لقتال اقوام ذوى خمول ورخاوة لفرط رفاهيتهم وانهماكهم على اللذات والشهوات والى جنكيزخان وتيمور حين سارا بأقوام متبربرين اقوياء البنية لتسخير ملل اضعف قوتها القطر والتجارة والفنون فان هؤلاء الثلاثة مع جنودهم قد نزلوا فى فتوحهم كسيل العرم وهدموا ما صادفهم وتغلبوا على كل اقليم او مملكة فى ظرف ما يلزم من الزمن لجوبها اما الامم الذين يقربون من بعض فى التمدن والمعارف فهم فى أمن من مضار الفتوحات الفجائية لانهم تقريبا فى درجة واحدة من المعارف وفن العسكرية والسياسة فلا يظهر تفوق دولة على اخرى من واقعة واحدة ويمنع من ذلك ما اشتملت عليه

قوانينهم

سنة ١٥٥٩

قوانينهم الداخلية من الوسائل الجليلة على ان كل دولة لها مصلحة كبيرة في حفظ ما عداها من الدول والذب عنه فاذا حصل نزاع بين دولتين توسط بينهما دول أخرى وكانت كميزان لتعادلهما فالغالب لا يظفر والمغلوب من اول نصرة وبعد حروب طويلة مشؤومة تنكل قوى الملل المتخاصمة وتفتر همتهم بدون ثبوت النصر لملة منها فيضطر الجميع الى السلم وتبقى كل دولة على ما كانت عليه قبل الحرب من القوة ولا تخسر شيأ من ارضها وملكها

وكانت اوروبا مدة حكم شرلكان على هذا الحال فلم يكن ملك اقوى من السائرين حتى لا يمكن منعه عن مد يد الاقتيات والتعدي الى اراضي غيره ولم تكن ملة تفوق غيرها في فن الحكم والادارة حتى يثبت ظفرها بما عداها بل كانت كل دولة بحسب موقعها وقطرها فوق غيرها من حيثية ودونه من حيثية أخرى وكان لكل مملكة مزية تنفرد بها وتلك المزية مبنية على كيفية حكمها وترتيبها أو استعداد ناسها واخلاقهم وما كان لاحداها من المزايا كان يراجحه شيء آخر في الأخرى فمنع هذا من تفوق دولة على ما عداها تفوقا يجر الى اضرار الجميع والحاصل ان ملل اوروبا قد كانت في ذلك العصر كما هي في عصرنا هذا كعشيرة كبيرة لها شبه ببعضها من حيث العموم وان كانت كل ملة من حيث الخصوص متصفة بامور تميزها عن غيرها ولكن لم تكن طباعها وقرائحها على ما هي عليه الآن من التنوع العظيم الذي فاقوا به في الاغلب سائر الناس حتى كأنهم مخصوصون ليكونوا حاكمين في الارض وغيرهم محكوما

مطلب التغير العظيم الحاصل في حال اوروبا مدة حكم شرلكان

وبناء على ما ذكر كانت ملل الفرنجة على التساوي في جميع الامور وكانت تشبه بعضها شبها كليا في سائر الاحوال ولهذه الاسباب لم تمكن شرلكان من اشهار أيامه بفتوحات كبيرة وتغلبات جسيمة كثيرة كما سبق لمثله في اوقات أخرى ومع ذلك حصل في عهده لكل مملكة كبيرة من ممالك اوروبا تغير عظيم من قبل السياسة وأثرت وقائع عصره في كل منها حتى لم يزل

سنة ١٥٥٩

هذا التأثير باقيا فيها الى الآن انما يتفاوت قوة وضعفا بحسب احوال كل مملكة منها والحاصل أن طمع شرلكان قد جرّ به الى ان أجهد ممالك اوروبا وكان لا يفتر عن رميها بسهام جراءته وشرهه فتنبهت من عهده كل مملكة لحفظ نفسها وزاد عزمها فى احكام قوانينها واحكامها الداخلية وبدا حزمها فى معرفة كنه مصلحتها وادراك حقيقة قوتها وبذلت الجهد فى التوقى والترقى حتى غدت مهابة عند ما سواها على ان هذه الممالك كانت قبل بمعزل عن بعضها لا جامعة بينها فتألفت قلوبهم فى عهد شرلكان واتحدوا كل الاتحاد حتى صاروا من قبل السياسة كفريق واحد على سنن واحد وحل كل منها فى السياسة مكانه لم يزل عاكفا عليها منذ ذلك العصر مع ان مثل ذلك كان لا يؤمل اذ كانت بلاد اوروبا منذ قرنين كاملين فى غاية الاضطراب ومزيد الانقلاب

مطلب علو عائلة استريا

واما ما كسبته عائلة الاستريا فكان أعظم واكبر مما كسبه غيرها من ملوك الفرنجة وقد ذكرنا فى غير هذا المحل ما ورثه شرلكان عن آبائه وأجداده من الاراضى المتسعة الاقطار والارجاء بعضها من عائلة الاستريا وعائلة برغونيا والبعض الآخر من ملوك اسبانيا وقد اضاف بنفسه الى تلك الاملاك التاج الايمبراطورى وكان ذلك غير كاف له فانفرجت ارجاء العالم أمامه وظهرت دنيا جديدة ادخلها فى حكمه وبمقتضى تنازله استحق ابنه فيليبش اقاليم برغونيا ومملكة اسبانيا وتوابعها فى الدنيا الجديدة والدنيا القديمة لكنه ترك هذه الممالك لابنه على حال غير الحال التى كانت عليها وقت انتقالها اليه بالوراثة بمعنى انه وسع دائرتها باقاليم كبيرة اضافها اليها ولحزم ادارته وشدة عزمه عوّد الاهالى على الطاعة والامتثال وعوّدهم على معاناة الاين ومكابدة المشاق على الدوام وكان مثل ذلك غير معهود ببلاد اوروبا قبل القرن السادس عشر فصار من وقتئذ لازما ضروريا بسبب تمدن الملل حتى يمكن لكل منها أن تصبر لكيد غيرها فى الحروب والخطوب وقد وسع املاك عائلة برغونيا باقاليم ثلاثة اشتراها

سنة ١٥٥٩

من اصحابها وهي اقليم فريز واقليم اوتريك واقليم اوبرسيل واستعمل طورا الحرب والضرب وطورا الحيل والمداولة حتى تغلب على دوقية غويلدرس واضافها الى املاك عائلة الاستريا المذكورة وقد ورث عن الملك فردينند والملكة ايزابيلة مملكة اسبانيا مع ما احتوت عليه من الاقاليم من آخر جبال البيرنة الى حدود البرتغال ولكنه قضى حكمه في صلح مع هذه المملكة الاخيرة فلم يشرع قط في الاغارة على تلك الجهة ولم يتطلع الى التغلب على شيء منها

وقد مكن شوكته في مملكة اسبانيا كل التمكين لانه بانتصاره في الحروب على اخطاط قسطيلة ساغ له تشييد مبانى من ايام الملوكية على اطلال خصوصيات الاهالى ثم انه أبقى مشورة القرطس ورسوم مجالسها لكن لم يكن ذلك الا بمجرد الاسم والواقع انه ابطل شوكتها وعطل اقتدارها ورتبها ترتيبا جديدا حتى صارت كناية عن جمعية مركبة من اشرافه واتباعه لا عن مشورة كان اربابها ينوبون حقيقة عن الاهالى ويقومون بتدبير مصالحهم وقد جر محو هذه المشورة الى ضعف شوكة نبلاء المملكة واكابرها لانهما امران متلازمان وذلك ان هؤلاء الاكابر قد جر بهم تولعهم بالحروب كأهل عصرهم او طمعهم في نيل العلاء ودرجات الامتياز من خدمة الدولة الى انفاد أموالهم في الخدمة العسكرية او في استجلاب رضاء الملك وكان الملك يلاطفهم ويخادعهم فلم يدركوا سوء العاقبة لهم من ازدياد الشوكة الملوكية واغتروا بأن كان يأذن لهم في ستر رؤسهم بحضوره وحسبوا هذه مزية عظيمة فعموا عن سلبه اياهم شيأ فشيأ ما كان لهم من القوة والشوكة وقت ان كانوا مع الاهالى في اتحاد واتفاق ولما شاهد فيليبش نجاح والده في ابطال مزايا تلك البلدان واضعاف شوكة اكابرها واعيانها طمع في فسخ حقوق مملكة اراغونيا وفسخ مزاياها وخصوصياتها وكانت اعظم من مزايا مملكة قسطيلة المتقدم ذكرها وكان اهل قسطيلة قد تعودوا على الانقياد والامتثال فاطاعوا أمره واعانوه على الزام اهالى

سنة ١٥٥٩

اراغونيا بماشاه والحاصل ان ارادة الملك قد صارت هى القانون النافذ فى سائر ممالك اسبانيا ومن المعلوم ان الملوك متى خلوا عن المزاحم وصار لا معارض لهم من الاهالى ولا من الاعيان فى تنفيذ اغراضهم ساغ لهم التصدى الى كل مشروع مهم جسيم وامكنهم جمع قوى الدولة وسوقها الى قضاء اوطارهم

مطلب نمو شوكة العائلة المذكورة فى غير تلك البلاد من اوروبا

وبينما كان شرلكان يجد فى توسيع دائرة المزايا الملوكية ليجعلها وسيلة فى جعل ملوك اسبانيا مطلق التصرف بداخل بلادهم كان لا يهمل فى رفع مقام دولته وازدياد قوته وشوكته بتكثير فتوحاته فى سائر الممالك فأثبت للملوك اسبانيا مملكة نابلى حتى امنوا ممن ينازعهم فيها وكان اخوه فرديننـد قد اغتصب هذه المملكة بالخداع والحيل فلم يكن ثابت القدم بها وقد ضم شرلكان ايضا الى ملك اسبانيا دوقية ميلان وهى من اخصب اقاليم ايطاليا واعمرها والحاصل ان خلفه بقطع النظر عن ما كان لهم من الاراضى والممالك الخاصة بهم قد صاروا اقوى ملوك ايطاليا واعظمهم بطشا وصولة على انه طالما تحارب اعظم ملوك الفرنجة بها محاولين التفوق على بعض فقل ان ثبت لاحدهم ظفر عظيم بغيره وبعد اتمام مشارطة قانو قامبريزى عدلت مملكة فرانسا بالكلية عما كان فى نيتها اجراؤه من الفتوحات خلف جبال البة وخرجت جنود الفرنساوية من ايطاليا فازداد بها اهل اسبانيا قوة وشوكة ولم يزل ملوكها مقتدرين ذوى نفوذ عظيم فى ايطاليا المذكورة مادامت اسبانيا بمكانة ما من القوة والاقتدار ولكن ما اكسبه شرلكان لخلفه ملوك اسبانيا من الشوكة ونفوذ الكلمة فى داخل بلادهم وغيرها من بلاد الفرنجة لم يكن بكبير شئ بالنظر لما حازه ببلاد امريقة فانه فتح فى هذه الدنيا الجديدة ممالك كبيرة جعلها بعالى همته تابعة لدولة اسبانيا وتغلب على اراض واسعة واخرج منها ايرادا جسيما وبالجملة فكان هذا الاستكشاف جليل الفائدة من سائر الوجوه حتى انه لو فرض ان من

خلفه

سنة ١٥٥٩

خلفه فى الحكم كان اقل طمعا من فيليبش لاغتر بعظم ذلك كله وصار كبير الهمة خطير القدر جليل المشروعات والمقاصد

مطلب تقدم الفرع المتساوى من عائلة اوستريا

و بينما كان الفرع البكرى من عائلة اوستريا يرتقى الى اوج العلى والشوكة ببلاد اسبانيا كان الفرع الصغير الذى رئيسه فردينند يزداد صولة واعتبارا ببلاد ألمانيا وبالالتفات الى ما لهذه العائلة منذ زمن طويل من الاراضى ببلاد ألمانيا والى مملكتى المجار و بوهيمة اللتين ضمهما فردينند بزواجه الى الاراضى المذكورة يعلم ما لها من القوة سيما وقد اضاف الى ذلك كله التاج الامبراطورى فصار ملك فرعه اوسع ملكا من سائر الامبراطرة الذين حكموا منذ عدة قرون ماعدا شرلكان * ولما اورويا حصل من فردينند ان أبى أن يسلم فى التاج الامبراطورى الى فيليبش فغضب منه وترتب على هذا السبب أن حصل تنافر بينهما مدة وقد أراح عدم اتفاقهما بلاد اورويا من بطشهما لكنهما ادركا فيما بعد أن نفورهما من بعض ليس من الرأى والسياسة وحتم عليهما ترويج مصالحهما أن تناسيا تلك المخاصمة شيأ فشيأ و بقيا معا على الالتئام والاتحاد وصار أعلى قدر عائلتهما مطمح نظرهما والفائدة المقصودة من سعيهما واعانا بعضهما على اجراء مقاصدهما وكان نجاح كل منهما باعثا الى كثرة اعتبار أمراء العائلة جميعا وعظم قدرهم حتى صارت تلك العائلة لشدة طمعها وكبر شوكتها محسودة مهابة عند كافة الدول ومكثت دول اورويا قرنا كاملا وهى تبذل ما لها من الجهد والقوة وتصرف ما عندها من السياسة فى وضع تلك العائلة وحط قدرها واضاعة ثمرة سعيها وثم ما يدل حق الدلالة على عظم ما كان لعائلة الاوستريا من الشوكة والبطش ببلاد اورويا وهو أنه بعد فقدان قوتها وضياع صولتها بتصديها الى ما شرعت فيه مما هو فوق الحد بل و بعد سقوط اسبانيا ونزولها الى الحضيض وانتقال حكمها الى ملوك قليلى البضاعة موصوفين بالجبن والحماقة كانت لم تزل تمتع بمزيد الهيبة بين الافرنج وكانوا يخشون بأسها وسبب ذلك هو أن الملل الافرنجية

سنة ١٥٥٩

كانوا لطول التجارب قد أيقنوا بتفوقها عليهم وكانوا دائماً منها على حذر ومع طول المدة صار خوفهم منها كطبيعة اكسبهم التعود اياها ومثل ذلك لابد وأن يبقى تأثيره مستمراً ولو بعد زوال الاسباب الموجبة له

مطلب ما كسبه ملوك فرانسا مدة حكم الايمپراطور شرلكان

وبينما كانت عائلة الاوستريا تجد في توسيع ممالكها وتنجح في كل تدبير اعدته لهذا القصد كان ما تكسبه مملكة فرانسا من الاراضي غير جسيم فما كان في نيتها فتحه ببلاد ايطاليا كان من الاماني الباطلة ولم يتم لها فيه مرام وكانت لم تملك كبير شئ في الدنيا الجديدة حتى انها مع بذلها الجهد التام مدة حكم اربعة متعاقبين من ملوكها كانت لم تزل باقية تقريبا على حدودها التي قررها لها الملك لويز الحادي عشر ومع ذلك يقال ان هذه المملكة وان لم تزدد ارضا ازديادا بينا ولم تكن فتوحاتها كبير شئ بالنظر لفتوحات عائلة الاوستريا كانت آمنة على الشئ اليسير الذي كسبته اذ ذاك من الاراضي فانظر الى ما عاد عليهم من الفوائد الجليلة بتغلبهم على ثغر كالس فانه منع الانكليز عن الهجوم على فرانسا اذ لو هجموا على تلك المملكة ما دام الثغر المذكور بأيدي الفرنساوية لكانوا عرضة للاهوال والاخطار وبذلك أمن الفرنساوية من دخول الانكليز مملكتهم وكانوا قبل ذلك قادرين على الجولان بها بل و يتيسر لهم أن يعطلوا عليهم ما يدبرونه في حق دول أخرى و بتغلبهم على مدينة متزة قد صانوا مملكتهم وكانت غير حصينة من تلك الجهة لا يوجد ما يدفع عنها عدوا طمع فيها وبالجملة فبعد ان أمنت فرانسا لهذه الاسباب من هجوم الاجانب عليها صارت معدودة اقوى ممالك اوروبا واعظمها شوكة وهي حقا أعظم دول الارض القارة موقعا بالنظر للهجوم على غيرها او الذب عن نفسها فمن نهاية أرتوازة الى اعمق محال جبال البيرنة ومن خليج ابريطانيا الى حدود دوقية سابوة وسواحل المحيط الابيض ترى اراضيها متصلة متلاصقة بعضها ليست مختلطة بأراضي غيرها من الدول وهنالك اقاليم كبيرة كانت قبل ذلك الوقت تحت حكم الاكابر والاعيان فتجدد الضبط والربط في حكم

فرانسا

فرانسا دخلت عدة من هذه الاقاليم الجسيمة تحت طاعة ملك الفرنساوية وتعودوا على الامتثال اليه وعدّه سيدا لهم وصاروا من جملة اهالى فرانسا يعدّون أنفسهم معهم ملة واحدة ويبذلون الجهد فى خدمة دولة الفرنساوية ويشمرون عن ساعد الجد فيما يكون به تشريفها وازديادها قوة وصولة وانتزعت الشوكة ونفوذ الكلمة من الاعيان وانتقلت الى الملك غير أن الاهالى لم يعد عليهم من هذا ادنى فائدة ولم ينالوا مزية جديدة ولا خصوصية ما بل لم يزالوا محرومين من مشاركة الحاكم فيما يلزم انشاؤه من القوانين والاحكام والحاصل ان ملوك فرانسا لم يكن قصدهم بحط الاعيان وخفض شوكتهم مصلحة الاهالى وانما كان قصدهم توسيع دائرة المزايا الملوكية خاصة فبعد ادخال الاعيان تحت الطاعة والزامهم بالامتثال وفق الآمال لم يعتنوا بخلاص الاهالى من ربقة التبعية لهؤلاء الاعيان بل تركوهم ليتصرفوا فيهم كما كانوا قبل الآن

ولا يخفى ان الملك متى كانت رعاياه على هذا المنوال متحدين ببعض سالمين من الشقاق بداخل مملكتهم قادرين على الهجوم على بلاد الاجانب فله أن يتصدى الى كل مشروع عظيم ومقصد مهم جسيم ولا يعجز عن تنفيذ ما تعلقت به آماله وهكذا كانت ملوك فرانسا فى ذلك العصر فبطول حروب الفرنساوية مع البلاد الاجنبية منذ جلوس الملك كرلوس الثامن ازدادوا تولعا بالوقائع الخطبة الصعبة وتعودت جنودهم على مشاق العسكرية وعلى الطاعة والامتثال لرؤسائهم وهم بالطبع اهل حمية وشهامة وازدادوا قوة وعزما بتقدمهم فى اصول الضبط والربط وتمكنهم من التعليمات العسكرية اما الامراء او البكزادات فكانوا ذوى شجاعة كبيرة ينفرون من البطالة والكسل ولا يرون امرا جديرا بهمتهم وصرف اوقاتهم سوى الوقائع الحربية ولا يتسلون الا بالتعليمات والالعاب العسكرية بل ولا يرون سبيلا سواها الى اكتساب السودد والشهرة والفخار والثروة ومثل هؤلاء لا يطيقون من ملكهم أن يمكث كثيرا بدون حرب وقتال واما الاهالى فكانوا بمعزل

سنة ١٥٥٩

عن قوانين الصلح يبادرون بأخذ السلاح بمجرد أدنى اشارة من رؤسائهم وقد
هوّدهم ما استلزمته الحروب مع الاجانب من المصاريف على تحمل ما كان
يضرب عليهم من الفرد والعوائد نعم ان تلك العوائد تظهر خفيفة بالنظر لما
يضرب الآن من الفرد الجسيمة ولكن تعد فاحشة بالنظر لما كان يضرب على
مملكة فرانسا اوغيرها من دول اوروبا قبل حكم الملك لويز
الحادى عشر وبناء على ماذكر كان جميع الفرنساوية فى الشجاعة والنشاط
على حد سواء كافين بالحرب والقتال فلم تكن مشروعات فرانسا وحروبها
ببلاد اوروبا اقل هولا من مشروعات اسبانيا ووقائعها بل انها بسبب
تفوقها عن غيرها باحكام موقعها وانضمام اراضيها ببعضها واتقان ترتيبها
السياسى كانت مشروعاتها أنجز من مشروعات اسبانيا واعظم خطرا
هذا وكان ملك فرانسا له التصرف المطلق فى رعاياه وكانوا خليين عن
الدواعى والاخلاق الباعثة للرغبة عن الحرب واما الاكابر والاعيان فانهم
وان كانوا على الطاعة اللازمة فى مملكة منتظمة مضبوطة كانوا لم يزالوا
ذاكرين استقلالهم عاكفين على ما لهم من الشمم وعلو النفس باقين على
ما كان لهم من القوة فى عهد الحكومة الالتزامية وامتازوا الى ما كان ينشأ عن
مثل هذه الحكومة من الخلل والشقاق لعدم وجود رئيس واحد فى المملكة
نافذ الامر على الجميع وعلى هذا كان ملك فرانسا مقتدرا على تحريك عرق
حمية هؤلاء الاكابر متى شاء ويجنى منهم كل ثمرة جليلة من غير أن يكون عرضة
للاخطار التى كانت تنشأ اولا عن جبرهم وقت ان كانت حكومتهم الالتزامية
باقية على اصلها لم تمسها يد التغيير والتبديل

مطلب
الاسباب المانعة لمملكة فرانسا عن البطش ببلاد اوروبا

وكل مملكة اتصفت بما ذكرناه بما كان لها من قوة تجهيزية فى الوقائع
الحربية اكثر مما يتيسر حصوله فى عصر آخر يكون اعظم تمددا من هذا العصر
غير أن مملكة فرانسا وان كانت مهولة خطرة على غيرها من الممالك
اشتعلت بها نيران الحروب المدنية فاشتغلت بأمرها وسلمت بلاد اوروبا
من بطشها وشديد بأسها كيف لا وقد مكثت المملكة المذكورة نصف قرن

سنة ١٥٥٩م

فى ارتباك واختلال بسبب حروب مدنية لا تحصى وفتن داخلية لا تستقصى كان الدين علة ظاهرية فى وقوعها وكانت اسبابها الحقيقية أطماع الناس وخسيس طباعهم وفى تلك الفتن تكاثرت الاحزاب والطوائف وذهب كل فريق مذهبا وكان رؤساؤهم يتنافسون بالمعارف والفضل وكان بيدهم العقد والحل بخلاف ملوك ذلك العهد فلم يكونوا من اولى الكياسة والعقل ولم يظهروا عزما ولا مهارة ولا حزما وجرّت تلك الفتن الى ضياع قوة المملكة وطبعت قلوب الاكابر على حب الرياسة وكبر طغيانهم وعظم عصيانهم حتى كانوا لا يمتثلون للاحكام والقوانين المقررة فى المملكة فبعد ضعف شوكتهم وادخالهم تحت الطاعة وجب التزام الصلح والامهال من وجهين (الاول) راحة الملة حتى تعود اليها قوتها التى فقدتها بطول الشقاق والتفاقم (الثانى) تقوية الشوكة الملوكية وتمكينها * فمضى على مملكة فرانسا دهر طويل وهى مشغولة بأمر نفسها لا تقدر أن تتفرغ الى المصالح الخارجية او تصرف مالها من القوة فى الحروب مع الاجانب وبالجملة فلم يكن فى طاقتها أن تظهر فى اوروپا مظهرا جليلا ولم تكتسب القوة ونفوذ الكلمة الا من عهد وزارة الكردينال دوريشليو وها هى الى الآن باقية على تلك القوة بسبب احكام موقعها واتساع اراضيها وصورة حكمها وعلو نفس اهلها .

مطلب
تقدم انكلترة فيما يتعلق بامورها الداخلية

وبينما كانت دول الارض القارة تنمو قوة وصولة كانت جزيرة انكلترة ايضا ناجحة السعى فيما كانت تهتم به لازدياد قوتها الداخلية واستكمال حكومتها وكان ملكها هنرى السابع قد شرع فى ضعف شوكة الاشراف والاعيان وقد نسج ابنه هنرى الثامن على هذا المنوال ولربما لم يكن ذلك قصدا منه بل كان من قبيل الصدفة والاتفاق اذ المحقق انه لم يكن له مطمح نظر ولا نتيجة فكر وانما كان متكبرا ذا غرور متلون الطبع خاليا عن الثبات والتمكين ليس فى افعاله على يقين فاستصوب أن يجعل مصالح الدولة بين ايدى اناس جديدة لكى يكونوا ملازمين لطاعته غير قادرين على معارضته وجعل لهم

سنة ١٥٥٩

من النفوذ ما الامزيد عليه وأعلى قدرهم حتى جعلهم فى أجل المناصب ولقبهم بأفخر المناقب وبخس بذلك قدر الاعيان الاقدمين ونفر نفوسهم وقد تصرف ايضا فى الاملاك التسبيبية بالبيع وغيره وفقدت اثمانها ومحصولاتها بالاسراف والتبذير وأذن لارباب العقارات الاصليين فى بيع اراضيهم واملاكهم وفى التصرف بالوصية فيها لمن شاؤا وبهذا الوجه كثر الاخذ والعطاء بين الناس وربحت التجارة بعد أن كانت كاسدة فيما بينهم وتعلق الناس بالصنائع وراجت امورهم من سائر الوجوه وفتحت سبل الثروة ونفوذ الكلمة لجميع طوائف الاهالى ولا يخفى ان كثرة الاموال والنقود ببلاد اسبانيا بسبب استكشاف امريقة قد أضر بالصنائع والتجارة عند اهلها بخلاف ما حصل فى بلاد انكلترة فان الاموال لم تكثر بين الناس الاشيأ فشيأ فأحيت التجارة والصناعة وأوجبت رغبة الانكليز فى مشروعات جليلة وخيرات جزيلة وقد مر فى ذكر فرانسا ان ما فقده الاعيان قد استحوذه الملك وانه قد عادت عليه خاصة فائدة اضعافهم وهنا نرى ان اهالى انكلترة قد قاسموا الملك فى سلب الاعيان فان الاهالى قد صاروا بذلك ارباب عقارات واملاك واصبحوا ذوى شوكة واعتبار وقد أحسوا بنمو اعتبارهم وازدياد اهميتهم فسعوا سعى المجد حتى صار لهم بالتدريج نفوذ عظيم فى الجمعية القائمة بانشاء ما يلزم للمملكة من القوانين والاحكام ولم يزالوا كذلك يتطلبون شيأ بعد شئ حتى نالوا شوكة عظيمة قد كانت سببا فى حفظ حرية البلاد الابريطانيقية وبقاء حكومتها على تلك الاصول المضبوطة التى هى بها الآن مربوطة ولم يكن يخطر ببال الاهالى بل ولا ببال اولى الامر منهم أن سينتهى الحال الى هذا المآل

وبينما كانت حكومة الانكليز آخذة فى التقدم والاستكمال اذ عرضت عدة مقتضيات ساعدتها على تغيير مذهبها السياسى مع الاجانب بمذهب آخر جديد لها فيه فائدة جليلة فقد تخلصت الملة الانكليزية من ربقة التبعية

سنة ۱۵۵۹

لديوان البابا وتوفرت عليها مبالغ جسيمة كانت تدفع الى رومة في كل سنة كعوائد الغفران ومصاريف زوار البقاع المباركة وعوائد التقسيط التي تؤخذ على الارباح الكبيرة القسيسية في نظير الفرمان المثبت للملكية والعوائد المسماة بالثمار الاولى وغير ذلك من الفرد والعوائد التي لا تحصى وكان الديوان المذكور لشرهه وحيله ينتهز فرصة جهل الناس واعتقادهم طهارة اهله فيكلفهم بها كيف شاء ولا شك ان وجود قضاء غير القضاء المدني يدعي الاستقلال بنفسه بل ويدعي علوه عن القضاء المدني مما لا يقبله العقل في خصوص الحكم اذ هو أمر يوجب اضطراب العقول الضعيفة السخيفة ويترتب عليه خلل البلاد وعدم انتظام احوال العباد وقد نسخ هذا الامر القبيح وصار قضاء الاحكام بيد الحاكم المدني اى السياسي وانتظمت المصالح وسهل تشهيلها وكبر اعتبار الحاكم حيث صار الاهالي على اختلاف طوائفهم على حد سواء مامن صنعة ولا من رتبة اياما كانت توجب معافاة انسان من أن يطلب وتنظر دعواه في دواوين الحكم السياسي ويحكم عليه بمقتضى القوانين المقررة لافرق بينه وبين سائر الناس

مطلب تقدم انكلترة بالنظر لمصالح الارض القارة

ثم ان الانكليز بضياع كاليه منهم قد طردوا من الارض القارة وايقنوا بعجزهم عن اتمام ما كان في نيتهم من شن الاغارة على مملكة فرانسا وفي الحقيقة كانت تلك النية مضرة بالانكليز والحاصل انهم اضطروا اولا الى حصر آمالهم في حدود جزيرتهم ثم تبين لهم ما في ذلك من الفوائد الجليلة فاختاروه خاصة وعدلوا عما سواه وخلت قلوبهم عن التولع بالفتوحات وكانوا قبل ذلك لشدة ولعهم بها قد مكثوا عدة قرون وهم في حروب دائمة مستمرة مع غيرهم ولم يعد عليهم منها سوى اتعاب ملتهم واضطرابها حتى كلت قواها فانظر الى هذه الملة كيف اشتغلت بالصنائع وفنون الصلح بعد أن كانت ذات ولع بالحروب ولم يكن لها الى ذلك الوقت صنعة سواها والواقع ان الدولة قد كسبت من الصلح كسبا عظيما وعاد الى الملة الانكليزية ما كانت فقدته من القوة بسبب حروبها مع الارض القارة ومن وقتئذ

سنة ١٥٥٩

صارت اذا ألجأتها الضرورة الى التشبث بحرب مع الاجانب ظهرت فيها بصولة كبيرة وباس شديد سيما ولم يكن تداخلها فى مثل هذه الحروب الا وقتيا قصير المدة

مطلب تقدم انكلترة بالنظر لمملكة ايقوسيا

وما حمل الانكليز على اتخاذ هذا المذهب الجديد فى سياستهم مع دول الارض القارة قد كان باعثا لهم ايضا على سلوك طريق جديد فى حق مملكة ايقوسيا اذ هى بالنسبة لموقعها دون غيرها من الممالك الاجنبية كان لها ارتباط بمملكة انكلترة يوجب على الانكليز أن يلتفتوا اليها غاية الالتفات وأن لا يغفلوا عن مراقبتها طرفة عين فعدلوا عما كان فى نيتهم من التغلب على المملكة المذكورة حيث بالنظر لموقعها وشجاعة اهلها كان اتمام هذه النية مما لا يمكن وعلى فرض امكانه كان اصعب من خرط القتاد وبناء على ذلك رأوا الارجح لهم أن يسلكوا سبلا اخرى تكون داعية لنفوذ كلمتهم فيها بحيث تأمن انكلترة من جهتها وكان حصول هذا القصد الاخير سهلا على الانكليز لثروة مملكتهم وعظم قوتها وفقر أهل ايقوسيا وكثرة الشقاق بها وقد حصل ان استحوذت انكلترة بالرشوة على كبار اهالى المملكة المذكورة وعلى الوزراء والمتقربين من الديوان الملوكى وصار لها بشوراها ودواوينها مالا مزيد عليه من نفوذ الكلمة حتى غدا معظم امورها مرهونا بمصالح الانكليز وصارت انكلترة من وقتئذ فى أمن تام من جهة الممالك الاجنبية وبانضمام ذلك الى ما كان لها من الفوائد الجليلة بداخلها أضحت بين الدول ذات كلمة نافذة واعتبار عظيم وقد أسعفها الحظ بطول حكم ملكتها ايليزابيطة . وكانت ذات عقل واسع وعزم شهير فكبرت قوتها وعظمت شوكتها حتى ارتقت بعد قليل الى اوج تلك الدرجة الرفيعة التى هى باقية عليها الى الآن بين دول اوروبا

مطلب ماحصل من التغيير بالنسبة للسياسة فى الدول الصغيرة من ممالك اوروبا

وكما حصل اذ ذاك تغيير فى حال السياسة بالممالك الافرنجية الكبيرة حصل تغيير عظيم فيما يخص السياسة بالممالك الصغيرة منها واكبر تغيير فى هذا المعنى قد حصل بديوان رومة وكانت نتيجته نتيجة مهمة بحيث ينبغى

سنة ١٥٥٩

الابتداء بذكرها

مطلب
اعظم تغيير حصل في القرن الخامس عشر كان بديوان رومة

قد ذكرت في اتحاف الملوك الالباء الذي هو عبارة عن مقدمة لتاريخ الايمبراطور شرلكان منشأ دعوى البابات الاقتداء في الدين بوصف كونهم خلفاء المسيح وتتبعت نمو شوكتهم وازدياد صولتهم بوصف كونهم حكاما سياسيين وأقول الآن انه قبيل حكم الايمبراطور شرلكان لم يكن هنالك مايمنع شوكة البابا عن تجاوز الحد سوى الادبيات والفلسفة وكان الناس قد شرعوا في ممارستهما والاعتناء بهما ولم تمكن العلوم وتشتد في تقدم عظيم اذ العادة أن يكون مشيها دائما وئيدا يلزم ممارستها دهرا مديدا حتى يعود على الناس منها فائدة جليلة أو تكون لا كسابهم [illegible] من [illegible] كاشفة للغطاء فيصير البصر حديدا وتزلزل بعد ذلك مباني كل دين باطل او اعتقاد عاطل ولكن لم يرد ان كانت سببا في محو دين من تلك الاديان وازالته بالكلية فالمعارف آلات صغيرة غير كافية لهدم مباني باطل الاديان وهي ذات بنيان أنيق متين وضعته رهبان الجهال على أساس عميق مكين واحكمته أوهام العوام بما أبدعته من الفنون العجيبة التصنيف في عالم الخيال الضعيف

مطلب
قيام الناس كافة على مذهب الكنيسة وفرط تجاوز شوكة البابات

وقد رمي لوتير شوكة البابا بسهام أخرى فتت في عضدها وقد احكم سلوكه في مشروعه وكان الوقت مساعدا له من جهات شتى قد تقدم ذكرها من جملتها تيقظ عقول البشر بغتة بعد ان كانوا امنذ دهر طويل على غاية الامتثال يأخذون كل ما سمعوه قضية مسلمة حتى كأنهم قد محوا العقل ليصدقوا بما يقال لهم بدون فكر ويفعلوا ما يكلفون به فبانحطاط سحاب الجهل عن سماء العقل عرف الناس أن الحكم على الشئ فرع عن تصوره وأخذوا يفقهون بالفكر حقيقة الشئ قبل اعتقاده والتصديق به فعرفوا أنهم مغلولون بسلاسل ثقيلة وبذلوا الجهد حتى تخلصوا بعد قليل مما كانوا فيه من الاستعباد الى ذلك الوقت وبالاطلاع على خمول الناس وجامة عقولهم منذ اعصار اذا فكر الانسان في تيقظهم دفعة واحدة تعجب كل العجب وجزم بأن ذلك لم ينشأ الا عن أسباب

سنة ١٥٥٩

طبيعية قوية التأثير حيث ان مملكة دانيمارقة ومملكة اسوج وانكلترة وايقوسيا ونحو نصف بلاد ألمانيا قد خرجوا عن حكم البابا وبطل اقتداؤه عندهم واتخذوا مذاهب جديدة مخالفة لأصول مذهبه بالكلية

ثم ان التولع بالابتداع لم يكن مقصورا على من خرج من الامم عن طاعة البابا بل عم سائر بلاد اوروبا وظهر فى جميع ممالكها انما كانت تتفاوت فى ذلك ولم تمض برهة الا وانتشر بمملكة الفرنساوية وكثرت بها احزاب المذاهب الجديدة وعظم ولعهم بها وكان رؤساء تلك الاحزاب ذوى عقول كبيرة ومعارف غزيرة حتى انهم بعد قليل وصلت بهم جراءتهم الى المناظرة مع [illegible] من الاقاليم فى ألمانيا والبلاد الواطية تابعا للبابا فكان مذهب المعتزلة يقرأ فيها وكثرت احزابه حتى تهيؤا للعصيان ليصيروا مستقلين عن الكنيسة الرومانية كغيرهم من الملل المجاورة لهم ولم يمنعهم عن القيام سوى خوفهم من تشديد الحكم وقتئذ وفرط جبر الحكام وقد شوهد أيضا من اهل اسبانيا وايطاليا انهم كانوا يرغبون فى الخروج عن دين البابا اذ ظهر منهم جملة ذوات ممتازين بالمعارف وسعة النهى وذموا البابا وقدحوا فيما كان يدعيه من أنه الحاكم المطلق المتصرف كيف شاء وانه معصوم عن الزلل والخطأ ولولا تيقظ الحكام السياسيين وانتباه البابا والقسوس وتشديد محكمة التفتيش الدينى لما تيسر قمع الناس ومنعهم عن القيام والخروج عن طاعة الكنيسة الرومانية

مطلب
تناقص اراضى البابا

وقد أضر اعتزال هذه الدول العديدة الكثيرة الثروة والقوة بشوكة رومة اضرارا كبيرا وحط شأنها اذ ترتب عليه نقصان اراضى البابا ومحصولاته ونقص ايراده اضطر الى تنقيص ما كان ينعم به على طائفة القسوس الذين كانوا له بمنزلة آلات يستعين بها على اجراء ظلمه واقتياته فى جميع الممالك الافرنجية ومن المعلوم أن القسوس لم تكن ملازمتهم لطاعة البابا بمجرد حب فى ذاته لا لعلة أخرى بل كانوا ملازمين لخدمته لمصلحة تعود على انفسهم كالانعامات

سنة ١٥٥٩

والمانع المتقدم ذكرها فانتهى الحال الى أن انفصل عن حوزته بقاع جسيمة وبلدان عظيمة على ان الاقطار التي أنكرت البابا اذ ذاك وخرجت عن طاعته كانت قبل ذلك أصدق الناس له واكبرهم تمسكا بدياناته وذلك ان شوكة الحاكم متى كانت مبنية على جهل الناس واعتقادهم ما لا طائل تحته من الامور الوهمية فهى فرق بينها وبين شوكة ثابتة لاى حاكم وكانت ناشئة عن اسباب أخرى غير المذكورة فترى الحاكم بالمعنى الاول اكبر صولة وأنفذ كلمة والناس تأخذ اوامره قضية مسلمة مادامت بلدانهم بعيدة عن مستقره ودار حكمه وأما البلدان القريبة منه عهدا فلتمكن اهلها من ملاحظته يقفون على حقيقة أمره ويعرفون ماهو عليه من الكذب والافتراء ويفقهون كنه ما يتخذه من الحيل لتأييد شوكته وتعضيدها وهذا ما حصل للبابات فان اهل ايطاليا الذين هم ابناء وطنهم قد عرفوا عررهم ومساليهم الذاتية وضلالاتهم الخفية وقبح اخلاقهم وطمع ارباب ديوان رومة وغشهم وخشهم فقل احترامهم لهذا الديوان ووهت عندهم هيبة كبيرة والامتثال اليه وأما اهل ألمانيا وانكلترة وسائر البلدان والاقطار المتباعدة عن رومة فكانوا يجهلون ما كان عليه البابا وديوانه من الضلال والبهتان اوكانوا يسمعون عنه لاغير فكان تأثيره فيهم خفيفا لم ينفروا منه كما نفرت اهالى ايطاليا وبناء على ما ذكر كانت هيبة البابا تزداد عند الناس على حسب بعدهم عن مقره وباضافة هذا السبب الى فرط جهل الناس اذ ذاك علم سبب تصديقهم كل شئ واخذهم الاشياء قضية مسلمة وفهمت علة ما كانوا عليه من مزيد الطاعة والامتثال لديوان رومة واذا التفت الانسان الى تقدم شوكة البابات ودرجات نموها ورأى أن بلاد ألمانيا وغيرها من البلاد البعيدة عن ايطاليا كانت مبدا الاطماعهم واكبر مشروعاتهم وانهم قد تحكموا بها كما يؤملون وضربوا عليها اكبر الجرائم واثقل الغرامات وارتكبوا فيها من المظالم مالم ترد بمثله الروايات ايقن بأنه اذا اريد تقويم مافقده ديوان رومة من الصولة ونفوذ الكلمة بسبب اتساع مذاهب الهراطقة لزم الالتفات الى شيئين معا

سنة ١٥٥٩

مطلب اضطرار البابابات والقسوس الى اتباع سبل جديدة فى الحكم

(الاول) مقدار الامم الخارجين عن طاعته (الثانى) ما كانوا عليه اذ ذاك من الطباع والاخلاق يعنى أنه ينبغى ملاحظة ما كان عليه هؤلاء الناس من الامتثال للباپات كما يجب مراعاة وسع للاراضى المنفصلة عن حكمهم ولم يترتب على انتشار المذاهب الجديدة مجرد تنقيص شوكة البابابات بانفصال هذه الدول والممالك الكثيرة عن حكمهم بل حملهم دخول الناس فيها افواجا على اتخاذ منوال جديد يعملون بمقتضاه فى معاملة الخلق من راغب عنهم ومن باق تحت طاعتهم وأحسوا أن من الضرورى الذى لابد منه اتباع سبل الرفق والملاطفة والعدول عن الاصول القديمة بالكلية اذ كانت منابذة لشروط العدالة والانسانية وعلمهم النسخ بطريق التحضيض والتهديد ما كانوا يتجاهلونه الى ذلك الوقت من كون الناس وان بلغوا ما بلغوا فى الامتثال وكانوا أمنة ما امكن متى اشتدت بهم الكروب وعيل صبرهم تنبهوا من غفلتهم وتشبثوا بتحصيل راحتهم وبالجملة فتعدل القسيسون عن قسوتهم وظلمهم خوفا من تنفير من كانوا باقين تحت حكمهم سيما وقد ترتب وتشيد فى عدة من الاقطار الافرنجية جمعيات دينية ترقبهم فى جميع ما يحصل منهم من المساوى وتشنع عليهم فيما يقع منهم من الزلل وكانوا يعرفون ان آراء القادحين فى ظلمهم وجورهم كانت مذهب الاحزاب كنيسة رومة كما كانت مذهبا لاعدائها وبناء على ما تقدم من الملحوظات لم يكن من الممكن لقسوس رومة ان يحكموا احرابهم بمثل ما كانوا يفعلونه يوم ان كانت العقول غافلة والناس خاملة لا يعرفون سوى الطاعة والامتثال والتصديق بما كلفوا به بدون فكرة والاولى أن يقال ان الامم كانوا كالاغنام ممتثلين لصوت الراعى اذا ناداهم فترى أن البابابات منذ عهد النسخ حكموا الامم بالحيل والدسائس لا بالصولة والقوة نعم ان عبارة اوامرهم لم تزل باقية على العهد القديم لكن فرق بين ثمرة اوامرهم الآن وثمرتها سابقا ومن المعلوم ان ما كان يصدر عنهم من الفرمانات والاوامر بالمنع أو بالطرد كان قبل النسخ ترتعد له فرائص اكبر ملوك الافرنج وأما بعد النسخ فصار أصغرهم يستحقرها

سنة ١٥٥٩

ويسخرون بها ومكث البابات عدة قرون وهم يحكمون بما شاؤا بدون مبالاة ويفتون كما احبوا وكانت اوامرهم لا تجد معارضا ولا مناقضا بل كانت محترمة مطاعة حيث هي صادرة عن ديوان مقدس واجب الاحترام يعتقد فيه التنزه عن الآثام واما بعد تفطن الناس وانتشار مذهب لوتير صار مايصدر من هذه الاوامر لغوا ينظر اليه بعض الافرنج بعين الاحتقار ويعده من حماقة البابات وفرط زعمهم وادعائهم ويعده البعض الآخر من باب الكفر ومحض الظلم والاجحاف فاضطر البابات الى موافقة الاصول الجديدة الجارية اذذاك بين احزابهم بل وألجأتهم الضرورة الى مراعاة اخصامهم وعدم التشديد عليهم فى عقائدهم وصاروا يحترسون من الادعاء بحقوق وخصوصيات شخصية بل ومن الاطراء فى المدافعة عن مزاياهم القديمة خوفا من تنفير الناس كافة من احباب لهم او أعداء وعرف ديوان رومة اصول المداراة والمراعاة وصار هيابا محاذرا بقدر ما كان جسورا جبارا وحيث كان ادعاء المعصومية عن الخطأ اساس الشوكة البابات وصولتهم ولا يليق بهم وهم على هذا الوصف أن يتنازلوا عما كانوا قد ادعوه من الافتاء وأجروه اكثر من مرة رأوا الاحوط لهم والاوفق بمصالحهم أن يتساهلوا من تلقاء نفسهم فى كثير من مزاياهم وخصوصياتهم خوفا من أن يترتب على تشديدهم وتصعيبهم فقدان ما كان باقيا لهم من الكلمة والشوكة والحاصل أنه قبل القرن السادس عشر لم يقع امور جسيمة او حوادث مهمة عظيمة الا وكان البابات سببا فيها او رؤساء عليها وكان بيدهم الحل والعقد فى جميع العقود وما يحصل بين الدول من المشارطات والعهود وكانوا معدين لفصل القضايا بين كافة الملل النصرانية وكان ديوان رومة مركزا للدسائس وما يتعلق بسائر الامور السياسية ولكن حصل منذ القرن المذكور ان صار اكبر الامور واهمها يفعل بدون توسط البابات وانحطت درجة البابا حتى صار كسائر الاصاغر من ملوك ايطاليا نعم أنهم كانوا لم يزالوا باقين على ادعاء الاطلاق التصرف فى خصوص الدين ولكنهم كانوا لا يتجاسرون على اجراء شئ

سنة ١٥٥٩

مطلب
مساعدة المذاهب الجديدة على تكميل العلوم بين القسوس واصلاح حالهم فى الديانة

من دعواهم وقد فقدوا كذلك ما كان لهم سابقا من الشوكة السياسية ولم يبق لهم منها سوى الصورة والخيال .

ومع اضرار المذاهب الجديدة بشوكة الباپات قد ترتب عليها اصلاح حال قسيسى رومة فى الدين وحسن الاخلاق واضطروا الى ممارسة العلوم الادبية وذلك انهم رأوا قسيسى المذاهب الجديدة معتبرين بين الخلق لما لهم من المعارف الكبيرة فداخلتهم الغيرة ورغبوا فى مساواتهم فى هذا المعنى سيما وكان من الالزم لهم تحصيل العلوم والمعارف حتى يكون فى وسعهم الذب عن مذاهبهم من اعدائهم والرد على اخصامهم فيما كانوا يوجهونه اليهم من الاعتراضات فصاروا يتنافسون معهم فى ممارسة العلوم النافعة وأدمنوا عليها فى هيام على الدوام حتى بلغوا المرام وساووهم بالشهرة فى العلوم الادبيه بعد أن مكثوا عهدا طويلا وهم مشهورون بالتوغل فى الجهالة وكانت المذاهب المذكورة ايضا سببا فى تحسين سلوكهم وتهذيب اخلاقهم وقد تقدم الكلام على الاسباب التى اوقعت قسوس رومة فى عدم الاستقامة وفساد الاخلاق وارتكاب ما يوجب الفضيحة والعار فلما ظهر لوتير واحزابه بدؤا بهذه الامور الفاحشة فى التشنيع عليهم فالتزموا أن يسلكوا حد الاعتدال والتوسط فى الامور حتى يسكتوا اخصامهم ويوقفوا ألسنتهم عن ذمهم خصوصا وكان المعتزلة ممتازين بالتقوى والتقشف مشهورين بالزهد والتعفف حتى لو لم يقتد بهم قسوس رومة فى هذا المعنى لبغضهم الخلق وضاع نفوذهم واعتبارهم عند كافة الناس اذ كان المعتزلة يرقبونهم فى جميع امورهم ولا يغفلون عنهم طرفة عين فاذا وجدوا لهم زلة شنعوا عليهم ووجهوا نبال القدح اليهم فاحترسوا غاية الاحتراس واجتنبوا ما يوجب الذم والملام بل وجتوا فى اكتساب الفضائل الموجبة لتبجيلهم وثناء الناس عليهم هذا ولا يخفى انه كان بمملكتى اسبانيا والپورتغال تشديد زائد فى تأييد دين رومة فمنع ذلك من انتشار مذاهب المعتزلة بهاتين المملكتين وبقى القسوس بهما على حالهم الاصلية ولم يحصل لهم كبير تقدم فى العلوم الأدبية

سنة ١٥٥٩

بخلاف البلاد التي كان بها كل من المعتزلة وقسوس رومة يعاشرون بعضا ويتعاملون مع بعض فان قسوس رومة قد حصل لهم تحسين بين في العقل وآداب المعاشرة وبالالتفات مثلا الى مملكة فرانسا نرى أن القسيسين فيها من اكابر واصاغر قد اكتسبوا لين الطبع ورقة في الخلق حتى امتاز عدة من بينهم بالفضائل والمعارف الموجبة لشرافة خرقة القسيسين

مطلب
تأثير المذاهب الجديدة فى قص الباباات

ثم ان تأثير المذاهب الجديدة لم يكن مقصورا على الاصاغر من قسيسي رومة بل كان لهما ايضا تأثير عظيم على الباباات نفسهم لانه وقت ان كانت شوكة الباباات بدون نهاية وكان احترام الناس لهم فوق كل حد وغاية ولم يكن لهم اعداء يلتفتون [illegible] ويبحثون عما بدا لهم من القبح في خصالهم شوهد منهم أن تعدوا حدود الادب والمروءة وهتكوا حرمة الدين بدون أن يجسر احد على زجرهم او التشنيع عليهم وأما الآن فاذا حصل منهم مثل هذه الفعال الذميمة لابد وان تسلقهم الناس كافة بألسنتهم وينفرون منهم كل النفور ولذلك لم يظهر في الباباات من وقتئذ من اقتدى بأبهة الملوك وزخرفتهم واراد أن يتنافس معهم في الانهماك على اللذات واللعب واللهو بل تخلقوا بأخلاق التقشف والخشن وسلكوا ما يليق بخرقتهم فمنذ قرنين لم يدنس كرسي خليفة المسيح بوجود من يشبه اسكندر السادس في الغش والفجور او يشبه من كانوا قبله من الباباات الذين جرت كبائرهم الى تلويث الدين وتدنيس طبيعة البشر بل ان ديوان رومة تجددت فيه اخلاق حميدة ووقار وتؤدة لم يكن اربابه موصوفين بها قبل ذلك العهد وقد كان عدة من الباباات مستحقين للتعظيم والتبجيل بفضائلهم الجليلة كما اشتهر آخرون بالخيرات والصدقات والقناعة والتولع بالعلوم والمعارف حتى بعدما اتصفوا به من الخصال الجميلة مراضاة للبشر في نظير ما فرط من الباباات السالفين وبالجملة فبامعان النظر فيما ترتب من الفوائد على المذاهب الجديدة يرى أن فوائدها اجل مما يتصور ببادي الرأي وانها قد كانت أعظم سبب لتهذيب اخلاق الناس وترغيبهم

سنة ١٥٥٩

فى العلوم وتاكيد علائق المحبة بينهم ومن اطلع على المصائب العظيمة والمضار الجسيمة المترتبة على المشاجرات فى الدين وجدها امورا منفرة منكرة فينشرح صدره لرؤيته ماترتب فى تلك المرة من الفوائد الجليلة على خصوص الدين بعد طول اضراره بالناس

حال جمهورية البنادقة وقتئذ

واما جمهورية البنادقة فقد أخذت فى الانحطاط بعد أن كانت شديدة البطش فى اوائل القرن السادس عشر حتى أن اغلب ملوك اوروبا قد تحزبوا لتدميرها وذلك أنها فقدت قسما كبيرا من اراضيها بسبب الحرب المترتبة على عصبة كامبرى وقد تناقص ايرادها ونفدت اموالها فى الحروب الطويلة التى اوقعتها فيها ضرورة الذب عن نفسها من حزب اعدائها وأيضا ان التجارة قد كانت سببا فى ثروتها وعظيم صولتها وقد اخذت تجارتها وقتئذ فى الكساد والسبب هو أنها قد استكشف ان رأس [illegible] طريق يوصل الى شرقى بلاد الهند ولأجل اجتناء ثمار ذلك والسلامة من اضراره أحبت أن تمنع اهل البرتغال عن الاستيطان بالهند فحرضت عليهم سودان مصر وسلاطين الدولة العثمانية بل وأمدتهم بما يعينهم على ما قصدته منهم ولكنها لم تنجح فى مشروعها هذا وغلبت شهامة البرتغاليين وشجاعتهم كل عائق واستوطنوا مع التمكين بتلك البلاد الخصبة وأخذوا فيها اراضى واسعة جدا وصار لهم بالاقطار الهندية كلمة نافذة وأضحت مدينة لسبون التى هى تحت البرتغال سوقا تباع به المحصولات النفيسة المشرقية بدلا عن مدينة البنادقة وحرم اهل البنادقة من تلك التجارة الرابحة بعد أن مكثوا دهرا طويلا لا يشركهم فيها احد وقد أضر بهم كل الضرر أيضا ما استكشفه الاسبانيوليين فى الدنيا الغربية حيث ترتب عليه حرمانهم من فروع صغيرة أخرى كانوا لم يزالوا يتاجرون فيها وقد قدمنا ذكر ما اشتمل عليه ترتيب هذه الجمهورية من العيوب والنقائص ولم يكن ثم من يعتنى باصلاحها فكانت موجبة لخسارة جسيمة فى كل ما همت به من المشروعات الجسيمة حتى جرت الى بوارها ودمارها وقد أوجب كساد تجارتها كما ذكر

نقصان قوتها الداخلية وضعف مشروعاتها فى البلاد الاجنبية حتى انه قبل منتهى القرن السادس عشر بمدة مستطيلة كانت البنادقة غير معدودة من الممالك الكبيرة الافرنجية بل عادت من جملة الممالك الصغيرة غير ان ارباب مشورة السنت كانوا اهل سياسة ورياسة فستروا بحجاب الحزم والاحتياط عجز هذه الجمهورية وتناقص قوتها ولم يتعرضوا من وقتئذ الى خطب فوق طاقتها فيظهر عجزها سيما وان علامات انحطاط دولة ما انحطاطا سياسيا لا تشاهد الا مع البطء وقل ان لاحظها فى اقرب وقت ما جاورها من الممالك فبقيت البنادقة مدة مستطيلة وهى لم تزل معتبرة محترمة بين الدول وكان الملوك يعاملونها لا بحسب حقيقة حالها الراهنة بل بحسب [illegible] كانوا يستعينون بها فى جميع مشروعاتهم ويلتمسون منها أن تمدهم بما كانوا يحتاجون اليه ولم تزل الى آخر القرن السادس عشر باقية على اعتبارها بين الدول بل وكانت من اعظم ما يركن اليه فى المداولات والدسائس السياسية

ثم ان الشوكة التى كسبها كوم دومديسيس الاول وحفيده المسمى لورنسة فى جمهورية فلورنسة بمعارفهما وعلو همتهما قد اغرت اعقابهما حتى طمعوا فى [illegible] على وطنهم بل وكانت تلك الشوكة ممهدة لهم السبل الموصلة الى هذا القصد وذلك انه شرلكان قد جعل اسكندر دومديسيس رئيس الجمهورية فعظمت شوكة العائلة المديسيسية وكبرت كلمتها باغماض الايمبراطور ولما فات اسكندر المذكور خلفه الامير كوم وكان يلقب بالاكبر وعرف باتنهاز كل فرصة لاحت له ان يمكن اساس صولته على اطلال الجمهورية القديمة وثبتت له بها الملوكية وورثها عنه اخلافه مع لقب دوق توسكانة الاكبر وكانت اراضى مملكتهم عبارة عن فلورانسة وجمهورية بيزة وجمهورية سينة وصارت على هذا الوجه من اعظم دول ايطاليا

سنة ١٥٥٩

حال امراء سابوة

واما امراء سابوة فكان ملكهم لكونه من الاراضي في اوائل القرن
السادس عشر واهيا غير مهم وعند تغلب الفرنساوية على بعضها اضطر
اميرها الحاكم عليها وقتئذ الى الالتجاء بقلعة نيسة ومكث محجوزا بها
عدة سنوات واما ابنه امير بيون فكان يخدم من جملة العساكر المطوعة
في جنود اسبانيا وعند تمام المشارطة المنعقدة في كاتو كامبريزى
ردت اليه اراضي والده وكانت الدول المجاورة لها قوية حتى يلزم لمن كان
حاكما فيها أن يكون على غاية التيقظ والاحتراس حتى يسلم من كيد مجاوريه
اذا قصده احد منهم بسوء أو يعرف من كانت محالفته منهم اكبر فائدة له حتى
ينضم الى حزبه في صورة ما اذا الجأته الضرورة الى أن يكون له دخل
في الحروب التي كانت تحصل اذذاك وباضطرار هؤلاء الامراء الى المحاذرة
والاحتراس على الدوام صاروا اعقل من اشتهروا في الكتب التاريخية
واعظمهم حزما في معرفة مصالح انفسهم واكبرهم جزما وثباتا فيما عزموا
عليه وأمهرهم في انتهاز كل ما لاح لهم من الفرص ولم تزل اراضيهم تزداد
من حين الى آخر حتى اتسع ملكهم وكبرت صولتهم وطمعوا في أن يلقبوا
بالملوك وقد نالوا هذا اللقب من نحو نصف قرن وها هم الآن في درجة
رفيعة بين ملوك الافرنج

مطلب
حال الاقاليم المجتمعة

وفي اوائل القرن السادس عشر كانت أراضي الجمهورية المسماة بالاقاليم
المجتمعة من جملة الاقاليم العديدة التابعة لعائلة الاوستريا وكانت وقتئذ
قليلة الاهمية حتى قل أن وجدت مناسبة للتكلم عليها في الحروب والوقائع
المذكورة بسابق بحثنا هذا ولكن حصل بعد مشارطة كاتو كامبريزى
بقليل أن الدوق دالب عملا بمقتضى أوامر الملك فيليبش كان يشدد
في حكمه ويغلظ على الناس فنفرت منه اهالي البلاد الواطية كل النفور
وخرجوا عن طاعة اسبانيا ورتبوا في بلادهم حريتهم وقوانينهم
القديمة وحموها بعزم لا يكل وهمة لا تفتر حتى ان اسبانيا بعد اشتغالها
بقتالهم نصف قرن كلت قواها ولم تكسب من حربهم سوى الخذلان والعار

وكانت

سنة ١٥٦٠

وكانت عاقبتها ان اضطرت الى اقرارهم على ما أرادوا وصارت تعاملهم كسائر الملل الحرة المستقلة بنفسها وحيث كانت البلاد الواطية المذكورة مؤسسة على قواعد الحرية ومتولعة بالتجارة والصناعة ازدادت شهرتها قبل أن تفرغ من قتال اعدائها لنيل حريتها فلما حصل الصلح وانتشرت فيها ألوية الراحة والامن اتسعت دائرة تجارتها وعظمت مقاصدها حتى صارت من اجل الممالك الافرنجية قدرا ومن اكبرها فى اهمية المشروعات فخرا

ولم نتعرض لان نذكر فى تاريخنا هذا الا القليل النادر مما حصل من الوقائع فى الممالك الموجودة بشمال اوروبا ولنتمم الكلام بما كان جديرا منها بالذكر فنقول

مطلب
حال بلاد الموسقو

اما بلاد الروسيا المشهورة ببلاد الموسقو فكانت لم تزل وقتئذ ضالة فى بوادى الخشونة والجهالة ولم يخرجوا من تيه الغفلة الا فى اوائل القرن السادس عشر اخرجهم من ذلك التوحش قريحة ملكهم بطرس الاكبر الذى هو بين الافرنج كعلم على جبل او أشهر وجعل لبلادهم منزلة جليلة وهيئة كبيرة بين دول اوروبا

مطلب
حال دانيمارقة واسوج

واما كل من مملكة دانيمارقة ومملكة اسوج فقد حصل بهما مدة حكم شرلكان تغييرات كبيرة فيما يخص ترتيبهما السياسى والقسيسى فخلع اهل دانيمارقة ملكا كان يظلم فيهم وطردوه من المملكة وانتخبوا غيره واجلسوه على كرسى ملكهم وكذلك اهل اسوج فانه حملهم الظلم والجور على القيام والعصيان وكانوا اهل شجاعة وجراءة وخرجوا عن حكم الدانيمارقيين واعطوا مقام الملوكية ببلادهم الى منجيهم وحاميهم وهو غوستاو آريسكون وكان من الابطال ذوى الفتوة والهمة حريصا على حب وطنه وودادا اهل بلاده

وقد وهنت قوى دانيمارقة بحروبها مع الأجانب وبالفتن التى حصلت فى داخلها بين الملك والاعيان فصار لا قدرة لها على استرداد ما تمتعت به دهرا

سنة ١٥٦٠

طويلا فى شمال اوروبا من الصولة ونفوذ الكلمة بخلاف مملكة اسوج فانها بمجرد خلاصها من حكم الاجانب اخذت فى التقوى وسلكت سبل السودد وبعد قليل صارت قوانينها الداخلية محكمة الترتيب حتى غدت اول دولة بين الممالك الشمالية وارتقت فى مبدأ القرن السابع عشر بين الدول الافرنجية الى اوج الشوكة والبأس حتى كان المرجع اليها من ارباب العصبة القوية التى قامت بنصر دين المعتزلة وبحماية حرية ألمانيا من بدع عائلة الاوستريا وطمعها الذى لم تكن له نهاية

تم

انتهى المجلد الثالث من اتحاف ملوك الزمان * بتاريخ الامبراطور شرلكان * وهو آخر التاريخ المذكور وقد جرى طبعه بالمطبعة العامرة * الكائنة ببولاق مصر القاهرة * فى ايام دولة صاحب السعادة الابدية الباهرة * والهمة العلية الفاخرة * ولى النعم ذى المن والكرم * افندينا الحاج عباس باشا * دام كما رام وبلغ ماشا * وكان الاتمام على هذا النظام * فى الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة الحرام * سنة ست وستين ومائتين بعد الالف * من هجرة من خلقه الله على اكمل وصف * صلى الله عليه وعلى آله * والناسجين على منواله